نظرة على مقالة

بسط وقبض نظرية الشريعة

للدكتور عبد الكريم سروش

تأليف سماحة العلامة

آية الله الحاج السيد محمد حسين الحسيني الطهراني

دار المحجة البيضاء — دار الرسول الأكرم

هو العليم

دورة العلوم والمعارف الإسلامية

٦

نظرة على مقالة

بسط وقبض نظرية الشريعة

للدكتور عبد الكريم سروش

تأليف سماحة العلامة الراحل

آية الله الحاج السيد محمد الحسين الحسيني الطهراني

أفاض الله علينا من بركات نفسه القدسية

تعريب

حسن ابراهيم

دار المحجة البيضاء

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرس

فهرس مطالب و موضوعات

نظرة على مقالة بسط و قبض نظرية الشريعة

المطالب	الصفحات
الآشكال الثانى	

عظمة وتقدّم العلوم الآسلاميّة على العلوم الحديثة

الصفحة ٢٣ إلى الصفحة ٨٦

يشمل المطالب التالية :

فهرس المطالب و الموضوعات

المطالب	الصفحات

نظرة على مقالة بسط و قبض نظرية الشريعة

المطالب	الصفحات

الأشكال العاشر

نظرية تبدل الانواع مجرد نظرية ولا تملك دليلا قطعيا

الصفحة ٣٢٩ إلى الصفحة ٣٤٠

يشمل المطالب التالية :

الخاتمة

سر منع المعاندين فى كل زمان، من التعمق فى القرآن

الصفحة ٣٤٠ إلى الصفحة ٣٥٥

فهرس المطالب و الموضوعات

المُقَدِّمَةُ

أَعُوذُ بِاللَهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ

بِسْـمِ اللَهِ الرَّحْمَـنِ الرَّحِـيمِ

وَصَلَّى اللَهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ

وَلَعْنَةُ اللَهِ عَلَى أَعْدَائِهِمْ أَجْمَعِينَ مِنَ الآنَ إِلَى قِيَامِ يَوْمِ الدِّينِ

وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَهِ العَلِيِّ العَظِيمِ

اختصت الاجزاء الاربعة من كتاب "نور ملكوت قرآن"، من سلسلة انوار الملكوت ببحوث تفصيلية فى موضوع خلود القرآن الكريم و ابديّة مطالبه و مضامينه الى يوم القيامة . فقد تناولت هذه الأجزاء البحث فى الايات القرآنيّة الكريمة و انطباقها و مسايرتها للازمنة و الأمكنة المختلفة، و كونها الترياق الشافى و الدواء الناجع للعلل و الأمراض و الجراح، و الماء المعين الزلال الهانى لعطاشى البشرية المحترقين المنقطعين ؛ و تناولت الحديث عن بعض الايات الكريمة وفصّلت امر تطبيقها و اشارت الى طريق العلاج الوارد فى مضامينها.

واختصّ الجزء الثانى- كما جاء فى مقدّمته- بمناقشة دور القرآن و موقعه باعتباره كتاباً سماويّاً يبحث فى الأُصول المسلمه الإلهية بصورة عامة ولذلك فقد ناقش و نقد بعض الأفهام الخاطئة للآيات القرآنيّة الكريمه و استغرق حدود ثُلث الكتاب الأوّل أمر الردّ على كتاب «خلقت انسان » (= خلق الانسان)، والردّ على الطبعة الأولى من كتاب «راه طىّ شده (= الطريق المطوىّ) ، والردّ على تفسير «پرتوى از قرآن» (=اشعاع من القرآن) ، والردّ على كتاب « دانش و ارزش » (= العِلم و القِيَم)، و الردّ

علـى كتـاب « تكـامل در قـرآن » (= التكـامل فى القـرآن) ، حيـث ورد فى الكتـب المذكـورة مطـالب تخـالف النظريّـات و الآراء القيّمـة لاسـتاذنا الاكـرم العلامة آية اللـه السيّد محمّد حسين الطباطبـائى تغمـده اللـه برحمتـه، و جـرى مناقشة تلك الآراء و بيان بُطلانها، كمـا جـرى بيـان إتقـان و إحكـام و متانـة نظرية سماحة الاستاذ الفقيد العلامة الطباطبائىّ .

و استغرق ثُلثَـى الكتـاب البـاقيَين أمـر إبطـال و تفنيـد كـلام الدكتـور عبدالكريم سـروش فى مقالتـه « بسـط و قبـض تئوريـك شـريعت» (= بسـط و قبض نظريّة الشـريعة) ، حيـث جـرى تقسـيم الإشـكالات المهمّـة فى المقالـة إلى عشرة إشكالات، نوقش كلّ واحد منها و بُيّنت علل بطلانه و تزييفه .

و بطبيعة الحال، فقد كـانت هـذه الإشـكالات العشـرة هـى الإشـكالات المهمة فى المقالـة السـالفة الذكـر، أمـا بـاقى الإشـكالات الـواردة فيـها و الـتى تلى هذه الإشكالات فى الأهمية ، فقد اعرضنا عن ذكرها .

و كانت المقالة المذكورة قد نشـرت فى مجلـة «كيـهان فرهنـگى » العـدد ٥٠ و العدد ٥٢ و كان هذا الحقير قد نـاقش هـذه المقالـة و رد عليـها فى الجـزء الثانى من كتاب « نور ملكوت قـرآن » و كـان للـرد المذكـور وقـع حسـن فى المدارس العلمية ، فقد قام بعض مسئولى جامعـة مشـهد- علـى سـبيل المثـال- باستنساخ صفحـات مـن الكتـاب المذكـور و ألصقوهـا علـى جـدران الجامعـة و داخـل قاعاتها ليطالعهـا الطـلاب الجامعيـون ، ثم إن بعـض الأصدقاء الأحبـة و الاعزة أكد على ضرورة طبعها تحت عنوان مستقل الا ان الحقـير كـان يتعلـل ببعض الجهات ١.

١ - و مـن تلـك الجـهات أن بعـض المطـالب ورد فى الثلـث الأول مـن الكتـاب مما لـه دور و اهمية فى فهم المطالب الوارده فى ثلثيه الاخيرين

و حصل قبل فترة وجيزة أنّ أحد الإخوة النجفيّين المعظّمين و الاصدقاء القدامى المكرمين زيد فى عمره الشريف، وهو من المحقّقين و الفلاسفة المشهورين فى العالم، أرسل إلينا رسالة شفويّة حملها جارنا الحاجّ السيّد مجتبى بنى‌هاشمى زيد توفيقه، قال فيها إنّه قدم إلى مدينة مشهد لزيارة المرقد المطهّر لثامن الأئمّه عليه أفضل الصلاة و السلام وإنّه يرغب فى الالتقاء بى فبحث عدّة أيّام عن عنوان منزلى فلمّا عثر عليه لم يُقَدَّر له لقائى .

و قال أنا الآن مجبر على العودة الى النجف ، فأبلغوه نيابةً عنىّ ، بأنّ المطالب التى أوردها فى الردّ على مقالة « بسط و قبض تئوريك شريعت » « = بسط و قبض نظريّه الشريعة » تعدّ من أتقن وأفضل الردود التى قيلت و أُلِّفت – بل التى يمكن تأليفها – فى هذا المجال، و لذلك فإنّ من الواجب عليه أن يستخرج الردّ على المقالة المذكورة ، فينشره على نطاق واسع ، و يجعله فى متناول أيدى الأساتذة و طلبة الجامعات و طلبة العلم، ليستفيدوا من مطالبه .

و استجابةً منّى لهذه الرسالة الكريمة الحكيمة التى بعثها هذا الحبيب اللبيب ، فها أنا أُقدَّم للطبع الردّ المذكور مستقلاً تحت عنوان « نگرشى بر مقاله بسط و قبض تئوريك شريعت » (= **نظرة على مقالة بسط و قبض نظرية الشريعة**) ، و أهديه إلى طلاّب الحقيقة و روّاد سُبُل السلام. وَ مَا تَوْفِيقِى إلاباللـهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إلَيْهِ أُنيبُ .

العبد الحقير الفقير الراجى رحمة الربّ القدير

السيّد محمد الحسين الحسينّى الطهرانى

قم مشهد المقدّسة

الثالث عشر من شهر محرّم الحرام١۴١۵ هجريّة قمريّة

نَظْرَةٌ عَلَى مَقَالَةِ
بَسْطِ وَقَبْضِ نَظَرِيَّةِ الشَّرِيعَةِ

أَعُوذُ بِاللَهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ

بِسْـمِ اللَهِ الرَّحْمَـنِ الرَّحِـيمِ

وَصَلَّى اللَهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ

وَلَعْنَةُ اللَهِ عَلَى أَعْدَائِهِمْ أَجْمَعِينَ مِنَ الآنَ إِلَى قِيَامِ يَوْمِ الدِّينِ

وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَهِ العَلِيِّ العَظِيمِ

قَالَ اللَهُ الحَكِيمُ فِي كِتَابِهِ الكَرِيم :

وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ .[1]

وقد كان النصف الأوّل لهذه الآية :

وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ .

يستفاد من ذيل هذه الآية المباركة أنّ القرآن الكريم هو الموضّح والمبيّن لكلّ شيء ، وأنّه يمثّل ـ بصورة مطلقة ـ الهداية والرحمة والبشرى للمسلمين الحقيقيّين الذين اتّخذوا الإسلام ديناً ونظاماً ، وصدّقوا بنبوّة الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم أكرم الأنبياء من الأوّلين والآخرين والشاهد عليهم أجمعين ، وآمنوا بهذا الكتاب السماويّ : القرآن .

١ـ النصف الثاني من الآية ٨٩ ، من السورة ١٦ : النحل .

نشرت إحدى المجلّات أخيراً مقالة باسم «**بسط وقبض تئوريك شريعت**» (= بسط وقبض نظريّة الشريعة)، وعُنونت على أنّها «**نظرية تكامل معرفت دينى**» (= نظرية تكامل المعرفة الدينيّة).[1]

ونشير فيما يلي إلى الأخطاء والعثرات الجمّة التي نرى أنّ المقالة المذكورة قد احتشدت بها:

١ـ مجلّة «كيهان فرهنگى» (= العالم الثقافيّة) العدد ٥٠ إلى ٥٢، أُرديبهشت ماه ١٣٦٧ وتير ماه ١٣٦٧ شمسيّة، رقم ٢ ورقم ٤.

الإشكال الأول

أصالة وأبديّة الدين الإلهيّ ، ومحدوديّة الفهم البشريّ

الإشكال الأوّل : على الرغم من تكرار الكاتب في عدّة مواضع أنّ الشريعة كالطبيعة ثابتة لا تتغيّر ، وأنّ ما يخضع للتغيير هو فهم الإنسان لهما ، وأنّ تغيير الفهم الحاصل وفق ضرورات البيئة ونشوء العلوم والتفاعل سلباً وإيجاباً بين المعلومات السابقة والظواهر الفعليّة ، هو أمر حتميّ لا يمكن اجتنابه ؛ لكنّه مع ذلك يستنتج في مقام التفصيل والبيان أنّ مجموعة معارف الإنسان في أيّ عصر ، من فهم العلوم الحديثة والاكتشافات المبتكرة والفلسفات العصريّة ، ينبغي أن تكون ميزان ومعيار فهم الإنسان للقرآن والسنّة ، وأنّ ما فهمه واستنبطه والفقهاء والمفسّرون والمُحَدِّثون فصار عماد عملهم يجب تحديثه وفق الأُسلوب المعاصر ، ليخرج بأُسلوب يقرّه العصر ، مواكب للمدارس والاتّجاهات العصريّة التي تعرض نتائج علومها وتحقيقاتها .

وحاصل الأمر فإنّ على العالم والمفسّر والفقيه أن لا يتّكل على أمر تعبّديّ أبداً ، فيراعي في علمه وتفسيره وفتواه احتمال المراحل العالية والمنازل السامية التي لم ينلها ، أو يضع القرآن والسنّة والإسلام على محور الأُمور التعبّديّة ؛ فما اعتمد عليه العلم العصريّ ينبغي أن يصبح هو المرتكز لهذه الأُمور ، فذاك هو الأُسلوب الوحيد الكفيل بتقدّم الفقه والعلم .[1]

١ـ يُبطل المستشار عبد الحليم الجندي ـأحد أركان المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة في مصرـ في كتابه القيّم «الإمام جعفر الصادق» ص ٢٩٤ و ٢٩٥ ، هذا النوع من

وبناء على هذا المنحى فلن يكون لدينا ثَمّة قرآن ولا سنّة ، ولا فقه ولا تفسير ، فإذا تقرّر إقحام العلوم البشريّة المتغيّرة في الغايات (من العقائد والأفكار والأخلاق والعمل) فسنكون قد سلبنا إلى الأبد من الدين والشريعة ثباتهما ، ومهما زعمنا بأنّنا نعتبر الدين والشريعة محترمة وثابتة ، فإنّنا سنكون من الناحية العلميّة قد وضعنا مفاتحها بأيدينا ، فصرنا نحاول عند ظهور أيّ قانون ونظريّة أن نفسّرها ونقحم مستلزمات العصر في ثبات المذهب وأصالته ، وفي الحقيقة فإنّنا سنكون قد دقـقنا المسمار ليس في نعش الإسلام وحده ، بل في نعوش جميع الشرائع .

والسرّ في ذلك أنّ العلوم البشريّة مهما سمت وعلت وتكاملت فهي محدودة ومقيّدة ، إذ يمكن أن يأتي علم أعلى منها وأسمى فيهدم اليوم ما بناه بالأمس .

والشاهد على هذا أنّ جميع العلوم التي تعاقبت الواحد تلو الآخر ، قد نسخ كلٌّ منها العلم الذي سبقه ؛كلُّ علم له مريدوه الذين يعتقدون ـ أوان ظهوره وبزوغ نجمه ـ أن لا علم أعلى منه وأسمى ، ويعجز من أراد إلزامهم وإقناعهم بغير ذلك ، لأنّه بذاته لم يصل إلى علم أعلى منه وأرقى ؛ أمّا حين

التفكّر والاعتقاد بعدّة جمل قصيرة ، حيث يقول:

و الى جوار المشاهدة الواقعيّة والتحقيق النزيه و الاستخلاص الصادق – الذى هو مدار العلوم الأُوروبيّة الحديثية – يضيف الفقه الاسلاميّ ضماناً جديداً هو اعتبار الاجتهاد سعياً لِبُلُوغِ الحَقِّ ؛لا بُلُوغاً لَهُ. فثمة عوامل أُخرى قد تكون موجودة، أو قد يدركها عقل آخر فتجعله أدنى الى السداد، أو تجعله يصل الى السداد. و هذا الاحتمال الذى يلازم الاجتهاد يحتمل تداخل العناصر. فالنتائج نسبيّة حتّى تقطع التجربة بأنّها لا تتخلّف أبداً.. و هى فى الفقه تبقى نسبيّة حتّى تبلغ الحكم الذى شرَّعَه الشارع، فشرع الله هو الثابت، الذى يقصد المجتهدون قصده.

يُشرف نجم ذلك العلم على الغروب ليتوارى خلف الأُفق ، ويظهر العلم الجديد الناسخ له ، فإنّ القديم سيعدّ في المسائل البالية الخرافيّة حتّى عند أصحابه وأنصاره .

فالإلكترون الذي يعدّ اليوم من بديهيّات علم الكيمياء والفيزياء هو من علومنا وشؤوننا نحن ، وفي يومنا هذا لا في غدنا .

وغداً حين يتوصّل البشر إلى اكتشاف أدقّ وأعمق ، فينكر أصل تركيب الذرّات بهذه الكيفيّة ، ويزيح الستار لنا بالتجربة والاختبار عن عجائب أُخرى من الذرّة ، عندها سنضحك على أفكار يومنا المنصرم ، ونسخر من يقين وبرهان وإصرار أمسنا الغابر .

إنّ **الدين والشريعة الإلهيّة الحقّة** جاءت من عند الله تعالى بأصالتها وواقعيّتها ، ويقيناً أنّ تعبّديّاتها تفوق أوامرها ونواهيها البديهيّة بآلاف المرّات ؛ وليس للدين معنى غير نزوله من جانب العلم المطلق على الإنسان والبشر ذي العلم النسبيّ ، والمرتقي يوماً بعد آخر من درجة القابليّة إلى الفعليّة ، وسيبقى البشر في هذا المستوى مهما استعان بالعلوم والمعارف التجريبيّة ؛ من ميكانيك وفيزياء وطبيعيّات ، ومن علم النفس وعلم الاجتماع وعلوم طبقات الأرض والنبات والحيوان ، وعلم الحياة والكيمياء المعدنيّة والآليّة ، والهيئة وغيرها ؛ قاصراً عن أن ينال بيده عالم الربوبيّة ، أو يحيط بأسرار الخلقة وخفاياها التي لاتحصى والمحيطة به من كلّ جانب ، وأن يزيح التعبّد عنه جانباً ، إلّا أن نقول إنّنا قد فهمنا العالم المطلق واكتشفنا سرّه ولغزه ، وهو قول جزاف خاطئ .

فجميع حكماء الأمس واليوم ما لبثوا غارقين في البحث الجادّ ، لكنّهم يعترفون في الوقت نفسه بأنّ أيديهم لم تغترف من العلم شيئاً ، وأنّهم بعدُ لم يرتووا من بحور الأسرار والعلوم قطرة !

إنّ أوّل الأشياء التي تنكرها العلوم التجريبيّة الحاليّة هو وجود الملائكة ووجود الجنّ، فهم ينكرونها لجهلهم بها وعدم توصّلهم لإدراكها، فيقولون: إنّنا لا نصدّق بشيء لانراه ولا نحسّه، فإذا ما وُفّقت هذه العلوم التجريبيّة غداً لرؤيّة الملائكة والشياطين فيومئذٍ سيحصل لهؤلاء اليقين والإقرار.

أمّا الحكماء الإلهيّون والربّانيّون المطّلعون على الحقائق والأسرار، والعارفون بحريم قدس وأمان الله، فلهم بيانات كالشمس الساطعة عن وجود الملائكة وأشكالهم وشمائلهم ووظائفهم وتكاليفهم، وعن وجود الجنّ وأشكالهم وأصنافهم، كلّ ذلك اعتماداً ومتابعة لآيات القرآن النازلة من المطّلع على الغيب بخفيّه وجليّه.

أفهل فقدنا رشدنا كي نعرض عن هذه الحقائق صفحاً ونقول بأنّنا لا نعترف بالجنّ، لأنّ علم معرفة الجنّ لم يقرّر بعد في مناهج جامعات أُوروبّا وأمريكا؟!

إنّ التوغّل والتعمّق في العلوم المادّيّة إلى الحدّ الذي تعتبر المادّة عنده ـ مع جميع آثارها وخواصّها المدهشة ـ أزليّة أبديّة، ومن ثمّ إنكار العالَم العلويّ والملائكة والنور المطلق للخالق العالم الحكيم الواحد ذي الشعور المسيّر للعالم تحت هيمنته وإرادته ومشيئته الواحدة المباشرة، ليس إلّا عبادة للمادّة وعكوفاً في محرابها؛ وعند الفلاسفة المادّيّين مدرسة في هذا الاتّجاه.

ولقد كرّر الطبيعيّون السابقون، ويكرّر الماديّون اليوم هذه المقولة ـ عبر مدرستهم واتّجاههم الفكريّ ـ مقابل الإلهيّين.

لكنّ القرآن، وهو الكتاب الحكيم المحكم، ولسان الخالق الناطق الحكيم بلا واسطة، يعتبر الإيمان بالغيب شرطاً لليقين والفلاح:

الٓمٓ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ * وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ (الفِناء الأبديّ والعالَم العلويّ، والجنّة والنار، ونتيجة الأعمال، والمثول في موقف القيامة، والوقوف في محضر الحضرة الأبديّة، وطلوع جمال الحقّ وجلاله، والملائكة والحور، وملائكة العذاب، و ...) **هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ.**[1]

فقد عدّ صراحة في هذه الآيات الإيمانَ بالغيب والعالم العلويّ والآخرة والتعبّد المحض بما أنزل الله تعالى شرط السعادة الأبديّة، وعدّ بعدها مباشرة من لا يؤمنون بالغيب وبما أنزل الله كفّاراً، وحكم عليهم بالختم على القلوب والأسماع، وبالغشاوة والحجاب على الأبصار، وتوعّدهم بالعذاب الأليم:

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ.[2]

وكذلك فإنّ **القرآن الكريم** يعدّ من البرّ: الإيمان بالملائكة والعالم العلويّ، أي الإيمان بيوم الجزاء:

لَيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّينَ.[3]

١ـ الآيات ١ إلى ٥، من السورة ٢: البقرة.

٢ـ الآيتان ٦ و٧، من السورة ٢: البقرة.

٣ـ النصف الأوّل للآية ١٧٧، من السورة ٢: البقرة.

ويعتبر إتقان وإحكام الكتاب الإلهيّ في خلوده وأبديّته ، فمعانيه ومفاهيمه تبقى راسخة لا يزعزعها هبوب رياح الإلحاد والكفر ، ولا عواصف الزندقة والشبهة ، ويبقى في منأى عن عبث أيدي الملحدين أن تغيّر فيه وتهدم ، وعن أن يستطيع الغبار المتكاثف وسُحُب النفوس الشيطانيّة الحالكة ووسوسة الإنس أن تنثر على طلعته المشعّة المنيرة هباء النسخ والبطلان .

فمعنى التصرّف في معاني الآيات القرآنيّة ورفع اليد عن ظهورها بلا قرينة يقينيّة نقليّة أو عقليّة هو الاجتهاد في أُصول الدين ، لا الاجتهاد في فروعه .[1]

فالاجتهاد في أُصول الدين خطأ ، والاجتهاد في فروع الدين ينبغي

١ـ يلزم أن نذكر هنا عبارات وردت في هامش صفحة ٥٨ من كتاب «راه طى شده» (= الطريق المطويّ) ، يقول فيها مؤلّف الكتاب (وهو من مخالفي الفلسفة والحكمة اليونانيّة):

«ويُقال اعتراضاً بهذا الخصوص إنّ الدين والعلم للبشر يلزم ـ مع عين ارتباطهما واحتياج أحدهما للآخر ـ أن يحفظ كلّ منهما استقلاله وكيانه ، فكلّما أمكن فهم مطالب وأحكام الدين وتطبيقاتها بالتبصّر والدقّة اعتماداً على الموازين العلميّة كان ذلك أفضل، لكنّ العلم باعتبار وقوعه في معرض الخطأ والنقص ، فهو دوماً في حال إصلاح وإ كمال، ولا يمكنه أن يكون ملاكاً قاطعاً ثابتاً للدين ، ولا ينبغي للدين أن يُسمّر ويبقى أسيراً في قالب المعلومات الزمنيّة».

وهو قول صحيح وبيّن ؛ لكنّ كلام صاحب مقالة «بسط وقبض تئوريك شريعت» (=بسط وقبض نظريّة الشريعة) يخالفه تماماً ، فهو يقول بصراحة:

«إنّ الدين والعلم شأنهما شأن خاطرتين فكريّتين ، وشأن ضيفينِ يؤثّر أحدهما في الآخر، فعلم الهندسة يغيّر الدين ؛ وعموماً فإنّ المعلومات الدينيّة تفتقد الأصالة والثبات، ويبقى على عاتق العلماء أن يوازنوا ويوافقوا بين هندسة فكرهم الدينيّ مع هندسة المعلومات اليوميّة والعلوم الجديدة».

أن لا يتخطّى الموازين الشرعيّة التي يختصّ بحملها الفقهاء.

أمّا التصرّف في مفاهيم الآيات القرآنيّة على أساس مناهج البحث وطرقه، وعلى أساس مفاهيم الإحياء والنهضة التي تستشمّ من المقالة المذكورة، فليس فقط نسخاً للقرآن، بل هو مسخ للقرآن.

الإشكال الثاني

عظمة وتقدّم العلوم الإسلاميّة على العلوم الحديثة

والإشكال الثـاني : أنّ الفـلسفة القـديمة فـي نـظر صـاحب المـقالة منزوية معزولة ، قد نسختها الفلسفة الحديثة ، حيث وصف الأخيرة بأ نّـها مفتاح طريق السعادة البشريّة إلى جادّة الرقيّ والتكامل .

ونجد لزاماً قبل البحث والدخول في صلب المـوضوع والتـعمّق فـيه البحث في مواضع الخطأ ومواقع الهفوات ، أن نذكّر بهذه النكتة :

إنّ إطلاق لفظ **القديم والحديث** على أيّ فلسفة أو عـلم أو ديـن أو اتّجاه أو مدرسة يعبّر عن النيّة بوأد القديم مـنذ الخـطوة الأُولى ، ولتـوجيه السامع نحو هذا الحديث مهما كان .

وهذا الأُسلوب من أنجح أسـلحة الاسـتعمار وأكـثرها فـعّاليّة ، فـهو يحاول منذ الوهلة الأُولى باستعمال عنوان القديم والقِدَم ، المتضمّن لمعاني التهرّؤ والرثاثة ، أن يُخـطر ذلك المعنى والمحـتوى ويـرسّـخه فـي ذهـن السامع ، ليبعد القديم عنه إلى الأبد ويُهـيل عليه تراب النسـيان ، لئلّا يـدور في خلده يوماً حتّى مجـرّد الرغبة في رؤيـته والتـطلّع لمـنظـره الظـاهريّ الخارجيّ .

ونلحظ تسميتهم مدارس طلبة العـلوم الديـنيّة والمـعارف الإسـلاميّة بالقديمة ، والجامعات السائرة على المنهج والأُسلوب الأُوروبّيّ بالحديثة ، فيكونون بعملهم هذا قد مهّدوا للقضاء على العلم والمعرفة والدين والحقيقة والشرف والإنسانيّة والرسول والإمام والملك والحديث والقرآن ؛ وروّجوا

في المقابل للمادّيّة وأُبّهتها ومظاهرها الخلّابة ، وصادقوا على كيفيّة تنشئة الجيل الجديد ليكونوا عبيداً وأسرى للثقافة المنحطّة والأخلاق المشؤومة لأُمم اليهود والنصارى من الشرق والغرب .

أي أنّهم بقولهم إنّ هذه الدراسة حديثة وتلك قديمة قد قطعوا نصف الطريق ، بل ثُلثيه وصولاً إلى أهدافهم المشؤومة الشرّيرة . فالله سبحانه أقدم من كلّ قديم ، وهو أجدّ من كلّ جديد ، يستوي عنده القِدَم والحداثة ، فهو موجود دوماً ، وحيّ وعالم ومحيط دوماً ، لأنّ له أصالة وثباتاً ، يقابلهما زوال واضمحلال ما سواه .

إنّ نبيّ الإسلام ، ودراسة القرآن ، والبحث في التأريخ الإسلاميّ ، والفلسفة والعلوم الإسلاميّة ، وحكمة الإسلام وعرفانه ، وصولاً إلى جميع الفنون المتفرّعة عن شريعته المقدّسة ، من علم التفسير وعلم الحديث ، وحتّى العلوم التمهيديّة كالمنطق والعربيّة والأدب العربيّ الذي يسلّط الضوء على لسان ولغة هذا النبيّ العظيم وهذه الآية الإلهيّة العظمى ، هي كلّها حديثة ذات غضارة ونضارة ، أشبه ببرعم غضّ فتح للتوّ أكمامه في جُنينة الورد ذي العبير الفوّاح ، تتأبّى على القدم والاندراس .

أمّا تلك العلوم التي تبحث أصالة عن المادّة أو تؤول إلى التوسّع المادّيّ والمأكل الجيّد والاجترار الجيّد ، الخاوية من آثار الإنسانيّة والكمال والحكمة الإلهيّة والعرفان الإلهيّ ، فهي من المخلّفات والبقايا العتيقة المندرسة للأُمم والأقوام الهمجيّة وإنسان الغاب الحيوانيّ الذي تلبّس بالطراز الحديث ، فصارت وحشيّته وهمجيّته القديمة حديثة .

فهم يسقون شبابنا الصاعد باسم المدنيّة والتكامل نفس الوساوس والأفكار الشيطانيّة ، ويضعون في رقابهم نير العبوديّة (عبوديّة النفس) ، ويحرمونهم من جميع مزايا الإنسانيّة باسم وعنوان جديد وضمن قالب

وأُسلوب حديثَين .[1]

وينبغي لهذا الأمر أن تُستبدل كلمة قديم التي استعملت للفلسفة والمدارس بكلمة **أصيل** .

وأمّا إشكالنا وبحثنا في اعتبارهم الفلسفة قديمة معزولة منزوية ، فهو أنّ علم الفلسفة الذي يُدعى بالحكمة ويُدعى صاحبه **بالفيلسوف** و**الحكيم** ، من أشرف العلوم التي حصل عليها الإنسان في تأريخ البشريّة إلى الآن من بين جميع العلوم ، لأنّه علم بناء الإنسان ضمن قدرات البشر وطاقاته . ولقد جاء ذكر الحكمة في موارد عديدة من القرآن الكريم ، وصف فيها الباري تعالى شأنه نبيّه الكريم في مقام امتداحه له بأنّه يعلّم الناس الحكمة :

هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ ويُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ .[2]

١ـ يقول صديقنا العالم المعظّم الشهيد الحاجّ الشيخ مرتضى المطهّريّ رحمة الله تعالى عليه في كتاب «الإنسان الكامل» ، بالفارسيّة ، ص ١٩٤ و١٩٥ : يقول العالم الإ يطاليّ **ميكافيللي** ، الذي يدور أساس فلسفته حول مسألة **التفوّق والسيادة** : إنّ الشيء الوحيد الذي ينبغي النظر إليه في الدنيا هو التفوّق والسيادة ، ولا قيمة هناك لأيّ شيء آخر ، إلّا أن يكون مقدّمة للوصول إلى التفوّق والسيادة . فالكذب والحيلة والخداع والمكر كلّها مباحة في سبيل الوصول إلى التفوّق والسيادة.

وهناك فيلسوف آخر ألمانيّ يُدعى **نيتشه** ـ جُنّ في أواخر عمره ـ كان يعتقد أنّ أساس القدرة وأساس الأخلاق يتمثّل في القدرة.

وهناك فيلسوفان غربيّان أحدهما **ديكارت** الفرنسيّ والآخر **بيكون** الإنجليزيّ طرحا نظريّة قبل ذلك بأربع قرون بشأن العلم ، فقالا : إنّ شرف العلم وفضيلته هو في الاستفادة منه لتطويع الطبيعة . لذا فقد أسقطا شرف العلم من أصالته . وبالرغم من أنّ هذه النظريّة قد أعقبت إعمار الطبيعة بِيَدِ الإنسان ، لكنّها بنفسها قد أفسدت الإنسان بِيَدِ الإنسان نفسه.

٢ـ الآية ٢ ، من السورة ٦٢ : الجمعة .

ونلحظ هنا أنّ الله سبحانه يعدّ تعليم علم الحكمة وظيفة وواجب نبيّه الكريم ، وجليّ أنّ هذه الحكمة غير القرآن ، لأنّها وردت قسيماً لكلمة الكتاب ومعطوفة عليها ؛ وأنّه يعتبر الناس قبل البعثة في ضلال مبين لافتقادهم علم الحكمة والرشد والتكامل الإنسانيّ .

ويذكر كذلك دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام خلال بناء الكعبة أن :

رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ. [1]

وبعد ذلك يدعو الأب والابن صاحبا الشأن العظيم وعبدا الله المخلصان هذان ربّهما بهذا الدعاء :

رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ. [2]

١ـ الآية ١٢٨ ، من السورة ٢ : البقرة .

٢ـ الآية ١٢٩ ، من السورة ٢ : البقرة .

يروي الخطيب البغداديّ في كتاب «تقييد العلم» ص ١٤٦ و١٤٧ ، بسنده المتّصل عن محمّدبن حُجَادة ، عن أنس بن مالك أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قال : **لَا تَطْرَحُوا الدُّرَّ فِي أَفْوَاهِ الكِلَابِ**. يقول ابن بكّار : على ما أعلم فإنّ مراد النبيّ كان العلم ـ انتهى.

وأورد الشيخ هادي كاشف الغطاء في «مستدرك نهج البلاغة» ص ١٥٨ : **قَالَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عَلَيهِ السَّلَامُ : الحِكْمَةُ ضَالَّةُ المُؤْمِنِ ؛ وَالسَّعِيدُ مَنْ وَعَظَ بَغَيْرِهِ . (وَالمَرْوِيُّ فِي «النَّهْجِ»): الحِكْمَةُ ضَالَّةُ المُؤْمِنِ ؛ فَخُذِ الحِكْمَةَ وَلَوْ مِنْ أَهْلِ النِّفَاقِ . وَفِي «تُحَفَ العُقُول»: فَلْيَطْلُبْهَا وَلَوْ فِي أَيْدِي أَهْلِ الشَّرِّ.**

وأورد في «المستدرك» كذلك ، ص ١٧٨ أنّه عليه السلام قال:

الحِكْمَةُ ضَالَّةُ المُؤْمِنِ ، فَاطْلُبُوهَا وَلَوْ عِنْدَ المُشْرِكِ ، تَكُونُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ـ انتهى كلام صاحب «المستدرك».

ونرى هنا أنّ أفضل دعاء وابتهال لهذين النبيّين الجليلين ؛ في ذلك الظرف الخطير وتلك اللحظات العظيمة في بناء الكعبة ورفع جدار قِبلة المشتاقين لسلوك طريق المحبوب ، ومن شدّهم الوجد للقاء المعشوق ، والمتلهّفين لاجتياز المادّيّات الملوّثة للطبيعة فانشغلوا بقطع الدنيا وهم فيها إلى ماورائها من عوالم ؛ هو أن يبعث في هؤلاء القوم نبيَّ آخر الزمان : **محمّد بن عبد الله** ليعلّمهم الكتاب والحكمة ، فيخرجهم من زُمرة البهيميّة ، ويربّيهم ويهديهم للتكامل ولبلوغ أوج كمال الإنسانيّة .

فكم هو قيّم جليل عِلم الحكمة ليدعو به إبراهيم وإسماعيل واضعا الحجر الأوّل في بناء التوحيد وشريعة الإسلام المقدّسة ، ليكون من نصيب الثمرة الوحيدة التي تمخّض عنها عالم الوجود ، وثمرة فؤادهما الذي تمثّلت فيه أرقى وأسمى نماذج الحياة .

ثمّ يقول تعالى بعد ذلك بلا فصل :

وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ .[1]

ويُستكشف من هذه الآية **أوّلاً** : أنّ **السفهاء والمتخلّفين** فقط هم الذين يُعرضون ويرغبون عن ملّة إبراهيم وسنّته .

وثانياً : حسب قاعدة **عكس النقيض** ، فإنّ : **كُلُّ مَنْ لَمْ يَسْفَهْ نَفْسَهُ ،**

وأورد الحكيم المحدّث المفسّر العالم الإسلاميّ الكبير الملّا محمّد محسن الفيض الكاشانيّ قدّس الله نفسه في كتاب «المحجّة البيضاء» ج ١ ، ص ٩١ :

وَقَالَ عِيسَى عَلَى نَبِيِّنَا وَآلِهِ وَعَلَيهِ السَّلَامُ : لَا تَضَعُوا الحِكْمَةَ عِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهَا فَتَظْلِمُوهَا ، وَلَا تَمْنَعُوهَا أَهْلَهَا فَتَظْلِمُوهُمْ ! كُونُوا كَالطَّبِيبِ الرَّفِيقِ يَضَعُ الدَّوَاءَ فِي مَوْضِعِ الدَّاءِ . وَفِي لَفْظٍ آخَرَ : مَنْ وَضَعَ الحِكْمَةَ فِي غَيْرِ أَهْلِهَا جَهِلَ ؛ وَمَنْ مَنَعَهَا أَهْلَهَا ظَلَمَ . إنَّ الحِكْمَةِ حَقّاً ؛ وَإنَّ لَهَا أَهْلاً . فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ .

١ـ النصف الأوّل من الآية ١٣٠ ، من السورة ٢ : البقرة .

يَرْغَبُ فِي مِلَّةِ إبْرَاهِيمَ، أي أنّ: **كُلّ عَاقِلٍ يَرْغَبُ فِي مِلَّتِهِ**.

ووفقاً للمنطق القرآنيّ فإنّ الحكماء والفلاسفة الإلهيّين الذين تبعوا هذا النهج والسنّة هم العقلاء، أمّا المعرضون عن الحكمة فهم السفهاء الجهلة.

ولقد مُنح علم الحكمة ـ سوى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ للكثير من الأنبياء الإلهيّين، **كداود** عليه السلام،[1] و**عيسى ابن مريم** عليه السلام،[2] بل يستفاد من إحدى الآيات الشريفة أنّ الحكمة قد وهبت **لجميع الأنبياء** عليهم السلام؛[3] مضافاً إلى أنّ الله سبحانه يؤتي علم الحكمة لعباده المصطفين والمباركين الذين هم مورد لطفه ومشيئته، وقد عدّ ذلك من الخير الكثير:

يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا.[4]

وقد أورد الله سبحانه اسم أحد حكماء اليونان في القرآن وأنزل سورةً باسمه يذكر فيها كثيراً من كلماته ومواعظه وأحاديثه الحكميّة كدرس وقدوة خالدة للبشريّة.

وهذا الرجل هو **لُقْمَان**، وسميّت السورة القرآنيّة باسمه: سورة «**لُقْمَان**»:

١ـ الآية ٢٥١، من السورة ٢: البقرة: **وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَءَاتَـٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحَكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ.**

٢ـ الآية ٤٨، من السورة ٣: آل عمران. **وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنْجِيلَ.**

٣ـ الآية ٨١، من السورة ٣: آل عمران: **وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّنَ لَمَا ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ.**

٤ـ الآية ٢٦٩، من السورة ٢: البقرة.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَـٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ.[1]

وفي سورة الإسراء حيث يعدّد سبع عشرة آية في التوحيد وفي الحدّ الأعلى من مكارم الأخلاق، يقول بعدها مباشرة:

ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا.[2]

ومع أنّ كلمة الحكمة التي استعملت في هذه الآيات ونظائرها لم تكن لتعني خصوص الحكمة اليونانيّة، وذلك أوّلاً: باعتبار أنّ الحكمة وردت بمعناها الكلّيّ والعامّ، وهو بمعنى علم معرفة الإنسان، وموقعه من خالقه، وعلاقته بالعالم وبالآخرين، ومراتب علاقة الجسم وروحه والتأثير المتبادل بينها، وبرنامج ضمان خير الإنسان وسعادته المطلقة، أي أنّه فُسّر بعبارة موجزة بالعلم بحقائق الأشياء حسب إمكان البشر وقدرتهم.

وثانياً: أنّ الفلسفة والحكمة اليونانيّة التي رُغّب فيها متكفّلة ببيان هذه المطالب، ممّا يمكن اعتبار أنّ هناك ارتباطاً وثيقاً لحقيقة الحكمة مع الحكمة اليونانيّة، وقد جاء في الروايات الواردة عن أئمّة أهل البيت مدح الحكماء الإلهيّين اليونانيّين والثناء عليهم.

وفي الحقيقة، فإنّ لهم الحقّ والفضل العظيم على المجتمع البشريّ وعالم الإنسانيّة والموحّدين وأصحاب الفضائل والمكارم، فقد نهض العلماء العظام المرموقون الموحّدون في اليونان في وقت طغت فيه فلسفة **السوفسطائيّين** وبثّت الشكّ في كلّ أمر بديهيّ، وساقت البشريّة إلى عالم

1ـ الآية ١٢، من السورة ٣١: لقمان.

2ـ الآية ٣٩، من السورة ١٧: الإسراء.

الموهومات والتفكّك ، وانتشرت وطغت فيه فلسفة **الكلبيّين** وأدّت إلى نهب أموال الناس وأطعمتهم ، فقام هؤلاء العلماء اليونانيّون الموحّدون العظماء فشمّروا عن هممهم وأنجبوا ـ بالمجاهدات العظيمة وتشكيل حلقات الدرس والمدارس التوحيديّة على أساس البرهان والشهود ـ التلامذة العظماء ، وهزموا الاتّجاه المادّيّ في اليونان بالرغم من كلّ المشاكل والمصائب والشدائد التي صُبّت عليهم واستلزمتها مجاهداتهم .

فقد ابتدع **المادّيّون** تبعاً **لأبيقور (أبيكور)** فلسفة هي أساس المذهب الحسّيّ ، قالوا فيها إنّ سعادة الإنسان تكمن في لذّاته النفسيّة التي لا يمنع منها إلّا الحياء والعفّة ونظائرها من الأوهام التي أثقل الإنسان بها نفسه وسمّاها بالفضائل ، لذا يلزم الإنسان أن يتخلّص من هذه الفضائل لينال سعادته ، وهكذا صار ، فكان هؤلاء كلّما عرفوا بوجود وليمة ومأدبة انقضّوا عليها فالتهموا ونهبوا كلّ الطعام الموجود .

وكان تحمّل هذا الأمر صعباً على أشراف اليونان ، الذين عزّ عليهم أن تُنتهب أمام أعينهم المآدب التي أعدّوها لضيوفهم ، ولم يروا بدّاً من استئجار أفراد خاصّين في منازلهم يقفون متأهّبين والنعال في أيديهم لينهالوا بها ضرباً على رؤوس هؤلاء .

وكان الفلاسفة المادّيّون ، ومن بينهم أبيقور نفسه ، إذا أحسّوا أنّ النعال ستنهال عليهم لجأوا إلى الهرب ، وإلّا فإنهم كانوا يهجمون فينهبون ولا يدعون لصاحب البيت شيئاً .

وكان أُسلوب الكلبيّين هو هذه الطريقة المادّيّة المحضة والإلحاد الصرف ، الذي يرتضيه الشخص الملحد ولا يتعدّاه قيد أُنملة ، لأنّ هذه الفلسفة لا ترى معنى **للحُسن والقُبح والحلال والحرام** ، فلا زاجر ولا رادع للنفس عمّا تشتهيه وتطمع فيه ، وهذه هي الفلسفة الشيوعيّة .

وإذا ما لاحظ الإنسان أنّهم يستنكفون عن بعض الأعمال الوضيعة ، أو يستعملون عبارة الحياء والعفّة في كلامهم ، فهم إمّا أن يلفظونها نفاقاً ورياءً وتظاهراً ، أو أن يكون ذلك من رواسب بعض التعاليم الدينيّة الممتزجة في نفوسهم ، مضافاً إليها عدم وضوح مستلزمات نهجهم وفكرهم لديهم بالقدر الكافي .[1]

ولقد قام **سقراط الحكيم** ، وتلميذه العظيم **أفلاطون الحكيم** ، وتلميذ تلميذه : **أرسطو** أو **أرَسْطاطاليس** في تدوينهم علم المنطق والحكمة بهدم أُسس وكيان فلسفة المادّيّين وآثارها ، فدوّنوا فلسفة الإلهيّين على أساس الحقّ والواقع ، واستدلّوا على احتياج عالم الطبيعة إلى ربّ ذي شعور حكيم وحيّ وأزليّ وأبديّ وقادر ، هو مسبّب الأسباب وعلّة العلل ، وبنوا حكمتهم على أساس مكارم الأخلاق والفضيلة وعالم ما وراء الطبيعة الذي بُرْهِن عليه في البرهان الأرسطيّ وفي المشاهدات الإشراقيّة الأفلاطونيّة .

وقد جرى تدريس كتب أفلاطون وأرسطو في أُوروبّا ، ثمّ قام **روجر بيكون** ومن بعده **فرنسيس بيكون** في نهايات القرون الوسطى (القرون الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر ميلاديّ) ومن بعدهم **ديكارت** في القرن السابع عشر الميلاديّ ، بهدم أساس الفلسفة الأرسطيّة ، واستمرّ ذلك لغاية المائتي سنة الأخيرة عند ظهور **نيوتن** ، ثمّ تبعه **أينيشتَين** في عالم الفيزياء ، حيث انصرف اتّجاه عامّة الناس عن التوحيد والمعارف والأخلاق والفضائل ، وعاد إلى المادّيّة وحياة التجمّل وامتطاء الشهوات وعدم إدراك

١ـ «نقد فلسفة داروين» ج ٢ ، ص ٢٢٧ و ٢٢٨ ، وعلّة اشتهارهم بالكلبيّين أنّ أصحاب الموائد كانوا يدعون هذا الطراز من الفلاسفة بالكلاب فيضربونهم بالعظام ويطردونهم ، أو لأنّهم كانوا يهجمون كالكلاب على أصحاب الموائد.

أبعاد الشخصيّة الإنسانيّة ، وانتهى العمل بتلك المدرسة فلم يعد يُرى في أُوروبّا وأمريكا اليوم فيلسوف إلهيّ يقوم بتعليم وتنشئة تلامذة أخلاقيّين ملتزمين ، أو بتدريس كتب أفلاطون وأرسطو ؛ وهو خسارة بل فاجعة كبرى حلّت بتلك الأُمم ، كما أنّ التيّار الفلسفيّ في الغرب ، المسمّى بالفلسفة التومانيّة ،[1] والفلسفة التومانيّة الحديثة ، ووجود شخصَين معاصرَين أحدهما فيلسوف ـ ويدعى كابلستون ـ والآخر مؤرّخ للفلسفة ـ ويدعى جيلسون ـ وكلاهما قسّيس متألّه ينتمي إلى الفلسفة التومانيّة ، لا يمكنه بمفرده الوقوف أمام مئات المناهج الفلسفيّة المادّيّة والتجربيّة ، بحكم أنّ **النادر كالمعدوم** ، لأنّها في ضعفها أمام كثرة المدارس المادّيّة بحيث لا يمكن عدّها في الحساب . صار الإنسان الذي كان يتحرّى شخصيّته في اتّباع التعاليم المنقذة للمسيح على نبيّنا وآله وعليه السلام ، يحثّ الخطى مسرعاً تجاه التمدّن الآليّ وعلوم الميكانيك والطبيعة ، بشكل نسي معه نفسه وشخصيّته وإنسانيّته وشرفه وعزّته، فلم يتمتّع بالدنيا ، بل صار كالآلة والأداة المسخّرة بِيَدِ الميكانيك ، وهذه هي عاقبة ترك تدريس الحكمة اليونانيّة في أُوروبّا .

يقول **الدكتور الكسيس كارل** في مقدّمة كتابه «**انسان موجود نا شناخته**» (=الإنسان ذلك المجهول) :

فليس في مقدور الإنسان الاستمرار في متابعة التمدّن الآليّ في الطريق الذي سلكه ، لأنّه يؤدّي إلى الانحطاط ، فلقد بهرته علوم المادّة بجمالها حتّى سلبت عقله وشغفت لبّه ، وصار جسمه وروحه يخضعان لقوانين معقّدة هي أشبه بقوانين عالم النجوم التي لا تتغيّر ولا تتبدّل ،

١ـ التومانيّة (Thomism) : فلسفة توما الأكوينيّ اللّاهوتيّة.

ولا يمكنه تخطّيها بدون التعرّض لخطرها وأضرارها .

لذا فإنّ من الضروريّ التعرّف على العلائق التي تربط الإنسان قـهراً بالعالم وبأمثاله من البشر ، والتعرّف على الروابط بين أنسجته وروحه .

وفي الحقيقة فإنّه ينبغي أن يُقدَّم الإنسان على كلّ شيء آخر ، لأنّ جمال التمدّن سيزول بانحطاط الإنسان ، بل وحتّى عظمة عالم النجوم ، وقد أُلّف هذا الكتاب من أجل هذا الأمر .[١]

وكان **فردريك كودر** الذي شمل نظره الصائب أُوروبّا عبوراً من أمريكا ، هو الباعث والمحرّك لتأليف هذا الكتاب .

وبكلّ تأكيد فإنّ كثيراً من الأُمم ستسير في الطريق الذي خطّته وبدأته أمريكا الشماليّة ، لأنّ جميع الممالك قد قبلت بروح المدنيّة

١ـ يقول أحمد أمين المصريّ في كتابه «يوم الإسلام» ص ١٧٥ و١٧٦ بعد أن أشبع الحديث عن عدم كفاية المدنيّة الغربيّة ، وعن ضرورة الاعتقاد بروحانيّة الشرق ، وعن الخسائر التي لحقت بالعالم إثر انغماره في الأخلاق والتربية الغربيّة:

ولو حكمنا بالظاهر لقلنا إنّ ماديّة سليمة تخضع للعقل وتنجح في الحياة وتسيطر على العالم خير من روحانيّة فسدت ومبادئ قويّة تعفّنت ، ولكن ليس هذا إنصافاً في الحكم، فما نتيجة هذه الماديّة الناجحة ؟! إنّها مدنيّة روّعت العالم وجعلته على بركان يوشك أن ينفجر، وهو كلّ يوم في اختراع جديد يهدّد العالم بالفناء ، فما نتيجة القوّة إذا كانت محطّمة ، وما قيمة القصر المزوّق إذا ساد سكّانه الفزع ؟! ولو أنّك سألت أُسرة أُوروبّيّة هل تفضّل أن تعيش عيشة بذخ وترف وتفقد أبناءها في الحروب أو تعيش عيشة وسطاً ولا يهلك أحد منها في حرب ، فما الذي كانت تفضّل !

إنّي لفي شكّ من قيمة المدنيّة الغربيّة إذا نحن قسنا ما أنتجته للعالم من شرور بما أنتجته للعالم من خيرات . فما قيمة آلات وأدوات ومخترعات بجانب أرواح تُحصد وطمأنينة تُفقد ، واستغلال قليل من الناس للكثرة الغالبة من العالم يرهقونهم ويسومونهم سوء العذاب ، وذلك لأنّهم قالوا : **إنْ هِيَ إلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ** .

الصناعيّة وطرقها بلا تبصّر ، وستواجه **إنجلترا** أو **روسيا** ، **ألمانيا** أو **فرنسا** نفس المخاطر التي تواجهها أمريكا حاليّاً .

ينبغي لاهتمام الإنسانيّة وتوجّهها أن يتحوّل عن الآلة والمادّة إلى جسم الإنسان وروحه ، وأن يُعطَف على الكيفيّات البدنيّة والمعنويّة التي بدونها لن يكون للآلات ولعالَم نيوتن وأينيشتَين من وجود.

إنّنا نفهم تدريجيّاً ضعف تمدّننا ، وهناك الكثير ممّن يتمنّون اليوم النجاة والخلاص من قيود أسر المجتمع الحالي ، وهم الذين أُلّف هذا الكتاب من أجلهم ، وكذلك من أجل المفكّرين المتطرّفين الذين يعتقدون ليس فقط بوجوب إحداث تغييرات في الشؤون السياسيّة والاقتصاديّة ، بل بوجوب انقلاب وتغيير جذريّ في أُصول المدنيّة الصناعيّة ، ويتمنّون طريقاً آخر للرقيّ الإنسانيّ .[1]

وكان **مستر فرنكل** وهو من رجالات الإنجليز يتأسّف على إلغاء تدريس الفلسفة اليونانيّة في أُوروبّا ، فيقول :

بالرغم من أنّ المتأخّرين عنّا قد بلغوا الذروة في العلوم والصناعات ، لكنّهم لم يصلوا إلى عُشر ما وصل إليه اليونانيّون ، لذا فلو كانت تلك الكتب باقية إلى اليوم ، وأُضيفت علوم اليونان إلى علوم الناس الحاليّة ، فستصبح دنيا اليوم جنّة لا يمكن أن نجد فيها شبراً واحداً إلّا وهو معمور بأنواع العلوم والفضائل .[2]

لقد عاش **أفلاطون** قبل بعثة عيسى ابن مريم على نبيّنا وآله وعليه

١ـ «انسان موجود ناشناخته» (= الإنسان ذلك المجهول» ترجمة الدكتور پرويز دبيري ، الصفحتان ح ، ط من مقدّمة المؤلّف الدكتور الكسيس كارل.

٢ـ «نقد فلسفهٔ داروين» ص ٤٧ و ٤٨ .

السلام بخمسمائة عام ، وقد نُسب إليه افتراءً أنّه قال : إنّ شريعة عيسى وُضعت لضعفاء العقول ، لكنّي ـ وقد لمستُ الحقيقة ـ لن أخضع لهذه الشريعة ؛ فقد عاش كما ذكرنا قبل بعثة السيّد المسيح ، وكان أُستاذاً لأرسطو ، وكان أرسطو بدوره أُستاذاً ووزيراً للإسكندر المقدونيّ ، الذي دُوِّن عصره في صفحات التأريخ .

وكان **لأفلاطون** حكمة الإشراق ، وكان يرأس سلسلة **الرواقيّين** ، وكان يحصل له كشف الحقائق والمعارف الإلهيّة بالرياضات والمجاهدات الباطنيّة عن طريق تصفية الباطن ، في حين كان **أرسطو** تلميذ إفلاطون يمتلك حكمة **المشّائين** ، ولم يكن ليعتني بالباطن أو يعتمد عليه أبداً ، بل أسّس المسائل الحكميّة من وجهة نظر البرهان فقط .

وقد بنى الإسكندر بعد فتحه بلاد المشرق ميناء الإسكندريّة في مصر وأسّس فيها مدرسة قام تلامذة إفلاطون بالتدريس فيها ، فدُعيت طريقتهم **بالطريقة الأفلاطونيّة الجديدة** لضمّها بعض قوانين أفلاطون إلى جنب بعض الإضافات الجديدة الأُخرى ، حيث بقي هذا المذهب إلى زمن فتح الإسكندريّة على يد المسلمين زمن عمر ثمّ انهار بعد ذلك ، وكان أحد كبار هذا المذهب يدعى **ثاميطورس** وقد أسلم ودُعي بعدها باسم **يحيى النحويّ** .

أمّا كتاب **الأُثُولوجيا** ،[1] وهو كتاب مختصر ونافع ، فقد أُلّف على أساس الحكمة الإشراقيّة من قبل **أفلوطين** أحد أتباع هذا المذهب ، ونسبه

١ـ تعني **الأُثولوجيا** في اللاتينيّة الإلهيّات بالمعنى الأخصّ ، وباعتبار نقلهم إلى العربيّة الحكمة اليونانيّة المدوّنة باللاتينيّة ، فقد اقتبست هذه الكلمة منها ، وبقيت تسمية هذا العلم لدى الفلاسفة على سابق عهدها.

البعض خطأً إلى أرسطو.

وقد تُرجمت كتب اليونان في الطبّ والفلسفة والهيئة والهندسة إلى العربيّة زمن الإمامَين الرضا والجواد عليهما السلام من قبل **حُنَين العباديّ**، وقد حرّر **ثابت بن قُرَّة** أُصول أقليدس، وكان أوّل من هذّبه وحلّ مشكلاته ومعضلاته. وبالرغم من ترجمة هذه الكتب إلى العربيّة من قبل الخلفاء العبّاسيّين وبأمرهم، ولكن لا يوجد هناك أيّ دليل على أنّ ذلك قد حصل من أجل معارضة الأئمّة عليهم السلام.

ذلك أنّ الطبّ والفلسفة والهندسة وأمثالها من العلوم لا تخلو فقط من معارضة مدرسة أهل البيت، بل إنّها كانت موافقة لها، فالبرهان والمنطق يوضّحان بصورة أفضل الأقوال الحقّة لأئمّة الدين، ولم يكن مدّعاهم خاطئاً ليخشوا ويقلقوا من المنطق والقياس.

وكان جمع من تلامذة الإمام الصادق عليه السلام، أمثال **محمّد بن النُّعمان** المعروف **بالأَحْوَل ومؤمن الطاق وهِشام بن الحَكَم** من أهل الجدل والبرهان، والحاصل من دراسة حياة هشام بن الحكم على وجه خاصّ أنّه قد عرف الفلسفة ودرسها؛ وكان هؤلاء يصرّون بتوظيف منطقهم وبرهانهم القويّ القويم على إشاعة مدرسة الولاية وإثبات حقّانيّتها.

ولقد بقيت **حكمة المشّائين** وكتب أرسطو تدرّس بشكل مستمرّ في المدارس والمساجد حتّى ألّف **المعلّم الثاني: الفارابي**، **والشيخ الرئيس ابن سينا** كتباً مستقلّة في الفلسفة، وظهر علماء، جيلاً بعد جيل وعصراً بعد عصر، من أمثال **ابن فَهد**، **وابن مسكويه**، **وابن رُشد**، **والخواجة نصير الدين الطوسيّ**،[1] **وميرفندرسك**، و**الميرداماد** الذين أوضحوا وبيّنوا

١ـ يلزم أن نورد هنا ـ بالمناسبة ـ المدح والثناء الذي ذكره الآية الإلهيّة في الأدب

والعربيّة والفقه والأُصول والحكمة ، نادرة الزمان آية الله الحاجّ ميرزا أبو الفضل الطهرانيّ ابن آية‌الله الميرزا أبي القاسم كلانتر صاحب «تقريرات مباحث ألفاظ الشيخ الأنصاريّ» ، وأب آية‌الله الحاجّ الميرزا محمّد الثقفيّ صاحب التفسير الفارسيّ «روان جاويد» (=الروح الخالدة) أعلى الله مقامهم في كتابه النفيس النافع : «شفاء الصدور في شرح زيارة العاشور»، ذيل فقرة **وَالْعَنْ يَزِيدَ بْنَ مُعَاوِيَةَ** ، صفحة ٣٠٤ و ٣٠٥ في شأن الخواجة نصير الدين الطوسيّ ليتّضح حال الخواجة باعتباره أحد فلاسفة الإسلام ، يقول:

أُستاذ البشر الخواجة نصير الدين رضي الله عنه ، اعترف المؤالف والمخالف بأُستاذيّته طوعاً وكرهاً ، فلُقّب تارةً بأفضل المحقّقين وأحياناً بالعقل الحادي عشر ، ومرّة بسلطان الفقهاء والحكماء والوزراء ، كما في إجازة الشهيد الثاني لحسين بن عبد الصمد والد الشيخ البهائيّ ، وفي موضع قيل في حقّه : **أَفْضَلُ أَهْلِ عَصْرِهِ فِي العُلُوم العَقْلِيَّةِ وَالنَّقْلِيَّةِ** ؛ كما شهد في حقّه العلاّمة والشهيد الثاني ، أو قيل في حقّه : **أَفْضَلُ مَنْ شَاهَدْنَاهُ فِي الأَخْلَاقِ** ؛ كما قد ذكر العلاّمة في إجازة بني زهرة ؛ وقد أثنى عليه مصنّف «الزيج الخاقانيّ» الذي صنّفه باسم الميرزا أُلُغ بيك ثناءً بالغاً ، فيه أنّه سُرَّ منه العلم والعلماء ؛ أمّا قول الأُستاذ الأعظم البهبهانيّ في تعليقته على «رجال الميرزا» فلا أجمل ولا أبدع منه ، فقد قال عنه: **لاَ يَحْتَاجُ إلَى التَّعْرِيفِ لِغَايَةِ شُهْرَتِهِ ؛ مَعَ أَنَّ كُلَّ مَا يُقَالُ فِيهِ فَهُوَ دُونَ رُتْبَتِهِ**. والحقّ أنّ ألف غزّاليّ وأفضل من الغزّاليّ ينبغي أن يكونوا من قطّاف عناقيد بيدر تحقيق ذلك المحقّق المشهور والعلاّمة الكبير، بل لو نظرتَ بعين الإنصاف ووضعت التعصّب جانباً لأمكنك القول إنّ الخواجة رضي الله عنه هو أفضل علماء بني آدم من بدء الدنيا إلى يومنا هذا. ويكفيه فضلاً أنّ علماء الإفرنج في سعيهم للردّ على الإسلام وإنكار إعجاز القرآن من جهة عجز العالم عن الإتيان بمثله احتجّوا بأنّه لم يأتِ أحد بما جاء به الخواجة في «المجسطي» أيضاً. وقد عدّه مؤلّف «كشف الظنون» وغيره في أوائل الطبقة الأُولى من المصنّفين واعترف أنّ له على جميع أهل العلم من كلّ ملّة حقّاً ظاهراً تجب رعايته وحفظه ، ووصلت درجة فضله وتحقيقه إلى حيث لم يرتض الملاّ سعد الدين التفتازانيّ لنفسه أن تصدر منه كلمة مخالفة للتحقيق في شأن إشكال على توهّم في عبارة «تجريد الطوسيّ» في مبحث الماهيّة ، فيقول: وهذا مؤيّد لنسبة هذا الكتاب إلى غير المحقّق ، مع أنّ شأن كتاب «التجريد» يجلّ عن نسبته إلى غيره. وكلام التفتازانيّ هذا مع ظهور عداوته ومنافسته للخواجة الذي لم يزل أتباعه يئنّون من أذى بنانه

عالم الإسلام والتوحيد والنبوّة والإمامة والمعاد والأخلاق ومكارم الفضائل بنور معارفهم في تفسير القرآن وبيان حقائقه العلميّة والفلسفيّة ، حتّى وصل الأمر إلى أفضل الحكماء وأشرف الفلاسفة الأقدمين من المتقدّمين والمتأخّرين ، صاحب مدرسة الإشراق وحائز معارف المشّائين ، الجامع بين العرفان والبرهان ، وبين صفاء الباطن وقوّة البرهان والمنطق : **صدر المتألّهين الشيرازيّ** أَعْلَى اللَـهُ دَرَجَتَهُ وَجَزَاهُ اللَـهُ عَنِ الإسْلَامِ وَالمُسْلِمِينَ وَعَنِ التَّفَقُّهِ وَالتَّفَكُّرِ وَالعِلْمِ خَيْرَ جَزَاءِ المُعَلِّمِينَ .

فقد عاش عمراً في الزهد والعرفان مع ذكائه ومواهبه الفريدة ونبوغه الذاتيّ المكتسب ؛ جمع في أُسلوبه بين مدرسة المشّائين والإشراقيّين وأهل التفسير والحديث ، وخطى خطواته في ساحة المجاهدة والشهود مع احترامه وإكرامه لصاحب الشريعة والقرآن ومقام الولاية الكبرى لحلّ

وبيانه وضربات سيفه وسنانه ، والحمد للّه على وضوح الحجّة.

وقد عدّ الصفديّ في «شرح لاميّة العجم» الخواجة من الذين لم يصل أحد إلى رتبتهم في فنّ المجسطي ، وتخصيصه هذا كان لعناده.

خجسته رهنمونى ذو فنونى   كه در هر فنّ بود چون مرد يک فنّ

لمؤلّفه :

فِي كُلِّ فَنٍّ بَارِعٌ كَأَنَّهُ   لَمْ يَتَّخِذْ سَوَاء إلَّا فَنَّهُ

والخلاصة فإنّ فضائل هذا البحر الموّاج الذي كأنّه في ظلمات الجهل السراج الوهّاج ممّا تضيق عنه هذه الصفحة.

وَيَا عَجَباً مِنِّي أُحَاوِلُ وَصْفَهُ   وَقَدْ فَنِيَتْ فِيهِ القَرَاطِيسُ وَالصُّحُفُ

ولَنِعْمَ ما قِيلَ :

كتاب فضل ترا آب بحر كافى نيست   كه تر كنى سر انگشت وصفحه بشمارى

يقول : «إنّ ماء البحر لن يكفي لتبلّ به أطراف الأصابع فتقلّب بها صفحات كتاب فضائلك».

المعضلات من الروايات ، والتفسير المشكل من الآيات ، وللوصول إلى أعلى درجات اليقين والورود إلى مقام الصدّيقين ، محلّقاً بجناحَي العلم والعمل ، فحلّ مسائل الفلسفة ببرهانه المتين ، وأضاف **خمسمائة مسألة** مبتكرة على مسائل الحكمة اليونانيّة التي لم تتجاوز أُصولها **المائتي مسألة** ، فأوصل مسائل الحكمة إلى **سبعمائة مسألة** .

ولقد هدم صدر المتألّهين أُصول الفلسفة اليونانيّة وصار بنفسه موسّساً لفلسفة جديدة ومعجون يلائم الطبع من حكم الفطرة وحكم العقل وحكم الشرع ، صاغه بفكره الصائب من بين آلاف الكتب في الفلسفة والحديث والتفسير ، فسقى منه عشّاق العرفان ، ومشتاقي الاستدلال والبرهان ، والمتلهّفين من المتشرّعين وأهل الإيمان ، ثمّ ألّف العديد من الكتب التي كان من أهمّها كتاب «**الأسفار الأربعة**» ، فبعث حياة جديدة في العلم والبرهان ، وفي اليقين والعرفان ، وفي الشرع والإيقان ، وصار ملجأً ومأوى للحكماء الصادقين في دفع وردّ شبهات المنكرين والملحدين من المادّيّين والزنادقة والمنحرفين عن الولاية المطلقة الكلّيّة ؛ وسنداً وناصراً للقرآن بحيث أضحى الجميع في السنين الأربعمائة الأخيرة يجلسون إلى مائدته ويرتوون من شرابه المعين ، ويستنشقون من بركات أنفاسه القدسيّة ورحمات كتبه المؤلّفة السنيّة .[1]

١ـ يمكن معرفة مقام صدر المتألّهين ومنزلته من إحدى رباعيّات أُستاذه في علم المعقول: أفضل الحكماء المتشرّعين الميرداماد رضوان الله عليه التي أنشدها فيه:

صدرا جاهت گرفت باج از گردون اقرار به بندگيت كرد افلاطون
در مكتب تحقيق نيايد چون تو يک سر ز گريبان طبيعت بيرون

يقول : « صدرا ؛ لقد فرض جاهك أتاوة على الفلك ، وأقرّ أفلاطون بعبوديّته لك. لن يأتي نظيرك في منهج التحقيق ، ولن ينجب الدهر أبداً مثلك».

ولا زال هذا الكتاب رائجاً مستعملاً في الحوزات المقدّسة العلمية لطلبة العلوم الدينيّة، وما برح هذا السِّفر العظيم والرسالة المُبينة التي ترتكز على أصالة التوحيد، تبحث وتدرّس ويزداد رونقها يوماً بعد يوم بحمد الله ومنّه، حيث تُظهِر عقم الفلسفة الغربيّة الخاوية برغم أنف أنصار المدرسة

وأنشد في مدحه الملّا عبد الرزّاق اللاهيجيّ صاحب كتاب «گوهر مراد» (=جوهر المراد) و«شوارق الإلهام»، الذي كان تلميذه وصهره عدّة أبيات:

افلاطون زمان استاد عالم   كه با او دل نيارد ياد عالم
جهان فضل را مهد دل افروز   شب جهل از فروغش طلعت روز
چو او در مُلك دانش صدر گرديد   هلال دانه دانش بدر گرديد
به يُمن نسبت او خاک شيراز   بهای خون صد يونان دهد باز
نيارد مثل او در دانش و هوش   فلک گو تا أبد ميگرد و ميكوش

يقول: «أفلاطون العصر وأُستاذ العلم، فالقلب لا يتذكّر العالم إذا كانت في صحبته.
أنار مهدُ القلب عالمَ الفضل، وصار ليل الجهل من إشراقه كطلوع النهار.
وحين صار في مملكة العلم صدراً، أضحى هلال العلم بفضله بدراً.
وصارت أرض شيراز بيُمن نسبته اليها، تعدل دية مائة من مثل اليونان.
لن يُنجب العالم مثاه في العلم والكياسة، ولو اجتهد وسعى الى الأبد».

وقد نقل عن الملّا صدرا أشعار عربيّة كثيرة، لكنّه لم ينقل عنه شعر بالفارسيّة إلّا هذين البيتين المذكورين في مجمع الفصحاء:

آنانكه ره دوست گزيدند همه   در كوى شهادت آرميدند همه
در معركهٔ دو كون، فتح از عشق است   هر چند سپاه او شهيدند همه

يقول: «إنّ جميع من اختاروا سبيل الحبيب، رقدوا بأسرهم في طريق الشهادة.
ولقد كان الظفر والفتح للعشق في معركة الكونَين، ولو أنّ جنوده قد استشهدوا جميعاً».

وقد ذكر في «تفسير سورة السجدة» ص ١٠، أبياتاً بالفارسيّة في عظمة القرآن، وفي ص ٣٤، أبيات في عظمة رسول الله وارتباطه بيوم الجمعة. وقال: أنشدتُ هذه الأشعار حين كنت في حالٍ من الهيام (في حالٍ عرفانيّة).

المادّيّة وأتباع الزندقة والمبهورين بفلسفة الغرب. فالحوزات العلميّة منهمكة بتدريس هذا الكتاب، سواء في النجف الأشرف، أم في بلدة قم الطيّبة، أم في دار العلم إصفهان، أم في المشهد الرضوي المقدّس وسائر أمكنة العلم ومراكز المعرفة، ممّا بَهَر الخفافيش من معاندي الإسلام!

ألا يحزّ في النفس أن نتمنّى زوال بحث وتدريس هذا السِّفر الجليل في الحوزات العلميّة تحت مبرّر الفلسفة القديمة،[1] ونتشدّق بالحديث عن العالم الفارغ **لبيكون** والفلسفة الخاوية **لكانت وديكارت**؟! أو نبحث عن العون في ملاقحة الفقه مع الفلسفة الجديدة من أفكار **فرويد وبرتراند راسل**؟! فنُجيز عمل اللواط ونهج قوم لوط الذين يندى لذكر قبائحهم جبين البشريّة؟! أو نتابع مجلس الأعيان الإنجليزيّ فنوقّع علناً على شرعيّة

١ـ ينبغي العلم أنّ الفلسفة والحكمة الفعليّة في «الأسفار الأربعة» تغاير كلّيّاً حكمة اليونان، فقد نقض الملّا صدرا تلك الفلسفة من أساسها؛ وهذه الحكمة هي الفلسفة الحقيقيّة والواقعيّة القائمة على أساس البرهان، التي يقرّها العقل ويُمضيها، وهي سند ودعامة لدين الإسلام المقدّس وشرعه المبين. يقول عبد الحليم الجنديّ في كتاب «الإمام جعفر الصادق» ص ٢٩٣: إنّ الوزير الصنعانيّ (المتوفّى سنة ٨٤٠) صاحب كتاب «ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان» يذكر أنّ أئمّة أهل البيت لم يعرفوا المنطق اليونانيّ والأرسطاطاليسيّ، ولم يصوغوا أدلّتهم على التوحيد في صور منطقيّة، وإنّما في منهجٍ قرآنيّ أساسه الاعتبار. وإنّ الإمام عليّاً لم يعرفه في خطبه ومواعظه، وإنّ الأئمّة قدّموا أدلّةً التوحيد من غير ترتيب مقدّمات المنطق ولا تقاسيم المتكلّمين.

ويقرّر الوزير الصنعانيّ أنّ أُسلوب المسلمين أرجح وأحجى من أُسلوب المناطقة، (فهذا أُسلوب الأنبياء والأولياء والأئمّة والسلف من النظر، وخالفهم بعض المتكلّمين وأنواع المبتدعة فتكلّفوا وتعمّقوا وعبّروا عن المعاني الجليّة بالعبارات الخفيّة).

ثمّ يقول عبد الحليم الجنديّ في ص ٢٧٩: يقول روجير بيكون (المتوفّى سنة ١٢٩٤ ميلاديّة): **لَوْ أُتِيحَ لِيَ الأَمْرُ لَحَرَقْتُ كُتُبَ أَرَسْطُو كُلَّهَا، لِأَنَّ دِرَاسَتَهَا يُمْكِنُ أَنْ تُؤدِّي إِلَى ضِيَاعِ الوَقْتِ، وَإِحْدَاثِ الخَطَأِ، وَنَشْرِ الجَهَالَةِ.**

اللواط ؟

ألَا ترتوي مقالة «بسط وقبض نظريّة الشريعة» من ذاك النبع ؟

أفهل يتمخّض دخول الفلسفة الحديثة في الحوزة العلميّة ، وإلغاء تدريس الفلسفة المانحة للحياة والسعادة وحصاد ألف سنة من أفكار علماء مثل ابن سينا والفارابيّ والميرداماد في القالب الفكريّ البِكر الفريد للملّا صدرا الشيرازيّ عن غير هذه النتيجة ؟

لقد قال المرحوم آية الحقّ وسند الفلاسفة الحكيم الأعظم آية الله المفخّم الحاجّ **الميرزا مهدي الأشتيانيّ** أعلى الله درجته ، وكان فيلسوفاً عظيماً ونابغة في الحكمة والفلسفة عند عودته إلى طهران بعد سفره للمعالجة وإجراء عمليّة جراحيّة في ألمانيا : حين رقدتُ في المستشفى في ألمانيا جاء جميع الفلاسفة هناك لرؤيتي بسبب شهرتي لديهم ، وقد بحثتُ معهم في أُصول مسائل الفلسفة ، فشاهدتُ حقّاً أنّ معلوماتهم تقلّ عن معلومات أحد الطلبة المبتدئين في حوزاتنا .[1]

أمّا قول القائلين بأنّنا لا نحتاج إلى العلوم العقليّة والحكمة ، وأنّنا نستفيد ممّا ورد من العلوم العقليّة في أخبار الأئمّة عليهم السلام ، أمّا سوى ذلك فلا حاجة لنا به ؛ فيماثل كلام عمر حين كتب إلى عمرو بن العاص حاكمه في مصر :

١ـ ولد في سنة ١٣٠٦ وتوفّي في سنة ١٣٧٢ هجريّة ، ومؤلّفاته عبارة عن «حاشية أسفار الملّا صدرا» ، «حاشية رسائل الشيخ مرتضى الأنصاريّ» ، و«شرح منطق حكمة منظومة السبزواريّ» ، و«شرح شفاء ابن سينا» ، و«شرح كفاية الآخوند الملّا محمّد كاظم الخراسانيّ»، و«شرح مكاسب الشيخ الأنصاريّ» ، و«رسالة في الجبر والتفويض» ، و«رسالة في العلم الإجماليّ» ، و«رسالة في الطلب والإرادة» ، و«رسالة في وحدة الوجود» ، و«رسالة في قاعدة لا يَصدرُ عن الواحدِ إلّا الواحدُ».

وَأَمَّا الكُتُبُ الَّتِي ذَكَرْتَهَا ، فَإِنْ كَانَ فِيهَا مَا وَافَقَ كِتَابَ اللَهِ ، فَـفِي كِتَابِ اللَهِ عَنْهُ غِنَىً . وَإِنْ كَانَ فِيهَا مَا يُخَالِفُ كِتَابَ اللَهِ ، فَلَا حَاجَةَ إلَيْهِ. فَتَقَـدَّمْ بِإعْدَامِـهَا ؛ فَشَـرَعَ عَمْرُو بْنُ العَاص فِي تَفْرِيقِـهَا عَلَى حَمَّـامَاتِ الإسْكَنْدَرِيَّةِ وَإحْرَاقِهَا فِي مَوَاقِدِهَا. [1]

فهذه المقولة بمثابة سدّ باب التحقيق والتدقيق ونشـر عـلوم وثـقافة الدنيا والآخرة ، وهي ذات قول عمر : **حَسْبُنَا كِتَابُ اللَهِ.**

فلو لم يكن هناك مفسّر وحارس للقرآن كالعترة ، فإنّه سيصبح وسيلة لكلّ جانٍ جائر يحتجّ ويستشهد بآيات القرآن على حكومته الجائرة ؛ وكذا الأمر في فهم روايـات الأئـمّة عـليهم السـلام بـاعتبارها ليست فـي مـرتبة واحدة ، ولاستناد الكثير منها إلى علوم دقيقة عقليّة ، فإن لم تجرِ الاستعانة بالعلوم العقليّة في حلّ تلك الدقائق والمعارف العظيمة ، فإنّ عاقبتها ستكون الجمود على الظواهر ، نظير التشبيه والتعطيل والتجسيم والجبر والتفويض ، أوكالشيخيّة والأخباريّين في فهمهم المعاني السخيفة والمتدنّية من كـتاب اللـه ، واسـتنباطهم المـفاهيم السـطحيّة التـافهة مـن الروايـات ، وحـاشاه وحاشاهم عن مثل ذلك .

لقد كتب **آية الله الشهيد الحـاجّ السـيّد مـحمّد عـلي الطـباطبائيّ القاضي** رضوان الله عليه في تـعليقة له عـلى كـتاب **«الفِـرْدُوسُ الأَعْـلَى»** **لآية الله المعظّم الحاجّ الشيخ محمّد الحسين كاشف الغطاء** عدّة مـطالب

١ـ الغدير ، ج ٦ ، ص ٢٩٨ و ٣٠٠ .

وللمرحوم آية الله الحاجّ الشيخ مرتضى المـطهّريّ كـتاب بـاسم «كـتابسوزى ايـران ومصر» (=إحراق الكتب في إيران ومصر) ، أورد فيه الشواهد العديدة على أنّ إحراق الكتب في إيران ومصر شائعة قد نشرها الأُوروبّـيّون هـذه الأيّـام لإظـهار مـخالفة الإسـلام للـعلم والثقافة.

في مقدّمتها نوردها هنا لأهمّيّتها :

كانت جامعة النجف في كلّ الأزمنة مركزاً للبحوث والتحقيقات العلميّة والفلسفيّة والذبّ عن حريم الإسلام المقدّس : وليعلم إخواننا بالقطع واليقين أنّ من نيّات أعداء الدين وخصماء المذهب من الأُمم الأجنبيّة ومن مكايدهم الممقوتة ، هدم أساس هذه الجامعة ومحوها وإبادة مجدها وعظمتها وحطّها عن مقامها الشامخ في عالم التشيّع ونسف حضارتها العلميّة ونزعاتها الدينيّة ، ولهم السعي البليغ في تهيئة أسباب ضعفها وسقوطها واضمحلالها وإرجاع الناس إلى غيرها وترغيبهم إلى سواها في أمر التقليد والفتوى ، وتحكيم الجمود على أفرادها وسوقهم إلى نبذ أغلب العلوم إلى ورائهم ظهريّاً ، والاكتفاء ببعض العلوم التي لا يكفي في قلع أساس الأباطيل والأضاليل وقمع جرثومة الزندقة والإلحاد ،كما فعلوا ذلك كلّه بالنسبة إليها بعد أوائل هذا القرن ،شاهدنا ذلك في السنين الأخيرة وفي أثر ذلك توقّف جمع من الأساتذة في هذه الجامعة عن دراسة بعض العلوم ، **وَصَارَ هَذَا الأَمْرُ مِنَ الجِنَايَاتِ الَّتِي لَا يَسُدُّهَا شَيءٌ إلَّا التَّيَقُّظُ وَسَدُّ هَذِهِ الثُّلْمَةِ بِالحُرِّيَّةِ التَّامَّةِ فِي تَحْصِيلِ العُلُومِ بِشَتَّى أَنْوَاعِهَا.**[1]

١ـ مقدّمة «الفردوس الأعلى» صفحة «يز» و«يج» ، ويقول في نفس المقدّمة أيضاً صفحة «ى»ا إلى «به» : **وَكَانَتِ الحُرِّيَّةُ التَّامَّةُ فِي دِرَاسَةِ العُلُومِ مِنْ مَعْقُولِهَا وَمَنْقُولِهَا وَالتَّوَسُّعِ فِي اقْتِنَائِهَا وَتَحْصِيلِهَا عَلَى أَنْوَاعِهَا سَائِدَّةً عَلَى تِلْكَ الجَامِعَةِ** [يعني النجف الأشرف]، **وَفَتَحَتْ طُرُقَاتٍ سَهْلَةٍ فِي التَّحْلِيلِ وَالتَّحَرِّي العِلْمِيِّ وَتَنْوِيرِ الأَفْكَارِ وَالبَحْثِ وَالتَّنْقِيبِ النَّظَرِيِّ ، وَاجْتَمَعَ فِيهَا أَيْضاً جَمْعٌ مِنْ أَكَابِرِ الحُكَمَاءِ المُتَشَرِّعِينَ ، وَالعُرَفَاءِ الشَّامِخِينَ ، وَالمُرَبِّينَ لِلنُّفُوسِ بِالحِكْمَةِ العَمَلِيَّةِ وَالدِّرَاسَةِ العِلْمِيَّةِ ، وَبِتَخَلُّقِهِمْ بِأَخْلَاقِ اللهِ ، وَبِخَشْيَتِهِمْ فِي جَنْبِ اللهِ ، وَبِتَحَلِّيهِمْ بِالفَضَائِلِ الإنسَانِيَّةِ ، وَمَا كَانَ مِنْ نِيَّاتِهِمْ إلّا خِدْمَةُ البَشَرِيَّةِ ، مَعَ مُرَاعَاتِهِمْ الطَّرِيقَةَ المُثْلَى وَالشِّرْعَةَ الوُسْطَى فِي بُحُوثِهِمُ القَيِّمَةِ وَدُرُوسِهِمُ العَالِيَةِ ،**

ويقول المرحوم كاشف الغطاء في هذا الكتاب :

وَالظَّاهِرُ بَلِ اليَقِينُ أَنَّ أَقْوَى المُسَاعِدَاتِ وَأَعَدَّ الأَسْبَابِ وَالمُوجِبَاتِ لِلْوُصُولِ إِلَى مَقَاصِدِ أُمَنَاءِ الوَحْيِ وَكَلِمَاتِ الأَنْبِيَاءِ وَالأَوْصِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ إِنَّمَا هُوَ فَهْمُ كَلِمَاتِ الحُكَمَاءِ المُتَشَرِّعِينَ. [1]

وقد كتبتُ رسالة مختصرة لم تطبع حتّى الآن في وجوب الاهتمام بتعلّم الحكمة والعرفان ، دوّنتُ فيها أسماء جمع كثير من جهابذة العلماء وأساطين الفقاهة الشيعيّة من صدر الإسلام إلى الآن ممّن كان لهم اهتمام

وَتَجَنُّبِهِمْ عَنِ الجُمُودِ وَالوُقُوفِ عَنْ تَحْصِيلِ العُلُومِ وَالرُّجُوعِ إِلَى القَهْقَرَى.

ثمّ يتكلّم بعد ذلك مفصّلاً عن الشيخ محمّد باقر الإصطهباناتيّ ومهارته في تدريس الحكمة المتعالية ، وهو الأُستاذ الوحيد للعلّامة آية الله الحاجّ السيّد محمّدحسين الطباطبائيّ أعلى الله تعالى مقامه في علم الفلسفة ، ثمّ يقول:

وَأَيْضاً كَانَ مِن مَشَاهِيرِ المُدَرِّسِينَ لِلحِكْمَةِ المُتَعَالِيَةِ فِي ذَلِكَ الوَقْتِ ، الشَّيْخُ العَلَّامَةُ الجَامِعُ لِأَنْوَاعِ العُلُومِ : الحَاجُّ المِيرْزَا فَتْحُ اللهِ الشَّهِيرُ بِشَيْخِ الشَّرِيعَةِ الإِصْفَهَانِيُّ المُتَوَفَّى سَنَة ١٣٣٩ الهِجْرِيَّةِ القَمَرِيَّةِ ، الَّذِي تَقَلَّدَ الزَّعَامَةَ العَامَّةَ وَالمَرجَعِيَّةَ فِي التَّقْلِيدِ وَالفَتْوَى مُدَّةً يَسِيرَةً فِي أَوَاخِرِ عُمْرِهِ الشَّرِيفِ ، فَإِنَّهُ عِنْدَ قُدُومِهِ مِنْ إِيرَانَ إِلَى العِرَاقِ مُجَازاً مِنْ عُلَمَاءِ إِصْفَهَانَ سَنَةَ ١٢٩٥ الهِجْرِيَّةِ كَانَ مُدَرِّساً كَبِيراً فِي الحِكْمَةِ وَالكَلَامِ وَالفَلْسَفَةِ العَالِيَةِ وَالمَعَارِفِ الدِّينِيَّةِ ....

حتى يصل إلى قوله : **وَأَيْضاً كَانَ مِنَ الجَهَابِذَةِ فِي الحِكْمَةِ وَالفَلْسَفَةِ وَمِنَ المُدَرِّسِينَ فِي هَذِهِ الجَامِعَةِ ، الشَّيْخُ العَلَّامَةُ الحَكِيمُ : الشَّيْخُ أَحْمَدُ الشِّيرَازِيُّ المُتَوَفَّى ١٣٣٢ الهِجْرِيَّةِ الجَامِعُ بَينَ المَعْقُولِ وَالمَنقُولِ . وَهُوَ أَيْضاً مِنْ أَسَاتِذَةِ شَيخِنَا العَلَّامَةِ** [يعني الشيخ محمّدالحسين كاشف الغطاء] **أَدَامَ اللهُ أَيَّامَهُ ....**

حتّى يصل إلى القول : **فَلَو أَرَدْنَا إِحْصَاءَ المُدَرِّسِينَ وَالأَسَاتِذَةِ الكُبَرَاءِ فِي المَعْقُولِ وَالأَخْلَاقِ وَالعِرْفَانِ وَالحَدِيثِ وَالرِّجَالِ وَعُلُومِ القُرآنِ فِي أَوائِلِ هَذَا القَرْنِ لَطَالَ بِنَا الكَلَامُ ...** إلى آخره.

١ـ «الفردوس الأعلى» ص ٤٢ .

أكيد بعلم الفلسفة والعرفان، وكانوا بالرغم من حيازتهم مقامات عالية في الفقه والحديث يعدّون من المدرّسين الأجلّاء لهذه العلوم.[1]

ويلزم الآن، وقد بانت الضرورة الأكيدة لتدريس وتعلّم الحكمة المتعالية والفلسفة السامية، وتحصيل العرفان، والارتباط بعالم الربوبيّةعالم ما وراء الطبيعة، ولقاء الحضرة الأحديّة، ولزوم المشاهدة والمعاينة والبرهان اليقينيّ على ربط القديم بالحادث، وإحاطة وهيمنة الله الخالق الحكيم العليم، في الحوزات العلميّة المقدّسة التي تمثّل جامعات بناء الإنسان وتربية البشر، ومدرسة لتعليم القرآن وتعلّمه، وإشاعة روح وسرّ النبيّ ومقام الولاية؛ يلزمنا أن ننقل نصّ عبارات من كاتب مقالة «**بسط وقبض تئوريك شريعت**» (= بسط وقبض نظريّة الشريعة) لتتّضح أكثر فأكثر مواضع الخطأ ومكامن الاشتباه فيها مضافاً الى ما ذكر، فقد قال:

هل يمكن الاعتقاد بعلم النفس القديم والاعتماد على تلقينه وتكراره في الوقت الحاضر مع إهمال الطبيعيّات الحديثة (أي علوم وظائف الأعظاء والأنسجة والكيمياء الحيويّة والأجنّة و...)؟

هل يمكن تعريف موجود غير مادّيّ بدون معرفةٍ أفضل للمادّة؟

إنّ كلّ القدرات التي كُشفت حاليّاً في المادّة وأنواع تركيباتها تدعونا لفهم جديد للأُمور غير المادّيّة، ونتساءل: ألم يكن تضخيم القدماء لمسائل ما وراء الطبيعة في الحقيقة نابعاً من جهلهم؟

ويمكن التوسّع أكثر في هذا السؤال، فنسأل: ما الذي حصل هذه الأيّام فدعا حوزات العلوم الدينيّة إلى إخراج الطبيعيّات القديمة في تكتّم وهدوء من ساحة الفلسفة والغاء تدريسها، والقبول إلى حدّ ما، بالعلوم الحديثة، لكنّ غياب علوم الطبيعة القديمة تلك لم يضرّ ما

١ـ «الرسالة الخطّيّة رقم ٧» ص ٣٤٩إلى ٣٥٥.

بعد الطبيعة ولم يُحزنها بشيء ؟!

أفيمكن فكّ ارتباط إلهيّات الفلسفة مع الطبيعيّات بشكل كامل، كي تبقى الإلهيّات محتفظة بهيئتها وقوامها السابق ؟

أفلم تكن مسائل ما بعد الطبيعة قد صُمّمت ليمكنها ضمّ تلك الطبيعيّات واحتوائها داخلها ؟

أو هل ولد ونشأ هذان الاثنان بلا ارتباط وتناسب بينهما ؟

أَوَ هَلْ يمكن اليوم أن يُقبل بالطبيعيّات الحديثة (العلوم التجريبيّة الحديثة) مع ترك الفلسفة محفوظةً يجري تدريسها بدون أن تمسّها يد ؟

لقد كانت تلك الإلهيّات هي الموجّه والمكمّل والمبرّر لتلك الطبيعيّات، وكان بناء المعرفة الشامخ ذاك ذا طابقينِ لا غرفتينِ، أفيمكن لانهيار أحد الطابقين أن يترك الآخر بلا ضرر أو تأثّر ؟

إنّ الاضطراب والتشويش المشاهَد هذه الأيّام في كلمات أعلام الدين في رفع تعارض العلوم البشريّة مع معارف الوحي، ناشئ من أنّ علمَي المعرفة والطبيعة القديمين لم يخليا مكانهما بشكل كامل لعلمَي المعرفة والطبيعة الحديثينِ، ولا يزال علم الكلام الإسلاميّ وفهم الشريعة غير منسجمَين بعدُ مع المعارف الجديدة، ولم يحتلّا بعدُ موقعهما المناسب في الهندسة الجديدة للمعرفة. لذا نجد العلماء المسلمين يجهدون أنفسهم، اعتماداً على علم المعرفة القديم (بدون لحاظ ظرائف الأبحاث الجديدة في الفلسفة وأُسلوب المعرفة العلميّة) ليحكموا على المكتسبات العلميّة الجديدة ويَزِنُوا معارضتها أو موافقتها للمعارف الدينيّة.[1]

حتّى يصل إلى القول :

١ـ مجلّة «كيهان فرهنگى» بالفارسيّة، رقم ٥٠، أُرديبهشت ماه ٦٧، رقم ٢، صفحة ١٣، العمود الأخير.

ويجب الإذعان أنّ شيئاً لم يبق على سابق عهده ، لا أدبنا، ولا فلسفتنا، ولا كلامنا ، ولا عرفاننا ، فلقد وقع فيها جميعاً الانبساط والانقباض، فمن أين يتأتّى الادّعاء بأنّ فهم الشريعة يمكنه أن يبقى في منأىً عن رياح التغيير ، وأن لا يتضرّر أو يربح في معاملته معها أخذاً أو عطاءً ؟ [1]

إلى قوله :

ولهذا السبب فإنّ فلسفتنا لما وراء الطبيعة ، وقد انعزلت منذ القدم بعيداً عن المعرفة العلميّة الطبيعيّة ، لم تتضرّر بنفسها وتتضاءل، بل إنّ الفلاسفة هم الذين تضرّروا لهذا السبب ، فلم يقدّر لهم أن يروا وجه الفلسفة كما ينبغي أن يكون عليه وضّاءً مشرقاً . [2]

إلى قوله :

ولا نظنّ أيضاً أنّه يمكن تصديق أنّ علم النجوم القديم قد انفصل عن الفلسفة وأنّ فلسفة ما وراء الطبيعة بقيت على حالها ، إذ إنّ تلك الفلسفة صمّمت لتضمّ علم النجوم ضمنها، وإنّ الانقلاب والتحوّل الكامل لهذا العنصر ولعناصر أُخرى غيره ـ مع بقاء الإطار السابق سالماً ـ أمرٌ لا يقرّه العقل ولا يتحمّله.

لقد بدت علائم تحوّل ما وراء الطبيعة ، وعلى الفلاسفة اليقظين أن يكونوا جادّين في النظر إليها ، وعليهم أن يَزِنُوا منظومة المعرفة الفلسفيّة من جديد، فالمعرفة التجريبيّة في العصر الجديد قد جاءت متحدية داعية للمنازلة ، أمّا ما وراء الطبيعة فليس لها فلسفة علميّة موزونة وراسخة ، وهي لا تستمدّ العون من بحث المعرفة، فهي بمجموعة من الأقوال المتناثرة أشبه منها بمنظومة متّسقة من الآراء

١ـ مجلّة «كيهان فرهنگی» بالفارسيّة ، رقم ٥٠ ، أُرديبهشت ماه ٦٧ ، رقم ٢ ، صفحة ١٤، العمود الأوّل ، وكذلك صفحة ١٥ ، العمود الأوّل.

٢ـ مجلّة «كيهان فرهنگی» ، رقم ٥٢ ، تيرماه ٦٧ ، رقم ٤ ، ص ١٣ ، العمود الأخير.

المرتبطة ببعضها.[1]

ويُقال في الإجابة على هذه المطالب: ينبغي القول ردّاً على جميع هذه الاحتمالات والإشكالات التي وردت بصورة استفهام في المجموعة المذكورة بأنّها ليست إلّا مطالب لا دليل لها، ومدّعىً خالياً من البرهان، وخطابة نظّمت بلا مطالعة وتحقيق، وشعراً قيل بلا فهم ولا تدقيق.

فأوّلاً: ما هي علاقة فلسفة ما وراء الطبيعة والإلهيّات بالمعنى العامّ والخاصّ بالفلسفة والعلم الطبيعيّ؟

ينبغي أن يكون ارتباط العلوم فيما بينها أو عدم ارتباطها إمّا في الموضوع أو في الحكم، وبعبارة أشمل: من جهة المسائل أو من جهة الغاية والهدف.

إنّ الحكمة الإلهيّة وفلسفة ما وراء الطبيعة لا ترتبط أبداً في أيٍّ من هذه الجهات مع المسائل الطبيعيّة الواردة في العلوم التجريبيّة مع ملاحظة توسّعها.

فهناك في الحكمة الإلهيّة البحث عن العلّة والمعلول، والتقدّم والتأخّر، والوحدة والكثرة، والوجود والماهيّة، والجوهر والعرض وأمثال ذلك، والبحث في إثبات القادر الحيّ الأزليّ الأبديّ السرمديّ الشاعر الحكيم العليم القدير المختار ذي المشيئة والإرادة، من الطرق المختلفة لإبطال الدور والتسلسل، وعينيّة العلّة مع المعلول في الوجود واختلافها حسب التنازل والتصاعد وغيرها.

أمّا الطبيعيّات، فيُبحث فيها عن الحركة والزمان والمكان والمادّة والقوّة وتكوّن الأرض والسماء والأنهار والأشجار والأحجار والشمس

١ـ مجلّة «كيهان فرهنگى» رقم ٥٢، تيرماه ٦٧، رقم ٤، ص ١٦، العمود الأوّل.

والقمر ، وعن ظهور المعادن ، وعن بدن الإنسان ، والطبّ والهيئة والنجوم ومسائل الفيزياء والكيمياء وأمثالها .

فقولوا لنا : أهناك اشتراك بين هذين العِلمَين في موضع معيّن ، ليسبّب ضمور أحدها تضخّم الآخر ونموّه ؟ في الموضوعات ، أو الأحكام ، أو الغايات ؟!

إنّ الحكمة الإلهيّة وفلسفة ما وراء الطبيعة تقوم بإثبات معيّة الذات القدسيّة للحيّ المتعال مع جميع الموجودات ، وتشاهد تجلّي الله العالم القدير في جميع الأشياء ، وتبرهن على ربط الحادث بالقديم ، وتبحث في إثبات العلل المتوسّطة كالمُثل الأفلاطونيّة مثلاً ، أو بتعبير القرآن عن الملائكة المجرّدة **فَٱلْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا** ،[1] سواء في ذلك دارت الأرض حول الشمس ، أم دارت الشمس حول الأرض ، وسواء كان القمر من أقمار الأرض وتوابعها ، أم من المجموعة الشمسيّة ، وسواء تكوّن بدن الإنسان من الأخلاط الأربعة (الصفراء ، السوداء ، البلغم ، الدم) أم من موادّ سمّيت بمسمّيات أُخرى ، أم كانت حقيقتها خارجة أيضاً عن هذه الأربعة (كالأُوكسجين والهيدروجين والنتروجين والكلور والفسفور وغيرها) ، ولا فرق عندئذٍ اعتبرت العناصر البسيطة منحصرةً في أربعة لا تتجاوزها (التراب ، الهواء ، النار ، والماء) ، أم اعتبرت البسائط متجاوزة لمائة وعشرين ، وقِسْ عليه فَعْلَلَ وتَفَعْلَلَ .

ولقد كان عبدة المادّة في فلسفة الطبيعيّين يقولون : إنّ جميع هذه العناصر الأربعة ، والأخلاط الأربعة ، والأفلاك لا معلولاً ولا علّة حيّة أزليّة ، وهم الآن يقولون : إنّ العناصر البسيطة ، وحركة الإلكترونات ، وهذا

١ـ الآية ٥ ، من السورة ٧٩ : النازعات .

الدوران للعالم الدوّار ، وحركة الأمواج ، والنور والكهربائيّة ليست معلومة بعلّة أزليّة حيّة .

وكان المادّيّون في كلا العصرَين ينكرون الصانع العليم القدير ، بينما كان الإلهيّون ـ في المقابل ـ على نهج واحد يثبتون الصانع العليم القدير في كلا العصرَين .

فحيثما يبدأ البحث الإلهيّ في الفلسفة عن الماهيّة والوجود ، فماذا يضير أن نطلق اسم الماهيّة على الجسم والعناصر التي تتشكّل منه ، أو على الموجودات الحيّة الناشئة من الكيمياء الحياتيّة مثلاً ؟ فالماهيّة تمتلك في كلّ الأحوال معنى يقابل معنى الوجود ، ولا يمكن انكار هذا الكلام وردّه . ولو قلنا بأصالة الوجود فسيكون البحث واحداً عن كلا الطريقين ، في الطبيعيّات : الطبيعيّات القديمة أو العلوم التجريبيّة الحاليّة ؛ ولو قلنا بأصالة الماهيّة ، فسيكون البحث في كلا الطريقين واحداً أيضاً ، ولا فرق هناك أبداً .

ولهذا فإنّ الكلام في أنّ إزالة بحث الطبيعيّات القديمة سيوجد خللاً في بحث الفلسفة الميتافيزيقيّة (ما وراء الطبيعة) هو قول مهزوز تماماً وليس له ما يعضده ويسنده .

ويرجع ذلك إلى أنّ الإلهيّات قد وضعت على أساس قواعد منطقيّة يتكفّل علم الميزان بصحّتها واستقامتها ؛ وعلم الميزان كالقواعد الرياضيّة ثابت لا تغيّر فيه ، ولا يمكن إنكار القياسات الاقترانيّة والاستثنائيّة ، وإفادة الأشكال الأربعة بشروطها الخاصّة ، وترتيب الصغرى والكبرى ؛ فيبقى المطلب في فلسفة ماوراء الطبيعة غير مقبول ما لم يصل إلى مرحلة البرهان ، فالخطابة والجدل والشعر والمغالطة وجميع المسائل التي شكّلت إحدى مقدّماتها من هذه مِثل الأُمور غير مقبولة ، والنتيجة تتبع أخسّ

المقدّمتين ، وينبغي لمقدّمتي القياس أن تكونا مبرهنتين .

ولقد وضعوا لهذا الأمر المهمّ علم المنطق ، وكَتَب **ابن سينا** منطق «**الشفاء**» الباهر ، وألّف **الخواجة نصير الدين الطوسيّ** كتاب «**أساس الاقتباس**» ، ذلك الكتاب الضخم في المنطق ، ولا تزال دراسة علم المنطق جارية ومعهودة في الحوزات العلميّة حتّى يومنا هذا .

أمّا الطبيعيّات فهي بجميع شؤونها وجميع فروع مسائلها ، من الطبّ والنجوم والهيئة ، ومسائل الأرض والسماء ، غير مرتكزة وغير معتمدة على البرهان ، بل تعدّ مسائلها استقرائيّة ، حيث استبدلوا أخيراً كلمة الاستقراء **بالتجربة** . ولقد بيّن العلماء وأكثروا : أنّ المسائل الاستقرائيّة لا تورث القطع واليقين ، بل هي مسائل ظنّيّة تماثل المسائل الحدسيّة والفرضيّة الحاليّة ، عدا الاستقراء التامّ الذي يورث العلم واليقين .

فنسبة المسائل الطبيعيّة الاستقرائيّة إلى الإلهيّات البرهانيّة ، كنسبة فرضيّة حركات الأفلاك والتداوير المفروضة ، وثبوت السيّارات داخل جرمها ، وفرضيّة حركة السيّارات في مداراتها الخاصّة بلا فلك قد سُمّرت في جُرمه ، إلى نتيجة حسابات عالم رياضيّ ومنجّم مختصّ قاس وأجرى بصورة دقيقة حساب حركة وزمان أوج وانحطاط الشمس أو ما شاء من سيّارات ، وزمن خسوف القمر وكسوف الشمس وفق القواعد الرياضيّة .

فحسابات المنجّم والعالم في الهيئة واحدة في كلّ الصور والحالات ، لأنّها استندت إلى قواعد رياضيّة ثابتة وغير متغيّرة ، سواء أخذنا الأرض كمركز للعالم حسب هيئة بطليموس واعتبرنا الشمس وجميع الثوابت والسيّارات تدور حولها ، أم اعتبرنا الشمس مركزاً والسيّارات والأرض تدور حولها حسب هيئة كوبرنيك .

فمع أنّ هاتين الفرضيّتين مختلفتان بالطبع ، لكنّهما لا تؤثّران أبداً

على نتيجة حسابات المنجّم ، لأنّ الاهتمام الرئيسيّ للمنجّم ونظره ليس لحركة هذه أو تلك ، بل بمقارنة البُعد والقُرب ، وهو أمر لا اختلاف فيه ولا تفاوت .

فلو كانت الفاصلة بيننا وبينكم مائة فرسخ ، وكان لابدّ لنا من طيّ خمسين ساعة لنصل إلى بعضنا ، فما الفرق للمحاسب الذي سيجري الحساب فيقول إنّ كلّ فرسخينِ ينبغي طيّهما في ساعة واحدة ، أن نكون نحن ثابتين وأنتم المتحرّكون نحونا ، أو تكونوا أنتم الثابتين ونحن المتحرّكون نحوكم ، فالأساس هو صحّة المحاسبة وصوابها ، لا حركة هذا وسكون ذاك ؛ فإنّ (٨) **مضروبة فى** (٢) **تساوي** (١٦) ؛ **و**(٢) **مضروبة في** (٨) **تساوي** (١٦) **أيضاً** .

فمسألتا الضرب هاتان مع اختلافهما في المحتوى ، أي في المضروب والمضروب فيه ، وبيانهما لمعنيين وكيفيّتين ، لكنّ نتيجة الضرب واحدة .

كان هذا مثالاً لنعلم أنّ مسائل الإلهيّات أيضاً غير قابلة للتغيّر والتبدّل ، لأنّها كالقواعد الرياضيّة والمثلّثات معتمدة على أساس البرهان ، أمّا الطبيعيّات فتغيّرها ممكن ووارد طبقاً للفرضيّات المتفاوتة وتبعاً للاكتشافات المختلفة .

ومن هنا فليست مسائل ما وراء الطبيعة مع الطبيعيّات كبناء ذي طابقين أو غرفتين ، بل كبناء خرسانيّ مسلَّح محكم ومتين مقابل بناء منفصل آخر يُقابله .

ولربّما خُيّل لكاتب المقالة أنّ مسائل ما وراء الطبيعة وأحكامها ووظائف مهامّها ، وصولاً إلى الله الواحد القهّار ، في معزل عن مسائل الطبيعة ، بمعنى أنّ أيّ أثر نعتبره للمادّة والطبيعة لن يكون لعالم ما وراء

ذلك وآثار عالم الطبيعة منحصرة بآثار لا يد للطبيعة فيها ، لذا فإنّ هزال وتضخّم الطبيعة والمادّة هو على العكس من العالم الذي وراءها ، أي عالم الحياة ؛ أي أنّ هزال الطبيعة يستتبع ضخامة عالم الحياة ، وضخامة عالم الحياة يستلزم هزال عالم الطبيعة .

وهذا التصوّر خاطئ ومخالف لأُصول التوحيد ومباين لمنطق القرآن والبرهان ، وما نُسب في كتاب «راه طى شده» (= الطريق المطويّ) إلى الموحّدين والقائلين بعالم الحياة من الفلاسفة خطأ ومجانبة للصواب ، إلّا إذا كان مراد الكاتب من الفلاسفة علماء الغرب الذين لم يتذوّقوا طعم التوحيد .

فتبعاً للحكمة المتعالية فإنّ جميع أفعال المادّة والطبيعة هي أعمال ما وراءها ، فلا يمكن وجود ذرّة واحدة وآثارها ولوازمها في جميع عالم المادّة إلّا وهي تحت سيطرة وهيمنة عالم الروح ، وإحاطة ومعيّة عالم ما وراءها ؛ وتفكيك الأعمال الطبيعيّة وغير الطبيعيّة ، والقول بقطب مستقلّ لكلّ منهما هو خلاف برهان التوحيد .

ولعلّه ظنّ أنّ المراد من عالم النفس : الروح ، وما وراء الطبيعة : الملائكة ، وأخيراً فإنّ قدرة الواحد العليم الحكيم هي تلك الظاهرة الحاصلة من المادّة ونتيجة جهاز حركة المادّة في عالم الطبيعة ، أو النظام المتقن المتين الذي جرى علم الطبيعة على أساسه منذ الأزل في مسير واحد ونهج مستقيم بلا أدنى تخلّف ، وسيبقى في جريانه على هذا المنوال أيضاً حتّى الأبد ؛ وبالطبع فتبعاً لهذا التصوّر فإنّ ضعف الطبيعة يستلزم ضعف هذا المعنى ، وقوّتها تستوجب قوّة هذه الحقيقة ، ولذا فإنّ تضخّم وهزال المادّة سيوجب تضخّم وهزال ما وراءها مباشرة في معادلة مستقيمة طرديّة لا عكسيّة .

وهذا التصوّر هو تصوّر خاطئ أيضاً ، لأنّ إتقان النظام والحياة الواحدة الحاكمة على العالمين ، وعلى جميع عالم الوجود ، من فعل الربّ تعالى ، لا نفس ذاته القدسيّة .

ففوق هذا الفعل ، وهذا النظام الواحد المتين الراسخ الحاكم على العالم ، هناك ذات بسيطة ومجرّدة وواحد وقهّار وعليم وقدير ابتدع هذا العالم بإرادته الأزليّة ، وأداره ويديره ، ويُفيض عليه ، ليس فقط في ابتداء الخلق ، بل كلّ لحظة وإلى الأبد ؛ فإحاطته به ليست إحاطة علميّة فقط ، بل له معيّة معه في وجوده وذاته ، وجميع هذا العالم هو عِلمه الحضوريّ .

فالإله المتحرّك الجاري الذي له كلّ يوم ظهور وتجلٍّ جديد في المادّة ليس هو الله ، بل مأمور ومحكوم لحكم الله تعالى .

وثانياً : إنّ علم الطبيعيّات لم يُلْغَ تدريسه في الحوزات العلميّة ، فهم الآن يدرسون مع الإلهيّات مباحث الطبيعيّات أيضاً ، ولقد كان علماء الإسلام الحقيقيّون هم واضعي الحجر الأساس للمدنيّة الغربية ، وامتلكوا في جميع الفنون الطبيعيّة المقام الشامخ الذي لا نشاهد له نظيراً وشبيهاً في الغرب .

فأمّا بشأن علم الكيمياء : فهم يقولون اليوم إنّ اختلاف الأجسام والعناصر المادّيّة ،كالحديد والذهب والكاربون والأُوكسجين عن بعضها مسبّب عن اختلاف عدد الإلكترونات الدائرة حول النواة ، ومرتبط بكيفيّة ترتيبها أيضاً ، فإذا أمكننا أن نغيّر هذا النظام في مادّة ما إلى نظام مادّة أُخرى فسنكون قد أوجدنا تلك المادّة الثانية ؛ ومن جهة أُخرى فإنّه يمكن إطلاق **أشعة إكس** والطيف الضوئيّ نتيجة تغيير الترتيب الإلكترونيّ .

وقد أجرى رجلان إنجليزيّان هما **والتون** و**كاسرافت** هذا العمل لأوّل مرّة بشأن عنصر **الليثيوم** فقاما بتحويله إلى عنصر **الهيليوم** .

وقد وصل قدماؤنا إلى مراحل أبعد من هذه ، ولم يزل العلم الحديث عاجزاً عن الوصول إلى اكتشافاتهم ؛ فلقد اعتبروا الفلزّات قابلة للحياة وممتلكة لنوع من الحياة والموت (والفعّاليّة) ، وقالوا بإمكان توليدها المثل ، فسعوا على هذا الأساس إلى تبديل بعض الفلّزات إلى فلزّات أُخرى وخاصّة إلى **الذهب** . ولم يختصّ هذا التفكير بالمسلمين فقط ، بل بقيت آثاره من قديم الأيّام من زمن **أفلاطون** .[١]

والنتيجة المستحصلة من هذه النظريّة هي أنّ **الكيميائيّين والمحقّقين** قد سعوا في مجال التحقيق . فقاموا في أبحاثهم باختراعات واكتشافات واختبارات كثيرة ، وظهر في هذا العلم أمثال **جابر بن حيّان** المعروف **بالصوفيّ** وهو أحد تلامذة الإمام جعفر الصادق عليه السلام ، [٢]

١ـ إنّ ما توصّلوا اليه اليوم هو اكتشاف البناء الذرّيّ للأشياء وفهم علّة اختلاف خواصّ العناصر مع بعضها من جهة اختلاف عدد الإلكترونات في المدار الخارجيّ ، وكذلك اكتشاف إمكان تبديل العناصر عن طريق القصف الذرّيّ في أجهزة خاصّة ، وهذه الاكتشافات تعطي بشارات أفضل وأحدث.

٢ـ يقول المستشار عبد الحليم الجنديّ عضو أركان المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة في جمهوريّة مصر العربيّة في كتابه القيّم : «الإمام جعفر الصادق» ص ٣ و ٤ ، طبعة القاهرة سنة ١٣٩٧ ، في مقدّمة الكتاب : والإمام جعفر الصادق يقف شامخاً في قمّة فقه أهل بيت النبيّ عليه الصلاة والسلام . هو في الفقه إمام . وحياته للمسلمين إمام . والمسلمون اليوم يلتمسون في كنوزهم الذاتيّة مصادر أصيلة للنهضة ، مسلمة غير مخلطة ولامستوردة.

هو الإمام الوحيد من أهل البيت الذي أُتيحت له إمامة دامت أكثر من ثُلث قرن، تمحّض فيها مجلسه للعلم ، دون أن يمدّ عينيه إلى السلطة في أيدي الملوك ، وبهذا التخصّص سلّم الأُمّة مفاتح العلم النبويّ . ومنه يبدأ التأصيل الواضح لمنهج علميّ عامّ للفكر الإسلاميّ ، نقلته أُمم الغرب فبلغت به مبالغها الحاليّة ، وعمل به بين يديه ثمّ أعلنه تلميذه جابر بن حيّان أوّل كيميائيّ ، كما تبايع له أُوروبّا الحديثة ، وهو منهج التجربة والاستخلاص، أي الاعتبار بالواقع وتحكيم العقل مع النزاهة العلميّة.

فالإمام الصادق هو فاتح العالم الفكريّ الجديد بالمنهج العقلانيّ والتجريبيّ، كأصحاب الكشوف الذين فتحوا أرض الله لعباده فدخلوها آمنين.

والإمام الصادق هو الإمام الوحيد في التأريخ الإسلاميّ، والعالم الوحيد في التأريخ العالميّ الذي قامت على أُسس مبادئه الدينيّة والفقهيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة دول عظمى.

ثمّ يستمرّ في كلامه إلى ص ٧ و٨ فيقول:

والقسم الثاني من الكتاب يعرض تصوّر المؤلّف للعلم الذي علّمه الإمام، والمدرسة التي أنتجته، والمنهج العلميّ العالميّ الذي أخذ به العلماء الدينيّون والفقهيّون والرياضيّون والفلكيّون والكيمائيّون وعلماء الطبيعة الإسلاميّون، ونقله عنهم رياضيّو العصور الوسيطة في أُوروبّا ليصير منهج التجربة والاستخلاص الذي يعمل به الفكر المعاصر، بعد إذ تُرجم من العربيّة في جنوب فرنسا وأسبانيا وصقلية وسواها من جامعات أُوروبّا، وسبق إلى التنويه به روجير بيكون، ثمّ نسب إلى فرنسيس بيكون بعد ثلاثة قرون، وكذلك المنهج السياسيّ الاجتماعيّ والاقتصاديّ الذي أقام الدول العظمى والمجتمعات الإسلاميّة التي يُباهي بها المسلمون في العصر الوسيط وفي العصور الحدثية.

ثمّ يقول عبد الحليم الجنديّ في نفس الكتاب، ص ٢٢٣ و ٢٢٤ بشأن عظمة جابر بن حيّان: جابر بن حيّان أوّل من استحقّ في التأريخ لقب كيميائيّ، كما تسمّيه أُوروبّا المعاصرة، وهو الذي يشير إليه الرازيّ (٢٤٠ ـ ٣٢٠) بـ «جالينوس العرب»، فيقول: أُستاذنا أبو موسى جابر بن حيّان.

والمؤرّخون ـ إلّا بعضاً من غير المسلمين ـ متّفقون على تلمذته للإمام، وعلى صلته أو تأثّره به في العلم والعقيدة، وأكثرهم على أنّه صار بعد موت الإمام من الشيعة الإسماعيليّة. يقول في كتابه «الحاصل»: **لَيسَ في العَالَم شَيءٌ إلَّا وَفِيهِ مِن جِمِيعِ الأَشْيَاءِ. وَاللهِ لَقَدْ وَبَّخَنِي سَيِّدِي (يَقْصِدُ الإمامَ الصَّادِقَ) عَلَى عَمَلِي فَقَالَ: وَاللهِ يَا جَابِرُ! لَوْلَا أَنِّي أَعْلَمُ أَنَّ هَذَا العِلْمَ لَا يَأْخُذُهُ عَنْكَ إلَّا مَن يَسْتَأْهِلُهُ، وَأَعْلَمُ عِلْماً يَقِيناً أَنَّهُ مِثْلُكَ، لَأَمَرْتُكَ بِإبْطَالِ هَذِهِ الكُتُبِ مِنَ العِلْمِ.**

وكانت كتب رياضة وكيمياء تسبق العصور بجدّتها، قيل إنّه أخذ علمه عن خالد بن يزيد ثمّ عن الإمام جعفر. وهو يشير إلى الإمام دائماً بقوله «سيّدي»، ويحلف به ويعتبره

وذو النون المصريّ، و**أبو زكريّا الرازيّ** [1] وغيرهم.

وقد اكتشف أبو زكريّا الرازيّ **الكحول** الذي يدعونه اليوم بنفس الاسم (ALCOHOL) من تقطير الموادّ السكّرية والنشاء، وفتح ـ كما تعلمون ـ بكشفه لهذه المادّة فصلاً جديداً في الطبّ والصيدلة.

واكتشف كذلك **جوهر الكبريت** ـ أي حامض الكبريتيك ـ من تجزئة **الزاج الأخضر** أي كبريتات الحديد المتبلورة؛ وتعلمون أنّ هذه المادّة صارت أُمّ الصنائع، وسميّت **بزيت الزاج وأُمّ الصنائع**. [2]

ولقد حصل علماؤنا بأجهزة التقطير **القرع والإنبيق وبأحجار الكلس**

مصدر الإلهام له.

يقول في مقدّمة كتابه «الأحجار»: وحقّ سيّدي لولا أنّ هذه الكتب باسم سيّدي صلوات الله عليه لما وصلتُ إلى حرفٍ من ذلك إلى الأبد.

وذكر له المستشرق كراوس (Kraus) ناشر كتبه في العصر الحديث أربعين مؤلّفاً، أضاف ابن النديم في القرن الرابع للهجرة عشرين كتاباً آخر له ونقل ابن النديم من قوله: ألّفتُ ثلاثمائة كتاب في الفلسفة، وألفاً وثلاثمائة رسالة في صنائع مجموعة وآلات الحرب، ثمّ ألّفتُ في الطبّ كتاباً عظيماً، ثمّ ألّفتُ كتباً وكباراً، وألّفت في الطبّ نحو خمسمائة كتاب. ثمّ ألّفتُ في المنطق على رأي أرسطاليس، ثمّ ألّفتُ كتاب «الزيج» أيضاً نحو ثلاثمائة ورقة، ثمّ ألّفت كتاباً في الزهد والمواعظ.

وألّفتُ كتباً في العزايم كثيرة حسنة، وألّفتُ في الأشياء التي يعمل بخواصّها كتباً كثيرة، ثمّ ألّفتُ بعد ذلك نحو خمسمائة كتاب نقضاً على الفلاسفة، ثمّ ألّفتُ كتاباً في الصنعة يُعرف بـ«كتاب الملك» وكتاباً يعرف بـ«الرياض».

١ـ أبو زكريّا الرازيّ صاحب كتاب «الحاوي»، من أعاظم أطبّاء وحكماء القرن الثالث الهجريّ، وهو لشهرته غنيّ عن الوصف، وقد ذكر كثيرٌ انّ ولادته كانت سنة ٢٢٥ ووفاته في شهر شعبان سنة ٣١٣، أو ٣٢٠ هجريّة.

٢ـ كتاب «شرح حال ومقام محمّد زكريّاى رازى، پزشک نامى ايران» تأليف الدكتور محمود نجم آبادي ـ بالفارسيّة، ص ٥٥ و٥٧.

على الكثير من الموادّ الكيميائيّة من قبيل **نترات الفضّة** (حجر جهنّم) **وكلوريد الزئبق المشبّع** ، **والپوتاس** ، **وأملاح النُّشادِر** ، **وجوهر الملح** (حامض الهيدروكلوريك) ، **والملح** ، **وكاربونات الصوديوم** (القلياء) ، **والأنتيمون** وعشرات الموادّ الأُخرى التي تعدّ في الكيمياء الحاليّة من الأُسس والموادّ المهمّة .[1]

وقد عدّوا ـ عند اكتشافهم لهذه الموادّ ـ أنّ صنع الفضّة والذهب أمر ممكن ، وقد كتب محمّد بن زكريا الرازيّ كتاباً باسم : «**إنّ صناعة الكيمياء**

١ـ يعترف علماء الغرب أنّ المسلمين ـمضافاً الى اكتشافاتهم **ل**لموادّ المذكورةـ قد اكتشفوا موادّاً أُخرى مثل حامض النتريك ، والهيدروكلوريك ، وكلوريد السلفوريك، والماء الملكيّ ، وجوهر النشادر وملح النشادر . ويستحصل الماء الملكيّ من خلط التيزاب (حامض النتريك) مع جوهر الملح (حامض الهيدروكلوريك).

يقول غوستاف لوبون في كتابه «حضارة الإسلام» ص **٦٢٦** و**٦٢٧** ، الباب الخامس، الفصل الثاني ، الكيمياء:

والمعارف التي انتقلت من اليونان إلى العرب في الكيمياء ضعيفة ، ولم يكن لليونان علم بما اكتشفه العرب من المركّبات المهمّة كالكحول وزيت الزاج (الحامض الكبريتيّ) وماء الفضّة (الحامض النتريّ) وماء الذهب وما إلى ذلك. وقد اكتشف المسلمون أهمّ أُسس الكيمياء كالتقطير.

وما ذكره البعض في كتب الكيمياء من أنّ لافوازيه هو واضع علم الكيمياء يظهر منه نسيانهم أنّنا لا عهد لنا بعلم من العلوم ومنها علم الكيمياء صار ابتداعه دفعةً واحدة، وأنّه وجد عند المسلمين من المختبرات ما وصلوا به إلى اكتشافات لم يكن لافوازيه ليستطيع أن ينتهي إلى اكتشافاته بغيرها.

ويقول في صفحة ٦٢٩ : وقد اكتشف المسلمون أيضاً مركّبات أُخرى لا غُنية للكيمياء والصناعة عنها ، كزيت الزاج (الحامض الكبريتيّ) ، والكحول ، وكان الرازيّ المتوفّى سنة ٩٤٠ أوّل من وصفها ، فقال : إنّ زيت الزاج يستخرج بتقطير الزاج الأخضر ، وإنّ الكحول يستخرج بتقطير الموادّ اللبّيّة أو السكّريّة المختمرة.

إلى الوجوب أقربُ منها إلى الامتناع».

يقول **ابن جُلجُل** في «**طبقات الأطبّاء والحكماء**» : لقد أجرى **محمّد بن زكريّا الرازيّ** تحقيقات في صناعة الكيمياء ، وألّف أربع عشرة مقالة في علم الكيمياء .

ويشاهد في فهرس مصنّفات الرازيّ اسم ثلاثة كتب ردّ فيها على عقيدة **يعقوب بن إسحاق الكنديّ** [1] في بطلان صنعة الكيمياء .

وكان للكثير من المتصوّفة اشتغال بهذا العمل ، حيث يتكرّر ذكر أسماء : جابر بن حيّان [2] وذي النون ، والجنيد البغداديّ ، ومحيي الدين عربي ، وشمس التبريزيّ ، وجلال الدين الروميّ ، والسيّد نعمة الله ولي ، ونور علي شاه .

هذه هي عظمة وتقدّم علم الكيمياء أحد فروع الطبيعيّات .

وبالطبع فإنّ هذا العلم : علم الكيمياء هو عبارة عن تركيب موادّ خاصّة في شروط خاصّة لصناعة الذهب . وأمّا الإكسير الذي يقال له أيضاً : الكبريت الأحمر ، فهو علم يُحصل به على شيء يمكنه تبديل النحاس والفضّة بالمسّ إلى ذهب ، وهو أهمّ كثيراً من الكيمياء .

أمّا بشأن علم الفيزياء : فقد برع العلماء والمفكّرون المسلمون في

١ـ يعقوب بن إسحاق الكنديّ ، أعلى الفلاسفة العرب مقاماً في القرن الثالث الهجريّ ، لأنّ تأريخ بعض مؤلّفاته في سنة ٢٢٢ هجريّة . وذكر ابن النديم في «الفهرست» وابن أبي أُصَيبعة في «طبقات الأطبّاء» ترجمة أحواله.

٢ـ يقول غوستات لوبون في هامش صفحة ٦٢٧ من «حضارة الإسلام» : ويعتبر علماء كيمياء الشرق كالشيخ محمّد قمري وابن وحشيّة ومظفر علي شاه الكرمانيّ وغيرهم جابراً ربيباً للإمام جعفر الصادق ؛ ولا شكّ في تلمذته على يديه ، لأنّه يكرّر في مؤلّفاته القَسَم باسمه وعنوانه.

هذا الفنّ وبرزوا في كثير من مجالاته، سواءً ما تعلّق بحسابات جرّ الأثقال، أم بأبحاث النور وانكسار الأشعّة والمرايا، أم في كثير من الصناعات المعتمدة على القوانين الفيزيائيّة.

فاكتشافات **أبي ريحان البيرونيّ** في الفلكيّات والرياضيّات و**الميكانيك** و **الهيدروستاتيك** (ضغط وتوازن السوائل)، وارتفاع مياه الينابيع والفوّارات، وقياس محيط الأرض بالطريقة التي دعاها الغربيّون بقاعدة البيرونيّ، واختراعه لبعض أنواع الاصطرلاب، والكتب التي ألّفها في الآلات الفلكيّة، والنجوم المذنّبة، والظواهر الجوّيّة، والمدّ والجزر، وإيجاد الوزن الخاصّ للأجسام، والحدس بحركة الأرض، واحتمال وجود قارّة أُخرى في سائر نقاط الربع المسكون كقارّة أمريكا، وكثير آخر من أمثال هذه المسائل، تعدّ بأجمعها من المسائل المهمّة التي وُضعت عليها علوم الفيزياء والرياضيّات الحاليّة.

وقد جاء في مقدّمة كتاب «التفهيم لأوائل صناعة التنجيم» أنّ أبا ريحان قد اخترع ميزاناً جديداً لتعيين الوزن والحجم الخاصّ للأجسام دعاه **بميزان أبي ريحان**، وعيّن بواسطته الوزن الخاصّ (النوعيّ) لعدد من الأجسام في حدود ١٦ فقرة يُطابق آخر ما وصلت إلى تحقيقات العلماء الحاليّين .وكان ميزان أبي ريحان في نظر أهل الفنّ والخبرة أدقّ من **ميزان أرخميدس**.

وهناك رسالة مذكورة في فهرس مؤلّفاته في النسبة بين الفلزّات والجواهر المعدنيّة كتبها بالفارسيّة؛ وقد عيّن بشكل خاصّ في كتاب «**الجَمَاهِر**» الوزن الخاصّ (النوعيّ) للفلزّات ولبعض الأحجار الكريمة.[١]

١ـ مقدّمة «التفهيم» ص ١١٦، بقلم جلال الدين هُمائي.

البئر الارتوازيّة :

وقد أورد في «نامۀ دانشوران» (= رسالة الحكماء) أنّ هناك بعض المطالب المذكورة في كتاب **«الآثار الباقية» لأبي ريحان** أُقيم على أُسسها ونظمها في كتب حكماء أُوروبّا ، وذكر من جملتها شروحاً لارتفاع الماء من بعض العيون ذكره بعينه الحكيم الطبيعيّ **المسيو زله** في باب **«پی آرت زين»** . وسنورد بعد انتهاء مسائل ومطالب أبي ريحان تلك المسألة وسائر المسائل وقواعد رسم الخرائط المعهودة عند حكماء أُوروبّا ، ليتّضح أنّ **أبا ريحان** كان له توارد خواطر مع أغلب حكمائهم ، أو أنّهم ظفروا بمؤلّفاته فاقتبسوا تلك القواعد منه .[1]

١ـ خصّص المستشار عبد الحليم جنديّ في كتاب «الإمام جعفر الصادق» ثلاثة فصول منه حول علوم الإمام في حقول العلوم التجربيّة والعلوم السياسيّة والعلوم الاقتصاديّة، أورد فيها بحوثاً قيّمة ، واستدلّ على أنّ جميع علوم الأُوروبيّين في هذه الحقول الثلاثة المهمّة مستمدّة ومقتبسة منه عليه السلام ، فيقول في بداية هذه الفصول في الباب الخامس الذي يشخّص المنهج العلميّ للإمام في ص ٢٧٧ بشكل مكثّف:

في الباب الحالي فصول ثلاثة تحاول تصوير منهج الإمام الصادق العلميّ والحضاريّ والسياسيّ والاقتصاديّ ، كما رسم خطوطه بالفعل وبالقول ، وكما اقتفى آثاره وبنى عليه علماء الإسلام ، الفقهاء منهم والرياضيّون التطبيقيّون ، مستمتعين بحرّيّة الفكر والبحث التي وردت بها نصوص الكتاب العزيز وأمرت بها السُّنّة . وكان الإمام الصادق من الأوائل في تعليمها للمسلمين ، ممّن انتسبوا إليه وممّن أخذوا عنهم ، يستوي في ذلك الشيعة وفقهاء أهل السنّة.

على هؤلاء الفقهاء تعلّم أهل أُوروبّا منهج النزاهة العلميّة والواقعيّة الذي تبلور في طريقة «التجربة والاستخلاص» . والذي أعلنه جابر بن حيّان ، أوّل من استحقّ في العالم لقب كيميائيّ كما يعبّر عنه الأُوروبّيّون.

ومن المنهج الحضاريّ : المنهج السياسيّ والاقتصاديّ الذي يستهدف عمارة الدنيا بالعدل بين الناس ، والعمل للحياة ، والتكافل بين أعضاء الجماعة ، والسعي لاستثمار

يقول في «الآثار الباقية» : تنقسم المياه التي تتجمّع في قعر البئر إلى قسمين : منها ما يترشّح أحياناً من أطراف البئر ويتجّمع ، فيكون سطح تلك المادّة مع سطح الماء المجتمع في مستوىً واحد ، وهذا القسم لا يمكن بأيّ تدبير أن يرتفع إلى الأعلى ، لأنّ الفتور والضعف الذي فيه لا يتلائم مع ذلك القصد .

ويحدث أحياناً أن يفور الماء في قعر البئر بقوّة لأنّ منبعه ومادّته مرتفعة ينحدر منها بشدّة ويخرج من المنافذ ، وهذا القسم يمكن رفعه بالآلات العاديّة المعهودة مثل الفوّارات العالية والأنابيب ، للقدر الذي يصبح فيه أعلى ارتفاع لماء الفوّارة موازياً ومساوياً لسطح المادّة الأصليّ ، وهذا الماء قد يصل أحياناً إلى مستوى القلعة والمنارة .

وقال أبو ريحان في ذيل ذلك المطلب أيضاً : ولقد حصل كثيراً في اليمن ، عند حفرهم الآبار ، أن ينتهوا في حفرهم إلى صخرة ، فيعرف قوم تلك الديار ، حسب فراستهم في هذا الأمر ، من صوت الصخرة كمّيّة الماء المخزون في تلك المنطقة ، فيعمدون بما في أيديهم من الآلات إلى إيجاد ثقب ضيّق في تلك الصخرة ، فإن فار منها الماء بسلامة قاموا بتوسعة ذلك

طاقات الناس وأموالهم ؛ وهي قواعد بلغ بها الفقه الشيعيّ غايته ، ابتداءً من منهج أميرالمؤمنين عليّ ، معمولاً به في حياته أو خلافته ، أو منصوصاً في عهده للأشتر النخعيّ ، وكلّه سياسة واجتماع واقتصاد ، إلى رسالة حفيده زين العابدين في الحقوق ، وهي تجري في آثاره، إلى برنامج حفيده جعفر الصادق العلميّ والحضاريّ ، السياسيّ والاقتصاديّ ، يدلي به للناس، ويطبّقه بنفسه ، ويضع به الأُسس لدول أو مجتمعات أو جماعات أو جمعيّات، تعمل بمنهاجه لتبلغ أوجها به .

وهذه خصّيصة لا يجاري الصادق فيها عالم من العلماء في التأريخ ، وحسبنا في هذا المقام كلمات كالإشارات ، تضمّنتها الفصول الثلاثة التي حواها هذا الباب.

المجرى ، وإن شوهد في الماء آثار الطغيان عمدوا إلى ذلك الثقب فسدّوه بالتراب والجِير لئلّا ينبعث منه سيل مهيب .

وهناك بحيرة واقعة في أعلى جبل بين مدينتي طوس وأبر شهر تدعى ببحيرة **برزود** ، يبلغ محيطها مائة فرسخ ، لا يظهر في مائها الجزر والمدّ الذي يظهر في مياه البحار الأُخرى ، وذلك لأنّ مستوى المخزن المائيّ الذي يمدّها يوازي سطح البحيرة ، أو أنّه يرتفع عنه ، لكنّ مقدار الماء الذي يجفّ بالتبخّر الحاصل من أشعة الشمس يعادل المقدار الوارد من المنبع ، لذا انعدمت الزيادة فيه أو النقصان .

حتّى يصل إلى القول :

وقد أورد **الحكيم المسيو زله** في كتابه في علم الطبيعة بشأن **بئر جرْنل** [1] الواقعة في باريس فصلاً مشبعاً ، وذكر في بيان علله وأسبابه الطبيعيّة شرحاً يوافق تحقيقات أبي ريحان تماماً .

وعلى كلّ حال فإنّ تلك البئر تقع في منطقة باريس بعمق خمسمائة وثمانية وأربعين متراً ، ويرتفع ماؤها عن الأرض بواسطة أنابيب ارتفاعها ثمانية وثلاثون متراً .

ولقد كان **بحر الخزر** مورد حيرة حكماء أُوروبّا ، إذ تصبّ فيه كلّ تلك الأنهار في حين ليس هنا من ممرّ ومخرج للماء منه ، لذا فقد اعتقدوا إلى ما قبل مائتي سنة [2] أنّ للبحر المذكور مجريين سفليّين ، أحدهما تحت

١ـ Gernelle

٢ـ طُبع المجلّد الأوّل من «نامهٔ دانشوران» (= رسالة العلماء) ؛ كما ذُكر في مقدّمته بقلم العالم الجليل الحاجّ السيّد رضا الصدر في ١٥ شعبان سنة ١٢٩٦ هجريّة ، وعلى هذا تصبح الفاصلة الزمنيّة بينه وبين تأليف المجلّد لأوّل من هذا الكتاب «نور ملكوت القرآن» في ١٤٠٨ هجريّة تعادل ١١٢ سنة ينبغي إضافتها إلى المائتي سنة المذكورة.

كرجستان والقفقاس ، والآخر من جهة ممالك إيران وهوانق ، فما يرد فيه من تلك الأنهار يذهب في المجرى الأوّل إلى البحر الأسود ، وفي الثاني إلى الخليج الفارسيّ ، ولولا ذلك فإنّ طغيان الماء الناتج من تجمّع الأنهار العظيمة سيغطّي سواحل إيران وحاج طرخان ، بل سيغطّي خوارزم وجميع آسيا .

لكنّهم قالوا في مسألة ذلك البحر ؛ استناداً إلى علوم الكيمياء والطبيعة التي تكاملت منذ التأريخ المذكور إلى الآن ؛ بنفس القول الذي نقلناه عن الأُستاذ **أبي ريحان** ، وتيقّنوا أنّ الكمّيّة التي تجفّ من المياه بأشعّة الشمس تعادل الكمّيّة الواردة في ذلك البحر ، وقد أمعن جمع من المهندسين الروس في التحقيق والبحث بشأن هذه المسألة خاصّة ، فاستنبطوا بعد تتبّع زائد ما يطابق رأي **أبي ريحان** الذي ذكره في «**الآثار الباقية**» .[1]

ويعرف كشف أبي ريحان هذا اليوم في الفيزياء **بقانون خاصّيّة الأواني المستطرقة** .

وقد كان لأبي ريحان تحقيقات عميقة أيضاً بشأن حركة **النور والصوت** ، وأنّ حركة الصوت أبطأ من النور .[2]

ومن بين المسائل الفيزيائيّة التي يدين بها الأُوروبّيّون للمسلمين مسائل النور والمرايا ، ومن أرقى الكتب التي دوّنت في هذا الموضوع كتاب «**تنقيح المناظر لذوي الأبصار والبصائر**» تأليف **العلّامة كمال الدين أبي الحسن الفارسيّ** ، كتبه قبل سبعمائة سنة ، وهو كتاب في جزءين

١ـ (نامهٔ دانشوران ناصری) = رسالة الحكماء الناصريّين ، ج ١ ، ص ٨٠ و ٨٢.

٢ـ «مقدمه التفهيم» ص ١١٧ ، عن «الآثار الباقية» ص ٢٥٦.

يقرب من ألف صفحة.[1]

وأمّا بشأن علم النجوم والهيئة، فإنّ علماء الهيئة الحقيقيّين بالرغم من عدم امتلاكهم لوسائل العمل ومستلزماته، وافتقارهم إلى المنظار (التلسكوب)، قد عملوا في حساب قواعد حركات السيّارات وقربها وبعدها وأماكنها ومواضعها في الفلك، وتعيين أماكن الثوابت والسيّارات وصناعة الكرات الفضائيّة والاسطرلابات والخرائط الجوّيّة والأرضيّة، فأوصلوا البحث في هذه العلوم طبق القواعد الرياضيّة الدقيقة والحسابات الاستدلاليّة والجبر والمقابلة والمثلثات وقواعد الظلّ والظلّ تمام والجيب والجيب تمام إلى ما لا يتصوّر فوقه.

فلقد كتب **أبو ريحان البيرونيّ** ـ وكان متخصّصاً في علم الفلك ماهراً فيه حتّى لكأنّ السماء في قبضة يده ـ كتاب «**قانون المسعوديّ**» في ثلاثة أجزاء، وكتاب «**في تحقيق ما للهند من مقولة في العقل أو مرذولة**»، وهو حاصل أربعين سنة من السفر والتوقّف في الهند، وكتاب «**التفهيم في أوائل صناعة التنجيم**»، و«**الآثار الباقية**»، وكتباً ورسائلاً جمّة ذُكرت

١ـ طُبع هذا الكتاب في جزءين كبيرين في مدينة حيدر آباد سنة ١٣٤٧ و ١٣٤٨ هجريّة، ومؤلّفه من الشيعة الأجلّاء، قال عنه في «الذريعة» ج ٤، ص ٤٦٧: هذا الكتاب شرح للمولى كمال الدين الفارسيّ، شرحه بأمر أُستاذه قطب الدين الشيرازيّ المتوفّى (٧١٠) على كتاب «المناظر والمرايا» المنسوب إلى أبي عليّ محمّد بن الحسين بن الحسن بن سهل ابن هيثم البصريّ المتوفّى عن عُمْر طويل في حدود سنة (٤٣٠)، ويحتوي على سبع مقالات أضاف لها خاتمة وذيلاً ولواحق، وفرغ من الشرح سنة (٧١٨). ثمّ إنّ معاصر الشارح وزميله في التلمذة على قطب الدين الشيرازيّ وهو المولى نظام الدين الشهير بالنظام الأعرج القمّيّ قد اختصر «التنقيح» وسمّاه: «البصائر في اختصار تنقيح المناظر»، وأصل كتاب «المناظر» لإقليدس الصوريّ، ثمّ إنّ ابن الهيثم أدرج مسائله في كتابه المسمّى بـ«المناظر».

أسماؤها في عداد مؤلّفاته ، ففاق بألف ضعف الأُوروبيّين الذين شاهدوا ورصدوا مراكز النجوم بالنواظر المكبّرة ؛ في جهوده ونتائج فكره البِكر التي قدّمها إلى دنيا العلم والعلماء .

يقول في «نامۀ دانشوران ناصرى» (=رسالة العلماء الناصريّين) :

لقد حاز البيرونيّ مقاماً سامياً في أنواع الصناعات وفنون الرياضة وأصناف العلوم ، واتّفق فضلاء العالم وسلّموا على أنّه في مسائل النجوم متفرّد كالشمس ، لم يُرَ له نظير ، ولم يطرق الأسماع اسماً لصنوٍ له في منزلته أو شبيه ، فهو في الحقيقة درّة يتيمة انطوت على الكمالات والفضائل .[1]

١ـ (نامۀ دانشوران) (= رسالة العلماء) ج ١ ، ص ٦١.

٢ –يذكر أحمد أمين المصري في كتابه «يوم الإسلام» ص ٨٩ و ٩٠ مطلباً يستحقّ التأمّل، حيث يقول:

وطريقة الإسلام الاعتماد على الـ Induction ، أعني الاستقراء ، فهو يتتبّع المسائل الجزئيّة ما أمكن ثمّ يستنتج منها القاعدة الكلّيّة ، كما فعلوا في النحو والصرف ، فكانوا يتتبّعون الجزئيّات المعروفة ليستنتجوا منها قاعدة : الفعل مرفوع . أمّا الفلسفة اليونانيّة أو فلسفة أرسطو فعمادها على الـ Deduction ، أي : الاستنتاج ، فهم يضعون القاعدة الكلّيّة ثمّ يستنتجون منها النتائج الجزئيّة ، كقولهم إنّ الأجسام تتمدّد بالحرارة ، والحديد جسم ، إذن فالحديد يتمدّد بالحرارة ... وهكذا.

وقد أدّتهم طريقة الاستقراء هذه الى الإمعان في الشكّ والتجربة، فنرى كثيراً ممّا كتبه الجاحظ في كتاب «الحيوان» يبتدئ بالشكّ ، ثمّ يعرض على محكّ التجربة، ولا بأس عنده أن يخطِّئ أرسطو فيما قاله ، ويفضِّل عليه أعرابيّاً بدويّاً. وسار النظام على هذا حتّى في الأحاديث النبويّة ، فكان يشكّ فيها أوّلاً ، ثمّ يعرضها على مقتضى العقل ليعرف أصحيحة هي أم غير صحيحة ؟ فكان الغزّاليّ والجاحظ أسبق إلى الشكّ من ديكارت ، وكان مسكويه أسبق من داروين في تقريره مذهب النشوء والارتقاء في كتاب «تهذيب الأخلاق»، وكان الطوسيّ أسبق من أينيشتَين في فهم الزمنيّة ، غاية الأمر أنّ مواد العلم الأوّليّة كانت

حتّى يصل إلى القول :

ويتّضح من كتاب «**الاستيعاب في صنعة الأُسطرلاب**» وسائر مؤلّفاته ، إنّ ذلك الأُستاذ الكامل كما تسلّمَ تفوّقه في المعقول والمنقول ، واشتهرت مهارته في المحسوسات والمصنوعات ، فإنّه وصل في إبداع الصنائع العمليّة إلى حيث تركت مهارته في اختراع طبقات الأفلاك وخرائط النجوم عدّة صفحات بالغ في إيضاحها ، حتّى كأنّ الألواح الفلكيّة قد اندمجت في صفحات خياله ، والصور الثمان والأربعين قد ارتسمت في لوح صدره .

وعموماً فقدكان في جودة الذهن وحُسن القريحة لدرجة كان يشرع معها بنفسه بالابتكار في صناعات الخرائط والآثار الجغرافيّة ، وقد ابتدع عدّة قواعد ظلّ الأُوروبّيّون يجلّون واضعها كلّما شاهدوها وطالعوها ،

كذلك فإنّ أغلب خرائطهم في هذا العصر مبتنية ومرتكزة على الأُصول والقوانين التي ابتكرها .[1]

لهؤلاء المتأخّرين أوفر، والزمن لهم أعون، والحقائق عندهم أكثر اتّضاحاً، والتعبير أبين، ويسودهم مذهب التحليل أكثر من مذهب التركيب ، فما يقوله علماء العرب في جملة، يقوله المتأخّرون من الأُوروبّيّين في كتاب ، وهكذا . وقد نسبوا إلى روجر بيكون أنّه أوّل من قال بالاستقراء في النهضة الأُوروبّيّة الحديثة ، مع أنّه خرّيج الجامعات العربيّة في إسبانيا.

وعيب العرب أنّهم لم يجدوا من يمجّدهم . ومزيّة الأُوروبّيّين أنّهم يمجّدون دائماً من يعلى شأنهم ، وهكذا الشأن في ابن خلدون ، فإنّه سبق ديكارت في تأسيسه علم الاجتماع، والفرق بين كتب الإثنين أنّه أيضاً بنى كتابه على مذهب الاستقراء الذي سار عليه العرب أكثر ممّا سار على مذهب الاستنتاج الذي سار عليه الأُوروبّيّون.

١ـ «نامهٔ دانشوران» ج ١ ، ص ٦٢ .

كيفيّة تسطيح سطح الكرة الأرضيّة في الخرائط الجغرافيّة المستوية :

هي من بنات أفكار وإبداعات ذلك الفاضل المتفرّد ، وقد أوجد قوانين وأطلق مسمّيات لبعض المسائل الطريفة والمطالب الدقيقة بحس قريحته وفكره البعيد الثاقب بسبب فقدان الوسائل ونقص الآلات لديه ، ويرى مَنْ تأمّلها بعين الإنصاف مدى علميّته وقدر فضله ؛ ومن بينها الأُصول والضوابط التي أوردها في مطاوي مؤلّفاته في تسطيح الكرة الأرضيّة ورسم الخرائط الجغرافيّة ، وبالرغم من أنّ حكماء أُوروبّا قد أوصلوها ـ لتوفّر الأسباب وتهيّؤ الأدوات ـ إلى أعلى درجات الكمال ، لكنّهم كلّما سمعوا هذه العبارات وشاهدوا هذه الإشارات كانوا يجلّونه ويعتبرونه لائقاً لكلّ ثناء حسب قاعدة **الفَضْلُ لِلْمُتَقَدِّمِ**.

ولأجل الإيضاح المحض لتلك الرموز ، وكشف تلك الكنوز ، فسنورد حاصل ما ذكره في «الآثار الباقية» في باب رسم الخرائط الجغرافيّة ... ثمّ يشرع ببيان كيفيّة تسطيح الكرة الأرضيّة الذي أورده في «الآثار الباقية» ، وذلك في ثلاث صفحات كاملة .[١]

وكان **أبو ريحان** ؛ خلافاً لجميع المتقدّمين القائلين بسكون الأرض حسب هيئة بطليموس ؛ ذا قريحة جيّدة في مسألة حركة الأرض ، يعلم مَن تأمّل فيها أنّ له في اختيار ذلك المذهب والطريقة كمال الرغبة ، فيقول في كتاب «الاستيعاب في عمل الأُسطرلاب الزورقيّ» :

وَقَدْ رَأَيْتُ لِأَبِي السَّعِيدِ السَّجْزِيِّ أُسْطُرْلَاباً مِنْ نَوْعٍ وَاحِدٍ بَسِيطٍ ، غَيْرَ مُرَكَّبٍ مِنْ شِمَالِيٍّ وَجُنُوبِيٍّ ؛ سَمَّاهُ الزَّوْرَقِيَّ.

١ـ «نامۀ دانشوران ناصرى» ج ٢ ، ص ٧٣ إلى ٧٦ .

فَاسْتَحْسَنْتُهُ جِدّاً لِاخْتِرَاعِهِ إِيَّاهُ عَلَى أَصْلٍ قَائِمٍ بِذَاتِهِ مُسْتَخْرَجٍ مِمَّا يَعْتَقِدُهُ بَعضُ النَّاسِ مِنْ أَنَّ الحَرَكَةَ المَرْئِيَّةَ مِنَ الأَرْضِ دُونَ الفَلَكِ.

وَلَعَمْرِي هُوَ شُبْهَةٌ عَسِرَةُ التَّحْلِيلِ ؛ صَعِبَةُ المَحْقِ ؛ لَيْسَ لِلْمُعَوِّلِينَ عَلَى الخُطُوطِ المَسَاحِيَّةِ مِنْ نَقْضِهَا شَيْءٌ . أَعْنِي بِهِمْ المُهَنْدِسِينَ وَعُلَمَاءَ الهَيْئَةِ.

عَلَى أَنَّ الحَرَكَةَ سَوَاءً كَانَتْ لِلأَرْضِ أَمْ كَانَتْ لِلسَّمَاءِ ؛ فَإِنَّهَا فِي كِلْتَا الحَالَتَيْنِ غَيْرُ قَادِحَةٍ فِي صِنَاعَاتِهِمْ . بَلْ إِنْ أَمْكَنَ نَقْضُ هَذَا الاعْتِقَادِ وَتَحْلِيلُ الشُّبْهَةِ فَذَلِكَ مَوْكُولٌ إِلَى الطَّبِيعِيِّينَ مِنَ الفَلَاسِفَةِ. [1]

وقد بحث أبو ريحان في مشكلة حركة الأرض أيضاً في كتاب **«تحقيق ما للهند»**. [2]

استخراج جيب الدرجة الواحدة :

يعدّ استخراج جيب الدرجة الواحدة من المسائل الرياضيّة الدقيقة التي لم يوفّق العلماء الذين سبقوا أبا ريحان لكشفها ؛ وكان أبو ريحان أوّل العلماء الذين وفّقوا لذلك ، حيث أورد شرحها في الباب الرابع من المقالة الثالثة في «قانون المسعوديّ» ج ١ ، ص ٢٩٢ ، فقد طرح من عنده ابتداءً اثنتي عشرة مقدّمة ، أي إثنتا عشرة قضيّة رياضيّة ، وبرهن عليها ، ثمّ استنتج مقصوده واستنبطه منها .

وكان لإثنين من معاصري أبي ريحان من أعاظم علماء الرياضيّات ؛ أحدهما **أبو سهل بيزن بن رستم كوهي** والآخر **أبو الجود محمّد بن ليث**

١ـ «نامه دانشوران ناصرى» ج ١ ، ص ٧٧ .

٢ـ «تحقيق ما للهند» ص ١٣٨ .

السمرقنديّ ؛ جهود ومحاولات في هذا الشأن ، لكنّها لم تثمر شيئاً .[1]

وهناك مسائل أُخرى كان للبيرونيّ نظره الخاصّ فيها قام بنفسه بقياسها وفق الحسابات الرياضيّة الدقيقة والأرصاد ، مثل قياس مساحة محيط الكرة الأرضيّة وقطرها ، ومسارات الكواكب ، والقاعدة النجوميّة لتسوية البيوت ، والطول والعرض الجغرافيّ ، وجهة قِبلة المدن ؛ وقاعدة جديدة لاكتشاف جهة القِبلة وبناء محراب المساجد ؛ ورصد المَيل الكلّيّ والميل الأعظم ؛ والحركة الخاصّة الوسطيّة للشمس ، وحركة أوج الشمس ؛ والمقدار الدوريّ لحركة الثوابت ؛ وكثير من المسائل الأُخرى التي يطول المقام بشرحها واحدة فواحدة ،[2] وقد ذكر البيرونيّ هذه المسائل بالتفصيل في «**قانون المسعوديّ**» و«**تحديد نهايات الأماكن**» و«**الآثار الباقية**» ، و«**كتاب الجَمَاهِر**» .[3]

١ـ مقدّمة «التفهيم» ص ١١٣ ، عن «قانون المسعوديّ» ج ١ ، ص ٢٩٧.

٢ـ يقول في «نامهٔ دانشوران ناصرى» (= رسالة العلماء الناصريّين) ج ١ ، ص ٧٠:
ومن أمثلة فضائل ذلك الأُستاذ الكامل : مناظراته ومباحثاته مع الشيخ الرئيس ابن سينا في ثمان عشرة مسألة طبيعيّة ، دارت حول سكون الأرض ، وميل جميع الأجسام إلى مركزها، وامتناع الخلاء ، وإبطال الجزء الذي لا يتجزّأ ، وتناهي الأبعاد ، وأمثالها من المسائل التي يفهم كلّ مَن تأمّل بنظر التدقيق في تلك الرسالة ؛ وهي مطمح أنظار المتقدّمين ومطرح أفكار المتأخّرين؛ درجةَ هذين الحكيمين المتفرّدين في الفضل ومرتبتهما في العلم. فتأمّل.

حتّى يصل إلى القول : قال ياقوت الحمويّ : حين وردتُ جامع مرو ونظرت في فهرس مؤلّفاته ضمن رسالة وقف ذلك المسجد ، وكانت عدّة أوراق كُتبت بخطّ دقيق متقارب، فعددتها فكانت ستّين ورقة ؛ وقال البعض إنّها كانت تزيد على وقر بعير عند الحمل والنقل، لكنّ عقد تلك التصانيف النفيسة انفرط بِيَدِ الحوادث فلم يبقَ من ذاك الكثير الوافر إلّا هذا القليل النادر.

٣ـ يقول عبد الحليم الجنديّ في كتاب «الإمام جعفر الصادق» ص ٢٩٦ و٢٩٧:

وعندما توضع أقوال جابر بن حيّان في القرن الثاني للهجرة إلى جوار أقوال الحسن بن الهيثم (٣٥٤إلى ٤٣٠ هـ.ق) بعد أكثر من قرنين، وقد عمل في خدمة الدولة الفاطميّة، وهي دولة من دول الشيعة، وله ٤٧ كتاباً في الرياضيّات و٥٨ كتاباً في الهندسة؛ تتأكّد لنا طريقة ونهج العلوم التجربيّة والاستخلاص التي سلكها الإمام الصادق وأتقن العمل بها، ووصفها جابروالحسن، وقد أحسن الحسن التعبير عنها بأفضل المناهج العلميّة الواضحة الفحوى والمحدّدة العبارات.

ويشهد بها من أهل أُوروبّا **دراپير** في كتابه «النزاع بين العلم والدين» فيقول: كان الأُسلوب المختصّ الذي توخّاه المسلمون سبب تفوّقهم في العلم. فإنّهم تحقّقوا أنّ الأُسلوب النظريّ وحده لا يؤدّي إلى التقدّم، وأنّ الأمل في معرفة الحقيقة معقود بمشاهدات ذات الحوادث. ومن هنا كان شعارهم في أبحاثهم هو «الأُسلوب التجريبيّ». وهذا الأُسلوب هو الذي أرشدهم إلى اكتشاف علم الجبر وغيره من علوم الرياضة والحياة. وإنّنا لندهش حينما نرى في مؤلّفاتهم من الآراء العلميّة ما كنّا نظنّه من ثمرات العلم في هذا العصر.

ثمّ يذكر عبد الحليم الجنديّ في الهامش: راجع مقدّمة كتاب الدكتور مصطفى نظيف، مدير جامعة عين شمس بالقاهرة عن الحسن بن الحسن الهيثم البصريّ أكبر عالم في الرياضيّات والطبيعة في العصور الوسطى حيث يقول: وفد الحسن من العراق إلى القاهرة ليعمل مهندساً في خدمة الدولة الفاطميّة في عصر الحاكم بأمر الله. وكان من رأيه جواز إقامة آلات على النيل يحرّكها تيّار مياهه. والدكتور نظيف يقول إنّه ينبغي أن نستبدل بأسماء روجير بيكون ومور ليكوس ودافنشي وكبلر ودلابورتا باسم الحسن بن الهيثم.

فعلى يد الحسن بن الهيثم أخذ علم الضوء وجهة جديدة بمنهجه الإسلاميّ، وهو (استقراء الموجودات وتصفّح أحوال المبصرات وتمييز خواصّ الجزئيّات وما يخصّ البصر في حال الإبصار. وما هو مطّرد لا يتغيّر، وظاهر لا يشتبه من كيفيّة الإحساس. ثمّ نترقّى في البحث والمقاييس على التدرّج والترتيب مع انتقاد المقدّمات والتحفّظ في النتائج، ونجعل غرضنا في جميع ما نستقرؤه ونتفحّصه استعمال العدل لا اتّباع الهوى. ونتحرّى في سائر ما نميّزه وننقده طلب الحقّ لا الميل مع الآراء، فلعلّنا ننتهي بهذا الطريق إلى الحقّ الذي يثلج الصدور، ونصل بالتدريج والتلطّف إلى الغاية التي عندها يقع اليقين، ونظفر مع النقد والتحفّظ بالحقيقة التي يزول معها الخلاف وتنحسم بها موادّ الشبهات) فهذا جمع

ومن بين علماء الهيئة والرياضيّات والنجوم الذي يدين لعلمه وفضله وكماله جميع أصحاب التقاويم والحسابات من زمنه حتّى يومنا هذا ، ويشيرون إليه في أغلب الكتب بألقاب : **أفضل المتكلّمين، سلطان الحكماء والمحقّقين ، أُستاذ البشر ، علّامة البشر ، العقل الحادي عشر : العلّامة الخواجة نصير الدين محمّد بن محمّد بن الحسن الطوسيّ** ،[1] فإنّه بتأسيس مرصد مراغة ، وجمعه علماء الرياضيّات وفضلائها وهيئة العلماء والمتخصّصين من الطراز الأوّل لمدّة ستّ عشرة سنة ، فقد قام بترتيب وتدوين **الزيج الإيلخانيّ** . ثمّ ألّف بعده أحد معاونيه في تنظيم الزيج ،[2] اسمه **غياث الدين جمشيد الكاشانيّ** كتاباً في إكمال الزيج الإيلخانيّ للخواجة الذي ظلّ ناقصاً ، وسمّاه **بالزيج الخاقانيّ** .

وقد كتب الخواجة في خاتمة عمل الرصد كتاب **الزيج الإيلخانيّ**

للاستقراء والقياس. وما هو إلّا منهج علماء الرياضيّات والطبيعة المسلمين تابعهم فيه ابن الهيثم ونقله علماء أُوروبّا ابتداءً من الكنديّ (المتوفّى سنة ٢٥٢) عالم الطبيعة أو الطبيب الفيلسوف؛ والرازيّ (المتوفّى سنه ٣٢٠) جالينوس العرب أو الطبيب الفيلسوف الذي يتّخذ الإحساسات بالجزئيّات أساساً لكلّ عمله ويدلّل بالكائنات الحيّة على وجود الخالق ؛ وابن سينا (المتوفّى سنة ٤٢٨) الرئيس أو الفيلسوف الطبيب الذي يمثّل فكرة المثل الأعلى في العصور الوسطى كما يقول سارتون ؛ وللأخيرَين صورتان معلّقتان على جدران جامعة باريس الآن مع جرّاح العظام ابن زُهَر.

١ـ «ريحانة الأدب» ج ٢ ، ص ١٧١ ، يقول : ولد الخواجه على المشهور في الحادي عشر من جمادى الأُولى سنة ٥٩٧ هجريّة في طوس. وبدأ في بناء الرصد سنة ٦٥٧، وحسب المشهور فقد رحل عن الدنيا يوم عيدالغدير سنة ٦٧٢ في بغداد ، ونقلت جنازته حسب وصيّته إلى الكاظمين عليهما السلام ودُفنت أسفل أقدام ذينك الإمامينِ المعصومين.

٢ـ يطلق **الزيج** على الكتب التي تتناول أُصول أحكام علم النجوم ، أو على الجداول التي تُثَبَّت بها نتائج الرصد.

باسم **هولاكوخان** ، وأضاف إليه عدّة جداول لم تكن في الأزياج السابقة ، فحاز لهذا السبب اعتباراً أكمل .

وقد ترجم ونشر مؤرّخو أُوروبّا أيضاً ؛ حسب النقل المعتبر ؛ سنة ألف وثلاث وستّين للهجرة التي توافق سنة ألف وستمائة واثنين وخمسين ميلاديّة في مدينة **لندن** جدولاً لعرض البلاد وطولها اعتماداً على هذا **الزيج الإيلخانيّ** .[1]

١ـ «ريحانة الأدب» ج ٢ ، ص ١٧٧ .

٢ – أورد المستشار عبدالحليم الجنديّ فى كتاب «الإمام جعفرالصادق» ص ٣٠٤ إلى ٣٠٧ مايلي : ولا عجب أن تتآمر كثرة الأُوروبّيّين بالصمت عن مناهج العلم الحديث المنقولة من نهج المسلمين، كدأبهم في تنكير صلة آباء العلوم الرياضيّة والهندسيّة بالمهد الذي نشأت فيه. فذلك استمرار للحروب الصليبيّة ، وإخضاع للحقائق العلميّة للتعصّب الدينيّ المتأصّل في الحضارة الأُوروبّيّة ، فهم لا يذكرون أنّ فيثاغورث وأرشميدس وإقليدس آباء الرياضيّات ألقوا الدروس وتلقّوها في مدرسة الإسكندريّة بمصر ، ولا يذكرون أنّهم لم يعرفوا كتاب إقليدس المسمّى «الأساسيّات» أو «العناصر» إلّا عن نسخة عربيّة . ولا يذكرون أنّ أُوروبّا المعاصرة أخذت عن العلم الإسلاميّ المنهج العلميّ المعاصر ، أي منهج التجربة والاستخلاص.

يقول الشاعر محمّد إقبال[1] : يقول دبرنج Dubring : إنّ آراء روجير بيكون أصدق وأوضح من آراء سلفه . ومن أين استمدّ روجير بيكون دراسته العلميّة ؟ من الجامعات الإسلاميّة في الأندلس.

ويقول بريفو[2] Robert Briffault : إنّه لا ينسب إلى روجير بيكون (المتوفّى سنة ١٢٩٤م[3]). ولا إلى سميّه الآخر فرانسيس بيكون (المتوفّى سنة ١٦٢٦م) أيّ فضل في اكتشاف المنهج التجريبيّ في أوروبّا . ولم يكن روجير بيكون في الحقيقة إلّا واحداً من رسل العلم الإسلاميّ والمنهج الإسلاميّ إلى أُوروبّا المسيحيّة.

ولم يكفّ بيكون عن القول بـ: أنّ معرفة العرب وعلمهم هما الطريق الوحيد للمعرفة. ولقد انتشر منهج العرب التجريبيّ في عصر بيكون وتعلّمه الناس في أُوروبّا يحدوهم إلى هذا رغبة ملحّة.

ويضيف : أنّه ليس هناك وجهة نظر من وجهات العلم الأُوروبّيّ لم يكن للثقافة الإسلاميّة عليها تأثير أساسيّ ، وأنّ أهمّ أثر للثقافة الإسلاميّة هو تأثيرها في العلم الطبيعيّ والروح العلميّ ، وهما القوّتان المميّزتان للعلم الحديث.

ثمّ يضيف قائلاً:

إنّ ما يدين به علمنا للعرب ليس ما قدّموه لنا من اكتشاف نظريّات مبتكرة غير ساكنة. إنّ العلم مدين للثقافة الإسلاميّة بأكثر من هذا. فقد أبدع اليونان المذاهب وعمّموا الأحكام، لكنّ طرق البحث وجمع المعرفة الوضعيّة وتركيزها ومناهج العلم الدقيقة والملاحظة المفصّلة العميقة والبحث التجريبيّ كانت كلّها غريبة عن المزاج اليونانيّ. إنّ ما ندعوه بالعلم قد ظهر في أُوروبّا نتيجة لروح جديدة في البحث ولطرق جديدة في الاستقصاء، طريقة التجربة والملاحظة والقياس ؛ ولتطوّر الرياضيّات صورة لم يعرفها اليونان.وهذه الروح وهذه المناهج أدخلها العرب إلى العالم الأُوروبّيّ .أو كما يقول المستشرق المعاصر برنارد لويس : إنّ أُوروبّا القرون الوسطى تحمل دَيْناً مزدوجاً لمعاصريها العرب ؛ وهم الواسطة التي انتقل بها إلى أُوروبّا جزء كبير من ذلك التراث الثمين.

كما تعلّمت أُوروبّا من العرب طريقة جديدة وضعت العقل فوق السلطة، ونادت بوجوب البحث المستقلّ والتجربة. وكان لهذين الأساسين الفضل الكبير في القضاء على العصور الوسطى والإيذان بعصر النهضة.

وروجير بيكون يعلن تأثّره بالمنهج العربيّ ورفضه للمنهج الأرسطيّ الذي سيطر على الفكر الأُوروبّيّ من جرّاء الفساد في بعض استنتاجاته في العلوم الطبيعيّة فيقول:

If it had my way , I should burn all books of Aristotk for the study of them can lead to a loss of time , produce error . increase ignorance .

وتعريبه : **لَو أُتِيحَ لِيَ الأَمْرُ لَأَحْرَقْتُ كُلَّ كُتُبِ أَرَسْطُو ، لِأَنَّ دِرَاسَتَهَا يُمْكِنُ أَن تُؤَدِّي إِلَى ضَيَاعِ الوَقْتِ ، وَالوُقُوعِ فِي الخَطَأ ، وَنَشْرِ الجَهَالَةِ .**

وكما قال جوستاف لوبون بعد ستّ قرون من وفاة بيكون : **أَدْرَكَ العَرَبُ بَعدَ لَأْي أَنَّ التَّجْرِبَةَ وَالمُشَاهَدَةَ خَيْرٌ مِنْ أَفْضَلِ الكُتُبِ ، وَلِذَلِكَ سَبَقُوا أُورُوبَّا إِلَى هَذِهِ الحَقِيقَةِ ، فَالمُسْلِمُونَ أَسْبَقُ إِلَى نِظَامِ التَّجْرِبَةِ فِي العُلُومِ .**

١ ـ في كتابه (The Reconstruction of Religious Thinking=) «=إعادة تكوين الفكر الدينيّ في الإسلام».

٢ ـ في كتابه (Making of Humanity) «= صنع الإنسانيّة».

٣ ـ مات روجير بيكون سنة ١٢٩٤م ، واستمرّت الجامعات العربيّة والعرب في الأندلس قرنَين بعد ذلك إلى جوار المعاهد التي أُنشئت لترجمة علومهم في فرنسا والأندلس وإيطاليا وألمانيا.

وكان (بيكون) يجيد اللغتين العربيّة والعبريّة ، ويمارس التجارب العلميّة في الطبيعة والكيمياء، وقاومه معاصروه ولكنّ البابا شدّ آزره . وكان جزاؤه السجن في باريس من أجل كتاباته. التي تعدّ طلائع لكشوف علميّة حديثة (كالعدسات والسيّارات ذات المحرّك الابتدائيّ والطائرات).

وهو القائل : الفلسفة مستمدّة من العربيّة ، فاللاتينيّ على هذا لا يستطيع فهم الكتب المقدّسة والفلسفة إلّا إذا عرف اللغة التي نُقلت عنها . ومن قبل ذلك بقرون ، وعلى التحديد في سنة ٩٢٠م طلب ملك الصقالبة إلى الخليفة أن يبعث إليه معلّمين وفقهاء فصنع، وكان الجغرافيّون العرب في أرمينية منذ القرن التاسع للميلاد.

كذلك تلقّى البابا سلفستر (٩٩٩إلى ١٠٠٣م) علومه بجامع قرطبة، وكان اسمه الراهب جلبير قبل أن يصير رئيساً لدير رافنا . وهو ناقل العلوم العربيّة والأرقام العربيّة إلى أُوروبّا. وقد أنشأ مدرسة في إيطاليا وأُخرى في ريمس بألمانيا لنقل العلوم العربيّة . ومن الثابت أنّ مدرسة الوعّاظ في طليطلة نشأت مدرسةً لتدريس اللغة العربيّة سنة ١٢٥٠م ، ثمّ أمر مجلس فينّا سنة ١٣١١م بتدريس العلوم العربيّة في باريس وسلامنكا وغيرها.

وفي سنة ١٢٠٧م أنشأت جنوة جامعة لنقل الكتب العربيّة ، وفي سنة ١٢٠٩م، ١٢١٥م قرّر المجمع المقدّس منع تدريس كتب ابن رشد وابن سينا لما فيها من حرّيّة فكريّة.

وفي سنة ١٢٩٦م قرّر المجمع اللاهوتيّ تحريم تدريس الفلسفة العربيّة وحرمان كلّ من يعتقد أنّ العقل الإنسانيّ واحد في كلّ الناس.

وكان الإمبراطور فردريك الثاني قد أنشأ جامعة نابولي لنقل العلوم العربيّة فوق ما تنقله مدرسة سالرنو المجاورة . وأنشا العرب المطرودون في إسبانيا مدرسة مونيليه في بروفانس بجنوب فرنسا.

والشريف الإدريسيّ هو معلّم روجار ملك صقلية ، صنع له كرة من فضّة ككرة الأرض سنة ١١٥٣م قبل أن تعرف أُوروبّا أنّ الأرض كرويّة.

ومن الثابت أنّ فيبروناتش Fibronacci أوّل عالم اشتغل بعلم الجبر قد رحل إلى مصر وسوريا في عصر الملك فردريك الثاني ملك صقلية، وأنّ أدلارد الباثي Adilard of Bath درس على العرب علمَي الفلك والهندسة ، وما هؤلاء إلّا طلائع للعصر الذي عاشوا فيه.

وفي العصر ذاته كانت مدرسة صقلية ومثلها مدرسة سالرنو في جنوب إيطاليا جامعة نابولي التي أنشأها الإمبراطور فردريك الثاني تذيع العلوم العربيّة.

واحتلّ العرب جزر البحر الأبيض ابتداءً من كريت سنة ٢١٢ ، إلى صقلية سنة ٢١٦ ، أي في النصف الأوّل من القرن التاسع للميلاد ، كما استولوا على باري وبرنديزي في وسط إيطاليا وتوطّدت سيطرتهم على مقاطعتَي كامينيا وأبروزي ، وأقاموا فيهما إمارات عربيّة، وامتدّ سلطان عرب الأندلس إلى جنوب فرنسا في مقاطعة برونانس وحاصروا روما.

وكانت ملابس البابا موشّاة بالأحرف العربيّة ، وتأثّر دانتي بالثقافة العربيّة واضح في الكوميديا الإلهيّة . وهو يذكر صلاح الدين الأيّوبيّ والدوق جودفري (الملك جودفري ملك بيت المقدس في حرب الصليبيّين) في كتابه . وكانت السفارات بين الملوك والأمراء الإفرنج والسلاطين تمدّ إلى أُوروبّا أسباب الحضارة . وكانت كتب ابن رشد والغزاليّ أيّامئذٍ تقدّم الغذاء العلميّ للفكر الأُوروبّيّ، وكتابات القدّيس توماس الإكوينيّ (القدّيس توما) ناطقة بالتأثّر الظاهر أو بالنقل الكامل.

وأوّل مرصد فلكيّ أُقيم في أُوروبّا أقامه العرب بإشبيلية ، وأوّل مدرسة طبّيّة في أُوروبّا هي التي أقاموها في ساليرت . ومنذ سنة ٩٧٠م كان في غرناطة بإسبانيا ١٢٠ مدرسة، منها ١٧ مدرسة كبيرة و٢٧ مدرسة مجّانيّة يتعلّم فيها نبلاء أُوروبّا علوماً عربيّة.

ولمّا سقطت طليطلة في سنة ١٠٨٥ م في أيدي الأسبان ، أقاموا المدارس لترجمة العلوم العربيّة فيها ، ولم يتوقّف النقل بل أُتيحت له مصادر جديدة بسقوط قرطبة سنة ١٢٣٦م، ثمّ بسقوط غرناطة سنة ١٤٩٢م. وكان بلاط الفونسو السادس بعد سقوط طليطلة مصطبغاً بالثقافة العربيّة ، بل هو أعلن نفسه إمبراطور العقيدتين المسلمة والمسيحيّة؛ وكان الفونسو الخامس الملقّب بالحكيم ملك قشتالة (من سنة ١٢٥٢ إلى ١٢٨٤) أكبر دعاة الثقافة العربيّة، وقد جمع له اليهود كلّ كتب العرب.

ومن بين كتب الخواجة نصير الدين الطوسيّ في علم السماء كتاب «**التذكرة النصيريّة في الهيئة**»، وهو كتاب مختصر إلّا أنّه جامع لمسائل هذا الفنّ، ومن الشروح المشهورة على هذا الكتاب شرح الفاضل **شمس الدين محمّد بن أحمد الحفريّ** أحد تلامذة **سعد الدين**، وهو شرح ممزوج سمّاه «**التكملة**»، وفرغ من تأليفه في شهر محرّم الحرام لسنة ٩٣٢ هجريّة.[١]

ويعدّ علم الهيئة أيضاً من العلوم التي يجري تدريسها في الحوزات العلميّة، وكان العلّامة آية الله الطباطبائيّ قدّس الله نفسه أُستاذاً في هذا الفنّ وقادراً على استخراج التقويم، وقد حضرتُ دورة في علم الهيئة في محضره المبارك.

وأمّا علم الطبّ والصيدلة: فيكفي في عظمة تدريسه وتعليمه

وفي سنة ١٢٥٠م أنشأت جماعة الوعّاظ في طليطلة مدرسة لتدريس اللغتين العربيّة والعبريّة بقصد تنصير المسلمين، كما أُلّفت الكتب للدفاع عن المسيحيّة ضدّ المسلمين. وكان الأسقف ستيفن في باريس يناقش كتب ابن رشد. وفي آخر أيّام المسلمين بالأندلس أُنشئت محاكم التفتيش لمقاومة العلم والفلسفة اللذين خيف انتشارهما من كتب المسلمين.

وفي بحر ثمانية عشر عاماً من ١٤٨١ إلى ١٤٩٩ أحرقت هذه المحاكم ١٠٢٢٠ رجلاً أحياءً وشنقت ٦٨٦٠، وعاقبت بعقوبات أُخرى سبعة وتسعين ألفاً. وفي سنة ١٥٠٢م قرّر مجمع لاترانا لعن من ينظر في فلسفة ابن رشد، لأنّه يقول بحرّيّة العقل.

يراجع الفصل الثاني وعنوانه (قوّة الحضارة العلميّة) من الباب الأوّل في كتابنا «توحيد الأُمّة العربيّة» الفقرات ٤ إلى ١٨.

١ـ قال في «كشف الظنون» ص ٣٩١ و٣٩٢، الطبعة العثمانيّة، سنة ١٣٦٠ هـ: وأوّل من شرح كتاب «التذكرة» السيّد شريف الجرجانيّ المتوفّى سنة ٨١٦، ثمّ شرحه المحقّق نظام الدين حسن بن محمّد النيسابوريّ المعروف بالنظام الأعرج، وسمّاه «توضيح التذكرة» وفرغ منه سنة ٨١١ هـ، وهو شرح مشهور ومقبول، ثمّ شرحها الفاضل محمّد الحفريّ الذي أوردنا بيانه في المتن؛ ويقال إنّ للعلّامة قطب الدين محمّد بن مسعود الشيرازيّ والفاضل عبد العليّ البيرجنديّ أيضاً شرحاً لـ«التذكرة» ولم أره (ولم أرهما).

وشهرته أنّ الطبّ كان حتّى هذه الأواخر منحصراً إمّا حسب طبّ **خمسة اليونانيّ**، أو حسب طبّ **أبي زكريّا الرازيّ**؛ ولم ننسَ بعدُ ما كان لدينا من حكماء وأطبّاء متبصّرين، حاذقين، خبيرين ومشهورين في كلّ مدينة ومحلّة وشارع، من المشتغلين بمعالجة الأمراض حسب نظام مشخّص وطريقة معيّنة، تبعاً لكتب الأدوية مثل «**قرابادين الكبير**» وسائر الكتب المتخصّصة في هذا الشأن، وذلك بالأدوية اليونانيّة، حسب نوع المرض المشخّص، أي بالعقاقير والأدوية العشبيّة وتعديل المزاج بالمُنضج ثمّ المُسهل.

وكان كتاب «**القانون**» **لابن سينا**، من الكتب المعروفة التي ينبغي مطالعتها في هذا المجال؛ وكان لكلّ أُستاذ ـ مضافاً إلى ذلك ـ طريقته الخاصّة في العلاج وتلامذة خاصّون يقوم بتعليمهم وتدريسهم كتاباً آخر وفق المنهج الذي اختطّه، يُضاف إلى ذلك مجيئه بالتلاميذ من أوّل العمل إلى مطبّه وإراءتهم ـ عملاً ـ أنواع وأقسام الأمراض وطرق معالجتها ومقدار الدواء الموصوف لكلّ حالة؛ وقد بقي كتاب «القانون» يدرّس حتّى هذه الأواخر لتلامذة الطبّ في أُوروبّا.

ولقد تغيّر الأُسلوب اليوم، فجعلوا الأدوية عبارة عن موادّ كيميائيّة ذات صيغ وتركيبات خاصّة، وصيّروها بشكل أقراص أو حُقَن، لتكون سهلة الحمل والنقل، وللاستفادة منها بالمقادير المعيّنة حسب الحاجة من جهة، ولتكون أدوية جاهزة يمكن إيصالها أفضل وأسرع ليد المريض، ولتكون أكثر انسجاماً مع وضع التقدّم التَّقنيّ الحاكم على الدنيا حاليّاً من جهة ثانية، وليمكن من جهة ثالثة تجزئة العقاقير للتخلّص من الموادّ المضرّة والسمّيّة الموجودة فيها والحصول على الدواء الخاصّ المطلوب بتركيب وخلط الموادّ النافعة لعدّة أنواع من الأدوية. وعلى الرغم من امتلاك

هذه الطريقة للمنافع العديدة، إلّا أنّ لها أضرارها أيضاً.

أوّلاً: لأنّ الأدوية الصناعيّة تفسد ويعروها التلف بسرعة، وينبغي اتّخاذ تدابير خاصّة للمحافظة عليها من التلف لمدّة معيّنة، وتلك التدابير التي تتّخذ للدواء ـ إمّا بواسطة عمل كيميائيّ أو عمل فيزيائيّ ـ لن تبقى بدون تأثير في بدن المريض، حيث يسبّب الترسّب التدريجيّ للموادّ الضارّة وردّ فعل خلايا البدن لورودها سَوْق البدن تدريجيّاً للضعف؛ في حين أنّ الأدوية الطبيعيّة والأعشاب الطبّيّة خالية من الضرر، ولا يعروها الفساد، والتلف وتبقى مدّة طويلة.

وثانياً: استعمال زرق الحُقَن ـ أي إدخال موادّ خارجيّة دفعةً واحدة في شريان القلب أو العضلة ـ يسبّب إيجاد ردّ فعل سلبيّ، إذ ينبغي لعموم الأغذية والأدوية أن تدخل البدن من المجاري الطبيعيّة، كالمعدة والرئة.

وثالثاً: فإنّ هذه المركّبات هي أدوية توصف لجميع أنحاء العالم، بما فيها من مناطق باردة وحارّة ومعتدلة، ولكلّ أنواع الأمزجة ولكلّ الأقوام بصفاتهم وأنواعهم المتباينة، فكما أنّ ملاحظة وضع الماء والهواء والبيئة الجغرافيّة مؤثّرة في أصل صحّة الإنسان وطبيعته، فهي كذلك مؤثّرة في كيفيّة المعالجة وتعيين نوع الدواء.

وعلى هذا الأساس يقول ابن سينا في كتاب «القانون»: **وَكُلٌّ يُدَاوَى عَلَى نَبْتِ بَلَدِهِ**.

أي ينبغي معالجة كلّ مريض بالأعشاب التي تنمو في بلده، لا بأعشاب بلد آخر.

وهذا الأمر قد جرت رعايته في الطبّ القديم، وكانت الأدوية التي يصفها الحكماء عبارة عن جذور العقاقير أو الأعشاب التي تؤخذ غالباً من نفس البلد أو البلاد المجاورة.

ورابعاً : إنّ تلك الأدوية العشبيّة هي موادّ معلومة ومجرّبة ، فهي تؤخذ من النباتات أو الحيوانات المحلّلة كزيت السمك ، أمّا الأدوية الكيميائيّة الحاليّة التي تُجلب من بلاد الإفرنج ، فلا ضابط ولا قيود هناك في عملية انتخابها .

فهم هناك يعدّون الكلب والخنزير والضفدع والسرطان البحريّ والأفعى والسحلية والعقرب وكلّ ما يتصوّره الإنسان محلّلة ، فيأكلونه ويستخرجون أدويتهم منه ما صلح لذلك ، من زيت سمك محرّم ، أو معدّة وكبد خنزير ، ومن غدّة بنكرياس كثير من الحيوانات المحرّمة ، أو حتّى من عصارة فضلات الكلب .[1]

١ـ إنّ أحد الموادّ الغذائيّة والأدوية المستعملة حاليّاً في بلاد الكفر ، الذي يعتبرونه من أفضل الموادّ والأدوية من الناحية الصحّيّة ، هي الأغذية والأدوية المستحصلة من ماء مجاري المدن ، فهم ينصبون معملاً لتجزئة الموادّ الكيميائيّة في محلّ تجمّع مياه المجاري ، فيدخلون فيه كلّ ما في مياه المجاري من النجاسات وفضلات الإنسان والحيوان وسائر الأقذار، وتجري تجزئتها فيصنعون من الموادّ الناتجة الدهن والزبد والموادّ النشويّة والبروتينيّة وحتّى اللحوم وجميع أنواع الحَيَمِين (الفيتامين) التي تتواجد بكثرة ، ويصنّعونها بشكل موادّ غذائيّة ودوائيّة ويعرضونها للبيع في السوق.

وكان من المزمع أيّام الطاغوت إنشاء معمل صغير منه في طهران في ممرّ مياه مجاري مستشفى الألف سرير ، لكنّه لم يدخل حيّز التنفيذ لاعتراض العلماء الأعلام ، وكذلك أوشك مثل هذا العمل أن يتحقّق في إصفهان أيضاً ، حيث استخرج أحد المهندسين هناك زبداً من مياه المجاري وعرضه للبيع في السوق وأكل منه في جمع من الناس ؛ وقيل إنّه كان شبيهاً جدّاً بالزبد الطبيعيّ ، إلى الحدّ الذي صعب على الأخصّائيّين التفريق والتمييز بينهما. وقد مُنع إجراء هذا المشروع أيضاً ، لكنّ ذلك معهود ورائج لسنين طويلة في الدول الكافرة، حتّى وصلوا إلى استخراج العطر الصناعيّ في ذلك المعمل ، ويقال إنّ بعض الصابون المعطّر المستورد من الخارج يحوي من ذلك العطر.

وينبغي العلم أنّ هذه الموادّ هي غير الموادّ المستخرجة من النفط ، حيث يقال إنّ

فحقن التستوفيرون (Testowiron) التي يصفونها لبعض أنواع الضعف الجنسيّ يستخرجونها من خصية القرد ، لذا تكون غالية القيمة ، كذلك فهم يعدّون الكحول والخمر حلالاً ، ويعدّونه في الصيدلة كأحد الموادّ الرئيسيّة . أمّا الشرع الإسلاميّ المقدّس ، فحين يعتبر هذه الموادّ حراماً ، فليس ذلك فقط للأمر التعبّديّ ، بل للأضرار الجسميّة والروحيّة التي تنطوي عليها أيضاً . لذا نشاهد أنّ هذا النوع من المعالجات بالموادّ الكيميائيّة وتركيبات الموادّ الصناعيّة غير الطبيعيّة تخفِّض بشكل عامّ معدّل العمر الطبيعيّ للإنسان ؛ أي أنّ تناول هذه الموادّ ينطوي على إدخال سموم وموادّ ضارّة إلى البدن ، بالرغم من عدم تسبيبها للموت السريع الآنيّ دفعةً واحدة ، إلّا أنّها تسبّب نوعاً من الموت البطيء التدريجيّ ؛ ويقال إنّ هذا النوع من الأدوية والمعالجات يخفِّض معدّل الأعمار الطبيعيّة بما يقرب من عشر سنوات .

يقول **الدكتور الكسيس كارل** : ويجب من جهة أُخرى أن نسأل أنفسنا : ألا يسبّب نقص تلفات الأطفال والشباب ووفيّاتهم إشكالاً جديداً ؟ فالأطفال العاجزين والمعوّقين تجري حمايتهم في المدينة الحديثة فلا يجري انتخاب الأصلح كما كان يحصل في السابق . وإنّ أحداً لا يعلم أين سيؤول مستقبل نسل تجري حماية موجوداته العليلة والناقصة بواسطة الموازين الطبّيّة والصحّيّة .

لكنّنا نواجه أمامنا مسألة معضلة أُخرى يجب أن نجد لها حلّاً سريعاً :

سبعين في المائة من الأغذية تستخرج من النفط ، والعطر المذكور هو غير العطر المستخرج من النفط والذي يعدّ من أغلى وأندر أنواع العطور في الدنيا.

ففي الوقت الذي تزول فيه شيئاً فشيئاً أمراض الالتهابات كـالجدري والحصبة والخناق والسلّ والطاعون والإسهال المعديّ للأطفال وغـير ذلك من الأمراض ، ممّا يقلّل من ميزان الخسارة في الأطفال ، فـإنّنا نـلاحظ فـي المقابل أنّ عدد المصابين بالأمراض النفسيّة يزداد يوماً بعد آخر .

ففي بعض المناطق يزيد عـدد المـرضى المـجانين فـي مسـتشفيات الأمراض العقليّة حتّى على عدد جـميع المـرضى الآخـرين الذيـن تـجري معالجتهم . ومضافاً إلى ذلك فإنّه ينبغي الاهتمام بمسألة زيادة الاخـتلالات والأعراض العصبيّة ، التي هي بنفسها أحد الأسباب الرئيسيّة لكآبة الأفـراد وتشتّت العائلات ، والتي تمثّل خطراً على مستقبل البشريّة والمـدنيّة أهـمّ بكثير من أمراض الالتهابات التي يـخصّص الطبّ الحـاليّ كـلّ هـذا الوقت والجهد لدراستها ومكافحتها .[1]

والأمر اليوم شبيه أيضاً بالقرن السابق ، فالرجل الذي عمره (٤٥) سنة لا يمتلك الأمل الكبير في أن يصل إلى سنّ الـ (٨٠) سنة ، ومع أنّ مـتوسّط عمر الأفراد قد زاد بكثير على السابق إلّا أنّه يحتمل أن تكون الأعمار قـد قصرت .[2]

وتبعاً لهذا الأمر فإنّ الكثير من العلماء والأجـلّاء يـتأسّفون لانـدثار الطبّ اليونانيّ ، فليس لدينا حاليّاً من أُولئك الأطبّاء في إيـران إلّا واحـد أو

١ـ «انسان موجـود ناشناخـته» (= الإنسان ذلك المـجـهول) ص ٢٢ و٢٣ ، الطـبعة السادسة. وينبـغي العلم أنّ كتاب «الإنسـان ذلك المجـهول» أُلِّف سنة ١٩٣٥ ميلاديّة، وقد انقضـى فعلاً على تأليف الكـتاب إلى زمانـنا (سنة ١٤٠٩ هجـريّة قمـريّة ـ ١٩٨٨ مـيلاديّة) ٥٣ سنة.

٢ـ «انسان موجود ناشناخته» ص ١٩٩ و ٢٠٠ .

اثنان ،[1] وسيضيع بذهابهم تعليم هذا النوع من الطبّ وتتشتّت علومه ، فقد آل أمر هذه الطبابة بيد العطّارين وباعة الأعشاب الذين لا شأن لهم بالطبابة ولا مهارة لديهم ، ولا تعود مراجعتهم على المريض المبتلى إلّا بالأذى والخطر .

ويقال : إنّ هناك بعض الأطبّاء في ألمانيا يقومون بمعالجة المرضى حسب نهج الطبّ اليونانيّ فقط ، وإنّ لهم صيدليّات خاصّة تباع فيها الأدوية التقليديّة القديمة والعقاقير ، وتصرف فيها وصفاتهم الطبّيّة ، فيضع أصحاب هذه الصيدليّات لافتات في واجهتها كُتب فيها : Herbalist Medcine Shop .

لكنّ الأمر يختلف في أمريكا ، فهناك توجد دكاكين تباع فيها الموادّ الغذائيّة الصحّيّة فقط ، مثل الـ «آب نبات» [2] والأعشاب والعقاقير والأقراص والأدوية التي لا يحتاج استعمالها إلى وصفة طبيب ، وتعلو واجهاتها لافتات : (محل الموادّ الغذائيّة الصحّيّة) Health Food Shop [3]

ونحن الآن بانتظار ظهور طبابة وأطبّاء بهذه الكيفيّة ، يمتلكون

١ـ وهما السيّدان الجليلان : الحاج السيّد عبد الحسين خسروي الهمدانيّ الذي انتقل إلى رحمة الله قبل عدّة سنين ، وكان مشغولاً في الطبابة في همدان ، ثمّ في طهران أخيراً ، وكان له شهادة طبابة رسميّة من وزارة الصحّة والكلّيّة الطبّيّة ؛ والحاجّ السيّد أحمد علي الهمدانيّ ابن عمّه ، وهو رجل عجوز مجدّ يشتغل حاليّاً في الطبابة في همدان ، أبقاهُ الله إن شاءَ الله.

٢ـ نوع من الحلوى تُصنع من تبلور محلول سكّريّ مشبع ساخن بعد تبريده ، ويسمّى السُّكَّر الفضّيّ .

٣ـ وقد نقل لي هذه القضيّة الأُستاذ المحترم وطبيب الأسنان الجليل الدكتور باكدان آراكليان هداه الله إلى النهج القويم والصراط المستقيم ، وهو من أطبائنا الأجلّاء في التخصص والمهارة في فنّه ، وفي صدقه واستقامته.

التخصّص والمهارة في ذلك الفنّ ، مضافاً إلى المزايا الإيجابيّة النافعة للطبّ العصريّ ،كالعمليّات الجراحيّة وغيرها .

ويقال إنّ الطبّ الحديث يقوم على ثلاثة أركان : ابن سينا ، العمليّات الجراحيّة ، الترياق .

ومع امتلاكنا بحمد الله ومنّه هذه الأركان الثلاثة ، فإنّ بإمكاننا تأسيس دراسة الطبّ العالي الذي يمتلك ميزات الطبّ الحديث ويفتقد أضراره ، ليمكن معالجة المرضى بالنحو الأحسن أوّلاً ، وليتمّ تخصّص الأطبّاء ونيلهم المهارة بشكل أفضل ثانياً .

ومن أضرار الطبّ الحالي هو عدم تنميته لمهارة الأطبّاء الذين يقوم بتخريجهم ؛ إذ لم يدع استعمال ميزان الحرارة (Thermometer) مجالاً للطبيب لأخذ نبض المريض ومعرفة كيفية ضرباته التي كان الطبّ القديم يقسّمها إلى (٣٢) نوعاً من الضربات ، يشخّص الأطبّاء من كيفيّة كلّ نوع من الضربات مرضاً خاصّاً في المريض المبتلى .

ووصل الأمر إلى الحدّ الذي تمّ أخيراً اختراع جهاز يمكن بواسطته تشخيص الغدّة الواقعة في الرأس فوراً وتعيين محلّها ، فيقوم معاونو الطبيب بهذا العمل قبل معاينة الطبيب ، فيقدّمون المريض إلى الطبيب وبمعيّته وصف للغدّة وكيفيّتها . وبالرغم من مزيّة هذا العمل إلّا أنّ قوّة الابتكار والبحث وكيفيّة تشخيص الغدّة والعثور عليها من الطرق المتعدّدة التي يسلكها الأطبّاء عادةً لذلك ، ستنتفي بهذا العمل . وخلاصة الأمر أنّه كلّما اتّسعت دائرة اختراع واكتشاف مثل هذه الأجهزة والوسائل لتشخيص الأمراض ، هبط معها بنسبة معكوسة قابليّة الأطبّاء ومهارتهم ، وهذا الأمر بنفسه من الآفات التي تواجه الطبّ الحديث ، لأنّه لا يربّي أطبّاء حاذقين متمرّسين في تشخيص الأمراض ، بل يجعل الأطبّاء أشبه بالمأمورين في

ماكنة فيزيائيّة أو محرّك كهربائيّ لاستبدال المسامير اللولبيّة (البراغي) والصامولات .

كانت هذه هي الإجابة على الإشكال الثاني لمقولة صاحب المقالة ، بسطنا القول فيها مجبرين لتتّضح أطرافها وجوانبها ، من أجل بيان عظمة علم الحكمة والفلسفة الإسلاميّة أوّلاً ، والبرهنة على حقارة الفلسفة الحديثة ـ بما فيها من إلهيّاتها وطبيعيّاتها ـ أمام تلك الفلسفة ثانياً .

الإشكال الثالث

أساس الحوزات العلميّة قائمٌ على القرآن والعرفان

وكان **الإشكال الثالث** هو : إظهار المؤلّف الأسف لعدم تدريس الدروس الحديثة والعلوم التجريبيّة في الحوزات العلميّة ، وعدم وجود تخصّص لدى الطلبة والفقهاء والفضلاء في علوم الطبيعة والعلوم البشريّة الحديثةكما ينبغي .

ونورد هنا نصّ مقولته لتّتضح جوانب الإشكال فيها جيّداً :

لا يتكوّن أيّ فهم دينيّ بمعزل عن نظرة كونيّة دينيّة ومستقلّة مُسبقة، ولا يبقى أيّ فهم دينيّ أيضاً على وضعه السابق عند تغيّر تلك النظرة الكونيّة ، لذا فإن أعطت فتوى العرب رائحة العرب ، وأعطت فتوى العجم رائحة العجم ، فلا عجب في ذلك.

ومعنى هذا الكلام أنّه بدون الاجتهاد في الأُصول (وبالمعنى الأعمّ في علم الكلام ومعرفة العالم و...) فإنّ الاجتهاد في الفروع لن يكون متيسّراً أو ناجحاً ومفيداً . فالإنسان لا يمكنه النظر (ولا ينظر) في الدين بدون أن يكون له مبنى وفلسفة نظريّة ، ولن يعود النظر بنفع بدون تنقيح للمنظر ؛ وما لم يُفتح باب التحوّل والتغيّر في المبادئ ، فستبقى المسائل في منأى عن التغيير.

ولهذه الجهة فإنّ الإعراض ، بل الجفاء الذي أولته وتوليه حوزاتنا الدينيّة العلميّة للعلوم والمعارف الجديدة مثير للأسف وليس له أبداً ما يبرّره ، بحيث يتّخذ الدفاع معه عن الدين لون الدفاع عن النظرة الكونيّة والعلوم الإنسانيّة القديمة.

لكأنّ الدين لا ينمو ولا يبقى في غير تلك الجغرافية المعيّنة،

فلا وزن لعلم التأريخ (وهو المدخل ، بل الأساس لدراسة العلوم الإنسانيّة) ليتّخذ مقام الصدارة، ولا شيء هناك من علم الطبيعة والعلوم الإنسانيّة وعلم الاجتماع وعلوم المعرفة الحديثة، بل لا زالوا يدرسون حتّى يومنا هذا علم الأخلاق المعتمد على علم النفس القديم.[1]

ويلزم قبل الإجابة عليه أن نورد نصّ كلام أُستاذنا الأكرم العلّامة آية الله الطباطبائيّ قدّس الله سرّه ، الذي أورده في كتابه النفيس «**قرآن در اسلام**» (= القرآن في الإسلام) ، ثمّ نشرع في البحث :

القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي يساوي بين الحياة الإنسانيّة السعيدة والحياة الفطريّة النزيهة أوّلاً ، وهو بعكس جميع المناهج يجمع بين البرنامج الدينيّ وبرنامج الحياة ثانياً ؛ فله رأيه الخاصّ في جميع شؤون الفرد والمجتمع ، ويصدر تعاليمه بما ينسجم مع النظرة الواقعيّة (معرفة الله تعالى ـ النظرة الكونيّة) ، وفي الحقيقة فإنّه يودع الأفراد بِيَدِ العالَم ، والعالم بِيَد الأفراد ، ويودعهما معاً بيد الله سبحانه .[2]

ونشرع الآن في جوابه والردّ عليه بالتفصيل :

ينبغي العلم **أوّلاً** : ما هو المراد من العلم الذي جرى التأكيد والترغيب على تعلّمه في الإسلام والقرآن والروايات المستفيضة ، بل المتواترة في سنّة رسول الله وأئمّة الهدى عليهم صلوات الله ؟

و**ثانياً** : على أيّ أساس من أُسس التعليم والتربية وُضعت رسالة الحوزات العلميّة الدينيّة وواجباتها ؟

و**ثالثاً** : ما هو الهدف الغائيّ لمثل هذه الحوزات ؟ وما هي المزايا

١ـ «بسط وقبض تئوريك شريعت» (= بسط وقبض نظريّة الشريعة) ؛ مجلّة «كيهان فرهنگي» رقم ٥٠ ، أُرديبهشت ماه ٦٧ ، رقم ٢ ، ص ١٧ ، العمود الأوّل.

٢ـ «قرآن در اسلام» (= القرآن في الإسلام) ص ٦١ ، الطبعة الأُولى.

والخصوصيّات التي ينبغي توفّرها في الأفراد الذين يتخرّجون منها ؟ وبعبارة أُخرى : ما هو انتظار وتوقّع القرآن ، ورسول الله ، وإمام الزمان عجّل الله فرجه الشريف ، والمسلمين الذين يدفعون بعرق الجبين وكدّ اليمين نفقات الحوزة من مصارف سهم الإمام ؟ [1]

أمّا البحث عن المسألة الأُولى وهي المراد من العلم الذي عُدّ من أهمّ الفرائض ، والذي أكّد عليه رسول الله إلى ذلك الحدّ ، فقال لربيبه الوحيد ووصيّه بلا فصل وخليفته في الأرض :**يَا عَلِيُّ ! إذَا رَأيْتَ النَّاسَ يَتَقَرَّبُونَ إلَى خَالِقِهِمْ بِأَنْوَاعِ البِرِّ ، تَقَرَّبْ إلَيْهِ بِأَنْوَاعِ العَقْلِ تَسْبِقْهُمْ !** [2]

هل المراد منه العلوم الحديثة :كالفيزياء والكيمياء والطبيعيّات والرياضيّات والطبّ والطبّ البيطريّ والزراعة وتربية الدواجن ، أم المراد

١ـ نقل للحقير أخيراً الصديق المعظّم والرفيق الشفيق ، صاحب العلم والورع ، آيةالله المكرّم الحاجّ الشيخ عبد الحميد الشربيانيّ دامت بركاته ، عن المرحوم آية الله العظمى المجتهد جامع الشرائط السيّد محمّد حجّت كوه كمري أعلى الله مقامه الشريف ، وهو من المراجع النزيهة والجليلة للحوزة العلميّة في قم ، أنّ أحد القرويّين وضع في يده يوماً ورقة ماليّة قيمتها خمسة تومانات ، فلمّا تسلّم منه هذا المبلغ بقيت يد القرويّ في يده لمدّة لا يطلقها، وبعد أن غادر القرويّ سأله أحد الحاضرين عن السبب الذي دعاه لاستبقاء يد القرويّ في يده كلّ هذه المدّة وهو أمر لم يكن معهوداً منه قبلاً ؟ فأجاب : إنّ هذا الرجل مزارع، وقد كسب هذا المال من عمله بالمسحاة ، وقد أثّر العمل في يده فاخشوشنت وملأتها الفقاقيع والنتوءات ، فضغطّت على يده لتنغرس نتوءاتها في يدي فأعلم كيف ينبغي أن يُصرف هذا المال الذي جاء من هذا الطريق . **اللَهُمَّ اغْفِرْ لِسَلَفِنَا الصَّالِحِينَ وَاخْلُفْ عَلَى عَقِبِهِمْ فِي الغَابِرِينَ وَارْحَمْهُمْ وَإيَّانَا بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ .**

٢ـ ورد هذا الحديث في الجوامع الروائيّة للشيعة والعامّة ؛ وذكره الشيخ الرئيس ابن سينا في «الرسالة المعراجيّة» ، والفيض الكاشانيّ في «الوافي» ج ١ ، ص ١٠٢ ، الطبعة الحروفيّة.

منه علم خاصّ حثّ عليه وأكّد على تعلّمه ؟

ممّا لا ريب فيه أنّ دائرة العلوم قد اتّسعت إلى حدّ كبير وهائل ، وأنّ فرصة تعلّمها واكتسابها من قِبل الإنسان ضئيلة ومحدودة جدّاً ؛ فلو صرف الإنسان جميع عمره في اكتساب فنٍّ واحد ، للدرجة التي يطّلع فيها عليه تحقيقاً ويصبح أُستاذاً أخصّائيّاً فيه ، فلا ضامن له في وصوله للإحاطة التامّة بجميع أطرافه وجوانبه ودقائقه ، فضلاً عن أن يحاول التخصّص في فنّين أو أكثر .

لذا فإنّ على الإنسان أن يوازن بين مدّة عمره الصالحة للتعلّم ، وبين احتياجه من ذلك العلم النافع الذي يرغب في اكتسابه ، فيصرف الساعات والأيّام في تعلّمه ليحصل على الغاية التي يتوخّاها .[1]

أمّا لو جدّ الإنسان واجتهد ، فاكتسب بالمشاقّ والمتاعب والسهر العلومَ المختلفة التي لا تنفعه ، فلن يكون نصيبه إلّا الوبال والخسران والندم ، فتكون حاله كمن قضى العمر ببناء البيوت والعمارات الكثيرة على أمل أن يُعمَّر ، وكلّما فرغ من عمارة لم يستفد منها ولم يسكن فيها ، بل تدفعه شدّة الأمل والحرص إلى بناء بناية أُخرى ، حتّى يأتيه الموت فجأة فيخطفه ، **لَا مَالاً حَمَلَ وَلَا بِنَاءً نَقَلَ** .[2]

١ـ أورد الشيخ هادي كاشف الغطاء في «مستدرك نهج البلاغة» ص ١٦٥ و ١٦٦ عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال : **أَقَلُّ النَّاسِ قِيمَةً أَقَلُّهُمْ عِلْماً ؛ وَمَنْ لَمْ يَتَعَلَّمْ فِي صِغَرِهِ لَمْ يَتَقَدَّمْ فِي كِبَرِهِ** ...

حتّى يقول : **العِلْمُ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُحْصَى ، فَخُذُوا مِنْ كُلِّ شَيٍ أَحْسَنَهُ . ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ :**

مَا حَوَى العِلْمَ جَمِيعاً أَحَدٌ   لَا وَلَوْ مَارَسَهُ أَلْفَ سَنَة

إنَّمَا العِلْمُ بَعِيداً غَوْرُهُ   فَخُذُوا مِنْ كُلِّ شَيءٍ أَحْسَنَه

٢ـ الخطبة ١١٢ من « نهج البلاغة » طبعة مصر بتعليقة محمّد عبده ، ج ١ ،

وهكذا هو شأن هذا الرجل الذي تعلّم العلم لكنّه رحل عن الدنيا ولم يجن إلّا الضرر والخسران ، فلقد أضاع بإرادته واختياره عمره الشريف الذي يعدّ أثمن رأسمال له ، وخسر حياته الحاضرة بلا عوض ، وكان في هذا الدنيا ـ التي تعدّ محلّ اكتساب العلم النافع وتحصيل العقل الكامل والتجرّد الخالص ـ مسربلًا بمسكنة العلم ، صفر اليدين من الكمالات النفسيّة ، حتّى رُحّل عنها حائراً ذليلاً ، وسيق إلى سرادق النور بأعين عمياء وآذان صمّاء .

ولذلك كان خاتم الرسل ، النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم يستعيذ بالله من علوم غير نافعة كهذه ، فيدعو ربّه ويسأل حاجته من ساحة قُدسه : **اللَهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ .**[1]

ص ٢٢٤ ، ومن جملة فقراته : **وَمِنَ العَنَاءِ أَنَّ المَرْءَ يَجْمَعُ مَا لَا يَأْكُلُ ، وَيَبْنِي مَا لَا يَسْكُنُ ، ثُمَّ يَخْرُجُ إلَى اللهِ لَا مَالاً حَمَلَ ، وَلَا بِنَاءً نَقَلَ .**

١ـ ورد هذا الدعاء في الجوامع الشيعيّة والعامّيّة ؛ وقد ذكر الشيخ الطوسيّ في «مصباح المتهجّد» ص ٥٣ ، في جملة تعقيبات صلاة العصر : **ثُمَّ تَقُولُ : اللَهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ ، وَمِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ ، وَمِنْ دُعَاءٍ لَا يُسْمَعُ** ـ الدعاء.

وأورده الراغب الإصفهانيّ في «المحاضرات» ج ١ ، ص ٣٥ : **قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ** [وَآلِهِ] **وَسَلَّمَ : أَشَدُّ النَّاسِ عَذَاباً يَوْمَ القِيَامَةِ عَالِمٌ لَا يَنْتَفِعُ بِعِلْمِهِ . وَقَالَ عَلَيهِ السَّلَامُ : أَشَدُّ النَّاسِ نَدَامَةً عِنْدَ المَوْتِ العُلَمَاءُ المُفَرِّطُونَ . وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ** [وَآلِهِ] **وَسَلَّم : اللَهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ ، وَقَلْبٍ لَا يَخْشَعُ ، وَعَيْنٍ لَا تَدْمَعُ وَنَفْسٍ لَا تَشْبَعُ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هَؤُلَاءِ الأَرْبَعِ .**

وروى الحاكم في «المستدرك» ج ١ ، ص ١٠٤ ثلاث روايات مختلفة ، إثنتان منها بسنده عن أبي هريرة والثالثة بسنده عن أنس : **كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ** [وَآلِهِ] **وَسَلَّمَ يَدْعُو فَيَقُولُ : اللَهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الأَرْبَعِ : مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ ، وَقَلْبٍ لَا يَخْشَعُ ، وَنَفْسٍ لَا تَشْبَعُ ، وَدُعَاءٍ لَا يُسْمَعُ** ؛ وورد في الدعاء المروي عن أنس بزيادة : **اللَهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَؤُلَاءِ الأَرْبَعِ .**

وقد أشار معجزة رسول الله الباقية (القرآن الكريم) إلى هذه النكتة الدقيقة ونبّهنا إليها، حيث يقول:

فَبَشِّرْ عِبَادِ * ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُولَـٰٓئِكَ هُمْ أُولُوا ٱلْأَلْبَـٰبِ. [1]

ويقول سيّد الوصيّين أمير المؤمنين عليه السلام:

العِلْمُ كَثِيرٌ فَخُذُوا مِنْ كُلِّ شَيءٍ أَحْسَنَهُ. [2]

ويقول أيضاً في وصيّته للإمام الحسن عليه السلام:

فَإنَّ خَيْرَ القَوْلِ مَا نَفَعَ. وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا خَيْرَ فِي عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ؛ وَلَا يُنْتَفَعُ بِعِلْمٍ لَا يَحِقُّ تَعَلُّمُهُ. [3]

وللراغب الإصفهانيّ كلام في هذا المقام يستحقّ المدح، فهو يقول: مَن كان قصده الوصول إلى جوار الله والتوجّه نحوه، كما قال تعالى:

ويقول ابن ميثم كذلك في شرح قول أمير المؤمنين عليه السلام في «شرح نهج البلاغة» ج ٥، ص ١٢: ولهذا فقد كان رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يستعيذ بالله من شرّ هكذا علم، ويقول: **وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ**. وهو مذكور كذلك في «مرصاد العباد» ص ٤٨٦.

وأورده في «إحياء العلوم» ج ١، ص ٢٩١ بهذه العبارة، وأورده في ج ١، ص ٣ بهذه الصورة: أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قال: **نَعُوذُ بِاللَهِ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ**.

وأورد الفيض الكاشانيّ هذا الحديث في كتاب «المحجّة البيضاء» ج ١، ص ٤، عن الغزّاليّ. ويقول المعلّق في تعليقته: **أَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَةَ ... وَالنِّسَائِيُّ فِي سُنَنِهِ، وَهَكَذَا فِي «المُسْتَدْرَك»؛ وَفِي «مِصْبَاحِ الشَّرِيعَةِ» باب ٦٠.**

١ـ الآيتان ١٧ و١٨، من السورة ٣٩: الزمر.

٢ـ «سفينة البحار» ج ٢، ص ٢١٩.

٣ـ من جملة وصيّة طويلة كتبها أمير المؤمنين عليه السلام للإمام الحسن عليه السلام في حاضرين وهي مكان قريب من صفّين، جاءت في الخُمس الأوّل من الرسالة ٣١ لـ«نهج البلاغة»، وفي طبعة مصر بتعليقة محمّد عبده: ج ٢، ص ٤٠.

فَفِرُّوٓا إِلَى ٱللَهِ؛[1] وكما أشار إليه النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم بقوله: **سَافِرُوا تَغْنَمُوا**؛ فحقّه أن يجعل أنواع العلوم كزادٍ موضوع في منازل السفر، فيتناول من كلّ منزل قدر البُلغة، ولا يعرج على تفصّيه واستغراق ما فيه، فإنّه لو قضى الإنسان جميع عمره في فنّ واحد لم يدرك قعره ولم يسبر غوره.[2]

ويقول كذلك: **العِلْمُ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُحْوَى، فَخُذُوا مِنْ كُلِّ شَيءٍ أَحْسَنَهُ!**[3]

وَقِيلَ: حَلِّ طَبْعَكَ بِالعُيُونِ وَالقَفْرِ؛ فَالشَّجَرَةُ لَا يَشِينُهَا قِلَّةُ الحَمْلِ إذَا كَانَتْ ثَمَرَتُهَا نَافِعَةً.[4]

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: العِلْمُ كَثِيرٌ فَارْعَوْا أَحْسَنَهُ؛ أَمَا سَمِعْتُمْ قَوْلَ اللهِ تَعَالَى: «فَبَشِّرْ عِبَادِ * ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ»؟[5]

١ـ الآية ٥٠، من السورة ٥١: الذاريات.

٢ـ «سفينة البحار» مادّة (علم)، ج ٢، ص ٢١٩.

٣ـ أورد في الجزء الثاني من «الغرر والدرر» شرح آقا جمال الخونساريّ، ص ١٥٧، رقم ٢١٧٤، عن أمير المؤمنين عليه السلام، قال **العِلْمُ أَكْثَرُ مِنْ أنْ يُحَاطْ بِهِ، فَخُذُوا مِنْ كُلِّ عِلْمٍ أَحْسَنَهُ!**

٤ـ أورد هذا المطلب في «سفينة البحار» ج ٢، ص ٢١٩ حكايةً عن الراغب وبلفظ «يانعة»، ودلالته على المطلب أفضل من لفظ «نافعة»؛ ونقل بعد هذا المطلب عن الراغب قوله: **وَيَجِبُ أَنْ لَا يَخُوضَ فِي فَنٍّ حَتَّى يَتَنَاوَلَ مِنَ الفَنِّ الَّذِي قَبْلَهُ بُلْغَتَهُ، وَيَقْضِيَ مِنْهُ حَاجَتَهُ.** حتّى يصل إلى القول: **وَعَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى «ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِ»؛ أَيْ لَا يُجَاوِزُونَ فَنّاً حَتَّى يُحْكِمُوه عِلْماً وَعَمَلاً.**

٥ـ وأورد الخطيب البغداديّ أيضاً هذه الرواية في كتاب «تقييد العلم» ص ١٤١، بهذه العبارة: **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: العِلْمُ كَثِيرٌ وَلَن تَعِيَهُ قُلُوبُكُمْ وَلَكِنِ ابْتَغُوا أَحْسَنَهُ؛ أَلَمْ تَسْمَعْ**

قَالَ الشَّاعِرُ :

قَـالُوا : خُـذِ العَـيْنَ مِـنْ كُـلٍّ فَـقُلْتُ لَـهُمْ
فِي العَيْنِ فَضْلٌ وَلَكِنَّ نَاظِرَ العَـيْنِ أَفْـضَلُ[1]

وقيل كذلك : **قِيلَ : ازْدِحَامُ العِلْمِ فِي السَّمْعِ مَضَلَّةٌ لِلْفَهْمِ.**

وَقِيلَ : إذَا رَأَيْتُمْ رَجُلاً يُرِيدُ تَعَلُّمَ أَنْوَاعِ العُلُومِ فَدَاوُوهُ.[2]

وَقِيلَ : مَنْ رَامَ أَنْ يَنْتَحِلَ فُنُونَ العِلْمِ اسْتَخَفَّ بِنَحِيزَتِهِ وَوَقَفَ النَّاسَ عَلَى غَمِيزَتِهِ ؛ قَالَ الشَّاعِرُ:

تَـعَلَّمْتَ حَـتَّى مِـنْ كِـلَابٍ عَـواءَهَـا
لَعَمْرِي لَقَدْ أَسْرَفْتَ فِي طَلَبِ العِـلْمِ[3]

ومن العجب أنّ نفس هـذا المـطلب قـد نـقل عـن **أيـنشتَين** ، وليس معلوماً أكان ذلك مجرّد توارد خواطر ، أم أنّ أينشتَين قد نقل عـن كـتاب الراغب ؟

يقول أينشتَين : إنّ الإفراط في القراءة يسلب قوّة الابتكار من العـقل بعد بلوغ سنّ معيّنة ؛ فمن أفرط في القراءة وأقلّ من اعتماده على فكـره ،

قَوْلَهُ تَعَالَى: «ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ـ إلى آخر الآية.

١ـ «محاضرات الأُدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء» للراغب الإصفهانيّ : أبي القـاسم حسين بن محمّد ، ج ١ ، ص ٥١.

٢ـ نقل في «سفينة البحار» ج ٢ ، ص ٢١٩ ، في باب علم عن روضة «بحار الأنـوار» باب ٢٥ (ضه كه) ، ص ٢٠٦ ، عن كتاب «أعلام الدين» عن الإمام موسى بـن جـعفر عـليه السلام، قال: **أَولَى العِلْمِ بِكَ مَا لَا يَصْلُحُ لَكَ العَمَلُ إلّا بِهِ. وَأَوْجَبُ العَمَلِ (العِلْمِ ظ) عَلَيكَ مَا أَنتَ مَسْؤُولٌ عَنِ العَمَلِ بِهِ. وَأَلْزَمُ العِلْمِ لَكَ مَا دَلَّكَ عَلَى صَلَاحِ قَلْبِكَ وَأَظْهَرَ لَكَ فَسَـادَهُ. وَأَحْمَدُ العِلْمِ عَاقِبَةً مَا زَادَ فِي عِلْمِكَ العَاجِلِ ؛ فَلَا تَشْغَلَنَّ بِعِلْمٍ مَا لَا يَضُرُّكَ جَهْلُهُ ، وَلَا تَغْفُلَنَّ عَنْ عِلْمٍ مَا يَزِيدُ فِي جَهْلِكَ تَرْكُهُ.**

٣ـ «محاضرات الأُدباء» ج ١ ، ص ٥٢.

فإنّ فكره سيصاب بالخمول والعجز .[1]

وقد أورد **ابن أبي الحديد** في آخر «شرح نهج البلاغة» كلمات قصاراً لأمير المؤمنين عليه السلام غير تلك التي في «النهج» ، من جملتها :

٦٠ ـ **العُمْرُ أَقْصَرُ مِنْ أَنْ تَعَلَّمَ كُلَّ مَا يَحْسُنُ بِكَ عِلْمُهُ : فَتَعَلَّمِ الأَهَمَّ فَالأَهَمَّ .**[2]

ونلحظ أنّ الإمام عليه السلام ينبّه على مطلب أسمى وأدقّ ، وهو أنّ على الإنسان أن لا يضنّ ويبخل بعمره عن إهداره في اكتساب العلوم غير النافعة فحسب ، بل عليه أيضاً مراعاة الأهمّيّة في سعيه لاكتساب العلوم المقبولة النافعة ، فيقدّم الأهمّ على المهمّ حسب الأولويّة .

أي أن يقلّل الاشتغال بالأُمور الدنيويّة ليتوفّر على حصّة وسهم أكبر لتحصيل العلوم الأُخرويّة والمعنويّة والروحيّة .

وقد حكى في «سفينة البحار» مقولة بديعة عن بعض الأفاضل :

قال الله تعالى : **مَا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِ .**

وَالفِكْرَةُ مَتَى تَوَزَّعَتْ تَكُونُ كَجَدْوَلٍ تَفَرَّقَ مَاؤُهُ . فَيَنْشَفُهُ الجَوُّ وَتَشْرَبُهُ الأَرْضُ فَلَا يَقَعُ بِهِ نَفْعٌ ، وَإذَا جُمِعَ بَلَغَ بِهِ المَزْرَعُ فَانْتَفَعَ بِهِ .[3]

وعلينا الآن أن نرى أيّ علم نافع من هذه العلوم رُغبّ في اكتسابه ، وشُجّع على تعلّمه من قبل الشارع الأكرم فعدّ من أهمّها ؟ أيّ علم قال عنه

١ـ كتاب «دو فيلسوف شرق وغرب» (= فيلسوفا الشرق والغرب) للعالم المكرّم عبّاس علي راشد ، ص ١١٧ ، الفصل ١٧ ، في مبادئ النسبيّة.

٢ـ «شرح نهج البلاغة» (الطبعة ذات العشرين جزءاً) ، ج ٢ ، ص ٢٦٢.

٣ـ «سفينة البحار» للمحدّث الكبير الحاجّ «الشيخ عبّاس القمّيّ ، ج ٢ ، ص ٢٢٣ ؛ وورد في «إحياء العلوم» ج ١ ، ص ٣ : **قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيهِ وَسَلَامُهُ : أَشَدُّ النَّاسِ عَذَاباً يَوْمَ القِيَامَةِ عَالِمٌ لَمْ يَنْفَعْهُ اللهُ سُبْحَانَهُ بِعِلْمِهِ .**

رسول الله : **اطْلُبُوا العِلْمَ مِنَ المَهْدِ إلَى اللَّحْدِ.**[1]

ذاك الذي قال عنه رسول الله : **اطْلُبُوا العِلْمَ وَلَوْ بِالصِّين.**[2]

وفرضَ طلبه على الناس بقوله : **طَلَبُ العِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ.**[3]

روى **محمّد بن يعقوب الكلينيّ** عن محمّد بن الحسن وعليّ بن محمّد ، عن سهل بن زياد ، عن محمّد بن عيسى ، عن عُبيد الله بن عبد الله الدهقان ، عن دُرُسْت الواسطيّ ، عن إبراهيم بن عبد الحميد ، عن أبي الحسن موسى الكاظم عليه السلام أنّه قال :

دَخَلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ [وَآلِهِ] وَسَلَّمَ المَسْجِدَ ؛ فَإذَا جَمَاعَةٌ قَدْ أَطَافُوا بِرَجُلٍ ، فَقَالَ : مَا هَذَا ؟ فَقِيلَ : عَلَّامَةٌ . فَقَالَ : وَمَا العَلَّامَةُ ؟! فَقَالُوا لَهُ : أَعْلَمُ النَّاسِ بِأَنْسَابِ العَرَبِ وَوَقَائِعِهَا ، وَأَيَّامِ الجَاهِلِيَّةِ

١ـ «نهج الفصاحة» ص ٦٤ ، حديث رقم ٣٢٧ ، الطبعة الحادية والعشرون.

٢ـ روى المجلسيّ في «بحار الأنوار» طبعة الكمبانيّ ، ج ١ ، ص ٥٧ و٥٨ هذه الرواية عن «غوالي اللئالي» وعن «روضة الواعظين».

وورد في «مصباح الشريعة» تحقيق وتقديم العالم الجليل الحاجّ الشيخ حسن المصطفويّ ، طبعة سنة ١٣٧٩ هجريّة ، الباب ٦٢ ، ص ٤١ **قَالَ عَلِيٌّ عَلَيهِ السَّلَامُ : اطْلُبُوا العِلْمَ وَلَوْ بِالصِّين ؛ وَهُوَ عِلْمُ مَعْرِفَةِ النَّفْسِ ، وَفِيهِ مَعْرِفَةُ الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ** . وجاء بعده : **قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ** . وقد نقل الملّا محسن الفيض الكاشانيّ عين هاتين الروايتين في كتاب «المحجّة البيضاء» ج ١ ، ص ٦٨ عن «مصباح الشريعة».

وقد ذكر أُستاذنا الأكرم آية الله على الإطلاق العلّامة الطباطبائيّ قدّس الله نفسه في كتاب «الميزان» ج ٦ ، ص ١٨٢ ، في البحث الروائيّ حول علم معرفة النفس وأهمّيّته، عن «الغرر والدرر» للآمديّ ، عن أمير المؤمنين عليه السلام اثنتَين وعشرين رواية.

٣ـ «أُصول الكافي» ج ١ ، ص ٩٨ و ١٠٠ ، حيث يرويه بسندين عن الصادق عليه السلام عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، وورد في ذيله : **أَلَا وَإنَّ اللهَ يُحِبُّ بُغَاةَ العِلْمِ.**

وَالأَشْعَارِ العَرَبِيَّةِ.

قَالَ : فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ [وَآلِهِ] وَسَلَّمَ : ذَاكَ عِلْمٌ لَا يَضُرُّ مَنْ جَهِلَهُ ، وَلَا يَنْفَعُ مَنْ عَلِمَهُ.

ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ [وَآلِهِ] وَسَلَّمَ : إِنَّمَا العِلْمُ ثَلَاثَةٌ : آيَةٌ مُحْكَمَةٌ ، أَوْ فَرِيضَةٌ عَادِلَةٌ ، أَوْ سُنَّةٌ قَائِمَةٌ ؛ وَمَا خَلَاهُنَّ فَهُوَ فَضْلٌ.[1]

ويقول المجلسيّ رضوان الله عليه في «مرآة العقول» في شرح هذا الحديث : قوله صلّى الله عليه وآله **مَا هَذَا** ؟ . ولم يقل : **مَنْ هَذَا** تحقيراً أو إهانةً أو تأديباً له .

وقوله صلّى الله عليه وآله : **وَمَا العَلَّامَةُ** ؟ أي ما حقيقة علمه الذي به اتّصف بكونه علّامة ؟ وهو أيّ نوع من أنواع العلّامة ؟ والتنوّع باعتبار أنواع صفة العلم ، والحاصل : ما معنى العلّامة الذي قُلتم وأطلقتم عليه ؟

ثم يشرع المجلسيّ في شرح معنى هذه الأُمور الثلاثة ، ويقول في حاصلها : ... أو أنّ المراد بالآية المحكمة البراهين العقليّة المستنبطة من القرآن على أُصول الدين ، فإنّها محكمة لا تزول بالشكوك والشبهات ؛

١ـ «أُصول الكافي» ج ١ ، ص ٣٣ ، الحديث الأوّل من كتاب فضل العلم ، المطبعة الحيدريّة. ورواه المحدّث الجليل الفيض الكاشانيّ في كتاب «المحجّة البيضاء» ج ١ ، ص ٢٨ و ٢٩. ورواه المجلسيّ في «بحار الأنوار» ج ١ ، ص ٦٥ و ٦٦ طبعة الكمبانيّ ؛ عن «الأمالي» للصدوق و«معاني الأخبار» و«السرائر» و«غوالي اللئالي» وأورد له شرحاً على النهج الذي ذكره في «مرآة العقول» . وذكر الغزّاليّ في «إحياء العلوم» ج ١ ، ص ٢٧ ، وروى في ص ٢٨ عن الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه قال : **إنَّ مِنَ العِلْمِ جَهْلاً ، وَإنَّ مِنَ القَوْلِ غَيّاً** . وهو أعمق من المعنى الأوّل ، لأنّ الرواية الأُولى نفت نفع ساير العلوم لمتعلّمها ونفت ضررها لمن جهلها . لكنّ هذه الرواية عنونت بعض العلوم بالجهل ، ونسبت بعض القول إلى الغيّ والضلالة.

وبالفريضة ساير الأحكام الواجبة ، وبالسنّة الأحكام المستحبّة ، سواء أخذنا من القرآن أو من غيره ، لأنّها محكمة تقابل المتشابه ؛ ويقال للآية محكمة إذا كانت واضحة الدلالة على المراد ولا تحتاج في دلالتها إلى تأويل ، فالعقائد والأُصول التي تتّصف بهذه الصفة تكون محكمة وراسخة ؛ وأمّا العلّة في وصف الفريضة بالعادلة ، لأنّها أُخذت من الكتاب والسُّنّة بلا إفراط ولا تفريط .[1]

١ـ «مرآة العقول» ج ١ ، ص ١٠٢ و١٠٣ الطبعة الحروفيّة ، ويقول ابن الأثير في «النهاية»: المراد بالعدل العدل في القسمة ، أي الواجبات المعدّلة على السهام المذكورة في الكتاب والسنّة من غير جور ، **وَيَحْتَمِلُ أَن يُرِيدَ أَنَّهَا مُسَتنبطَةٌ مِنَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، فَتَكُونُ هَذِهِ الفَرِيضَةُ تَعْدِلُ بِمَا عَنْهُمَا** ـ انتهى.

وذكر هذا الحديث أيضاً المحقّق الفيض في «الوافي» ج ١ ، ص ٣٧ ، باب صفة العلم، ويقول في شرحه : علّامة أي كثير العلم ، والتاء فيه للمبالغة ، **لَا يَضُرُّ مَنْ جَهِلَهُ** ، نبّههم على أنّه ليس بعلم في الحقيقة ، إذ العلم في الحقيقة هو الذي يضرّ جهله في المعاد وينفع اقتناؤه يوم التناد ، لا الذي يتحسّنه العوامّ ويكون مصيدة للحطام ، ثمّ بيّن لهم العلم النافع المحثوث عليه في الشرع وحصره في ثلاثة.

وكأن الآية **المحكمة** إشارة الى أُصول العقايد ، فإنّ براهينها الآيات المحكمات من العالم أو من القرآن ، وفي القرآن في غير موضع **إِنَّ فِى ذَ ٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ** أو **لَأَيَةً** ، حيث يذكر دلايل المبدأ والمعاد . و**الفريضة العادلة** إشارة إلى علوم الأخلاق التي محاسنها من جنود العقل مساويها من جنود الجهل ، فإنّ التحلّي بالأوّل والتخلّي عن الثاني فريضة ؛ وعدالتها كناية عن توسّطها بين طرفي الإفراط والتفريط ؛ و**السُّنّة القائمة** إشارة إلى شرايع الأحكام ومسايل الحلال والحرام ؛ وانحصار العلوم الدينيّة في هذه الثلاثة معلوم ، وهي التي جمعها هذا الكتاب «الوافي» وهي مطابقة على النشآت الثلاث الإنسانيّة ، فالأوّل على عقله ، والثاني على نفسه، والثالث على بدنه ، بل على العوالم الثلاثة الوجوديّة التي هي عالم العقل والخيال والحسّ. فهو فضل زايد لا حاجة إليه ، أو فضيلة ولكنّه ليس بذاك.

وقال في نفس الصفحة من «الوافي» : قال السيّد المير الداماد قدّس الله سرّه : علم الآية المحكمة هو العلم النظريّ الذي فيه المعرفة بالله سبحانه وبأنبيائه ورسله وبحقيقة الأمر

فالمراد من هذه العبارات هو العلم بعقائد الدين وأُصوله الحاصلة باليقين ، والعلم بالواجبات والفرائض ، والعلم بالمستحبّات ، وما خلا هذه العلوم الثلاثة ففضل وزيادة لا حاجة إليها .

فالعلم بأُصول الدين والتوحيد والمعارف الإلهيّة يوجب حياة النفس الإنسانيّة ، والعلم بالواجبات والمستحبّات بما فيها من العبادات والمعاملات والإيقاعات والأحكام والسياسات يوجب العمل الصحيح لإيصال الإنسان للمعارف الحقيقيّة ، وهو أمر ضروريّ لكلّ بشر .

أمّا أصناف العلوم التى ينبغي ألّا نعدّها علوماً فهي الفنون التي دعتها الرواية **فضلاً** و زيادة ، لا فضيلةً ، إذ الفضيلة تتضمّن قدراً من الكمال .

وهذا العلم الواجب هو الذي اعتبره القرآن الكريم الغاية من خلق السماوات السبع والأرضين السبع وتنزّل أمر الله بينهنّ :**ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَ مِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا.**[1]

وهو العلم النافع الذي عدّه أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة همّام من جملة صفات المتّقين :**وَوَقَفُوا أَسْمَاعَهُمْ عَلَى العِلْمِ النَّافِعِ لَهُمْ.**[2]

ويستنتج ممّا قيل أنّ أشرف العلوم هو علم بناء الإنسان . **وَقَدِ اتَّفَقَ العُلَمَاءُ أَنَّ شَرَفَ كُلِّ عِلْمٍ بِشَرَفِ المَعْلُومِ . وَكُلُّ عِلْمٍ يَكُونُ مَعْلُومُهُ أَشْرَفُ**

في البدو منه والعود إليه ، وهذا هو الفقه الأكبر ، وعلم الفريضة العادلة هو العلم الشرعيّ الذي فيه المعرفة بالشرائع والسنن والقواعد والأحكام في الحلال والحرام ، وهذا هو الفقه الأصغر، وعلم السُّنّة القائمة هو علم تهذيب الأخلاق وتكميل آداب السفر إلى الله تعالى والسير إليه وتعرّف المنازل والمقامات والتبصرة **بما فيها من المهلِكات والمنجِيات** .

١ـ الآية ١٢ ، من السورة ٦٥ : الطلاق .

٢ـ «نهج البلاغة» الخطبة ١٩١ ، وفي طبعة مصر بتعليقة محمّد عبده ج ١ ، ص ٣٩٦.

المَعْلُومَاتِ يَكُونُ ذَلِكَ العِلْمُ أَشْرَفَ العُلُومِ.فَأَشْرَفُ العُلُومِ العِلْمُ الإلَهِيُّ لِأَنَّهُ مَعْلُومَهُ وَهُوَ اللهُ أَشْرَفُ المَوْجُودَاتِ.

يقول الخواجه شمس الدين محمّد حافظ الشيرازيّ :

ای دل به هرزه ، دانش و عمرت به باد رفت

صد مایه داشتی و نکردی کفایتی[1]

ويقول الخواجة الحكيم ميرفندرسكي في قصيدته الحكميّة المعروفة :

هر چه بیرون است از ذاتت نیاید سودمند

خویش را کن ساز اگر امروز اگر فرداستی[2]

وما أبدع بيان الحكيم السنائيّ حين يقول :

ای هواهای تو هوی أنگیز

وی خدایان تو خدا آزار[3]

١ـ «ديوان حافظ» ص ٢٠٩ ، الغزل رقم ٤٥٧ طبعة پژمان ، وأوّله هذا البيت:

ای قصّهٔ بهشت ز کویت حکایتی شرح جمال حور ز رویت روایتی

وترجمة البيت الوارد في المتن : «يا من أضاع عمره وعلمه عبثاً وهباءً منثوراً ، لقد أُعطيت مائة رأسمال فأهدرتَها فلم تكفك زاداً إلى غايتك».

٢ـ للميرفندرسكي قصيدة رائعة في ثمان وأربعين بيتاً مطلعها:

چرخ با این اختران ، نغز وخوش وزیباستی

صورتی در زیر دارد آنچه در بالاستی

صورت زیرین اگر با نردبان معرفت

بر رود بالا همان با اصل خود یکتاستی

يقول في البيت الوارد في المتن : «عليك نفسك أصلحها إن اليوم أو غداً ، فالظواهر التي لا تمسّ ذاتك لا تعود عليك بنفع وفائدة».

٣ـ «ديوان السنائيّ» ص ١١٧ إلى ١٢٤ ، طبعة أمير كبير ، و قد اقتطفنا هذه الأبيات

ره رهـــا كـــردهای از آنـــی گـــم
عـــزّ نـــدانســـتهای از آنـــی خـــوار
عـــلم كـــز تـــو تـــورا نـــه بســتاند
جـــهل از آن عـــلم بـــه بـــود صـد بـار
غـــول بـــاشد نـــه عـــالِم آنكـــه ازو
بشـــنوی گـــفت و نشـــنوی كـــردار
دِه بـــود آن نـــه دِل كـــه انـــدر وی
گـــاو و خـــر بـــاشد و ضـــياع و عـقار
كـــی در آيـــد فـــرشته تـــا نكـنی
سگ ز در دور و صـــورت ازديـــوار ؟
أفســـری كـــان نـــه ديـــن نـهد بـر سـر
خـواهَش أفسـر شـمار و خـواه أفسـار
قـــائد و ســـائقِ صـــراط اللـــه
بـــه ز قـــرآن مـــدان و بـــه ز أخـــبار [1]

من هذه القصيدة الجميلة البالغة مائة وأربعة وأربعين بيتاً.

يقـول : «يا مـن اتّخـذ هـوى نفسـه آلهـةً تُعبـد ، إنّ آلهة هواك تُسخط عليك الإله.

١ - يقـول :تنكّبتَ عن الدرب للحظة فضللتَ ، وجهلتَ العزّ للحظة فلزمتك المذلّة.

علمُك إن لم يزجرك ويردعك ، فالجهل لا شكّ أفضل منه مائة مرّة.

وذاك الذي تسمع منه قولاً بلا عمل ، ليس عالماً بل غول في هيئة بَشَر.

والقلبُ إناشـتمل علىالضـياع والعقاروالحـميروالأبقار، ليـسإلّا قرية ، لاقلباً.

وهيهاتَ يظهرالمَلَك مادُمتَ لاتطرد الكلب عن بابك ،ولاتنزع النقوش عن جدارك ؟

والقائد الذي لا يضع الدين تاج شرف على رأسه ، لا ضير إن عددته قائداً عظيماً أو لجاماً وضيعاً.

أَكرِمْ بهما هاديان وسائقان على صراط الله : القرآن كتاب الله ، والروايات والأخبار».

وكم هو جميل ووافٍ ومتسامٍ شعر العارف الروميّ الملّا جلال الدين البلخيّ حيث يقول:

او ز حـــيوانــها فــزونتر جــان كــند
در جـــهان بـــاريک كـــاريها كــند
مکـــر وتــلبيسى كــه او تــاند تــنيد
آن ز حـــيوان دگـــر نـــايد پـــديد
جـــــامه‌هاى زركشـــى را بـــافتن
دُرّهــــــا از قـــعر دريـــا يـــافتن
خـــرده كـــاريهاى عـــلم هـــندسه
يـــا نــجوم و عــلم و طبّ و فــلسفه
كـــان تـــعلّق بـــا هــمين دنــييستش
ره بـــه هــفتم آســمان بــر نــيستش
ايــن هــمه عــلم بــناى آخــور است
كــه عِــمادِ بــود گــاو و اُشــتر است
بـــهر اســـتبقاى حــيوان چــند روز
نــام آن كــردند ايــن گــيجان رمـوز[1]

١ـ ديوان «مثنوى مولوى» مجلّد ج، ص ٣٦١، السطر ١٧ فما بعده، طبعة ميرخاني.
يقول: «لقد كدّ وكدح ففاق في كدحه الحيوان، وأنجز في العالم ظرائف الأعمال.
وكان مكره وتلبيسه وشيطنته ما يعجز الحيوان عن تلفيق مثله.
فحياكة الملابس الموشّاة بخيوط الذهب، و صيد اللؤلؤ من أعماق البحار.
ودقائق علم الهندسة والنجوم والطبّ والفلسفة.
إن تعلّقت بعدمه لا وجوده، فهي مهما علت إلى السماء السابقة.
جميعاً كالمعلف الذي تتّكئ فيه الأنعام وتستريح.

عـــلم راه حـــقّ و عـــلم مـــنزلش
صـــاحب دل دانـــد آن را بـا دلش [1]

فالعلوم الطبيعيّة والمعارف التجريبيّة تعُدّ ـ لهذا السبب ـ جزءاً من العلوم الدنيويّة لا العلوم الإنسانيّة، إذ ليس من شأنها صياغة الإنسان بالرغم من كون بعضها مفيداً للبشر، لأنّ هذه الفائدة تنحصر في بدنه وطبيعته، شأنها شأن العلوم التي تمتلكها الحيوانات فتستفيد منها لإدامة حياتها. فكلّ حيوان يعلم ماذا ينبغي أن يأكل، وماذا ينبغي له أن يصطاد، وكيف يتوارى عن أعدائه، وكيف يتناسل للحفاظ على بقاء نوعه.

فهذه العلوم ليست علوماً عقليّة، بل هي علوم حسّيّة مدبّرها القوى الخياليّة الموجودة في جميع الحيوانات. والإنسان الذي ينحصر همّه وسعيه في الحصول على العلاقات المادّيّة وحلّ المسائل الرياضيّة والتحقيق المعمّق في الفيزياء والكيمياء والفيزياء الكيميائيّة وعلوم الحياة والاجتماع والطبّ، من أجل تأمين صحّته والمحافظة على سلامة بدنه، فيجول لأجلها البلدان ويطوي القارّات، ويذهب إلى الجامعات فيستفيد من علومها ومكتباتها؛ إنّما يسعى وراء العلوم الخياليّة التي تشاركه الحيوانات في امتلاكها؛ وإنّ تغيير مستوى هذه العلوم لدى الإنسان لن يغيّر حقيقته ولن يميّزه عن صفّ الحيوانات. [2]

المعلف الذي أُعدّ لاستبقاء الحيوانات أيّاماً عدّة، لكنّ هؤلاء الحيارى أطلقوا عليه هذه الأسماء والرموز.

١ – يقول: فالعلم الحقيقيّ هو طريق الحقّ، ومنزل الحقّ، يعرف ذلك من كان له قلب (وألقى السمع وهو شهيد)».

٢ ـ يقول المرحوم الشهيد الشيخ مرتضى المطهّريّ رحمة الله عليه في كتاب «إنسان كامل» ص ١٣٨: هناك كتاب ترجم عن غاندي يحوي منه مقالات ورسائل، واسمه «هذا مذهبي»، وهو في رأيي كتاب جيّد، يقول فيه: لقد توصّلتُ من مطالعة الـ«أپانی شادها» إلى ثلاثة أُسس:

وباعتبار أنّ هدف وغاية هذه العلوم ليس كمال الإنسان ونفسه الناطقة، فيمكن تسميتها جميعاً بعلوم البطن والمعلف،[1] كما صرّح ذلك مولانا في الأبيات السابقة؛ ويقول كذلك:

علمهاى أهل حس شد پوزبند تا نگيرد شير ز آن علم بلند[2]

وقد أثار الإعجاب حقّاً في هذا البيت لما فيه من حسن بيان وطراوة

---

١ ـ معرفة النفس.

٢ ـ أنّ من عرف نفسه فقد عرف ربّه وعرف الآخرين.

٣ ـ أنّ هناك قوّة واحدة فقط وهي التسلّط على النفس وقهرها.

ويقول في معرفة النفس: إنّ الإفرنجيّ قد عرف الدنيا لكنّه لم يعرف نفسه؛ ولأنّه لم يعرف نفسه فقد أشقى نفسه وأشقى الدنيا. وإنصافاً فإنّ كلامه جميل، وهجومه على الغرب وعالم ثقافتهم رائع.

١ـ ينقل الشيخ الطنطاويّ في تفسير «الجواهر» ج ٣، ص ٢٥٥، طبعة مطبعة مصطفى البابي، الطبعة الثانية، سنة ١٣٥٠ هـ، ذيل الآية ٥٠، من السورة ٥٤: القمر: **وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وٰحِدَةٌ كَلَمْحِ بِٱلْبَصَرِ**، مطالب عن الحكيم إفلاطون والحكيم أرسطاليس والرواقيّين بالمناسبة، حتّى يصل الى قوله:

وقد نقلتُ من كلام الأستاذ **سنتلانه** المكتوب بخطّه في كتابه «تاريخ الفلسفة العربيّة» أنّ حكماء أُوروبّا لم يبرعوا في الفلسفة ولم ينالوا من العلم إلّا ما كان من قبيل العلوم الجزئيّة، كالطبيعيّات والرياضيّات، فاخترعوا وزرعوا وطاروا وحاربوا؛ أمّا العالم الأعلى وعجائب النفس وأصل التكوين التي وضعت لأجلها الفلسفة، والتي غاية أبحاثها الوصول للنموذج الأعلى لنوع الإنسان، فنسبتهم مع سقراط وأفلاطون كالفيل مع البقّة، وأنّهم لو عرفوا ذلك مثل الحكيمَين لم يكونوا إلّا ملائكة.

٢ـ «ديوان مثنوى» ج ١، ص ٢٨، السطر ١٠ طبعة ميرخاني؛ ويروي الغزّاليّ رواية عالية المضمون في «إحياء العلوم» ج ١، ص ٧؛ **قِيلَ يَا رَسُولَ اللَهِ: أَيُّ الأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ فَقَالَ: العِلْمُ بِاللَهِ عَزَّ وَجَلَّ. فَقِيلَ: أَيُّ العِلْم تُرِيدُ؟! قَالَ صَلَّى اللَهُ عَلَيْهِ** [وَآلِهِ] **وَسَلَّمَ: العِلْمَ بِاللَهِ سُبْحَانَهُ، فَقِيلَ لَهُ: نَسْأَلُ عَنِ العَمَلِ وَتُجِيبُ عَنِ العِلْم! فَقَالَ صَلَّى اللَهُ عَلَيْهِ** [وَآلِهِ] **وَسَلَّمَ: إنَّ قَلِيلَ العَمَلِ يَنفَعُ مَعَ العِلْم بِاللَهِ؛ وَإنَّ كَثِيرَ العَمَلِ لَا يَنْفَعُ مَعَ الجَهْلِ بِاللَهِ.**

وجزالة معنى ، فأعطى الموضوع حقّه بشكل رائع .

يقول : كما أنّهم يضعون على فم العجل وصغار الأغنام كمّامة تمنعها رضاع أُمّهاتها ، فإنّ العلوم التي يكتسبها الناس لأجل الدنيا ، والتي لا أثر لها في تكامل ورقيّ أنفسهم ، ولا في تحرير البشر من رقّ عبوديّة المادّة والطبيعة ، وسَوقه إلى العالم الواسع الفسيح للتجرّد والتقرّب وعرفان المعبود ، هي كذلك كمّامات وضعت على الأفكار والآراء والعقول لتحدّها وتمنعها وتكبحها عن الانطلاق والاستفادة من المعارف الحقيقيّة والعلوم السرمديّة ، وارتضاع ماء الحياة المعنويّة ولبن العلوم الحقيقيّة ، وتصدّها عن الانكباب حتّى الارتواء على ثدي علوم العالم العلويّ التي تتكفّل ببناء الإنسان وتربية البشريّة .

وحريٌّ هنا ذرف الدموع على الحظّ التعس لأمثال **لافوازيه ونيوتن وأينشتَين** ومن جاراهم ، وعلى جميع أتباع مدرسته ومادحيه ؛ البكاء عليهم فيم صرفوا أعمارهم وأهدروها ، وأيّ نفع من الإنسانيّة اكتسبوه ؟

ومضافاً إلى ذلك فلم يقدّر لهذه الاكتشافات أن تعود على الإنسانيّة بنفع ، بل كانت سبباً لإيقاع الضرر بها ؛ فلم ينسَ أهالي طهران بعد تلك الأصوات المهيبة المفزعة ، والخرائب والحرائق واهتزاز الأرض تحت أقدامهم لأكثر من شهر جرّاء الصواريخ التي صبّها عليهم النظام العراقيّ ، والتي بلغ عددها المائتي صاروخ !!

فما الذي مثّلته هذه الصواريخ غير قانون لافوازيه والقانون الأوّل الثرموديناميكيّ ، والحسابات الدقيقة لجاذبيّة نيوتن ، وتصحيح نسبيّة أينشتَين ؟

لقد أظهر **أينشتَين** أسفه على ما اخترعه في آخر سنيّ حياته في المؤتمر الذي كُرّس لتعظيمه في أمريكا ، وقال : لم يكن ليخطر ببالي

أنّ الدول الظالمة ستسيء الاستفادة من هذا الاكتشاف إلى هذا الحدّ ، فيستخدمون من فلق الذرّة في الصواريخ العابرة للقارّات ويسحقون بها المرأة والطفل والرجل العجوز ، فيدفنونهم تحت أطنان الأنقاض ، ويجعلونهم طعمة للحرائق .

لقد كانت هذه النتائج السيّئة هي الأشياء التي تحقّقت في حياته ، ناهيك عمّا تحقّق بعد وفاته .[1]

باش تا صبح دولتت بدمد

كاين هنوز از نتايج سحر است[2]

ونرى من المناسب أن نورد مطلباً نقلاً عن الدكتور **كارِل** ، هذا الرجل الأجنبيّ المسيحيّ الملتزم الذي لازم الصواب في الكثير من المطالب ، فهو يرى رأي العين أنّ هذه المدنيّة العجيبة لم تقدّم من هديّة للمجتمع البشريّ إلّا المتاعب والمشكلات وإهدار الطاقات الإنسانيّة ؛ يقول :

لو كان **غاليلو** ،[3] **ونيوتن** ،[4] **ولافوازية** ،[5] قد صرفوا قواهم الفكريّة في المطالعة بشأن بدن الإنسان وروحه ، فلربّما اختلفت دنيانا اليوم عن أمسها .

١ـ كانت وفاة أينشتَين سنة ١٩٥٥ ميلاديّة ، حيث انقضى على وفاته حتّى الآن ٣٣ سنة .

٢ـ يقول : «صبراً حتّى ينفلق صباح دولتك ، فلا زال ما يجري من عوائد السَّحَرِ» .

٣ـ Galilee عالم رياضيّ ومنجّم وفيزيائيّ إيطاليّ مشهور (١٥٦٤ إلى ١٦٤٢ ميلاديّة) .

٤ـ Newton عالم فيزياء إنجليزيّ (١٦٤٢ إلى ١٧٢٧ ميلاديّة) .

٥ـ Lavoisier عالم كيميائيّ فرنسيّ ومن مؤسّسي الكيمياء الحديثة (١٧٤٣ إلى ١٧٩٤ ميلاديّة) .

يجهل رجال العلم وأتباع طريق الفكر ما ستؤول اليه أبحاثهم ابتداءً ، وما هي النتائج التي سيحصلون عليها ، وما يسوقهم في مسيرتهم هو **الصدفة والتعقّل** وبعض **وضوح البصيرة** .

لكأنّ كلّاً منهم له عالمه الخاصّ الذي يُدار بقوانينه الخاصّة ، فهم يرون أحياناً بوضوح المسائل التي تبدو لغيرهم غامضة عويصة .

وعموماً فقد جاءت اكتشافاتهم دون أيّ تصوّر مسبق لعواقبها ونتائجها ، ولكنّ النتائج هي التي عكست صورتها عمليّاً على المدنيّة الحديثة .

لقد اخترنا وانتقينا من بين الاكتشافات العلميّة الكثيرة ، لكنّنا لم نُعنَ في اختيارنا أو نلحظ المصالح السامية للإنسانيّة ، بل تبعنا فقط منحدر رغباتنا وهوسنا ، وكان همّنا الدائميّ **الربح الأوفر بالجهد الأقلّ** والسرعة في العمل وتلوّن الحياة وتنوّعها .[1]

١ـ «انسان موجود ناشناخته» (= الإنسان ذلك المجهول) ص ٢٦ و٢٧ الطبعة السادسة.

ويقول أحمد أمين في كتاب «يوم الإسلام» الذي ألّفه في أواخر حياته ، ص ٤٦ و٤٧ ، طبعة سنة ١٩٥٢م : ولو بُنِيَ الإسلام على أساس متين لطار كما طار غيره . نعم ، إنّ الصين بقيت زمناً أطول منه على وثنيّتها . ولكن ، يُلاحظ أنّ الصين كانت قارّة واحدة ، بينما كان الإسلام في ثلاث قارّات ، وأنّها لم تحط بالأعداء من حولها كما أُحيط هو ، ففي وقت واحد كانت ضربات التار وضربات الصليبيّين وغيرهم.

إنّ العلم الحديث مع تقدّمه الباهر لم يستطع أن يفسّر أسرار الحياة ، إلّا نتفاً هنا ونتفاً هناك، وعجز عجزاً تامّاً عن تفسير الباقي . أمّا الإسلام فقد استطاع أن يحيي في الإنسان الضمير الدينيّ ، ويحلّ به المشاكل كلّها بحذافيرها . واستطاع أن يفهم ضمّ الحياة الأُخرى إلى الحياة الدنيا ، فيفهم من ذلك أنّ مجرماً يسعد ، ومستقيماً يشقى ، لأنّ هنالك ضميمة أُخرى إلى الحياة الدنيا تحدث التعادل بين حياة المجرم والمستقيم . لكلّ هذه الأسباب ، نرجو أنّ

نعم . كانت هذه المطالب في شأن العلم وحقيقته ، والفرق بين العلم والفنّ ، وبين العلوم الحقيقيّة والتصوّرات الحسّيّة والوهميّة والخياليّة ؛ وعظمة العلم الحقيقيّ وحقارة العلوم والتصوّرات الحسّيّة والوهمّيّة والخياليّة . وقيمة الإسلام والقرآن في العلوم الأصيلة لا العلوم الحسّيّة والخياليّة .

وأمّا المطلب الثاني ، وهو الأساس الذي شكّلت عليه الحوزات العلميّة الدينيّة ، فالمقصود بالحوزة العلميّة : الدراسة العلميّة والعمليّة للقرآن الكريم ، وفهم القرآن والعمل به .

ولتحقّق هذا الهدف يجب اكتساب علوم المعارف بالمستوى الرفيع ، واكتساب العقائد والأخلاق بالمستوى الجيّد اللائق ؛ وينبغي ـ وصولاً لذلك ـ الاستعانة بعلم تفسير القرآن ، والحديث ، والدراية ، والرجال . إنّ سبيل الوصول للعلم الصحيح والعمل الصحيح هو علم الفقه ، ومن لوازمه علم الأُصول والكلام والحكمة والعرفان ؛ ولا تحقّق هذه المعاني إلّا حين يكون لدينا فهم واطّلاع كامل وصحيح على لسان القرآن ولسان النبيّ الأكرم وأوصيائه الكرام عليهم الصلاة والسلام ، والوقوف على السيرة والسنّة والأُسلوب العلميّ والعلميّ لهم . لذا ، ينبغي أن نمتلك اطّلاعاً واسعاً على علوم العربيّة وآدابها من الصرف والنحو واللغة والاشتقاق والمعاني والبيان والبديع والمحاورات النثريّة والشعريّة ، وعن سيرتها وتأريخها .

وهذه الفروع السابقة بأجمعها مهمّة جدّاً ، ولابدّ أن يلمّ بها المرء

إحساس الغربيّ بالشقاء وبالعجز وبالحيرة عن فهم سرّ الحياة ، يلجئه أخيراً إلى أن يرى المنقذ من كلّ ذلك ، ولعلّه لا يجد غير الإسلام.

جميعها بشكل جيّد ليمكنه الوصول إلى الاجتهاد الصحيح ، وإلّا فالنتيجة تتبع **أخسّ المقدّمتين** ، وسيصبح ـ عملاً مقلّداً ـ بالرغم من ادّعائه الاجتهاد .

لقد كان لكلٍّ واحد من علمائنا الأجلّاء من صدر الإسلام وحتّى يومنا هذا مقامه في عالم العقل والعلم والدراية ، فقد نشأوا في هذه الحوزات وأناروا مساحات واسعة بأنوارهم ، سواء في حياتهم أو بعد مماتهم .

ولكي يصبح الطالب عالماً أو أخصّائيّاً في العلوم التي ذكرناها ، فعليه بالجدّ الدؤوب . وعلى ذي الفهم والقابليّة والذكاء الجيّد والقوى الفكريّة والذاكرة الجيّدة أن يقضي عمراً لينال هذه الدرجة بشغف ورغبة وقّادة للتعلّم ، وبالصبر والثبات أمام المشكلات ، وبالتوجّه إلى الله تعالى والاستعانة بفيوضاته الربّانيّة . على الطالب أن يحلّق بجناحَي العلم والعمل ويسمو على الدنيا الدنيّة الفانية ، وأن يخنق في المهد حبّ الرئاسة والسيادة والاستعلاء في كيانه ، وأن يدير ظهره لجميع الاعتباريّات والتعيّنات المانعة من وصول الغاية ، ليصل ـ بحول الله وقوّته ـ لتلك التطلّعات . على أنّ أفراداً قلائل فقط من بين عشرات ومئات الطلبة سيمكنهم طيّ هذا الطريق إلى نهايته والفوز بالجامعيّة والكمال .

وينبغي كذلك لمدارس العلوم الدينيّة أن تكون بعيدة عن الضوضاء والصخب وجَلَبة الأسواق وطلّاب الدنيا ، وبعيدة عن مظاهر الحياة وظواهرها وترفها وعن النزوع إلى الراحة وقضاء الوقت ، ليتيسّر للطلبة أجواء دراسيّة مناسبة . وقد اختاروا لهذه الأسباب مدن **النجف الأشرف وكربلاء المقدّسة والكاظميّة وسامراء ومشهد المقدّسة وقم المقدّسة** لتُقام فيها مثل هذه المدارس ، وسعوا أن تكون قريبة من الصحن المطهّر ليمكن للطلبة ، بقربهم من المركز المعنويّ والروحيّ ، أن يستمدّوا الفيض منه

بنحو أفضل .

وفي الحقيقة ، فإنّ من يسعى لتكون دراسته أساسيّة وأُصوليّة متينة ، سوف لن يمتلك في اليوم الكامل فراغاً لخمس دقائق يُطالع فيها الكتب الخارجة عن متن الدروس أو ينشغل بأعمال أُخرى ، وإلّا صار درسه سطحيّاً ومهزوزاً غير أصيل .

لذا فلن يعود أمر إدخال دروس جديدة في الحوزة العلميّة أو ضمّ الفلسفة الغربيّة إلى الحكمة الإسلاميّة الأصيلة إلّا بالضرر والفساد . فمن أين يتأتّى لهذا الطالب الذي لا يكاد وقته يسعه لدروس المتن ، أن يهتمّ بهذه الدروس الإضافيّة ؟! الدروس التي صيغت على أساس التخيّلات والتصوّرات مقابل الأفكار الحقّة الواقعيّة ، والتي لا تمتلك من المعنويّات إلّا قليلاً ؟ وسيبقى الطالب في هذه الحال لا ظهراً أبقى ولا أرضاً قطع ، وستؤول علومه حفظاً سطحيّاً لا ثراء فيه ؛ وعندها ستعجز الحوزات عن إنجاب العلماء المحقّقين ، وعن تربية وتنشئة الأساطين ،كما هي الحال فعلاً في الجامعات ، التي نرى عدم تنشئتها للمحقّقين من ذوي الخبرة والبصيرة ، فأيّة خسارة عظيمة هذه ! وأنّ كبار المحقّقين المقتدرين ، الذين كان كلٌّ منهم مفخرة من مفاخر الإسلام ، وممّن سطعت أنوارهم في عالم التشيّع في الفترة الأخيرة ، كالشيخ جواد البلاغيّ النجفيّ ، والسيّد شرف الدين من جبل عامل ، والسيّد محسن العاملي ، والعلّامة الشيخ عبد الحسين الأمينيّ ، والعلّامة الشيخ آغا بزرك الطهرانيّ ، والمحدّث الكبير الشيخ عبّاس القمّيّ ، وسماحة أُستاذنا آية الله العلّامة الطباطبائيّ قدّس الله أسرارهم جميعاً ، قد كانوا ممّن تربّوا في هذه الحوزات ، وكانوا أصحاب نظر وتحقيق في الفنون والعلوم التي برعوا فيها .

وكان العلّامة الطباطبائيّ محقّقاً عظيماً وصاحب نظر في الفقه

والتفسير والفلسفة ، وكان يناقش آراء السابقين ويحقّق فيها ، ثمّ يبدي نظره الخاصّ . وكان ينظر الى كتاب «الحكمة المتعالية» للملّا صدرا باحترام وإجلال ، لكنّه ـ مع كلّ ذلك ـ كان يرفض بعض ما فيه ويبدي رأيه تجاهه . أمّا أساتذة الجامعات الذين انصرفوا إلى ترجمة كتب الأجانب للطلاب ، فهل شاهدتم فيهم أُستاذاً قد أجرى تحقيقاً في تلك المطالب ، وتوصّل إلى اكتشاف ما ؟ وهل شاهدتم فيهم من كان له في مجال الطبّ رأياً خاصّاً يخالف آراء تلك الكتب ؟ أو هل شاهدتم أحداً يبدي رأيه في الفيزياء بخصوص قاعدة نيوتن للجاذبيّة ؟ أو يعترض على آراء أينشتَين ؟ أو يتوصّل إلى اكتشاف بديع أو اختراع جديد في العلوم الطبيعيّة والحياتيّة ؟ أبداً ، أبداً ! فليس في الجامعات من حديث عن اكتشاف أو اختراع جديد أو متابعة لهذه الأُمور ، بل ينحصر الكلام في قاعات الدرس في بيان اختراعات الأجانب واكتشافاتهم والحديث عنها يوميّاً .

لا نريد أن نقول : إنّ إيران خالية من النبوغ والتحقيق ، فهي مشحونة بذلك أكثر من غيرها ، ألم يكن أمثال أبي ريحان البيرونيّ وزكريّا الرازيّ وابن سينا والعلّامة الطباطبائيّ إيرانيّين ؟ بل نريد القول بأنّ الاستعمار المتأهّب لا يريد للجامعات أن تربّي طلبة محقّقين ، ولذلك فقد وضع أُسلوب تعليم وتعلّم وتربية الأساتذة في الجامعات الأجنبيّة على نحو لا يربّي محقّقين ذوي نظر مستقلّ ، ولهذا السبب ، فقد اكتفى بهذه الدروس السطحيّة المحفوظة التي تعتمد على ترجمة الكتب الأجنبيّة .

لقد عمد الاستعمار ـ من أجل دحر حركة العلم والتحقيق ـ إلى فتح الجامعات في مقابل المدارس العلميّة ، وعمد في محاولته لاقتلاع جذور التحقيق إلى إغلاق المدارس العلميّة من جهة ، وإلى إشغال طلبة الجامعات بحفظ الصيغ وكتابة الكرّاسات على أيدي أساتذة غير أخصّائيّين ، بهدف

الحصول على الشهادة الجامعيّة لا أكثر ، وقد أُسّس أمثال كلّيّات الآداب والإلهيّات والفلسفة ومعهد التعليم العالي بهدف تخريب الحوزات وصولاً إلى صرف الشباب عنها ، والسيطرة الفكريّة عليهم وتغذيتهم بالأفكار المنحرفة تحت غطاء الفلسفة والأدب الإيرانيّ ، وسَوق أفكارهم بعيداً عن أصالة القرآن والإسلام وتوجيهها إلى النزعات القوميّة والوطنيّة وحبّ إيران باسم مواجهة العرب ، والذي ليس هو في الواقع إلّا مواجهة الإسلام .

ولقد أسّسوا كلّيّة باسم كلّيّة **الوعظ والخطابة** لتخريج علماء تابعين للنظام مؤتمرين بأمره ، ثمّ سمّوها **كلّيّة المعقول والمنقول** ، ومنعوا الكلامَ من على المنابر لغير علماء هذه الكلّيّة ، ثمّ رأوا انتفاء الحاجة إلى المعقول والمنقول بعد تشكيل كلّيّة **الإلهيّات والفلسفة** فعمدوا إلى إلغائها .

فماذا يُنتظر من كلّيّة الإلهيّات والفلسفة حين يُسمح لأساتذتها بالتدريس وإن كانوا من الشيوعيّين والاشتراكيّين والماركسيّين ؟ فالشرط الوحيد الذي كان يشترط في هؤلاء المدرّسين أن لا يكونوا مسلمين حقيقيّين ملتزمين !

وندرك هنا جيّداً كلام المرحوم السيّد حسن المدرّس رحمة الله عليه حين سأله المرحوم آية الله البروجرديّ رضوان الله عليه : ما الذي ينبغي عَلَيَّ عمله لتكون خدمتي للدين مؤثّرة ؟

فأجابه وهو يرفع سبّابتَي يديه إلى الأعلى ثمّ ينزلهما إلى الأسفل مراراً : اصنع طلبة ! فالاستعمار لا يخشى من أيّة قوّة ، ولكن يخشى هؤلاء الطلبة ذوي القامات المنتصبة .

ولقد أظهر التأريخ بجلاء أنّ المعاهدات الاستعماريّة والامتيازات والاتّفاقات المجحفة التي كانت في صالح أعداء الإسلام وفي ضرر الشعب الإيرانيّ المسلم ، من زمن الاستعمار الإنجليزيّ ثمّ الأمريكيّ ، سواء في

العهد القاجاريّ أم في النظام البهلويّ ، كلّها قد أمضاها ومرّرها دعاة الثقافة من المتربّين في الغرب ، والمهندسون والأطبّاء المبهورون بأضواء الغرب ومباهج الكفر ؛ أَوَ رأيتم أنّ واحداً منها قد نفّذ على يد عالم دينيّ ؟!

ونفهم جيّداً ؛ من هذه الأُمور ؛ السبب في الخراب الذي كان يتسرّب زمن الطاغوت إلى المدارس الدينيّة فتغلق غرفها ، أو تصبح أقساماً داخليّة لطلبة الجامعات ، أو مخازناً لأمتعة الدكاكين المجاورة للمدرسة ، أو حتّى محلّاً للأزبال والقمامة .

لقد أسقط **جمال عبد الناصر** الحكم الملكيّ للملكَين فؤاد وفاروق ، وهيمن على مصر وأخضعها لنفوذه ، فكانت باكورة أعماله أنّه بنى في جوار **الجامع الأزهر** كلّيّة باسم **جامعة الأزهر** بطراز حديث وجميل ذات طوابق متعدّدة ، وشجّع الطلّاب على الانتماء إليها ، وأضاف دروس الفيزياء والكيمياء واللغة الإنجليزيّة وغيرها من الدروس الحديثة إليها . وسمح ـ فوق ذلك ـ للطالبات بالانتماء إليها ، فجعل صفوفها مختلطة للجنسَين ؛ في حين بقي ـ في المقابل ـ الجامع الأزهر الواسع على حاله ، إذ لم يكن في الوسع تخريبه باعتباره بأجمعه من الآثار القديمة ، لكنّ عبد الناصر ببنائه **جامعة الأزهر** (كلّيّة الأزهر) هذه قد أمات كيان جامع الأزهر وجعله مجرّد أثر من الآثار القديمة .

فلقد استخدموا **منصّة الخطابة** في هذه الجامعة الحديثة بدلاً من المنبر ، وكان لديهم **صالات** وقاعات دراسيّة مجهّزة حديثة بدل المسقّفات الدراسيّة .

وكان هذا ما يتمنّاه الاستعمار ويسعى إليه ، وهذا هو الأُسلوب المقبول والمرضيّ لديه ، فلقد أُزيح القرآن جانباً وفق هذه الخطّة بشكل واضح وعلنيّ ، وحلّت الفيزياء والكيمياء واللغة الإنجليزيّة محلّ بعض

الدروس التفسيريّة والحديثيّة.

لقد وضع **غلادستون** رئيس وزراء بريطانيا الإنجليزيّ اليهوديّ ذوالنزعة الصهيونيّة، الذي بعث الروح في الاستعمار الإنجليزيّ، القرآن بقوّة على منصّة الخطابة في مجلس الأعيان في غضب، وقال: **ما دام هذا القرآن موجوداً في أيدي المسلمين فلن يستطيع الاستعمار الإنجليزيّ السيطرة على البلاد الإسلاميّة، ولا أن يكون نفسه في أمان.**[1]

فالقضاء على القرآن ليس بإحراقه أو إغراقه، ولم يفعل ذلك الإنجليز وتحاشوه، بل بعزله عن التأثير بعدم تعلّمه وتعليمه، وإهمال تلاوته، وعدم الرجوع إلى تفسيره، وترك العمل بأحكامه، ولقد وفّقوا في هذا العمل أيّما توفيق، وأزاحوا القرآن خارجاً عن ساحة العمل والتأثير.

فإذا ما شاهدنا اليوم أنّ هناك في الحوزات ـ مثلاً ـ قدراً من الإغراق الزائد في دراسة أبحاث الأُصول، فينبغي أن نستبدل بعض ذلك بدرس التفسير، ودرس «نهج البلاغة»، ودرس المعارف العالية بشكل رسميّ منتظم، لا أن نستبدله بعلوم الحياة والطبيعة واللغة الأجنبيّة؛ إذ إنّ علينا أن

١ـ نقل في كتاب «نهضت هاى اسلامى در صد سالۀ أخير» (= الحركات الإسلاميّة في القرن الأخير) ص ٣٠، عن كتاب «سيرى در انديشه سياسى عرب» (= جولة في النظريّات السياسيّة العربيّة) للدكتور حميد عنايت، قوله: يرى الأُوروبّيّون أنّ المعتقدات الدينيّة هي أوثق الروابط بين المسلمين، وقد سعوا باسم الانفتاح ومحاربة التعصّب إلى تحطيم هذه الرابطة، لكنّهم أكثر من غيرهم ابتلاءً بالتعصّب الدينيّ، فقد كان غلادستون ترجمةً حيّة لبطرس الراهب، أي صورة مكرّرة للحروب الصليبيّة ـ انتهى.

ثمّ يقول بعد هذا الموضوع: ولقد ظهرت الرؤية الواقعيّة للأفغانيّ (جمال الدين الأسدآباديّ) واضحة للعيان بعد نصف قرن، فحين احتلّ الجيش الإسرائيليّ بقيادة ضابط أُوروبّيّ مدينة القدس في الحرب الأُولى بين العرب واليهود وسلّمها لليهود وتشكّلت دولة إسرائيل الصهيونيّة، عندها قال: الآن انتهت الحروب الصليبيّة!

نكون متمرّسين في العربيّة للحدّ الذي تصبح فيه كأنّها لغتنا الأُمّ ؛ وعلى هذا فكم هو جميل أن نضع درساً للبحث والتدقيق في لغات القرآن و«نهج البلاغة» ، ونخرج القرآن إلى حيّز العمل ، فهذه هي الطريقة المثلى للرقيّ والتكامل . وإلّا نكون قد فعلنا كما فعل عبد الناصر حين بنى جامعة الأزهر ، وبدأ تدريس الطلبة الفيزياء والكيمياء في صفوف مختلطة ، وهو بعينه ما كان يطمح إليه غلادستون ، ولو كنّا عنه غافلين .

وأمّا المطلب الثالث ، وهو : ماذا تنتظر الحوزة العلميّة من الخرّيجين والمجتهدين والأساتذة والقائمين على إدارتها ؟ وما الذي ينبغي أن يكون عليه نهجهم ومستواهم العلميّ والعمليّ ، ليمكنهم النهوض بأعباء هذه المسؤوليّة الخَطيرة ؟

والجواب على هذا السؤال يسير غير عسير ، لأنّ انتظار الناس من بائع الخضر أن لا يعرض الخضر التالفة الفاسدة للبيع ، وأن يأتيهم بها طريّة سالمة ؛ وتوقّعهم من الشرطة أن تعيّن لحفظ أعراض الناس وأموالهم الحرّاس النشطين المتديّنين الواعين ... وهكذا .

فهم يتوقّعون كذلك من الحوزة التي تمثّل الروحانيّات والمعنويّات والحافظة لحياة وأعراض وأموال الناس وكرامتهم ، ودينهم ودنياهم ، في بلد مسلم ينهل شعبه من معين مدرسة التشيّع ؛ أن تخرّج طلّاباً لائقين نزيهين ينعكس في سيمائهم مظهر القرآن وعلائم روح رسول الله ، وتتلألأ وجوههم من إشراق أنوار أئمّة الهدى ، طلبةً يمكنهم في زمن الغيبة هذا ، حيث حُرم عامّة الناس من الاتّصال بإمام زمانهم المعصوم ، أن يعملوا في حدودهم بذلك النهج ويقدّمونه للناس ؛ طلبةً قادرين على أن يبيّنوا للناس المعارف الحقيقيّة الإلهيّة ، وأن يكونوا مربّيهم وقادتهم في الأخلاق والعمل في طريق الوصول إلى قمّة التوحيد وأعلى ذروة كمال الشخصيّة

الإنسانيّة ؛ طلبةً يمكنهم إدارة دين الناس ودنياهم ، ليس فقط من الناحية الظاهريّة ، بل بفهمهم لوجهة نظر الولاية الباطنيّة وإرشادهم الناس على ضوء هُداها .

ينتظر الناس أن تقدّم لهم الحوزة أُناساً يمكنهم فهم العلم الذي وصفه رسول الله بأنّه : **آيَةٌ مُحْكَمَةٌ أَوْ فَرِيضَةٌ عَادِلَةٌ أَوْ سُنَّةٌ قَائِمَةٌ** على النحو الأحسن والأكمل ، ثمّ يقومون في المرتبة الثانية بتوسيع شعاع وجودهم فيقودوا معظم الطبقات من أتباعهم ، بعيداً عن الغش والغلّ ، في موكب تلفّه السعادة والظفر والعافية والنصر ، ضاحكين مستبشرين ، إلى الجنّة التي وُعد المتّقون ؛ فيكونوا قد عمروا دنياهم وآخرتهم .

وينتظر الناس أن يكون هؤلاء أمينين مأمونين ، مضحّين متفانين ، متجرّدين عن العلائق مع غير الله عزّ وجلّ ، يلفّهم سكون حرم العزّ والوقار ، وينهض بهم النظر الثاقب والهمّة العالية ، شكورين صابرين ، قانعين متواضعين ، شجعان سمحاء ، طووا مراحل العلم ومدارجه من فقه وأُصول وحكمة وفلسفة وتفسير وحديث وتأريخ وغيرها ، وتتلمذوا زمناً في المعارج العمليّة والعرفان الإلهيّ على يد أُستاذ موحّد فاهم واصل كامل ، وتربّوا السنين الطوال في رعايته ، فجمعوا بين الحكمة النظريّة والعرفان العمليّ ، وصاروا في الفقه خبيرين بصيرين ، واطّلعوا الاطّلاع التامّ على سيرة رسول الله ونهج أئمّة الدين ، وفهموا كتاب الله وقرآنه الكريم ، وعرفوا شأن نزول آياته وتفسيرها ، وحفظوا كلّ آياته أو معظمها .

أفيجوز لمن يعتبر نفسه إماماً في دين الله ودليلاً على الطريق إليه ، أن يكون فاقداً لمعرفة الله ، فيقول إنّ المعرفة إنّما هي المعرفة الإجماليّة بأنّ الله واحد وكفى ! فما تلك الّا معرفة العجائز .

إنّ إمامنا الصادق عليه السلام لم يقل هكذا ؛ فقد ورد في «**الوافي**»

عن «**الكافي**» عن محمّد بن سالم بن أبي سلمة، عن أحمد بن ريّان، عن أبيه، عن جميل بن دُرّاج، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام:

قَالَ: لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي فَضْلِ مَعْرِفَةِ اللَهِ تَعَالَى، مَا مَدُّوا أَعْيُنَهُمْ إلَى مَا مُتِّعَ بِهِ الأَعْدَاءُ مِنْ زَهْرَةِ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنَعِيمِهَا، وَكَانَتْ دُنْيَاهُمْ أَقَلَّ عِنْدَهُمْ مِمَّا يَطَؤُونَهُ بِأَرْجُلِهِمْ، وَلَنُعِّمُوا بِمَعْرِفَةِ اللَهِ تَعَالَى، وَتَلَذَّذُوا بِهَا تَلَذُّذَ مَنْ لَمْ يَزَلْ فِي رَوْضَاتِ الجِنَانِ مَعَ أَوْلِيَاءِ اللَهِ.

إنَّ مَعْرِفَةَ اللَهِ أُنْسٌ مِنْ كُلِّ وَحْشَةٍ؛ وَصَاحِبٌ مِنْ كُلِّ وَحْدَةٍ؛ وَنُورٌ مِنْ كُلِّ ظُلْمَةٍ؛ وَقُوَّةٌ مِنْ كُلِّ ضَعْفٍ، وَشِفَاءٌ مِنْ كُلِّ سُقْمٍ.

ثُمَّ قَالَ: قَدْ كَانَ قَبْلَكُمْ قَوْمٌ يُقْتَلُونَ، وَيُحَرَّقُونَ، وَيُنْشَرُونَ بِالمَنَاشِيرِ، وَتَضِيقُ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِرُحْبِهَا، فَمَا يَرُدُّهُمْ عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ شَيءٌ مِمَّا هُمْ فِيهِ، مِنْ غَيْرِ تِرَةٍ وَتَرُوا مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ، وَلَا أَذَى مِمَّا نَقَمُوا مِنْهُمْ إلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَهِ العَزِيزِ الحَمِيدِ.

فَسَلُوا رَبَّكُمْ دَرَجَاتِهِمْ! وَاصْبِرُوا عَلَى نَوَائِبِ دَهْرِكُمْ تُدْرِكُوا سَعْيَهُمْ! [1]

ونلحظ في هذه الرواية كيف يبيّن الإمام عليه السلام همّة وثبات العرفاء بالله، وكيف يدعو تلاميذه إلى الاستقامة والصبر حفاظاً على العلم والإيمان ومعرفة الله.

هؤلاء هم الذين تعاقبوا في الأزمنة السالفة، وكانوا بطلوع وإشراق أنوار الحقّ وصفاته في قلوبهم حفظةً لدين الله وشريعته، وحماةً لقرآنه وكتابه.

١ـ «الوافي» ج ١، ص ٤٢ و٤٣، الطبعة الحجريّة.

خـــلق را چـــون آب دادن صـــاف وزلال
انــــدر او تـــابان صـــفاتِ ذو الجـــلال
عـــــلمشان و عـــــدلشان و لطـــفشان
چـــــون ســـــتارهٔ چـــرخ در آب روان
قـــرنها بگـــذشت و ایـــن قـــرن نـــویست
مـــاه آن مـــاهست و آب آن آب نـــیست
عـدل آن عـدلست و فـضل آن فـضل هـم
لیک مســـتبدل شـــد آن قـــرن و اُمَـــم
قـــــرنها بـــر قـــرنها رفت ای هـــمام
ویـــن مـــعانی بـــر قـــرار و بـــردوام
آب مُـــبْدَل شـد در ایـن جـو چـند بـار
عکس آن خـــــورشید دائـــــم بـــرقرار
جـــهان مـرآت حسـن شـاهد مـاست
فَشَـــاهِدِ وَجْـــهَهُ فِـی كُـلِّ مِـرْءَاتِ[1]

١ـ ديوان «مثنوى معنوى» للملّا الروميّ ج ٦، ص ٦٠٧، السطر ٢٢، و ص ٦٠٨، السطران ١ و٢.

يقول: «الخلقُ أشبه بقطرات ماءٍ صافٍ زلال، تشعّ داخلها صفات الربّ ذي الجلال.
فعلمه ولطفه وعدله تبرق كنجوم السماء في الماء المنساب.
وتمرّ القرون، ويأتي قرن جديد، ويبقى القمر نفسه ذاك القمر، لكنّ الماء لم يعد ذلك الماء.
ولم يزل العدل هو ذلك العدل، وكذا الفضل هو ذاك الفضل.
لكنّ القرون والأُمَم قد استبدلت، ولقد تعاقبت القرون أيّها الهمام وهذه المعاني راسخة لا تتغيّر.
وتبدّل الماء في هذه الساقية مرّات ومرّات، لكنّ الشمس ظلّت تسطع عليه دوماً.

وها هو اليوم سيل طلبة العلوم الدينيّة يتدفّق على الحوزات العلميّة من كلّ صوب وحدب ، فإنّهم ينبغي أن يحسّوا في قرارة أنفسهم وأعماق وجودهم ويلمسوا حقيقة أنّ العلوم الدينيّة إن اتُّخذت وسيلةً للعيش ونُظر إليها كثروة دنيويّة فقط ، فإنّها لن تختلف عن سائر الحرف والفنون ، أمّا فيما لو اتُّخذت طريقاً إلى الله وعرفانه ، وللتحقيق عن سرّ عالم الكون ونيل العلوم الحقّة الحقيقيّة فإنّ الله الرحيم سيُمطر فيض رحمته عليهم ، ويملأ قلوبهم بأنوار جماله وجلاله المتلألئة .

قال مولانا في الدفتر الثاني من «المثنوي» :

هر كجا دردى دوا آنجا رود
هر كجا فقرى نوا آنجا رود
هر كجا مشكل جواب آنجا رود
هركجا پستى است آب آنجا رود
آب كم جو تشنگى آور بدست
تا بجوشد آبت از بالا وپست
تا **سَقَاهُمْ رَبُّهُمْ** آيد خطاب
تشنه باشد **اللَهُ أَعْلَمْ بِالصَّواب**[1]

وقال أيضاً في الدفتر الثالث مع تكرار الأبيات الثلاثة الأُولى :

وهذا العالم كالمرآة خير شاهد لمدّعانا ، فشاهد وجهه في كلّ مرآة» .

١ـ «ديوان مثنوي» ج ٢ ، ص ١٥٣ ، السطران ٩ و ١٠ .

يقول : «حيثما كان الداء كان الدواء ، وحيثما كان الفقر كان الغنى والثراء .
وأينما كان السؤال لحقه الجواب ، وحيثما انخفضت الأرض انساب إليها الماء .
فأقلّ من طلب الماء ليهزّك العطش ، فتفور مياهك من الأعالي والمنحدرات .
فكن عَطِشاً حتّى يأتي خطاب «سقاهم ربّهم» ، لأنّ الباري الحكيم أعلمُ بالصواب» .

هــر چــه روئـيد از پـی مـحتاج رُست
تــا بــيابد طــالبی چــيزی کــه جُست
حــقّ تــعالی کــاین ســماوات آفـريد
از بـــرای رفـــع حـــاجات آفــريد
هـــر کــه جــويا شــد بــيابد عــاقبت
مــايه‌اش درد است واصــل مـرحـمت
هـــــر کـــجا دردی دوا آنـــجا رود
هـــــر کـــجا فـقری نـوا آنــجا رود
هــر کــجا مشکــل جـواب آنـجا رود
هــر کــجا پسـتی است آب آنـجا رود
آب کـــم جــو تشــنگی آور بــدست
تـــا بـــجوشد آبت از بـــالا وپست[1]

وكم هو جميل ومعبّر تعبير السنائيّ الحكيم عليه الرحمة والرضـوان حين صاغ هذاالواقع في قالب النظم :

دل آنكس كـــه گشت بــر تــن شــاه
بـــود آســـوده مـــلک ازو وســپاه[2]

١ـ «ديوان مثنوي» ج ٣، ص ٢٨٣، الأسطر ٦ إلى ٩.
يقول : «كلّما نما في الأرض فلأجل المحتاج المفتقر، كي يجد طالبٌ ما ابتغى.
فلقد خلق الحقّ تعالى هذه السماوات والأرضين لرفع حاجات عباده.
فمن جدّ في البحث وجد، وهو أمرٌ ظاهره الألم وباطنه الرحمة.
فحيثما كان الداء كان الدواء، وحيثما كان الفقر كان الغنى والثراء.
وأينما كان السؤال لحقه الجواب، وحيثما انخفضت الأرض انساب إليها الماء.
فأقِلَّ من طلب الماء ليهزّك العطش، فتفور مياهك من الأعالي والمنحدرات».
٢ ـ «سفينة البحار» ج ٢، ص ٤٤١.

بــــد بـــــود تــن چــه دل تــباه بــود
ظــــلم لشكـــر ز ضــعف شــاه بــود
اين چنين پـر خـلل دلى كـه تـو راست
دد وديـــوند بـــا تـــو زيـــن دل راست
پـــــــاره گوشت نـــام دل كـــردى
دل تـــــــحقيق را بـــــحِل كــــردى
ايـــنكه دل نــام كــردهاى بــه مــجاز
رو بـــــه پــيش سگــان كــوى انــداز
از تـــن ونــفس وعــقل وجــان بگـذر
در ره او دلى بـــــــــدست آور
آنــــچنان دل كــــه وقت پــــيچاپيچ
انـــدرو جــــز خــدا نـيابى هــيچ[1]

ولهذا الأمر فقد عدّت أحاديث كثيرة العلمَ منحصراً بـالعلم الحـقيقيّ المستقرّ في القلب والملازم للعمل.

وجاء في «مصباح الشريعة» **قَالَ الصَّادِقُ عَلَيهِ السَّلَامُ: لَا يَحِلُّ الفُتْيَا لِمَنْ لَا يَسْتَفْتِي مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِصَفَاءِ سِرِّهِ؛ وَإخْلَاصِ عَمَلِهِ؛ وَعَلَانِيَتِهِ؛ وَبُرْهَانٍ مِنْ رَبِّهِ فِي كُلِّ حَالٍ. لِأَنَّ مَنْ أَفْتَى فَقَدْ حَكَمَ؛ وَالحُكْمُ لَا يَصِحُّ إلَّا بِإذْنٍ مِنَ اللهِ وَبُرْهَانِهِ. وَمَنْ حَكَمَ بِخَبَرٍ (بَالخَبَرِ ـ خ ل) بِلَا مُعَايَنَةٍ فَهُوَ**

يقول: «إنّ من صار قلبه مَلِكاً على بدنه، صارت الملكة والجيش منه في راحة وأمان.
١ - يقول: وإن فسد القلب فسد معه البدن، وإنّ ظلم الجيش عائد إلى ضعف الملك.
لكنّ قلبك يا صاح مليء بالضعف والوهن، فصار الوحش والشيطان شريكيك فيه.
أتسمّي مضغة لحم قلباً؟ لقد فقدتَ إذاً القلب الحقيقيّ.
وعليك أن تذهب فتلقي إلى كلاب الحارة ما سمّيته مجازاً بالقلب!
وتَخَطَّ البدن والنفس والغقل والروح، واكتسب في سبيله (هو) قلباً.
قلباً لا تجد فيه عند الشدائد والمنعطفات سوى الله تعالى».

جَاهِلٌ مَأخُوذٌ بِجَهْلِهِ ، وَمَأثُومٌ بِحُكْمِهِ .

قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : أَجْرَؤُكُمْ عَلَى الفُتْيَا أَجْرَؤُكُمْ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ .

أَوَ لَا يَعْلَمُ المُفْتِي أَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَدْخُلُ بَيْنَ اللهِ تَعَالَى وَبَيْنَ عِبَادِهِ ، وَهُوَ الجَائِزُ (الحَائِرُ ـ خ ل) بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ.[1]

١ـ «مصباح الشريعة» ص ٤١ و٤٢ ، الباب ٦٣ من طبعة نشر كتاب مصطفوي ؛ وج ٢ ، ص ٦٧ إلى ٧١ ، وبرقم تسلسل ص ٣٥١ إلى ٣٥٥ من الشرح الفارسيّ لـ«مصباح الشريعة» للملّا عبد الرزّاق الگيلانيّ (الجيلانيّ) ، وتصحيح المحدِّث الأرمويّ . و«بحار الأنوار» ج ١ ، ص ١٠١ ، باب النهي عن القول بغير علم ، طبعة الكمبانيّ . و«مستدرك الوسائل» ج ٣ ، ص ١٩٤ ، باب ما يتعلّق بأبواب صفات القاضي وما يجوز أن يقضي به ، الطبعة الحجريّة ، و«المحجّة البيضاء» ج ١ ، ص ١٤٧ و١٤٨ .

وَقَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ : كَيفَ يَنْتَفِعُ بِعِلْمِي غَيْرِي وَأَنَا قَدْ حَرَمْتُ نَفْسِي ؟ وَلَا تَحِلُّ الفُتْيَا فِي الحَلَالِ وَالحَرَامِ بَيْنَ الخَلْقِ إلَّا لِمَنِ اتَّبَعَ الحَقَّ مِنْ أَهْلِ زَمَانِهِ وَنَاحِيَتِهِ وَبَلَدِهِ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَآلِهِ (إلَّا لِمَنْ كَانَ أَتْبَعَ الخَلقِ مِنْ أَهلِ ... بِالحَقِّ ـ خ ل) وَعَرَفَ مَا يَصْلَحُ مِنْ فُتْيَاه ؛ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ : وَذَلِكَ لَرُبَّمَا وَلَعَلَّ وَلَعَسَى ، لِأَنَّ الفُتْيَا عَظِيمَةٌ . قَالَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عَلِيٌّ عَلَيهِ السَّلَامُ لِقَاضٍ : هَلْ تَعْرِفُ النَّاسِخَ مِنَ المَنْسُوخ ؟! قَالَ : لَا ! قَالَ : فَهَلْ أَشْرَفْتَ عَلَى مُرَادِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي أَمْثَالِ القُرْآنِ ؟ قَالَ : لَا ! قَالَ : إذاً هَلَكْتَ وَأَهْلَكْتَ .

وَالمُفْتِي يَحْتَاجُ إلَى مَعْرِفَةِ مَعَانِي القُرْآنِ وَحَقَائِقِ السُّنَنِ وَمَوَاطِنِ (بَوَاطِنِ ـ خ ل) الإشَارَاتِ وَالآدابِ وَالإجْمَاعِ وَالاخْتِلَافِ ، وَالاطِّلَاعِ عَلَى أُصُولِ مَا اجْتَمَعُوا عَلَيهِ وَمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ، ثُمَّ إلَى حُسْنِ الاخْتِيارِ ، ثُمَّ إلَى العَمَلِ الصَّالِحِ ، ثَمَّ الحِكْمَةِ ، ثُمَّ التَّقْوَى ، ثُمَّ حِينَئِذٍ إنْ قَدَرَ !

يقول محيي الدين بن عربي في «الفتوحات المكّيّة» ج ٣ ، ص ٦٩ ، الباب ٣١٨ : **فَمَا ثَمَّ شَارِعٌ إلَّا اللهُ تَعَالَى . قَالَ اللهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ [وَآلِهِ] وَسَلَّمَ : «لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ» ، وَلَمْ يَقُلْ بِمَا رَأَيْتَ ، بَلْ عَتَبَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَمَّا حَرَّمَ عَلَى نَفْسِهِ بِاليَمِينِ فِي قَضِيَّةِ عَائِشَةَ وَحَفْصَةَ ، فَقَالَ تَعَالَى : «يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ» . فَكَانَ هَذَا مِمَّا أَرَتهُ نَفْسُهُ ، فَهَذَا يَدُلُّك أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى : «بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ» أَنَّهُ مَا**

إنّ فقهاءً كهؤلاء يجمعون بين علم الظاهر والباطن ، وبين العلم والعمل ، هم الذين ينبغي أن يعلّموا وينشّئوا الطلبة والحوزات ، فهم يكتسبون العلم الحقيقيّ من جانب الربّ تعالى فيعكسونه على المتعلّمين ؛ وهم القائمون ليلاً في محراب العبادة ، والصافّون الأقدام في الدعاء والتضرّع والتعظيم لمقام الربّ المعبود ، قلوبهم مجذوبة للجذوات الإلهيّة والسبحات الربّانيّة ، فهم يفيضون نهاراً ما اكتسبوه في المحراب ليلاً ، ويسبحون في هذا العالم الواسع ويفيضون فيوضاتهم إلى العالم :

إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا * إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا. [1]

هذا السبح الذي تمنح فيه وتنفق وتفيض ممّا مُنحته ليلاً في محراب

يُوحَى بِهِ إِلَيْهِ لَا مَا يَرَاهُ فِي رَأْيِهِ ، فَلَوْ كَانَ الدِّينُ بِالرَّأْيِ لَكَانَ رَأْيُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَهُ عَلَيهِ [وَآلِهِ] وَسَلَّمَ أَوْلَى مِن رَأْيِ كُلِّ ذِي رَأْي ؛ فَإِذَا كَانَ هَذَا حَالَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَهُ عَلَيهِ [وَآلِهِ] وَسَلَّمَ فِيمَا أَرَتْهُ نَفْسُهُ ، فَكَيفَ رَأيُ مَنْ لَيْسَ بِمَعْصُوم ؟ وَمَن الخَطَأُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنَ الإصَابَةِ . فَدَلَّ أَنَّ الاجْتِهَادَ الَّذِي ذَكَرَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَهُ عَلَيهِ [وَآلِهِ] وَسَلَّمَ إِنَّمَا هُوَ طَلَبُ الدَّلِيلِ عَلَى تَعْيِينِ الحُكْمِ فِي المَسْأَلَةِ الوَاقِعَةِ لَا فِي تَشْرِيعِ حُكْمٍ فِي النَّازِلَةِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ شَرْعٌ لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَهُ ـ إلى آخر بحثه في هذا الباب.

وقد نقل الملّا السيّد صالح المولويّ الخلخاليّ التلميذ المبرّز للميرزا السيّد أبي الحسين جلوه الإصفهانيّ الذي شرح «المناقب» المنسوب إلى محيي الدين في صفحة ٢٩ ، عين عبارات محيي الدين هذه عن المحدّث النيشابوريّ ، وذكر نقل باب آخر في «الفتوحات»: **لَا يَجُوزُ أَنْ يُدَانَ اللَهُ بِالرَّأْيِ وَهُوَ القَوْلُ بِغَيْرِ حُجَّةٍ وَبُرْهَانٍ مِن كِتَابٍ وَلَا سُنَّةٍ وَلَا إجْمَاعٍ . وَأَمَّا القِيَاسُ فَلَا أَقُولُ بِهِ وَلَا أُقَلِّدُ فِيهِ جُمْلَةً وَاحِدَةً ، فَمَا أَوْجَبَ اللَهُ عَلَينَا الأَخْذُ بِقَوْلِ أَحَدٍ غَيْرِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَهُ عَلَيهِ [وَآلِهِ] وَسَلَّمَ** . ثمّ أورد شرحاً على دلالة هذا المرام على تشيّعه.

١ـ الآيتان ٦ و٧ : من السورة ٧٣ : المزّمّل.

عبادتك .

لذا فإنّ الاجتهاد القائم على القواعد فقط هو اجتهاد شكليّ ليس إلّا ، واجتهاد كهذا أشبه بالميزاب منه بماء الحياة ، فلو فُرض أن جرى فيه الماء وانساب ، واتّفق مطابقة الحكم للواقع ، فإنّه لن يكون إلّا وعاءً ووسيلة لعبور ماء الحياة وتدفّقه ؛ ولو قدّر لا سمح الله أن كُسر هذا الميزاب أو أصابه العيب والخلل ، لأدّى ذلك إلى أضرار ومفاسد لا تُحصى . يقول مولانا في الدفتر الخامس للـ «مثنوي» :

علم چون در نور حقّ پرورده شد   زعلمت نور یابد قوم لُدّ
هر چه گوئی باشد آنهم نور پاک   کاسمان هرگز نبارد سنگ وخاک
آسمان شو ابر شو باران ببار   ناودان بارش کند نبود بکار
آب اندر ناودان عاریتی است   آب اندر ابر و دریا فطرتی است
فکر و اندیشه است مثل ناودان   وحی مکشوفست ابر و آسمان
آب باران ، باغ صد رنگ آورد   ناودان همسایه در جنگ آورد[1]

ويقول كذلك في الدفتر الثاني :

١ـ «ديوان مثنوي» للملّا جلال الدين الروميّ ، ج ٥ ، ص ٤٨٥ ، الأسطر ٢ إلى ٤ . طبعة ميرخاني .

يقول : «لو ترعرع علمك في نور الحقّ ، فسيجد حتّى أعداؤك النور والهدى فيه.
فمهما نطقتَ كان نوراً منزّهاً ، لأنّ السماء لا تمطر تراباً وحجارة أبداً.
كن سماءً وغيماً فأمطر ما وسعك ، ولا تكن كالميزاب لا يُنتفع بمائه المنهمر.
لأنّ الماء المنسكب من الميزاب عارية زائلة ، وماء الغيوم والبحر فطرة أصيلة.
كذاك العلم والفكر شأنهما كالميزاب ، والوحيُ إنّما هو كالغيم والسماء.
فانظر لماء المطر كيف اينعت منه الروضة ألواناً زاهية ، وانظر لماء الميزاب كيف تنازع بشأنه الجيران».

عـــلم تـــقليدى بـــود بـــهر فـــروخت
چـون بـيابد مشـترى خـوش بـر فـروخت
مشـــترى عـــلم تـــحقيقى حـــق است
دائـــــماً بـــازار او بـــا رونـــق است
لب بـــبسته مست در بـــيع و شـــرى
مشـــترى بـــيحد كـــه **اللـــهُ اشـــتَرَى**
درس آدم را فـــــرشته مشـــــترى
مـــحرم درسش نـــه ديـــو است وپـــرى
آدَم أنْـــــبِئْهُمْ بأَسْـــمَا درس گـــو
شـــرح كـــن أســـرار حـــق را مـو بـه مـو[1]

وقد وردت رواية عجيبة عن الصـادق عـليه السـلام تـوجب الحـذر والتيقّظ حقّاً :

في «**الوافي**» عن «**الكافي**» ، عن محمّد ، عن ابن عـيسى ، عـن ابـن فضّال ، عن عليّ بن عقبة ، عن عُمَر ، عن أبي عبد الله عليه السـلام ، قـال

١ـ «ديوان مثنوى» ج ٢ ، ص ١٨٥ ، السطران ٢٢ و٢٣ .

يقول : «العلمُ إن كان تقليديّاً كان جاهزاً للبيع ، إن صادف من يشتريه بِيعَ .

لكنّ العلم الحقيقيّ له مشترٍ هو الحقّ ، لذا كان سوقه زاهياً كلّ آن.

تراهم سكوتاً سكرى في البيع والشراء ، إذ المشتري لا حصر له ، إذ «الله اشترى».

وكانـت الملائـكة طلّاباً لدرس آدم مشـترين ، وكان درسـه سرّاً محـرّماً على الجـنّ والملائكة.

فقل لهم يا آدم الدرس «آدم انبئهم بأسمائهم» ، واشرح لهم تفصيل أسرار الحقّ».

ويقول الغزّاليّ في «إحياء العلوم» ج ١ ، ص ١٧ :

قال رسول الله صلّى الله عليه وآله لوابصة : **اسْتَفْتِ قَلْبَكَ ، وَإنْ أَفْتَوكَ ، وَإنْ أَفْتَوكَ ، وَإنْ أَفْتَوكَ !**

الراوي :

قَالَ لَنَا ذَاتَ يَوْمٍ : تَجِدُ الرَّجُلَ لَا يُخْطِئُ بِلَامٍ وَلَا وَاوٍ خَطِيباً مِسْقَعاً [1] وَلَقَلْبُهُ أَشَدُّ ظُلْمَةً مِنَ اللَّيْلِ المُظْلِمِ ، وَتَجِدُ الرَّجُلَ لَا يَسْتَطِيعُ تَعْبِيراً عَمَّا فِي قَلْبِهِ بِلِسَانِهِ وَقَلْبُهُ يَزْهَرُ كَمَا يَزْهَرُ المِصْبَاحُ . [2]

روى في «أُصول الكافيّ» ج ٢ ، ص ٢١٤ بإسناده عن ابن أُذَيْنَة ، عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال : **إنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ قَوْماً لِلْحَقِّ فَإذَا مَرَّ بِهِمُ البَابُ مِنَ الحَقِّ قَبِلَتْهُ قُلُوبُهُمْ وَإنْ كَانُوا لَا يَعْرِفُونَهُ ؛ وَإذَا مَرَّ بِهِمُ البَابُ مِنَ البَاطِلِ أَنْكَرَتْهُ قُلُوبُهُمْ وَإنْ كَانُوا لَا يَعْرِفُونَهُ . وَخَلَقَ قَوْماً لِغَيْرِ ذَلِكَ فَإذَا مَرَّ بِهِمُ البَابُ مِنَ الحَقِّ أَنكَرَتْهُ قُلُوبُهُمْ وَإنْ كَانُوا لَا يَعْرِفُونَهُ ؛ وَإذَا مَرَّ بِهِمُ البَابُ مِنَ البَاطِلِ قَبِلَتْهُ قُلُوبُهُمْ وَإنْ كَانُوا لَا يَعْرِفُونَهُ .**

ولقد كان المرحوم صدر المتألّهين قدّس الله سرّه يئنّ ويتألّم من أفراد كهؤلاء ، من الأنانيّين وعبدة الدنيا وطلّاب الرئاسة ، فيقول :

وَالعَجَبُ أَنَّهُ مَعَ البَلَاءِ كُلِّهِ وَالدَّاءِ جُلِّهِ تَمَنَّى نَفْسُهُ العَثُورَ وَتُدَلِّيهِ بِحَبْلِ الغُرُورِ أَنَّ فِيمَا يَفْعَلُهُ مُرِيدُ وَجْهِ اللَهِ ؛ وَمُذِيعُ شَرْعِ رَسُولِ اللَهِ ؛ وَنَاشِرُ عِلْمِ دِينِ اللَهِ ؛ وَالقَائِمُ بِكِفَايَةِ طُلَّابِ العِلْمِ مِنْ عِبَادِ اللَهِ .

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ ضُحْكَةً لِلشَّيْطَانِ وَسُخْرَةً لِأَعْوَانِ السُّلْطَانِ ؛ لَعَلِمَ بِأَدْنَى تَأَمُّلٍ أَنَّ فَسَادَ الزَّمَانِ لَا سَبَبَ لَهُ إلَّا كَثْرَةُ أَمْثَالِ أُولَئِكَ الفُقَهَاءِ المُحَدِّثِينَ المُحْدِثِينَ فِي هَذِهِ الأَوَانِ ، الَّذِينَ يَأْكُلُونَ مَا يَجِدُونَ مِنَ الحَلَالِ وَالحَرَامِ ،

١ـ قال المحقّق الفيض : **المِسْقَع** صحيح بالسين والصاد أيضاً ، ومعناه البليغ أو مَن كان صوته جهوريّاً ، أو الخطيب المفوّه الذي يتكلّم باستمرار ، فلا يعتري كلامه لكنة أو رجفة.

٢ـ «الوافي» ج ١ من الطبعة الحجريّة ، الجزء الثالث ، ص ٥١ باب أصناف القلوب تنقّل أحوال القلب.

وَيُفْسِدُونَ عَقَائِدَ العَوَامِّ بِاسْتِجْرَائِهِمْ عَلَى المَعَاصِي اقْتِدَاءً بِهِم وَاقْتِفَاءً لِآثَارِهِمْ، فَنَعُوذُ بِاللَهِ مِنَ الغُرُورِ وَالعَمَى فَإِنَّهُ الدَّاءُ الَّذِي لَيْسَ لَهُ دَوَاءٌ.[1]

وقد برهنتُ في مباحث الاجتهاد والتقليد على أنّ من الشروط الحتميّة للإفتاء والحكم، العدول عن الجزئيّة والارتباط والتعلّق بالكلّيّة، وأنّ هذا الشرط لا يتحقّق إلّا بتخطّي عالم النفس ومعرفة حضرة الربّ تعالى. وقد أوردتُ في بحث ضمنيّ مسألة ولاية الفقيه بشكل مجمل في كتاب «الرسالة البديعة في تفسير آية: **ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ**»؛ وهذا المعنى مشهود في حديث «نهج البلاغة» وخطاب أمير المؤمنين عليه السلام لكميل، وفي رسالته عليه السلام إلى مالك الأشتر وشواهد أُخرى جرى ذكرها هناك؛ لكنّ البحث المفصّل عن هذه المسألة يحتاج إلى كتاب مستقلّ في الاجتهاد والتقليد، وشروط المفتي والحاكم، وهو منوط بمجال أوسع وتوفيق أكثر واستعانة بحول الخالق المتعال وقوّته.[2]

لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْأَخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ.[3]

وللخواجة حافظ الشيرازيّ غزل في هذا المقام يحوي عالماً من

١ـ «الواردات القلبيّة في معرفة الربوبيّة» ص ٢٥٨، الفيض الثالث والعشرون، الطبعة الحجريّة، المطبوع في جزء واحد مع سبع رسائل أُخرى لصدر المتألّهين ورسالة أُخرى للسيّد صدرالدين الشيرازيّ. وقد صحّح الدكتور أحمد شفيعيها هذه الرسالة وطبعها مستقلّة، حيث ورد هذا القول في ص ٨٨، الفيض الثالث والعشرون.

٢ـ وقد تمّ بحمد الله بعد تأليف هذا الكتاب تدوين بحوث تحت عنوان «ولايت فقيه در حكومت اسلام» (= ولاية الفقيه في حكومة الإسلام» في أربعة أجزاء، ضمّت بحثاً تفصيليّاً عن شرائط تحقّق ولاية الفقيه في زمن غيبة إمام العصر عجّل الله فرجه الشريف، وحدودها وثغور أوامرها، وعن دورها في المجتمع الإسلاميّ، والتزام المسلمين تجاه تنفيذ نوايا حاكم الشرع.

٣ـ الآية ٧٠، من السورة ٢٨، القصص.

لطائف الإشارات :

مرابه رندی و عشق آن فَضُول عیب كند
که اعتراض بر اسرار علم غیب كند
کمال سرّ محبّت ببین نه نقص گناه
که هر که بی هنر افتد نظر به عیب كند
ز عطر حور بهشت آن نَفَس برآید بوی
که خاک میکدهٔ ما عبیر جَیب كند
چنان بزد ره اسلام غمزهٔ ساقی
که اجتناب ز صَهْبا مگر صُهَیب كند
کلید گنج سعادت قبول اهل دلست
مبادکس که در این نکته شکّ و ریب كند
شبان وادی أیمن گهی رسد به مراد
که چند سال به جان خدمت شعیب كند[1]

---

١ ـ «ديوان الخواجة حافظ الشيرازيّ» ص ٥٧ ، الغزل رقم ١٢٥ ، طبعة پژمان.

يقول : «يعيب ذاك الفضوليّ عَلَيَّ جرأتي وعشقي ، معترضاً بذاك على أسرار علم الغيوب.

فانظر ، فليس كمال سرّ المحبّة هو النقص من الذنوب ، فمن شيم من لا فضل له تقصّي العيوب.

وهناك عبير ذكيّ يفوح من عطر الحور في الفراديس ، لأنّها تعطّر جيب ردائها بتراب حانتنا النفيس.

وغمزات الساقي تنهال على طريق الإسلام ، فلا يستطيع «صهيب» ـ أحد الصحابة ـ أن يتجنّب الصهباء والشراب.

وقبول أهل القلوب هو مفتاح السعادة ، فلا تجعل الحبيب يا ربّ في شكّ وريبة من هذه النكتة المعادة.

زديـــده خـــون بـچكاند فسـانهٔ **حـافظ**

چون ياد وقت و زمان شـباب و شـيب كـند[1]

فلربّما نال راعي الوادي الأيمن مراده بعد ما يقدم على خدمة شعيب سنيناً بفؤاده.

١ ـ يقول: «و حكاية حافظ تجعل الدم يقطر من العيون ، حينما يتذكّر زمان الشباب ووقت المشيب».

الإشكال الرابع

إعراض دعاة الانفتاح عن المباني الإسلاميّة لتأثّرهم بالثقافة الأجنبيّة

والإشكال الرابع لصاحب مقالة «بسط وقبض تئوريک شريعت» (= بسط وقبض نظريّة الشريعة)، أي نظريّة تكامل المعرفة الدينيّة، هو أنّه قد اعتبر ضعف اهتمام الناس بالدين بعد النهضة الدستوريّة ناشئ من ضعف الاقتصاد المدوّن والفقه والحكمة، التي تراجعت أمام هجوم سيل الثقافة الغربيّة، ولم يكن لدى العلماء والفلاسفة وكتبهم شيئاً مهمّاً يُعتنى به، لذا فقد دُهش الناس لتلك المدنيّة وتبعوها مبهورين مسحورين؛ ويقول:

إنّ علينا أن لا نبتعد عن الإنصاف فنعترف أنّ جمعاً من المثقّفين الجُدد من دعاة الانفتاح، الذين كانت لهم في تأريخنا المعاصر آراؤهم القاسية بالنسبة للدين، لم يكن ذلك عداءً منهم له وحقداً منهم عليه؛ ولكنّ السبب يكمن في صورة الدين التي عُرضت عليهم والتي افتقدت الملاحة والجمال والجاذبيّة.

ففي أوان النهضة الدستوريّة تدفّق سيل المعارف الغربيّة على ديارنا، وملأت فلسفتهم وعلومهم وحقوقهم وسياستهم أذهان الشباب والمتلهّفين، وكانت الدهشة المهيبة والحيرة تلفّ الجميع، والانهزام النفسيّ والاستسلام والخضوع يلقّن للنفوس؛ وكان هيكل الفكر الدينيّ في ذلك الوقت مبتلىً بالمحن والأمراض الكثيرة، ولم يكن ليمتلك إلّا عدّة آداب فقهيّة، فبأيّ شيء ـ يا ترى ـ كان يمكنه اجتذاب قلوب العقلاء والأذكياء نحوه؟ لا اقتصاد مدوّن له، ولا سياسة مدوّنة،

ولا حكمة بإمكانها وضع الحلول للمشاكل ، ولا تحقيق نافع مُجدٍ.

فكيف نتوقّع من المشتغلين بالحكمة والآداب أن يعرضوا عن الأفكار المنمّقة التي خلط فيها الإفرنج حقّاً وباطلاً ، وأن يتمسّكوا بعدّة من الآراء المضطربة غير المتّسقة ، وبالأدب الصارم الجاف؟

لم تكن تلك مؤامرة تأريخيّة ، ولا مقتضى وجود موهوم اسمه الغرب، بل كانت نتيجة حتميّة لمواجهة الأقوياء المقتدرين مع الضعفاء العاجزين.[1]

والإجابة على هذا القول هي عين المطلب الذي أورده المهندس مهدي بازركان في كتاب «راه طى شده» (=الطريق المطويّ) ، فقد قال :

وهناك مطلب يرد في هامش البحث الأصليّ ويشكّل بنفسه موضوعاً يستحقّ المطالعة والتأمّل على حدة ؛ وهو تأثير خصائص المذهب المسيحيّ في أُسلوب تفكير وطريقة انتقاد المعاصرين من مخالفي المذاهب .

وبالطبع فإنّ أغلب ما يُنشر في بلدنا ضدّ الفكر الدينيّ ممّا يمتلك وجهة علميّة ، فإنّما هو ترجمة مباشرة أو اقتباس غير مباشر من كتابات ومقالات الأُوروبّيّين .

فلو تأمّلتم بعناية في هذه الانتقادات للاحظتم أنّها تهاجم صراحةً أو تلميحاً الديانة المسيحيّة ورجال الدين المسيحيّين ، وأنّها لا تتعدّى ذلك ، فبعض هؤلاء المنتقدين لا يمتلك أيّ معلومات عن الإسلام ، أو أنّه يتجنّب إقحامه في هجومه وانتقاده ، والبعض الآخر لم يتناوله بالنقد إلّا قليلاً ،

١ـ مقاله «بسط وقبض تئوريک شريعت» (= بسط وقبض نظريّة الشريعة) العدد ٥٠ ، أُرديبهشت ماه (الشهر الثاني من الشهور الإيرانـيّة» ١٣٦٧ هـ ش . رقم ٢ ، ص ١٧، العمود الثاني .

بالشكل الذي تبقى فيه هذه الانتقادات والمطالعات ناقصة تماماً وغير مجدية من وجهة نظر التحقيق الكامل .

ولكنّنا ـ بخلافهم ـ نعتبر عيسى عليه السلام وتعاليمه مبعوثَين من جانب الله عزّ وجلّ ، وأنّ رسولنا كان **مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ** ؛[1] ولكن باعتبار تدرّج الأديان وفق السير التكامليّ للبشريّة ، فإنّ على البشر كذلك أن يتابعوا السير التكامليّ للأنبياء عليهم السلام .

كما أنّ كثيراً من الانتقادات التي يوجّهها المنتقدون إلى الأديان قد استندت إلى التحريفات التي تسرّبت إلى الديانة المسيحيّة بمرور الزمن ، ولفقدان النسخة الأصليّة للإنجيل ، أو للثغرات والنقائص فيها والتي عالجها الإسلام بالنحو الأفضل والأكمل ووضَع لها الحلول الناجعة .

فلو امتلك هؤلاء المخالفون للدين التعمّق الكافي في الإسلام ، والتحقيق الصحيح في شؤونه ؛ ولو انفكّ الأُوروبّيّون عن عبادة القديم وامتلكوا الانفتاح والتبصّر في الدين كما امتلكوا الانفتاح والتقدّم في باقي شؤون حياتهم ، لصاروا مسلمين مجدّدين ، ولتحولّت الانتقادات حتماً إلى شكل آخر ، ولصار للدنيا وجهاً غير ما هي عليه اليوم .[2]

وهذا الكلام متين لا يرقى إليه الشكّ ، فتأريخ النهضة الدستوريّة والوقائع التي حصلت بعدها إلى بداية الثورة الإسلاميّة وتشكيل الحكومة

١ـ الآيتان ٣ و٤ ، من السورة ٣ : آل عمران بهذا الشكل : **نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنْجِيلَ * مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ** . وليس لدينا في القرآن مطلقاً آية حول الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم فيها عبارة : **مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ** .

٢ـ كتاب «راه طى شده» (= الطريق المطويّ) هامش ص ٢٩ و٣٠ ، الطبعة الأُولى، سنة ١٣٢٧ شمسيّة.

الإسلاميّة ، مشهود أمامنا لا يلوح فيه إلّا السيطرة الثقافية والعسكريّة والسياسيّة والاقتصاديّة الفارغة للغرب على الإسلام . فلقد كان دعاة الثقافة والانفتاح المبهورون بالغرب هم أُولئك الذين كانت لهم علاقات مباشرة بالغرب ، وهم الذين كانوا يقدحون زناد الإلحاد والابتعاد عن الدين وينفخون في ناره لتستعر ، ولقد سجّل التأريخ أسماء هؤلاء وأحوالهم ونهجهم واحداً بعد واحد .

ولقد كانت الثقافة الغربيّة تُنشر بين الناس بالقوّة ، بالسياط والحراب والحبس والتعذيب والإعدام ، لكنّ الشعب بإسلامه الفطريّ لم يؤثر الغيّ على الهدى ، فلم تتعدّ هذه الثقافة عن كونها ظواهر قشريّة خارجيّة ، ولقد حافظ الشعب المسلم على ديانته مع تحمّله لكلّ أنواع الحرمان الاجتماعيّ ، وكان على وعي كامل بدسائس وشيطنة وخيانة دعاة الانفتاح العملاء هؤلاء ، مدركاً لطرق نفوذ تلك الثقافة التي لم تكن لتضمّ غير الألفاظ الفارغة الخاوية ؛ لم تعقب تلك الحركات والمشاريع إلّا الخُسران والدمار ، واتّضح بحمد الله قيام أساس السياسة الأجنبيّة على المكر والحيلة والكذب والبهتان ، وعلى استحلال إتلاف النفوس البريئة من أجل تحقيق أهداف الأجانب ومنافعهم .

ولقد كان لدينا في بداية النهضة الدستوريّة اقتصاد متين يستند إلى فقه ومكاسب الشيخ مرتضى الأنصاريّ بدورته الكاملة في المعاملات والشامل لأدقّ وأعمق المسائل الاقتصاديّة ؛ وكان لدينا فقه متين أيضاً ، فقد تشكّلت الحوزات العلميّة الدراسيّة وانتشرت الكتب الفقهيّة المؤلّفة من قبل تلامذة الشيخ الأنصاريّ في النجف وسامرّاء ، من أمثال آية الله الحاجّ الميرزا محمّد حسن الشيرازيّ والآخوند الملّا محمّد كاظم الخراسانيّ ، والحاجّ الميرزا محمّد حسن النائينيّ وغيرهم ، ولقد بلغ

تدريس الحكمة الحدّ الأعلى على يد أساتذة كالميرزا أبي الحسن جلوة الإصفهانيّ ، والآقا ميرزا طاهر التنكابنيّ ، والحاجّ الميرزا محمّد حسن الأشتيانيّ ، حيث كان كلّ واحد من هؤلاء العلماء الذين عاصروا تلك المرحلة عالماً محقّقاً ولا زالت آثار هؤلاء العظماء موجودة الآن بين أيدينا ، يعجز دعاة التجديد الفعليّين عن فهمها وإدراك مسائلها المطروحة .

إنّ حقيقة الأمر هي أنّ المتلاعبين بالسياسة من الأجانب قد عملوا بمعونة وألاعيب ومعاضدة دعاة التجدّد والانفتاح من المنبوذين والمتنكّرين لوطنهم وشعبهم ، على فتح أبواب البلد أمام رياح الوباء الصفراء العفنة الهابّة من الغرب ، لتنشر عفونتها بين الناس ، فعمّ الوباء والخراب ، وقضى الجميع عصراً قاتماً مظلماً .

وحين نقارن الآن الفقه والاقتصاد والحكمة والأدب الإسلاميّ مع القوانين المنتزعة من فلسفتهم وأدبهم ، نشاهد ضحالة وتفاهة مدرستهم جليّة لكلّ ذي عينين .

الإشكال الخامس

المجاز والاستعارة في القرآن، عين الصدق والبلاغة

الإشكال الخامس: هو أنّه لم يفرّق بين الكلام المجازيّ والكلام الكاذب، فتخيّل الكلام المجازيّ الذي ورد كثيراً في القرآن الكريم من جنس الكذب، ثمّ استعصى عليه درك بعض الآيات القرآنيّة ومفاهيمها الصحيحة المتسامية؛ فقال: ينبغي إمّا أن لا نقبل بمجازات القرآن، أو أن نوسّع من معنى عدم ورود الباطل في القرآن وكونه فصلاً ليس بالهزل إلى الحدّ الذي لا يتنافى فيه مع هذه المجازات، ليمكن الإيمان بقرآن يحوي مجازاً ـ وكذباً في الحقيقة ـ كهذا.

وتثير هذه العبارات العجب والاستغراب، لإنبائها بالعجز عن إدراك مطالب بسيطة وأوّليّة دارجة بين الطلبة.

ونجد من الأفضل أن نورد نصّ عباراته لبيان نقاط ضعفها وتزييفها، ثمّ نشرع بالإجابة عليها؛ يقول:

> ويكفي لمن يعتبر في علم الكلام أنّ المجاز والكناية غير جائزة في كلام الباري، أن يرى الآخرة مليئة بالولدان الهرمين: **يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا** ـ المزّمّل؛ ويشاهد الدنيا مليئة بالجدران ذات الإرادة: **فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ** ـ الكهف؛ ويكفي لمن يعتبره جائزاً أن لا يعدّ وجودها في القرآن باطلاً ولا هزلاً ولا لغواً، **وهي منطقاً من جنس الكذب**، وأن يؤمن في الوقت نفسه بمقولة: **لَا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِن بَيْنَ يَدَيْهِ**، **وَإِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ * وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ**.[1]

١ـ مقالة «بسط وقبض تئوريک شريعت» (= بسط وقبض نظريّة الشريعة) مجلّة

والإجابة على ذلك : أنّ الكذب عبارة عن الإخبار عن شيء يخالف الواقع من دون نصب قرينة على مخالفة هذا الخبر للواقع ؛كأن يقول شخص مثلاً : جاء زيد ، ولم يكن قد جاء بعد ، أو : لم يأتِ زيد ، وكان قد أتى فعلاً .

والمجاز عبارة عن استعمال لفظ في خلاف المعنى المفهوم والمعهود عرفاً ، مع نصب قرينة على أنّ هذا الاستعمال غير المعهود كان لجهة من الجهات ؛كأن يقول شخص مثلاً : **رأيتُ أسداً منهمكاً برمي السهام** ، ومقصوده من لفظ الأسد ليس الأسد المفترس والحيوان الصحراويّ ، بل الرجل الشجاع الذي عبّر عنه لشجاعته بالأسد ، وذكر قرينة في كلامه لهذا الاستعمال ، وهي عنوان الرمي ، فمعلوم أنّ الأسد الصحراويّ لا يرمي السهام ، بل الرجل الشجاع هو الذي يفعل ذلك .

ومثل هذه الاستعمالات صحيحة جدّاً ، بل هي أبلغ وأفضل في إيصال مراد المتكلّم بواسطة استعمال اللفظ في معناه الثانويّ ، للعلاقة الموجودة بين المعنى المتعارف والمعنى الفعليّ الاستعماليّ ؛ ويقال لمثل هذا الاستعمال : **الاستعمال المجازيّ** ؛ والعلاقة ووجه الارتباط بين المعنيينِ كثيرة ومتعدّدة ،كعلاقة الإشراف ، والتشبيه ، والاستلزام ، وسائر الأنواع والعلاقات والروابط التي أوصلوها في بعض كتب **البيان** إلى خمس وعشرين علاقة ،[1] في حين يعتقد البعض أنّ هذه العلاقات غير محدودة ، وأنّ ملاكها انتخاب واختيار المتكلّم الذي استعمل على أساس ذوقه العرفيّ لفظاً له معنىً خاصّ

«كيهان فرهنگى» ، العدد ٥٠ ، أُرديبهشت ماه ١٣٦٧ ، رقم ٢ ، ص ١٧ ، العمود الثالث.

١ـ جرى بحث الحقيقة والمجاز بإسهاب كافٍ في حاشية الشيخ جواد الطارميّ على «قوانين الأُصول».

من جهة الوضع اللغويّ أو الوضع النَّقْليّ ، في معنى مغاير مع حفظ هذه الرابطة ، أو مع نصب قرينة على هذا الاستعمال .

ولا يختصّ استعمال اللفظ المجازيّ بالعربيّة دون غيرها ، لكنّه أكثر انتشاراً في اللغات التي تكون دائرة معاني مفرداتها واشتقاقاتها أكبر ، وفصاحتها وبلاغتها أقوى ،كما هو في العربيّة .

ولا ترقى جميع لغات الدنيا إلى العربيّة في اتّساع اللغة ومصادر الاشتقاق ، وفي لطف قريحة الكلام ، والفصاحة التامّة والبلاغة الكاملة ، وقول الشعر بداهة ، وبيان المعاني الكثيرة والمطالب المحتشدة والنكات الدقيقة بأوجز عبارة وأقلّ بيان .

ويرجع أصل اللغات السائدة وجذورها إلى أصلين : العربيّة واللاتينيّة ، والعربيّة أحكمهما وأمتنهما .كما أنّ بيان المراد والمقصود بالرعاية الدقيقة للنكات الأدبيّة ، من الحقائق والمجازات والتمثيلات والتشبيهات والاستعارات دليل على كمال تلك اللغة وقوّتها ، وفي مقولة : **إِنَّ مِنَ ٱلْبَيَانِ لَسِحْرًا** إشارة إلى هذه النكتة .

ولقد نزل القرآن الكريم : الكلام الإلهيّ المعجز ،الذي يمثّل المعجزة الباقية لرسول الله إلى يوم القيامة ، بلسان العرب ، أي بأكمل وأتمّ وأوسع وأبلغ الألسنة واللغات ، فهو قائد قافلة البشريّة بدقائقه البليغة ، ومجازاته واستعاراته .

على أنّ اتّساع اللغة وآدابها ، واستعمال المجازات والاستعارات المختلفة [1] توجب اتّساع الفهم وحدّة الذكاء ونموّ الذهن ، فما يشاهد في ذكاء

١ـ الاستعارة هي في الحقيقة مجاز ، والفرق بينها وبين التشبيه ، وجوب ذكر أدوات التشبيه في التشبيه ، مثل : **زيد كالأسد** ، وعدم وجوب ذكرها في الاستعارة ؛ والاستعارة هي

وفراسة وحضور البديهة والخاطر في عرب الصحارى والبوادي الجافّة اللاهبة ، لا يشاهد مثله في أرقى الأُمم المتمدّنة ، ولا في سكنة المدن

ذكر أحد جانبي التشبيه بقصد الجانب الآخر مع ادّعاء دخول المشبَّه في جنس المشبَّه به بإثبات بعض مختصّات المشبّه به للمشبَّه . وهي على نوعين : استعارة مصرّح بها ، واستعارة بالكناية.

فأُولاهما : هي أن يكون الجانب المذكور من جانبَي التشبيه هو المُشَبَّه به ، كقولك: **رَأَيْتُ أَسَداً فِي الحَمَّامِ** ؛ فالمراد من الأسد هو الرجل الشجاع.

والثاني : أن يكون المشبَّه هو جانب التشبيه الذي يجري ذكره ، مثل : **وَإِذَا المَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا** ؛ فقد شُبِّهت المنيّة بحيوان مفترس ، مع ذكر المشبَّه وهو المنيّة.

يقول السكّاكيّ في «مفتاح العلوم» ص ١٩٨ و ١٩٩ في علم البيان:

تنقسم الاستعارة المصرّح بها إلى قسمين : تحقيقيّة وتخييليّة ، والمراد بالتحقيقيّة أن يكون المشبّه المتروك شيئاً متحقّقاً أمّا حسّيّاً وأمّا عقليّاً ، والمراد بالتخييليّة أن يكون المشبّه المتروك شيئاً وهميّاً محضاً لا تحقّق له إلّا في مجرّد الوهم . ثمّ تقسم كلّ واحدة منهما إلى قطعيّة: وهي أن يكون المشبّه المتروك متعيّن الحمل على ما له تحقّق حسّيّ أو عقليّ أو على ما لا تحقّق له البتّة إلّا في الوهم ؛ وإلى احتماليّة : وهي أن يكون المشبّه المتروك صالح الحمل تارةً على ما له تحقّق وأُخرى على ما لا تحقّق له ، فإن عددنا قسمي الاحتماليّة تحقيقيّة وتخييليّة قسماً واحداً فإنّ مجموع أقسام الاستعارة ستكون أربعة:

١) الاستعارة المصرّح بها التحقيقيّة القطعيّة.

٢) الاستعارة المصرّح بها التخييليّة القطعيّة.

٣) الاستعارة المصرّح بها الاحتماليّة مع الاحتمال للتحقيق والتخييل.

٤) الاستعارة بالكناية.

ثمّ إنّ الاستعارة ربّما قُسّمت إلى أصليّة وتبعيّة ؛ والمراد بالأصليّة أن يكون معنى التشبيه داخلاً في المستعار دخولاً أوّليّاً ؛ والمراد بالتبعيّة أن لا يكون داخلاً دخولاً أوّليّاً؛ وربّما لحقها التجريد فسمّيت مجرّدة ، أو الترشيح فسمّيت مرشّحة ، وعلى هذا فيصبح مجموع أقسام الاستعارات ثمانية.

ثمّ يشرع السكّاكيّ في الكلام مفصّلاً في كلٍّ من هذه الأقسام.

الآخرين ، وتأريخ العرب شاهد على صدق كلامنا .

ولم يحصل هذا إلّا بانتشار العربيّة التي يتقنها العرب الأصليّين من سكنة البوادي الذين هم أفضل من سكنة المدن في هذا المجال ، لذا فقد خشي على ضياع أُصول وجذور هذه اللغة بعد ظهور الإسلام والفتوحات الإسلاميّة التي أدّت إلى اندماج واختلاط أقوام وشعوب غير عربيّة ، كالأعاجم والنبط ، مع العرب ، فأمر خلفاء بني أُميّة وبني العبّاس جماعات بالتطواف الدائم على سكنة البوادي والصحارى وأخذ أُصول اللغة وعلامات المجاز والكناية والاستعارة عنهم . وقد أُلِّفَتْ الكتب في تدوين علم النحو ؛ بعد بيان أُصوله من قبل مولى الموحّدين أمير المؤمنين عليه السلام **لأبي الأسود الدؤليّ** ؛ من قبل أمثال **الخليل** و**سيبويه** و**يعقوب ابن السكِّيت** .

فكتاب «**العين**» للخليل هو من أهمّ كتب اللغة المعتبرة التي يستفاد منها إلى يومنا هذا .

و«**الكتاب**» لسيبويه ، من أنفس الكتب التي لم يؤلّف مثلها حتّى الآن في نزاهتها وشمولها .

ومع أنّ كتباً كثيرة قد أُلّفت ودوّنت بعد ذلك ، وكان بعضها ـ إنصافاً ـ أكثر تحقيقاً وأقرب للواقع وأكثر بعثاً على الاطمئنان ، كـ «**المصباح المنير**» و«**صحاح اللغة**» و«**لسان العرب**» ، ولكنّ «**الكتاب**» لسيبويه (في النحو) وكتاب «**العين**» للخليل (في اللغة) ظلّا يتربّعان على مقام الصدارة لكلّ الكتب .

ويُعدّ المجيء بالقصد والمرام بلفظ المجاز من أفضل أنواع الكلام والمحاورة ، لذا فقد قالوا : **كَلَامُ البُلَغَاءِ مَشْحُونٌ بِالمُجَازَاتِ** .

وقد زاد استعمال لفظ المجاز لدرجة قد ساوى في اتّساعه استعمال

اللفظ الحقيقيّ في معناه ؛ وقد كتب **الزَّمَخْشَرِيُّ** لهذا السبب كتاباً في اللغة سمّاه «**أَسَاسُ البَلَاغَة**» ، يتكفّل بتمييز وتشخيص المعاني الحقيقيّة عن المجازيّة ، ونُظِّم حسب ترتيب الحروف الهجائيّة لكلّ مادّة ، فهو يشرع بعدّ المعاني الحقيقيّة لها ، ثمّ يعدّد تحت عنوان : **ومن المجاز** جميع المعاني المجازيّة الواردة في كلام العرب والأمثلة والأشعار والقرآن الكريم .

وقد صرفت هذه اللطافة والعظمة لدقائق الاستعارة والمجاز **عبد الله ابن المُقَفَّع** الإيرانيّ ـ الذي تمرّس في العربيّة وبرز حتّى عُدّ في سعة علمه واطّلاعه على آداب العربيّة فرداً لا نظير له ـ عن عزمه على معارضة القرآن ، ومرّغت أنفه في تراب الذلّ والهوان .

فقد عزم مع جمع من أصحابه على معارضة القرآن ، فراحوا يطالعون آياته ، فوقعت أبصارهم على هذه الآيات :

وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْـمَآءُ وَقُـضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ .[1]

فقالوا لأنفسهم : ليس هذا بكلام بشر ؛ وانصرفوا عن عزمهم .

ومن الواضح البيّن أنّ هذه النكات الدقيقة ، واستعمال ألفاظ الكناية والمجاز والاستعارة هي التي سمت بالقرآن في أُفق متعالٍ تعجز الأفهام عن السموّ إليه ، وتتصاغر عن مقابلته ومعارضته .

١ـ الآية ٤٤ ، من السورة ١١ : هود ، التي خصِّصت لتصوير نهاية طوفان نوح عليه السلام.

ولقد بحث السكّاكيّ في «مفتاح العلوم» في علم البيان عن فصاحة وبلاغة هذه الآية فقط من ص ٢٢١ إلى ٢٢٤.

وأورد بالتفصيل مطالب نفيسة من جهات أربع : من جهتي علم البيان وعلم المعاني وهذان العلمان مرجع البلاغة ، وكذلك من جهتي الفصاحة المعنوية والفصاحة اللفظيّة.

يقول **السكّاكيّ** في مقدّمة كتاب «مفتاح العلوم» : **ثُمَّ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى حِبِيبِهِ مُحَمَّدٍ البَشِيرِ النَّذِيرِ ، بِالكِتَابِ العَرَبِيِّ المُنِيرِ ، الشَّاهِدِ لِصِدْقِ دَعْوَاهُ بِكَمَالِ بَلَاغَتِهِ ، المُعْجِزِ لِدَهْمَاءِ المَصَاقِعِ عَنْ إِيرَادِ مُعَارَضَتِهِ ، إِعْجَازاً أَخْرَسَ شِقْشِقَةَ كُلِّ مِنْطِيقٍ ، وَأَظْلَمَ طُرُقَ المُعَارَضَةِ فَمَا وَضَحَ إِلَيْهَا وَجْهُ طَرِيقٍ ، حَتَّى أَعْرَضُوا عَنِ المُعَارَضَةِ بِالحُرُوفِ ، إِلَى المُقَارَعَةِ بِالسُّيُوفِ ، وَعَنِ المُقَاوَلَةِ بِاللِّسَانِ ، إِلَى المُقَاتَلَةِ بِالسِّنَانِ ، بَغْياً مِنْهُمْ وَحَسَداً ، وَعِنَاداً وَلَدَداً .**[1]

وهو كلام صائب في معرفة القرآن من هذا الرجل العالم بالأدب والعربيّة ، فقد مرّ على مجيء القرآن حتّى اليوم ألف وأربعمائة سنة ، وهذا الكتاب بأيدي البشر يصرخ تحدّياً أن يأتي أحد بمثله ؛ وكان أيسر لأعداء الإسلام وأقلّ مؤونة وجهداً لو جلسوا في البيوت الآمنة والجامعات التي تناطح السحاب ، وقبعوا في الكنائس والصوامع وغيرها من المعابد المخالفة للإسلام ، فدعوا اليهود من حفظة **التلمود** ، والنصارى المدافعين عن مذهب المسيحيّة ، فعملوا كتاباً يماثل القرآن أو حتّى سورة كسوره ، ولو استغرق ذلك منهم قرناً من الزمن ، أو قرنين ، أو ألفاً من السنين ؛ لكنّهم عدلوا عن هذا الطريق السهل اليسير وتنكّبوا عنه ، وتوسّلوا بالحرب والقتل والنهب والإغارة على المسلمين .

وليست الحروب الصليبيّة إلّا أُنموذج لذلك ، وكلّ هذا القتل الفجيع الذي يمارسه اليهود والمسيحيّون اليوم بحقّ المسلمين إلّا نماذج أُخر .

فلماذا تنكّبوا عن الطريق الأسهل ؟ أي المجيء بمثل للقرآن ؟ من هنا فقد كان القرآن معجزة ، وهو اليوم معجزة ، وهو غداً معجزة أيضاً .

١ـ «مفتاح العلوم» ص ٢٠ .

هذا القرآن معجزة لأنّه يُوصف بأنّه مليء بالمجازات التي انتظمت بين آياته من أوّله إلى آخره، إلى الحدّ الذي دفع **السيّد الرَّضيّ** رحمة الله عليه ـ جامع «نهج البلاغة» ـ لتأليف كتاب مستقلّ في **مَجَازَات القرآن** جمع فيه كلّ الآيات التي استُعملت في المجاز، وأوضح فيه النكات البديعة في استعمال هذه المجازات. وقد ألّف السيّد الرضيّ كذلك كتاباً مستقلّاً في مجازات الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم دعاه بـ «**المجازات النبويّة**».

فاستعمال الكلمة المجازيّة جائز في اللغة، لأنّه أبلغ في إيصال المعنى من استعمال الكلمة الحقيقيّة، ولذا فقد قيل: **الكِنَايَةُ أَبْلَغُ مِنَ التَّصْرِيحِ، وَالمَجَازُ أَبْلَغُ مِنَ الحَقِيقَةِ، وَالاسْتِعَارَةُ أَبْلَغُ مِنَ التَّشْبِيهِ.**[1]

ويتّضح ممّا قيل أنّ الاستعارة والمجاز ليسا كذباً، بل عين الحقيقة والصدق والصواب، فلا طريق فيهما للكذب والبطلان، ولا يمكن لأحد توهّم الكذب والبطلان فيهما. يقول **السكّاكيّ إمام المحقّقين في الأدب** في «مفتاح العلوم»:

وَالاسْتِعَارَةُ لِبِنَاءِ الدَّعْوَى فِيهَا عَلَى التَّأْوِيلِ تُفَارِقُ الدَّعْوَى البَاطِلَةَ، فَإنَّ صَاحِبَهَا يَتَبَرَّأُ عَنِ التَّأْوِيلِ. وَتُفَارِقُ الكِذْبَ بِنَصْبِ القَرِينَةِ المَانِعَةِ عَنْ

١ـ جاء في كتاب «نِقَايَةُ القُرَّاء» للسيوطيّ: **وَهِيَ وَالمَجَازُ وَالاسْتِعَارَةُ أَبْلَغُ مِنَ الحَقِيقَةِ وَالتَّصْرِيحُ وَالتَّشْبِيهُ**. ثمّ يقول في شرحه الذي كتبه عليها وسمّاه بـ«إتمام الدراية لقرّاء النقاية»:

وهذه العبارة لفّ ونشر مشوّش، أي الكناية أبلغ من التصريح، لأنّ الانتقال فيها من الملزوم إلى اللازم فهو كدعوى الشيء ببيّنة، والمجاز أبلغ من الحقيقة لذلك، والاستعارة أبلغ من التشبيه لأنّها مجاز وهو حقيقة. («كتاب إتمام الدراية لقرّاء النقاية» بهامش «مفتاح العلوم» للسكّاكيّ ص ١٦١، الطبعة الأُولى).

إجْرَاءِ الكَلَامِ عَلَى ظَاهِرِهِ ، فَإنَّ الكَذَّابَ لَا يَـنْصِبُ دَلِـيلاً عَـلَى خِـلَافِ زَعْمِهِ ؛ وَأَنَّى يَنْصِبُ وَهُوَ لِتَرْوِيجِ مَا يَقُولُ رَاكِبٌ كُلَّ صَعْبٍ وَذَلُولٍ ؟ [1]

وهو عائد للمعنى الكلّيّ للكَذب والمجاز بالتفصيل الذي ذكر ، ممّا ينفي أيّ مجال لشبهة .ويمكن بعبارة منطقيّة القول إنّ النسبة بين الحقيقة والمجاز ، وبين الصدق والكذب هي عموم وخصوص من وجه ، يعني :

١ ـ يمكن أن يكون الكلام حقيقة وصدقاً ،كأن تقول : جاء الأمير ، وتقصد بالأمير نفس الأمير لا وزيره أو وكيله ، ويكون الأمير قد جاء حقّاً .

٢ ـ ويمكن أن يكون الكلام حقيقة وكذباً ،كأن تقول : جاء الأمير ؛ ويكون مرادك بالأمير نفس الأمير لا وزيره ، لكنّ الأمير لم يكن قد جاء بعد .

٣ ـ ويمكن أن يكون الكلام مجازاً وصدقاً ،كقولك : جاء الأمير ؛ وقصدك بالأمير وزيره لا نفسه ، ويكون الوزير قد جاء فعلاً .

٤ ـ ويمكن أن يكون الكلام مجازاً وكذباً ،كقولك جاء الأمير ، وقصدك بالأمير وزيره لا نفسه ، لكنّ الوزير لم يكن قد جاء بعد .

وينبغي بالطبع نصب قرينة لفظيّة كلاميّة في الحالتَين الثالثة والرابعة ، أي في الاستعمال المجازيّ بصورتَيه الصادقة والكاذبة على إرادتك بلفظ الأمير وزيره ، أي على صرفك اللفظ عن معناه الظاهريّ .

لقد اتّضح معنى المجاز جيّداً ، وعلمنا أنّ القرآن الكريم مليء بالمجازات والاستعارات التي هي في الحقيقة مجازات أيضاً ؛ وأنّ آية : **إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ * وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ،** [2] وآية : **لَا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِن بَيْنِ يَـدَيْهِ**

١ـ «مفتاح العلوم» ص ١٩٨ ، الطبعة الأُولى ، المطبعة الأدبيّة ، مصر.

٢ـ الآيتان ١٣ و ١٤ ، من السورة ٨٦ : الطارق .

وَلَا مِن خَلْفِهِ [1] راسختان رسوخ الجبل لا تتزعزعان ؛ وأنّ مجيء المجاز والاستعارة في القرآن عين الصواب لا الباطل ، وعين الجدّ والإحكام لا الهزل ؛ فلا حقّ للمتعلّم في علم الكلام أن يتمرّد كما يشاء ويظهر النظر بلا تفكير أو ملاحظة للغة والمحاورة ، وبلا حفظ لظهورات القرآن ، وبلا أساس ودليل يستند عليه ، فيُعلن ـ كما يحلو له ـ قبوله لهذا القسم ورفضه لذاك ، فالقرآن ثابت وراسخ ومحكم ، تترافق معانية الحقيقيّة واستعاراته وتتشاكل وتتعاضد ، وكلّها حقّ وصدق .

وعلى المرء أن يتعرّف على «معالم الأُصول» و«المطوّل» للتفتازانيّ كحدّ أدنى ليفهم معنى المجاز ولا يضعه في قالب الكذب وينسب الكذب إلى الله سبحانه .

وأمّا آية :

فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا. [2]

فلا مجاز هناك أبداً ، بل جعلُ الولدان شيباً كناية عن شدّة ذلك اليوم . نعم ، نسبة الاتّقاء إلى «يوم» مجاز عقليّ ، والمراد هو اتّقاء العذاب الواقع في ذلك اليوم ، لا نفس اليوم .

وأمّا آية :**فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَقَضَّ فَأَقَامَهُ.** [3]

فنسبة الإرادة إلى الجدار مجاز ، وقد ذكره الزمخشريّ أيضاً في «أساس البلاغة» . [4]

وكما بيّنّا مفصّلاً فإنّ معنى المجاز خلاف المعنى الحقيقيّ ، فإرادة

١ـ الآية ٤٢ ، من السورة ٤١ : فصّلت .

٢ـ الآية ١٧ ، من السورة ٧٣ : المزّمّل .

٣ـ الآية ٧٧ ، من السورة ١٨ : الكهف .

٤ـ «أساس البلاغة» ص ١٨٤ ، مادّة رَوَدَ ، العمود الأوّل.

الجدار هنا إرادة لا كإرادة الإنسان ، بل جاءت بمعنى إشرافه على السقوط ، وهذه الكلمة يُعَبَّر بها في كثير من الموارد التي يكون فيها الفعل على وشك التحقّق والوقوع .

يقول **السكّاكيّ** : ومن أمثلة المجاز قوله تعالى : **فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ** ؛[1] استُعملت **قَرَأْتَ** مكان **أَرَدْتَ القِرَاءَة** ، لكون القراءة مسبّبة عن إرادتها استعمالاً مجازيّاً بقرينة **الفاء** في **فَٱسْتَعِذْ** ، والسنّة المستفيضة بتقديم الاستعاذة . ولا تلتفت إلى من يؤخّر الاستعاذة فذلك لـ (**ضِيق العَطَن**) .

وقوله : **وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ** ،[2] في موضع **أَرَادَ نِدَاءَ رَبِّهِ** ، بقرينة : **فَقَالَ رَبِّ** .

وقوله تعالى : **وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا** ،[3] في موضع **أَرَدْنَا هَلَاكَهَا** ، بقرينة قوله بعدها : **فَجَآءَهَا بَأْسُنَا** ، والبأس الإهلاك .

وكذلك من أمثلة المجاز ، قوله : **وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا** ،[4] في موضع **أَرَدْنَا هَلَاكَهَا** ، بقرينة **أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ** ، أي عن معاصيهم للخذلان .

ومنه : **مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ** ،[5] أي أردنا إهلاكها ، إذ معنى الآية : كلّ قرية أردنا إهلاكها لم يؤمن أحد منهم ، أفهؤلاء يؤمنون ؟

وما أدلّ نظم الكلام على الوعيد بالإهلاك . أما ترى الإنكار في جملة

١ـ صدر الآية ٩٨ ، من السورة ١٦ : النحل .
٢ـ صدر الآية ٤٥ ، من السورة ١١ : هود .
٣ـ الآية ٤ ، من السورة ٧ : الأعراف .
٤ـ الآية ٩٥ ، من السورة ٢١ : الأنبياء .
٥ـ الآية ٦ ، من السورة ٢١ : الأنبياء .

أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ؟ لا يقع في المحز إلّا بتقدير **وَنَحْنُ عَلَى أَنْ نُهْلِكَهُمْ** ؛ وإنّما حملت الامتناع من أخذ **قَرَأْتَ** في الآية المباركة **فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ** على المعنى الحقيقيّ على ضيق العطن ، لأنّه متى جرى فيما هو أبعد جرياً مستفيضاً يكاد يريك من إذا تكلّم بخلافه كمن صلّى لغير قبلة . أليس كلّ أحد يقول للحفّار : **ضَيِّقْ فَمَ الرَّكِيَّةِ** ، وعليه فقس .

والتضييق كما يشهد لك عقلك الراجح هو التغيير من السعة إلى الضيق ، ولا سعة هناك ، إنّما الذي هناك هو مجرّد تجويز أن يريد الحفّار التوسعة فينزل مجوّز مراده منزلة الواقع ، ثمّ يأمره بتغييره إلى الضيق ، أما يجب أن يكون في الأقرب أجرى وأجرى ، وأمثال ذلك ممّا تعدّى الكلمة بمعونة القرينة عن معناها الأصليّ إلى غيره لتعلّق بينهما .[1]

لقد توسّعنا في الإجابة عن هذا الإشكال مع إمكان الردّ المختصر عليه ، من أجل أن يتّضح الأساس الفكريّ والقيمة العلميّة لأدعياء الفلسفة في جامعاتنا من المتربّين في أُوروبّا ، الذين يسعون بهذا المستوى من المعلومات السير في «بسط وقبض نظريّة الشريعة» ويجتهدون في أحكامها ، ويستبدلون المعاني القويمة للقرآن الكريم بالمفاهيم السطحيّة والمبتذلة .

١ـ «مفتاح العلوم» ص ١٩٥ ، باب المجاز اللغويّ في مبحث علم البيان . الطبعة الأُولى.

الإشكال السادس

تخطّي ظواهر القرآن إسقاطٌ لحجّيّته

الإشكال السادس : تأييده لأُسلوب المرحوم الطالقانيّ في تفسير الآية الكريمة :

﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.[1]

لأنّه اعتبر آكلي الربا في هذه الآية المباركة كالمجانين والمصروعين يقومون ويسقطون متخبّطين ، فعبّر عن **يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ** بالجنون .

وكان المرحوم الطالقانيّ قد اعتبر مسّ الشيطان تمثيلاً عن الصرع وباقي الاختلالات العصبيّة والنفسيّة .

وقد نقل صاحب مقالة «بسط وقبض ...» عبارته ، ثمّ نقل ردّ العلّامة الطباطبائيّ عليها ؛ لكنّه مع ادّعائه أنّ كلامه في المقام يستند إلى وجهة نظر المعرفة ، وأنّه لا يتطرّق إلى تعيين حقّانيّة أو بطلان رأي هذا المفسّر أو ذاك ، ولا بيان أنّ المعرفة الدينيّة تطابق رأي هذا المفسّر أو ذاك ،[2] لكنّه في

١ـ الآية ٢٧٥ ، من السورة ٢ : البقرة .

٢ـ «بسط وقبض تئوريک شريعت» (= بسط وقبض نظريّة الشريعة) «كيهان فرهنگى» (=العالم الثقافيّة) العدد٥٢ ، تيرماه (الشهر الرابع الايراني) ١٣٦٧ هش، الرقم ٤، ص ١٥،

بيانه وتمجيده لعبارة المرحوم الطالقانيّ وانتقاده للعلّامة الطباطبائيّ قد أظهر تأييده لذلك الأُسلوب في التفسير .

وسنورد ـ في معرض الردّ ـ عين عباراته لبيان موارد الإشكال والاشتباه في ذلك الأُسلوب ، ثمّ نشرع بنقدها والردّ عليها ، فقد قال :

د : جاء في الآية ٢٧٦ من سورة البقرة : **ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْـمَسِّ** ؛ حيث اعتبر المرحوم الطالقانيّ في تفسيره «پرتوى از قرآن» (=إشعاع من القرآن) أنّ **ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْـمَسِّ** [1] هو تمثيل لمرض الصرع والاختلالات العصبيّة والنفسيّة الأُخرى ، إذ إنّ العرب كانوا ينسبون هذه الأمراض إلى مسّ الجنّ ، ويقال بالفارسيّة لذلك «ديوانه» أي المصاب بالجنّ .

وقد قال بعض المفسّرين الجدد إنّ مسّ الشيطان ربّما كان إشارة إلى الجرثومة (الميكروب) التي تنفذ إلى المراكز العصبيّة ، وربّما كان إشارة إلى منشأ الوسوسة وإثارة الأوهام والتخيّلات ذلك.[2]

ونسأل : لماذا أورد المرحوم الطالقانيّ احتمالات كهذه في تفسير هذه الآية ؟ أو ليس للجنون إثر مسّ الشيطان معنىً صريحاً وصحيحاً ؟ فما الذي أجبره على القول إنّ القرآن قد تكلّم هنا بلسان الأعراب، وتماشى متساهلاً مع أوهامهم وعقائدهم وخرافاتهم ؟ ولِمَ استعان بالعلم الحديث فأشار إلى تأثير الجراثيم (الميكروبات)؟

لا شكّ ولا ريب أنّ هناك علّة واحدة لكلّ هذه الأُمور ، وهي انسجام وتزامن فهمه وثقافته الدينيّة مع الفهم والثقافة العصريّة؛ فكيف

العمود الثالث.

١ـ الذي في الآية ٢٧٥ ، من السورة ٢ : البقرة ، هو : **كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ** ، وليس عندنا في القرآن آية بهذا التعبير : **كَٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ** .

٢ـ «پرتوى از قرآن» (=إشعاع من القرآن) ج ٢ ، ص ٢٥٤ .

يمكن لمن يعتقد أنّ الصرع أو الجنون مسبّب عن دلائل مادّيّة (طفيليّة أو دوائيّة أو مخّيّة أو إرثيّة ...) أن يتجاهل عقيدته هذه ويعارضها ؟

فأمّا أن يفسّر الشيطان بمعنى الجرثومة (الميكروب) ، أو أن يقول إنّ هذه الأقوال كانت زمن نزول الوحي لمماشاة ثقافة الأعراب من عبدة الخرافات والشعوذة.

لكنّ قولاً كهذا ـ كما أوضحنا ـ يكشف عن استراتيجيّة معيّنة ولا ينحصر في الأُطر والحدود الضيّقة ؛ فإنّ عليه لهذا أن يُعيد النظر أيضاً في معنى الصدق ، الكذب ، الجدّ ، الهزل ، الحسن والقبح . فيعتبر وجود هذه المعاني في القرآن رغم منافاتها للواقع جدّيّاً وصادقاً وحسناً.

وعليه أيضاً أن يوسّع مفهوم «نزول القرآن بلسان قوم» ويستبدله بمفهوم «نزوله وفق ثقافة قوم» ، أي توسعة معنى «عربيّة» القرآن ؛ وأن يجيز أيضاً استخدام هذا الأُسلوب في القصص التأريخيّة والمطالب العلميّة القرآنيّة الأُخرى ، فيرفع كلّ تعارض ظاهريّ يجده مع المكتشفات البشريّة المتقنة بهذا الأُسلوب.

وعليه أن لا يعدّ هذا الأمر نقصاً في الدين ، بل أن يعتبر الاستعانة بالكذب والخرافات جائزاً كلّما وجب ذلك لأداء القصد وبيان الغرض، **وفي الحقيقة فإنّ المرحوم الطالقانيّ قد نحى هذا المنحى في تفسيره لبعض القصص القرآنيّة** ؛ أي أنّ أمثال هذا التفسير الذي أورده لهذه الآية لا تصدر إلّا عن افتراضات كهذه ، فإن لم نُضف لها تلك المبادئ فإنّها لن تفيد تلكم المعاني ، وبالطبع فإنّها كانت آراءً تفسيريّة مخلصة لا قصد فيها لتحريف كتاب الله العزيز.

كما ينبغي ملاحظة خلو عمله من التأويل ، بل انصبّ على إعطاء قاعدة لحلّ المشكلات التفسيريّة عند التعارض مع الواقع، وتلك القاعدة والأصل هي : أنّ القرآن كما ورد بلسان العرب فقد جاء في قالب ثقافة العرب وعقائدهم (الصحيحة أو الخرافيّة) ، لذا

فلا ينبغي علينا البحث عن المعنى الصحيح والدقيق لأجزائه ، بل يجب الأخذ بالقصد والغرض منه بشكل مجمل ، بغضّ النظر عن انطباق الآيات بحذافيرها مع الحقيقة والواقع.

حتّى يصل إلى القول :

إنّ أُسلوب ونهج المرحوم الطالقانيّ مقبول ومتّبع عند بعض المفسّرين من أهل السنّة.[1]

وينقسم إشكالنا على كلامه إلى عدّة جهات :

الجهة الأُولى : إذا ما قال لنا طبيب ما : إنّ تمام أنواع الجنون مسبّبة عن العلل المادّيّة ، بالشكل الذي لا تأثير معه للجنّ في أيّ من جهات تلك النفوس ؛ أفيجب علينا أن نأخذ كلامه فنقبله على علّاته بلا تحقيق وبلا بحث ، مهما استلزم مخالفة ظاهر آية من كلام الله المجيد ؟ أم أنّ ذلك لا ينبغي علينا لضعف هذا المنطق وعدم سلامته !

أوّلاً : لم يدّعِ أيّ طبيب حتّى الآن أنّ جميع أنواع الجنون لها علل وأسباب طبيعيّة وجرثوميّة (ميكروبيّة) ؛ وما ادّعي في هذا المجال انحصر في بعض أنواع الجنون لا جميعها .

وثانياً : هل تعتبر الاكتشافات الطبّيّة العلل الطبيعيّة للجنون منافية لتأثير ومسّ نفوس الشياطين ؟ أو أنّ منتهى إدراك الطبّ في البحث عن هذا السبب يقف عند هذا الحدّ ؟ وأنّى له القدرة على نفي أسباب لا يحيط بها علمه ومعرفته ، والادّعاء أنّ غير هذه العلل من الأسباب والعوامل والشروط الأُخرى ليست مؤثّرة أبداً في ظهور الجنون ؟

إنّ الآية المباركة مورد البحث **كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ**

١ـ «بسط وقبض تئوريک شريعت» (= بسط وقبض نظريّة الشريعة) مجلّة «كيهان فرهنگى» العدد ٥٢ ، تيرماه ١٣٦٧ ، رقم ٤ ، ص ١٥ ، العمود الثاني .

ٱلْمَسِّ **تُوَضِّح** إجمالاً أنّ بعض أنواع الجنون تنشأ بـمسّ الشـيطان ، أي أنّ للنفوس الشرّيرة من طائفة الجنّ تأثيراً في النفوس الضعيفة المستعدّة مـن طائفة الإنسان ، فتسوقها للانحراف عن سـلوك طـريق الاعـتدال إلى القـيام بالحركات المضطربة غير المنسجمة في الأقوال والأفـعال ؛ هـذا هـو مـفاد ظاهر الآية الشريفة .

ولقد رفض **الشيخ محمّد عَبْدُه** في تفسير «**المَنار**» ظاهر الآيـة هـذا لمجرّد أنّ هذا الأمر مستحيل ، فالعلوم الحـديثة تـرفض تأثـير الجـنّ فـي الجنون ؛ وقد سار المفسّرون الآخرون على هـذا النـهج فـتابعوه فـي رأيـه وقوله .

فهو يقول : ثمّ إنّ التشبيه مبنيّ عـلى أنّ المـصروع الذي يُـعَبَّر عـنه بالممسوس يتخبّطه الشيطان ، أي أنّه يصرع بمسّ الشيطان له ، وهو ماكان معروفاً عند العرب وجارياً في كلامهم مجرى المثل . قـال **البـيضاويّ** فـي التشبيه :

وهو وارد على ما يـزعمون أنّ الشـيطان يـخبط الإنسـان فـيصرع ، **والخَبْط** ضرب على غير اتّساق **كَخَبْطِ العَشْواء** .

وتبعه **أبو السُّعود** ـ كعادته ـ فذكر عبارته بنصّها في تفسيره .

فالآية ـ على هذا ـ لا تثبت أنّ الصـرع المعـروف يـحصل بـفعل الشيطان حقيقةً ولا تنفي ذلك . وفي المسألة خلاف بين العلماء :

أنكر المعـتزلة وبعـض أهل السـنّة أن يكون للشـيطان في الإنسـان غير ما يعبّر عنه **بالوسوسة** . و قال بعضهم إنّ سبب الصـرع مسّ الشـيطان كما هو ظاهر التشبيه ، وإن لم يكن نصّاً فيه .

وقد ثبت عند أطبّاء هذا العصر أنّ الصرع من الأمراض العصبيّة التي

تعالج كأمثالها **بالعقاقير** [1] وغيرها من طرق العلاج الحديثة. وقد يعالج بعضها **بالأوهام**، [2] وهذا ليس برهاناً قطعيّاً على أنّ هذه المخلوقات الخفيّة التي يعبّر عنها بالجنّ يستحيل أن يكون لها نوع اتّصال بالناس المستعدّين للصرع، فتكون من أسبابه في بعض الأحوال.

والمتكلّمون يقولون: إنّ الجنّ أجسام حيّة خفيّة لا تُرَى، وقد قلنا في تفسير «المنار» غير مرّة إنّه يصحّ أن يُقال إنّ الأجسام الحيّة الخفيّة التي عرفت في هذا العصر بواسطة النظّارات المكبّرة ـ وتسمّى بالميكروبات ـ يصحّ أن تكون نوعاً من الجنّ، وقد ثبت أنّها علل لأكثر الأمراض. قلنا ذلك في تأويل ما ورد من أنّ الطاعون من **وَخْزِ** [3] الجنِّ.

على أنّنا نحن المسلمين لسنا في حاجة إلى النزاع فيما أثبته العلم وقرّره الأطبّاء، أو إضافة شيء إليه ممّا لا دليل في العلم عليه لأجل تصحيح بعض الروايات الآحاديّة، فنحمد الله تعالى أنّ القرآن أرفع من أن يعارضه العلم. [4]

وقد قال العلّامة آية الله الطباطبائيّ قدّس الله سرّه في تفسير هذه الآية: إنّ التشبيه في قوله **يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ** لا يخلو من إشعار

١ـ في «أقرب الموارد» مادّة **عَقَرَ** : **العَقَّارَ** فعّال للمبالغة : الدواء والشيء الذي يداوى به من الأعشاب وجذورها. وقال في «الصحاح»: العقاقير أُصول الأدوية، واحدها عقار.

٢ـ في «أقرب الموارد» مادّة **وَهَمَ** : **الوَهْمُ** مفرد الأوهام، يقال تارة للقوّة الوهميّة من الحواسّ الباطنة التي من شأنها إدراك المعاني الجزئيّة المتعلّقة بالمحسوسات، كشجاعة زيد وسخائه. وهي تلك القوّة التي تدفع الشاة للفرار من الذئب، وللحنو على ولدها.

٣ـ أورد في «أقرب الموارد» في كلمة **وَخَز** : **وَخَزَهُ يَخِزُهُ وَخْزاً: طَعَنَهُ طَعْنَةً غَيْرَ نَافِذَةٍ بِرُمْحٍ أَوْ إبْرَةٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ.**

٤ـ تفسير «المنار» ج ٣، ص ٩٥ و٩٦.

بجواز تحقّق ذلك في مورد الجنون في الجملة ، فإنّ الآية وإن لم تدلّ على أنّ كلّ جنون هو من مسّ الشيطان ، لكنّها لا تخلو عن إشعار بأنّ من الجنون ما هو بمسّ الشيطان ، وكذلك الآية وإن لم تدلّ على أنّ هذا المسّ من فعل إبليس نفسه ، فإنّ الشيطان بمعنى الشرّير يُطلق على إبليس وعلى شرار الجنّ وشرار الإنس ، وإبليس من الجنّ ،[1] فالمتيقّن من إشعار الآية أنّ للجنّ شأناً في بعض الممسوسين إن لم يكن في كلّهم .

وما ذكره بعض المفسّرين أنّ هذا التشبيه من قبيل المجاراة مع عامّة الناس في بعض اعتقاداتهم الفاسدة ، حيث كان اعتقادهم بتصرّف الجنّ في المجانين ، ولا ضير في ذلك لأنّه مجرّد تشبيه خالٍ عن الحكم حتّى يكون خطأً غير مطابق للواقع ، فحقيقة معنى الآية : أنّ هولاء الآكلين للربا حالهم حال المجنون الذي يتخبّطه الشيطان من المسّ ؛ وأمّا كون الجنون مستنداً إلى مسّ الشيطان فأمر غير ممكن ، لأنّ الله سبحانه أعدل من أن يسلّط الشيطان على عقل عبده أو على عبده المؤمن . وهذا القول بتمامه محلّ للإشكال :

فأوّلاً : أنّه تعالى أجلّ من أن يستند في كلامه إلى الباطل ولغو القول بأيّ نحوٍ كان من الاستناد إلّا مع بيان بطلانه وردّه على قائله ، وقد قال تعالى في وصف كلامه :

١ـ ورد في القرآن الكريم كلمة آدم كاسم خاصّ وعَلَم لآدم أبي البشر، وكلمة إنسان وبشر كاسم عامّ واسم جنس لنوع بني ادم ، وكذلك أيضاً فقد وردت كلمة إبليس كاسم خاصّ وعَلَم لرئيس الشياطين والجنّ ، وكلمة الشيطان والجنّ كاسم عامّ لذلك النوع . وجاء في الآية ٥٠ ، من السورة ١٨ : الكهف : **وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓا إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمرِ رَبِّهِۦ**. وجاء في الآيتين ٩٤ و٩٥ من السورة ٢٦ : الشعراء: **فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ * وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ**.

وَإِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ * لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ .[1]
وقال تعالى : **إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ * وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ** .[2]

وثانياً : قولهم إنّ استناد الجنون إلى تصرّف الشيطان بإذهاب العقل ينافي عدله تعالى ، ففيه أنّ الإشكال بعينه مقلوب عليهم في إسنادهم ذهاب العقل إلى الأسباب الطبيعيّة ، فإنّها أيضاً مستندة بالآخرة إلى الله تعالى مع إذهابها العقل .

وثالثاً : على أنّه في الحقيقة ليس في ذهاب العقل بإذهاب الله إيّاه إشكال ، لأنّ التكليف يرتفع حينئذٍ بارتفاع الموضوع ، وإنّما الإشكال في أن ينحرف الإدراك العقليّ عن مجرى الحقّ وسنن الاستقامة مع بقاء موضوع العقل على حاله ،كأن يشاهد الإنسان العاقل الحسن قبيحاً وبالعكس ، أو يرى الحقّ باطلاً وبالعكس جزافاً بتصرّفٍ من الشيطان .

فهذا هو الذي لا يجوز نسبته إلى الله تعالى ، وأمّا ذهاب القوّة المميّزة وفساد حكمها تبعاً لذهاب نفسها فلا محذور فيه سواء أُسند إلى الطبيعة أم إلى الشيطان .

ورابعاً : على أنّ استناد الجنون إلى الشيطان ليس على نحو الاستقامة ومن غير واسطة ، بل الأسباب الطبيعيّة كاختلال الأعصاب والآفة الدماغيّة أسباب قريبة وراءها الشيطان ،كما أنّ نوع الكرامات تستند إلى الملك مع تخلّل الأسباب الطبيعيّة في البين .

وقد ورد نظير ذلك فيما حكاه الله عن أيّوب عليه السلام ، إذ قال :

١ـ الآيتان ٤١ و٤٢ ، من السورة ٤١ : فصّلت .

٢ـ الآيتان ١٣ و ١٤ ، من السورة ٨٦ : الطارق .

أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ.[1]

وإذ قال: **أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ**.[2]

و**الضُّرُّ** هو المرض وله أسباب طبيعيّة ظاهرة في البدن، فنسب ما به من المرض المستند إلى أسبابه الطبيعيّة إلى الشيطان.

وهذا وما يشبهه من الآراء المادّيّة التي دبّت في أذهان عدّة من أهل البحث من حيث لم يشعروا بها، حيث إنّ أصحاب المادّة لمّا سمعوا الإلهيّين يسندون الحوادث إلى الله سبحانه، أو يسندون بعضها إلى الروح أو المَلَك أو الشيطان، اشتبه عليهم الأمر فحسبوا أنّ ذلك إبطال للعلل الطبيعيّة وإقامة لما وراء الطبيعة مقامها، ولم يفقهوا أنّ المراد به تعليل في طول تعليل لا في عرض تعليل، وقد مرّت الإشارة إلى ذلك في المباحث السابقة مراراً.[3]

كان هذا حاصل المطالب الواردة في «تفسير الميزان» والتي مثّلت حقّاً جواباً كافياً وشافياً لذلك الاحتمال غير الوجيه.

كما أنّ من بين المفسّرين الذين كان لهم قبله بحث مفيد عن تخبّط المجنون من مسّ الشيطان، **السيّد محمود الآلوسيّ البغداديّ** في تفسير «**روح المعاني**»، حيث قارب قوله قول العلّامة إلى حدّ كبير، فهو يقول:

المسّ أي **الجنون**، يقال: **مَسَّ الرَّجُلَ فَهُوَ مَمْسُوسٌ** إذا جُنّ، وأصله اللمس باليد، وسمّي به لأنّ الشيطان قد يمسّ الرجل وأخلاطه مستعدّة للفساد فتفسد ويحدث الجنون. وهذا لا ينافي ما ذكره الأطبّاء من أنّ ذلك

١ـ الآية ٤١، من السورة ٣٨: ص.

٢ـ الآية ٨٣، من السورة ٢١: الأنبياء.

٣ـ «الميزان في تفسير القرآن» ج ٢، ص ٤٣٦ و٤٣٧.

من غلبة مرّة السوداء،[1] لأنّ ما ذكروه سبب قريب وما تشير إليه الآية سبب بعيد، وعلّيّة مسّ الشيطان للجنون ليست **مُطَّرِدة** ولا **منعكسة**، فقد يحصل مسّ ولا يحصل جنون، كما إذا كان المزاج قويّاً، وقد يحصل جنون ولم يحصل مسّ، كما إذا فسد المزاج من دون عروض أجنبيّ، والجنون الحاصل بالمسّ قد يقع أحياناً، وله عند أهله الحاذقين أمارات يعرفونه بها، وقد يدخل في بعض الأجساد على بعض الكيفيّات ريح متعفّن تعلّقت به روح خبيثة تناسبه فيحدث الجنون أيضاً على أتمّ وجه، وربّما استولى ذلك البخار على الحواسّ وعطّلها، واستقلّت تلك الروح الخبيثة بالتصرّف فتتكلّم وتبطش وتسعى بآلات ذلك الشخص الذي قامت به من غير شعور للشخص بشيء من ذلك أصلاً.

وهذا كالمشاهد المحسوس الذي يكاد يعدّ منكره مكابراً منكراً للمشاهدات.

وقال **المُعْتَزِلَةُ** و**القَفَّالُ** من **الشافعيّة**: إنّ كون الصرع والجنون من الشيطان باطل، لأنّه لا يقدر على ذلك، كما قال تعالى حكاية عنه: **وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ**،[2] فالآية واردة هنا على ما يزعمه العرب ويعتقدونه من أنّ الشيطان يخبط الإنسان فيصرع، وأنّ الجنّيّ يمسّه فيختلط عقله وليس لذلك حقيقة؛ وليس بشيء، بل هو من تخبّط الشيطان بقائله ومن زعمه المردود بقاطعيّة أدلّة الشرع، فقد ورد: **مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إلَّا يَمَسُّهُ**

١ـ كانوا يقولون في الطبّ القديم إنّ أخلاط الجسم أربعة: الصفراء، السوداء، البلغم والدم، وعندما تتعادل نسبتها تكون صحّة الجسم جيّدة وسليمة، وعندما تختل هذه النسبة وتقوى أحدها على الأُخرى تظهر عوارض المرض على بدن الإنسان.

٢ـ الآية ٢٢، من السورة ١٤: إبراهيم.

الشَّيْطَانُ فَيَسْتَهِلُّ صَارِخاً.

وفي بعض طرق الروايات: **إلَّا طَعَنَ الشَّيْطَانُ فِي خَاصِرَتِهِ، وَمِنْ ذَلِكَ يَسْتَهِلُّ صَارِخاً. إلَّا مَرْيَمَ وَابْنَهَا لِقَوْلِ أُمِّهَا: «وَإِنِّيَ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ».**[1]

وقوله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم: **كُفُّوا صِبْيَانَكُمْ أَوَّلَ العِشَاءِ، فَإِنَّهُ وَقْتُ انْتِشَارِ الشَّيَاطِينِ.**

وقد ورد في حديث المفقود الذي اختطفته الشياطين وردّته في زمان رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه حدث من شأنه معهم قال: **فَجَاءَنِي طَائِرٌ كَأَنَّهُ جَمَلٌ قَبَعْثَرَى فَاحْتَمَلَنِي عَلَى خَافِيَةٍ مِنْ خَوافِيهِ.**[2]

إلى غير ذلك من الآثار، وفي كتاب «**لَقط المرجان في أحكام الجانّ**» كثير منها.

واعتقاد السلف وأهل السنّة أنّ ما دلّت عليه (الآية) أُمور حقيقيّة واقعة كما أخبر الشرع عنها، والتزام تأويلها كلّها يستلزم خبطاً طويلاً لا يميل إليه إلّا المعتزلة ومن حذا حذوهم، وبذلك ونحوه خرجوا عن قواعد الشرع القويم، **فَٱحْذَرْهُمْ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ.**[3]

وأمّا الآية التي ذكروها في معرض الاستدلال على مدّعاهم فلا تدلّ عليه، إذ السلطان المنفيّ فيها إنّما هو القهر والإلجاء إلى متابعته، لا التعرّض للإيذاء والتصدّي لما يحصل بسببه الهلاك؛ ومن تتبّع الأخبار

١ـ الآية ٣٦، من السورة ٣: آل عمران.

٢ـ في «أقرب الموارد»: **الخوافي**: ريشات إذا ضمّ الطائر جناحيه خفيت، ومفردها **خافية**، بإزاء **القوادم**، وهي ريشات مقدّم الجناح ومفردها **قادحة**.

٣ـ الآية ٤، من السورة ٦٣: المنافقون.

النبويّة وجد الكثير منها قاطعاً بجواز وقوع ذلك من الشيطان ، بل وقوعه بالفعل .

وخبر : **الطَّاعُونُ مِنْ وَخْزِ أَعْدَائِكُمُ الجِنِّ** صريح في ذلك ، وقد حمله بعض مشايخنا المتأخّرين على نحو ما حملنا عليه مسألة التخبّط والمسّ ، حيث قال : إنّ الهواء إذا تعفّن تعفّناً خاصّاً مستعداً للخلط والتكوين ، تنفرز منه وتنحاز أجزاء سمّيّة باقية على هوائيّتها أو منقلبة بأجزاء ناريّة محرقّة ، فيتعلّق بها روح خبيثة تناسبها في الشرارة وذلك نوع من الجنّ ، فإنّها ـ على ما عرف في الكلام ـ أجسام حيّة لا ترى ، إمّا الغالب عليها الهوائيّة أو الناريّة ، ولها أنواع عقلاء وغير عقلاء ، تتوالد وتتكوّن ، فإذا نزل واحد منها طبعاً أو إرادة على شخص أو نفذ في منافذه ، أو ضرب وطعن نفسه به يحصل فيه بحسب ما في ذلك الشرّ من القوّة السمّيّة وما في الشخص من الاستعداد للتأثّر منه ـ كما هو مقتضى الأسباب العاديّة في المسبّبات ـ ألم شديد مهلك غالباً مظهر للدماميل والبثرات في الأكثر لسبب إفساده للمزاج المستعدّ ، وبهذا يحصل الجمع بين الأقوال في هذا الباب ، وهو تحقيق حسن لم نجده لغيره ؛ كما لم نجد ما حقّقناه في شأن المسّ لأحد سوانا .[1]

وعلى كلّ حال ، فطبقاً لمنطق القرآن الكريم والبحوث العقليّة في دورة معارف الإسلام والحكمة المتعاليّة ، فإنّ كلّ المعلومات في عالم الطبع والمادّة مستندة إلى علّة في العالم الذي وراءها ، وصولاً إلى علّة العلل ومسبّب الأسباب .

فالعلل الأعلى لا تبطل عمل المعلولات الأوطأ ، بل هي حاكمة عليها ،

١ـ تفسير «روح المعاني» ج ١ ، ص ٤٩٦ و ٤٩٧ ، طبعة بولاق ، المطبعة الكبرى الميريّة سنة ١٣٠١ هجريّة.

وتلك العلل نفسها هي الموجدة والمُظهرة للعلل الطبيعيّة ، والآية الكريمة : **فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا**[1] شاهد صادق لهذا الادّعاء .

ولقد برهنّا هذا الأمر بحول الله وقوّته في دورة العلوم والمعارف الإسلاميّة ، قسم «معرفة المعاد» ، الجزء الثالث ، المجلس السابع عشر ؛ وأوضحنا أنّ التعبير عن الجنّ بالجرثومة (الميكروب) ناشئ عن عدم التفقّه والتعمّق في المسائل العلميّة .

الجهة الثانية من جهات الإشكال : أنّ مسألة وجود الجنّ مسألة ثابتة لا تردّد فيها طبقاً للآيات القرآنيّة والشواهد الخارجيّة ، فقد قسّم القرآن الكريم المكلّفين إلى مجموعتين وفئتين : الإنس والجنّ ، وكان خطابه موجّهاً لكليهما معاً ،كالآية : **يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ.**[2]

ومثل آية : **سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ.**[3]

وآية : **وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُولَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ.**[4]

فالقرآن الكريم يعتبر الإنسان والجنّ موجودَين مادّيّين يمتلكان الشعور والإدراك ، وقابلَين للأمر والنهي ، واعتبرهما في جنب بعضهما

١ـ الآية ٥ ، من السورة ٧٩ : النازعات .
٢ـ الآيتان ٣٣ و٣٤ ، من السورة ٥٥ : الرحمن .
٣ـ الآيتان ٣١ و٣٢ ، من السورة ٥٥ : الرحمن .
٤ـ الآية ١٧٩ ، من السورة ٧ : الأعراف .

قابلَين للخطاب والمفاهمة ، خلق الربّ المتعال أوّلهما من الطين وثانيهما من النار :

خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ * وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ.[1]

وتبعاً لذلك فأصل خلق الجنّ من النار والغازات غير المرئيّة ، وله نزوع إلى الأعلى ، في حين أنّ أصل خلق الإنسان من الطين المرئيّ ، ونزوعه إلى الأسفل . ولهاتين المجموعتين نبيّ إنسيّ مشترك هو خاتم الأنبياء **مُحَمَّدُ بْن عَبْدِ اللهِ** صلّى الله عليه وآله وسلّم ، فهو نبيّ للجنّ ، كما هو نبيّ للإنس :

وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ * قَالُوا يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ * يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُولَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ.[2]

وهناك سورة في القرآن الكريم باسم سورة **الجنّ** جرى فيهاالحديث بشكل مفصّل عن إيمان الجنّ برسول الله وانقسامهم إلى مجموعتين : صالحة وطالحة ، مسلمة ومتعدّية قاسطة ، ثمّ بيان الثواب والعقاب الأُخروي الذي ينتظرهم . وتحوي هذه السورة على دقائق بديعة وشرح

١ـ الآيات ١٤ إلى ١٦ ، من السورة ٥٥ : الرحمن . **وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ.**

٢ـ الآيات ٢٩ إلى ٣٢ ، من السورة ٤٦ : الأحقاف .

حال الجنّ ، إذ يأمر الله سبحانه نبيّه أن :

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوَا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا * يَهْدِىَ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَامَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا * وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا * وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا * وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا * وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا * وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا * وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَـٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَـٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْأَنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا * وَأَنَّا لَا نَدْرِىَ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا * وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا * وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا * وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا * وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا * وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا * وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا * لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا * وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا * وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا.[1]

أمّا بشأن إمكان معاشرة واختلاط أفراد طائفتي الجنّ والإنس ببعضهم ظاهراً أو باطناً ، وإعانة بعضهم بعضاً في الإيمان والكفر ، وبإجمال : أن يكون لهم تأثير على بعضهم البعض مع حفظ إرادة واختيار كلّ من هذين الطائفتين ، فقد وردت بذلك آيات من القرآن الكريم في أنّ

١ـ الآيات ١ إلى ١٩ ، من السورة ٧٢ : الجنّ .

الله سبحانه يجمع يوم الجزاء طائفتي الإنس والجنّ فيتمّ الحجّة عليهما أنّهما قد تنكّبتا عن جادّة الصواب وتبعا بعضهما بلا إجبار وإلزام ، بالرغم من إرساله الرسل والأنبياء إليهما لإنذارهما ، فآل عاقبة أمرهما إلى الخسران والعذاب ؛ فيقول :

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعضَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَـٰفِرِينَ * ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَـٰفِلُونَ * وَلِكُلٍّ دَرَجَـٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ .[1]

فالله سبحانه يكلّف جميع أفراد الإنسان والجانّ ويثيبهم حسب ذلك التكليف ، أو يسوقهم إثر تجرّيهم ومعصيتهم وإتمامه الحجّة عليهم إلى جهنّم ؛ فهو يعدهم العذاب الأليم والخسران في عاقبة الأمر :

أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَـٰسِرِينَ .[2]

وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ

١ـ الآيات ١٢٨ إلى ١٣٢ ، من السورة ٦ : الأنعام .

٢ـ الآية ١٨ ، من السورة ٤٦ : الأحقاف .

ٱلْقَوْلُ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَـٰسِرِينَ. [1]

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ. [2]

وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ. [3]

وَلَـٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ. [4]

وَجَعَلُوا بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ. [5]

فمن تأمّل أدنى تأمّل في هذه الآيات أدرك أنّ الجنّ خُلقوا مساوين للإنسان ، فهم في التكليف والمؤاخذة والاختيار والإرادة والثواب والعقاب والسَوْق إلى الجنّة أو الهوي في جهنّم على حدٍّ سواء . وبالطبع فإنّ وجودهم أضعف من الإنسان ، كما أنّ أفراد الإنسان أنفسهم يتفاوتون بينهم قوّة وضعفاً .

وباعتبار تفوّق الإنسان في القوّة على الجنّ ، فقد كان نبيّ الجنّ من طائفة الإنس ، لا من أنفسهم ؛ فالآية المذكورة **أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ** تعني : رسل من جنس المادّة والطبيعة ، مقابل الملائكة الذين هم موجودات ملكوتيّة . فهؤلاء الأنبياء كانوا من جنس البشر ؛ والبشر والجنّ متجانسان ، أي من مادّة وطبيعة واحدة ؛ فالقول إنّ هؤلاء الأنبياء كانوا من جنس الجنّ هو قول صحيح وصائب .

١ـ الآية ٢٥ ، من السورة ٤١ : فصّلت .

٢ـ الآية ٢٩ ، من السورة ٤١ : فصّلت .

٣ـ الآية ١١٩ ، من السورة ١١ : هود .

٤ـ الآية ١٣ ، من السورة ٣٢ : السجدة .

٥ـ الآيات ١٥٨ إلى ١٦٠ ، من السورة ٣٧ : الصافّات .

وقد قال العلّامة الطباطبائيّ قدّس الله نفسه الزكيّة : ولقد سئل عن هذا الأمر من الجنّ أنفسهم : «ألم يأتكم رسل منكم» ؟ أي من جنسكم ، فقالوا في الإجابة : إنّ أنبياءنا من الإنس ، وإنّا آمنّا بخاتمة الرسالات وأقررنا بالنبيّ خاتماً للرسل .

أفليس من المضحك والمثير للسخرية ـ مع وجود هذه المطالب وهذه الآيات الجليّة ـ أن يقول امرئ : إنّ الجنّ في القرآن بمعنى الميكروب . أو إنّ بعض أنواعهم ميكروبات ؟ ذلك لأنّ الميكروب موجود حيّ وصغير وخفيّ . أفهل يحشر الله سبحانه هذه الميكروبات فيحاسبها ويعذّبها ؟ أو أنّها تُلقى في جهنّم مع البشر رديفاً لهم ؟ أوكانت هذه الميكروبات هي التي تشرّفت بالحضور عند رسول الله في مكّة فآمنت به ، وحكى الله سبحانه أقوالهم في قرآنه ؟ فمحلّ نزول الجنّ في مكّة معيّن معروف ، وقد سمّي **بمسجد الجنّ** ، يقع قرب المسجد الحرام في شارع المسجد الحرام ، حيث يستحبّ للحجّاج الذهاب إليه والصلاة فيه ركعتَين .

قال لي يوماً أحد المطّلعين في أحد مجالس طهران : أيّها السيّد ! إنّ هؤلاء الأمريكان هم الجانّ أنفسهم ، وإنّ من معجزات القرآن الكريم إخباره عن اكتشاف قارّة أمريكا ؛ لأنّ الجنّ معناه الموجود الخفيّ الحيّ ، والأمريكان كانوا حتماً أحياء عند نزول القرآن ومخفيّين عن نظر جميع أفراد البشر .

فأجبته : إنّ الجنّ مقابل الإنس وعدله ومساويه ، وهذه الحقيقة مشهورة في الخطابات القرآنيّة التي تعدّ الجنّ مع الإنس وليس ضمنهم ، وإنّ جميع أفراد البشر وجدوا من أصل واحد هو آدم وزوجه ، تبعاً للآية الكريمة الصريحة : **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ**

وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً.[1]

فحيثما وجد البشر فهو إنسان من ولد آدم لا من الجنّ ؛ لذا فإنّ جميع الرجال والنساء على ظهر البسيطة هم من آدم وحوّاء ، ولا دخل للجنّ في هذا النسل ، فالإنسان الإفريقيّ والأمريكيّ والعنصر الأحمر هم كلّهم من طائفة الإنسان ، والإنسان غير الجنّ .

وأمثال هؤلاء الأفراد الذين يقحمون أنفسهم في التفسير بدون أن يمتلكوا معرفة بالمنطق القرآنيّ ، فيحاولون تفسير القرآن وفق علومهم ومدركاتهم ، ستظهر منهم نظائر هذه المطالب ، فيدعون الميكروب شيطاناً وقصص القرآن تمثيلاً ؛ وفي الحقيقة فإنّهم سيعرضون أساطير وحكايات وهميّة من نسج خيالهم ، **وحاشا من كلامه العالي** ، الذي قال عنه : **إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ** ؛[2] أن يسقط إلى هذا الحدّ في المطالب السطحيّة والتخيّلات الوهميّة .

ولو فهم هؤلاء المفسّرون آية واحدة فقط من القرآن : **وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا** ، لما حاولوا ـ إلى آخر حياتهم ـ أن يتعرّضوا للتفسير ويقتحموا ميدانه . وحين يدرك الإنسان ضحالة علمه ، فإنّه لن يتعرّض للمطالب القرآنيّة السامية والراقية التي تقصر الأفكار عن بلوغها ، ويسلك طريق البحث والتنقيب إلى آخر عمره ليتّضح الأمر لديه بدرجة كافية ؛ لا أن يكرّر على الدوام هذه الصيغة المحفوظة التي استظهرها الجميع : إنّ العلم لا يؤيّد هذا الأمر ! إنّ التجربة لم تثبت ذلك ! إنّ علم وظائف الأحياء وعلوم الحياة لم تفعل كذا وكذا ... إلى آخره . فما علاقة علم وظائف

١ـ الآية ١ ، من السورة ٥ : النساء .

٢ـ الآيتان ٣ و ٤ ، من السورة ٤٣ : الزخرف .

الأعضاء وعلوم الحياة بكشف الجنّ والشيطان، أو برؤية الملائكة ؟

إنّ إدراك هذه الأُمور له طريق آخر ما لم يسلكه الإنسان فلا حقّ له في التدخّل وإظهار النظر، وهذا الأمر من الواضحات، إذ إنّ فروع العلوم كثيرة ومتشعّبة، وكلّ منها يختصّ بموضوع معيّن، فاستخدام علم وظائف الأعضاء في الورود في علم كشف الحقائق والمخفيّات ـ بما فيها الموجودات الملكوتيّة الرحمانيّة والموجودات الجنّيّة الشيطانيّة ـ والسعي بتلك الأدوات والوسائل للعثور على حلول لمسائل هذه العلوم، هو كالوصول إلى تركستان لمن كان يحثّ الخطى قاصداً مكّة !

لا ندّعي بوجوب حيازة المفسّر لروح ملكوتيّة، ولا نبغي ألّا يفسّر القرآن أحد. لكنّنا نقول: ينبغي للمفسّر أن يلمّ بمعاني ومصطلحات القرآن، فيفسّر القرآن كما يريد القرآن، وبلسان القرآن، حتّى لو لم يكن المفسّر مسلماً، بل مسيحيّاً أو يهوديّاً، فالمهمّ في الأمر أن لا يتخطّى في تفسير القرآن المنطق القرآنيّ والرؤية القرآنيّة، فيقول ما قاله القرآن بغضّ التنظر عن اعتقاده الشخصيّ.

ومن أكبر الهفوات التي ارتكبها الشيخ محمّد عبده في تفسير «**المنار**»، قلّة اهتمامه وعنايته في تفسيره بالحقائق والأُمور المعنويّة وأُسس العالم العلويّ وخلقة موجودات ما وراء هذا العالم، في حين عني واهتمّ ـ في المقابل ـ بأُسس وعلائق العلوم المادّيّة والتقدّم الطبيعيّ.

فهذا المنطق لا يمنح الروح البشريّة الارتواء، ولا يخمد عطشها الملتهب، لأنّ البشر مرتبط ومتعلّق بعالم الغيب، فبدنه في عالم الشهادة لكنّ روحه وسرّه ووجدانه في عالم الملكوت، فلا يمكن إرضاءه وإشغاله بهذه العلوم الفانية البشريّة. لكنّ تفسير «الميزان» على معلّمه آلاف التحيّة والثناء والرحمة الإلهيّة الموصولة، قد فتح هذا الباب في التفسير، فاعتبر

أنّ الولاية هي حقيقة معاني القرآن ، وقدّم العرفان على أنّه الطريق الوحيد للوصول إلى سرّ الملكوت . وقد استفاد في هذا التفسير من سنّة النبيّ الأكرم في إشباعه الأرواح الغرثى ، وإروائه المتعطّشين للمعارف في دعوته إلى الله ووحدته الحقّة الحقيقيّة ، وإلى عالم الروح والملكوت ، وإلى الوصول إلى مقام الولاية ، والتزوّد من كلا عالمي الملك والملكوت .

لذا فقد لوحظ : أنّ **تفسير العلّامة الطباطبائي قدّس الله سرّه الزكيّ** قد حاز هذه الأيّام في مصر ولبنان وبعض البلاد الأُخرى هذه الشهرة الفائقة ؛ ومع أنّ مؤلّف «المنار» سنّيّ المذهب ومن أهل تلك البلاد والديار ـ أي مصر ـ لكنّ المعلّمين وخِرِّيجي المعاهد والجامعات المصريّين واللبنانيّين قد شغفوا بتفسير «الميزان» إلى الحدّ الذي لم نكن لنتصوّره .

لقد ذهبتُ خلال حلولي في مدينة مشهد المقدّسة لزيارة أحد علماء النجف الأشرف المقيمين حاليّاً في قم بعد تشرّفه بالقدوم للزيارة ؛ وذلك بعد مدّة قصيرة من كتابتي لرسالة «مهر تابان» (= الشمس الساطعة) تخليداً لأُستاذنا العلّامة ، حيث طُبعت تلك الرسالة بسرعة ؛ وكان مجلس ذلك العالم يضمّ جمعاً من أولاده وأصهاره ، فتطرّق الحديث إلى رحلة العلّامة ، وكان الحاضرون يدلون بأقوالهم ، فسألني أحد أصهار هذا العالم ، وكان من مواليد النجف ومن أصل عربيّ من أحفاد المرحوم **الصدر** : ألم تكتبوا هذه الرسالة بالعربيّة ؟ فلقد كان حريّاً أن تُكتب بتلك اللغة .

فأجبته : لقد كان العلّامة من المتكلّمين بالفارسيّة ، وإيران بلده وموطنه . وقد أُلِّف هذا الكتاب للتعريف بأحواله ، ومن الواضح أنّ شهرة العلّامة في إيران أكثر من غيرها .

قال : إنّكم على خطأ ، فللعلّامة في البلاد العربيّة شهرة تفوق عشرات المرّات شهرته في إيران ؛ فأساتذة الجامعات وأهل الفنّ والاطّلاع ، وحتّى

طلبة الجامعات يعتمدون على الدوام على تفسير «الميزان» ، فالكلّ يعتبر «الميزان» مصدراً أصيلاً للتحقيق ، في حين تراجعت جانباً تفاسير «**المنار**» و«**في ظلال القرآن**» وأمثالها .

وكان يقول : لقد كنتُ بنفسي مقيماً هناك ، ولمستُ هذا الأمر عن كثب .

فقلتُ : ليس في الأمر من مشكلة ، إذ يمكن لبعض أهل الخبرة ممّن لهم إلمام كامل بالعربيّة أن يترجم هذا الكتاب إليها ليتّضح لهم أيضاً الأُسلوب الأخلاقيّ والسلوك الأدبيّ لهذا الفقيد السعيد وعلوّ همّته وإخلاصه . **رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ مَا بَقِيَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرَضُونَ.**

كما أنّ مسألة تأثير الجنّ في النفوس البشريّة من الأهمّيّة بحيث بيّن الله المتعال في قرآنه الكريم من باب سنّته القطعيّة في مسألة دعوة الأنبياء والمرسلين جَعْلَه أعداءً لهم من طائفة الإنس ليعاكسوا مسيرة الدعوة ويعرقلوا تبليغ الرسالات الإلهيّة ويختلقوا المشكلات والعقبات أمامها ، وأنّه تعالى يجعل أيضاً أعداءً من طائفة الجنّ لمثل هذا الأمر ، فيعاضدون الأعداء الإنسيّين في إيجاد الموانع والعقبات أمام سبيل دعوة الأنبياء وإبلاغهم رسالات الله ؛ كلّ ذلك لتكون دعوة الأنبياء مقرونة بالجدّ والجهد ، محفوفة بالمشقّة والمجاهدة والتعب :

وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ * وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ.[1]

١ـ الآيتان ١١٢ و١١٣ ، من السورة ٦ : الأنعام .

فينبغي للإنسان ـ لهذا الأمر ـ أن يستعيذ بالله تعالى من شرّ شياطين الجنّ ، كما يستعيذ به من شياطين الإنس .

فالشيطان بمعنى الموجود الشرّير ، وليس كلّ الجنّ شياطيناً ، كما ليس كلّ الإنس شياطيناً ؛ والشيطان الجنّيّ هو ذلك الجنّيّ الكافر غير المسلم ، الذي من دأبه الفساد والشرّ والشيطنة ، كما أنّ من دأب الشيطان الإنسيّ ، أي الإنسان غير المسلم ، الإضرار والإعاثة في الأرض فساداً .

فشياطين الجنّ تأنس بشياطين الإنس وتصحبها ، كما أنّ مسلمي الجنّ هم في صدد إعانة ومساعدة مسلمي الإنس .

ويتمثّل عمل شياطين الإنس في الوسوسة الظاهريّة والخارجيّة للإنسان ، فهم يغرّونه ويحرفونه بكلامهم المعسول عن الصراط المستقيم ، ويسوقونه إلى أهدافهم وغاياتهم الفاسدة التي تعقب الخسران والندامة .

في حين يوسوس شياطين الجنّ إلى الإنسان من باطنه وداخله ، فيوردون عليه الخواطر السيّئة والأفكار الجاهلة والآراء الكاسدة الفاسدة ، ليبعثوه على ارتكاب الأعمال الشرّيرة والخبيثة ويزيّنون له ذلك .

والوسوسة هي حديث النفس بما ليس من مصلحة الإنسان فعله ، بل بما يحيد به عن الاستقامة والنهج القويم .

وقد ورد في سورة **الناس** أنّ على الإنسان أن يستعيذ بالله ويحتمي به ويلتجئ إليه من هذه الوساوس التي يسوقها إليه كلّ من الجنّ والإنس :

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ * مَلِكِ ٱلنَّاسِ * إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ * مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ * ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ * مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ.[1]

---

١ ـ السورة ١١٤ : الناس .

وقد نزل جبرائيل بهذه السورة مع سورة **الفَلَق** على رسول الله من قبل الله سبحانه ، وذلك حين حُمّ **الحسنان** عليهما السلام ومرضا ، لتُقرأ عليهما فيشفيان .

ومعروف أنّ هاتين السورتين لم يضمّهما مصحف ابن مسعود ، فهكذا ورد عن أهل البيت عليهم السلام ، لأنّ ابن مسعود كان يعتقد أنّهما **تعويذتان** نزل بهما جبرائيل من السماء ليُعوّذ بهما **الحسنان** ، ولقد عُلّقتا عليهما وقُرِأَتا فشفيا ؛ أمّا الآخرون غير ابن مسعود فقد عدّوهما من سور القرآن .

والمراد **بالمعوّذتين** ـ بصيغة اسم الفاعل ـ سورتا **قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ** ، وتتضمّن الاستعاذة بالله من كلّ شرّ روحيّ ووساوس باطنيّة ؛ وسورة **قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ** وتتضمّن الاستعاذة بالله من كلّ شرّ بدنيّ وجسميّ ودنيويّ .

وقد روى المجلسيّ رضوان الله عليه عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه كان يقرأ **آية الكُرْسِيِّ** حين يأوي إلى فراشه ، ويقول : إنّ جبرائيل جاءني فقال : **يَا مُحَمَّدُ ! إنَّ عِفْرِيتاً مِنَ الجِنِّ يَكِيدُكَ فِي مَنَامِكَ ؛ فَعَلَيْكَ بِآيَةِ الكُرْسِيِّ**.[1]

ولقد أردنا أن نكتفي في هذه البحوث بآيات القرآن لتكون حجّة قاطعة على منكري وجود الجنّ وتأثيراتهم السيّئة ، وإلّا فإنّ الروايات المستفيضة من الشيعة والسنّة قد فاقت حدّ الإحصاء ، ويحتاج البحث فيها إلى كتاب مستقلّ .

أمّا من جهة المشاهدة الخارجيّة للجنّ ، فلا نتطرّق إلى نقل ما جاء في

١ـ «بحار الأنوار» ج ٦ ، ص ١٥٦ ، طبعة الكمبانيّ .

الكتب والتواريخ من حكايات ، بل نكتفي فقط بنقل عدّة فقرات من مشاهدات قد حصلت في زماننا منقولة عمّن يوثق بكلامهم .

فضمن بيان أنّ تقسيم الآية المباركة : **بِسْمِ ٱللَهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ** في مربّعات إلى الحروف **الأبجديّة** مفيد لدفع الجنّ عن الأفراد المبتلين بالجنّ ، قال الأُستاذ العلّامة الطباطبائيّ قدّس الله سرّه الشريف :

لقد تطرّق الحديث يوماً في مجلسٍ ما ـ وكنتُ حاضراً هناك أسمع وأُشاهد ـ إلى موضوع أنّ الجنّ هل يستطيعون الدخول من الأبواب المقفلة ، أو أن يستخرجوا أشياء من صناديق مقفلة أم لا ؟ فقال أحد الحاضرين ممّن يدّعي تسخير الجنّ : نعم ! يستطيع الجنّ أن يخرجوا الأشياء من الصناديق المغلقة والمقفلة .

وكان في ذلك المجلس صندوق كبير لحفظ الملابس موضوعاً في زاوية الغرفة ، وُضعت فيه صرر الملابس ، فجيء به إلى وسط الغرفة ، وأُحكم إقفاله بأقفال متينة عديدة ، وفوق ذلك فقد جلس رجل ثقيل ضخم الجثّة فوق ذلك الصندوق .

وفجأةً شاهدنا عياناً أنّ صرر الملابس منضودة جميعاً على الأرض خارج الصندوق ، فدهشنا لذلك . ثمّ نهض ذلك الرجل الضخم ذو البنية القويّة من على الصندوق ، وفُتحت الأقفال ورُفع غطاء صندوق الملابس فرأيناه خالياً من صرر الملابس !

وقال العلّامة أيضاً : جاءني يوماً السيّد نور الدين (ولده الأصغر) حين كنتُ في طهران فقال : أبي العزيز ! إنّ **البحرينيّ** موجود في طهران حاليّاً ، أفتريدون أن أجيئكم به على الفور ؟

وكان السيّد البحرينيّ أحد الأفراد المعروفين والمشهورين بإحضار الجنّ ، ومن المتبحّرين في علم **الأبجد وحساب المربّعات**.

قلتُ : لا مانع من ذلك .

فذهب السيّد نور الدين وعاد بعد ساعة أو ساعتين وبصحبته السيّد البحرينيّ ، فجلس في المجلس ، ثمّ جيء بعباءة ووضع طرفَي العباءة في يديّ ، وأمسك طرفيها الآخرين بيديه ، وكانت العباءة مرتفعة عن الأرض ـ ونحن نمسك بها ـ بحوالي شبرينِ .

ثمّ قام بإحضار الجانّ على هذه الحالة ، فتصاعدت ولولة وهمهمة شديدة تحت العباءة ، وكانت العباءة تهتزّ بشدّة تكاد معها أن تفلت من أيدينا ، وكنت أُمسك بها بقوّة ، فرأيتُ تحت العباءة مخلوقات شبيهة بالآدميّين قصار القامة لا تتجاوز قاماتهم الشبرين مزدحمين بأعداد كبيرة يتحرّكون ويذهبون ويجيئون .ولقد شاهدتُ بكمال الفراسة أنّ هذا المنظر كان خالياً من خداع الأعين والأجواء المفتعلة ،كلّا بالتأكيد ، فلقدكان أمراً ذا وقوع خارجيّ مائة في المائة .

وفي هذه الحال فقد رسم السيّد البحرينيّ مربّعاً ذا اثنين وثلاثين قسماً ، ولم أكن قد سمعتُ أو شاهدتُ قبلاً مربّعاً كهذا ، لأنّ سير المربّعات أربعة في أربعة ، أو خمسة في خمسة ، ومهما تصاعدت كمربّع مائة في مائة فهي على هذا المنوال ؛ لكنّ مربّعاً ذا اثنين وثلاثين قسماً غير موجود في أيّ كتاب . وكان السيّد البحرينيّ يطرح عَلَيَّ أسئلة ويسجّلها ثمّ يجيب عليها ، فأجاب عن بعض مشكلاتنا التي لم يطّلع عليها أحد بإجابات صحيحة وصادقة جميعها .

ولقد امتلكني العجب ذلك اليوم كثيراً ؛ تماماً كحالي حين أحضر **الأديب** [1] ـ وكان من تلامذة أخي السيّد محمّد حسن ـ روح المرحوم

١ـ اسمه الشيخ محمّد علي ارتقائي ، والملقّب بأديب العلماء ، وقد نقلنا في رسالة

القاضي رحمة الله عليه وسأله عنّي فأجاب : إنّ سلوكه مقبول وجيّد ، والعيب الوحيد الذي فيه أنّ أباه غير راضٍ عنه ويقول إنّه لم يُشركه معه في ثواب التفسير الذي كتبه .

وحين كتب إليّ أخي هذا المطلب من تبريز ، قلتُ في نفسي : إنّني لم أكن أرى لنفسي ثواباً من التفسير كي أُهديه لأبي ، فيا إلهي ! إن كنتَ بلطفك قدّرتَ لي ثواباً على هذا التفسير فاجعله من نصيب والديَّ فقد أهديتهما ثوابه بأجمعه .

ثمّ وصلتني رسالة أُخرى بعد عدّة أيّام من أخي يقول فيها : إنّه حين أحضر روح المرحوم القاضي ، قال له : الآن رضي أب السيّد محمّد حسين عنه ، فهو سعيد لمشاركته إيّاه في الثواب . ولم يكن لأحد خبر عن إهداء الثواب هذا .

ولقد قال **آية الله الحاجّ الشيخ محمّد رضا مهدوي الدامغانيّ** دامت بركاته ، وهو من علماء مدينة مشهد المقدّسة البارزين : لقد غضب يوماً المرحوم **الحاجّ الشيخ حسن علي نخودكي الإصفهانيّ** أعلى الله مقامه الشريف على أحد تلامذته ـ وهو المرحوم السيّد أبو الحسن حافظيّان ـ إثر خطأ واشتباه ارتكبه في أمر ما .

فقال المرحوم الشيخ له : إمّا أن استعيد منك إجازة إعمال جميع الأشياء التي أعطيتكها ، أو أن أُبعدك من هنا .

فرضي المرحوم حافظيّان بالإبعاد ؛ فقال له الشيخ : ينبغي عليك الذهاب عشر سنين إلى الهند ، على أن لا تقدم خلالها إلى مشهد مطلقاً ، ثمّ

«مهر تابان» (= الشمس الساطعة) وفي «معاد شناسى» (= معرفة المعاد) مطالباً عنه تحت عنوان تلميذ السيّد محمّد حسن الإلهيّ التبريزيّ الأخ المكرّم للعلاّمة الطباطبائيّ .

تبقى هناك بعدها خمس عشرة سنة أُخرى يحقّ لك فيها التردّد المحدود على مشهد ، ثمّ إن شئت بعدها المجيء إلى مشهد والإقامة فعلتَ .

وقد ذهب المرحوم حافظيّان إلى الهند عشر سنين ، ثمّ كان بعد ذلك يتشرّف بزيارة مشهد بين مدّة وأُخرى ؛ واتّفق أن حدثت قصّة خلال إحدى سفراته إلى مشهد تدخّل بنفسه في حلّها ، وقد شهدتُ تلك القضيّة بنفسي .

فلقد جاء يوماً أحد أهالي المنبر في كرمانشاه ، واسمه المرحوم **صَدْر** ، وهو مقيم في مشهد منذ سنوات قلائل ؛ جاء إلى والدي المرحوم آية الله **الحاجّ الشيخ محمّد كاظم الدامغانيّ** رحمة الله عليه وقال : إنّ الجانّ يؤذوننا في المنزل كثيراً ، فهم يثيرون الصخب ولا يدعوننا ننام بسلام ، إذ يوقظوننا بضجيجهم ، فنشاهد بكرة البئر تدور والماء يخرج من البئر ثمّ يُسكب فيه ثانية ، لكنّنا لا نشاهد أحداً ، وكلّ ما نشاهده حركة البكرة ودورانها .

فقال المرحوم أبي : أرغبُ كثيراً أن أُشاهد بأُمّ عيني بعض هذه الأعمال التي يعملونها . فإن عملوا هذه المرّة شيئاً ممّا يمكن مشاهدته ، فتعال وأخبرنا .

وقد جاء المرحوم صدر إلى منزلنا يوماً فقال : لقد جاؤوا وفتحوا غطاء صندوق الملابس وأخرجوا الملابس جميعاً وعلّقوها على جدار الغرفة .

فذهب المرحوم والدي إلى هناك وكنت بمعيّته ، فشاهدنا أنّهم ألصقوا الملابس بصورة غير منتظمة بالحائط ، وكانت الملابس معلّقة على الحائط بلا مسمار أو شيء يمسك بها ، فما إن نمسّ أحدها إلّا ويسقط إلى الأرض .

وكان هذا المشهد غريباً ومحيّراً ، وكان ذاك لأبي أمراً لم يعهده ولم يره من قبل . وقد نقل المرحوم والدي هذه القضيّة إلى المرحوم حافظيّان ـ وكان عندها في مشهد ـ فأصدر أمراً أو فعل شيئاً ما كفّ بعده الجانّ عن التعرّض للمرحوم صدر بأيّ أذى .

الجهة الثالثة من جهات الإشكال هي : هل يمكن تفسير القرآن وبيان معانيه وفق المعاني التي يرتضيها الإنسان ويستحسنها ، أو ينبغي أن يخضع التفسير لضوابط وقواعد معيّنة بحيث يُعدّ في حال تخطّيها وعدم رعايتها تفسيراً خاطئاً سقيماً ؟

إنّ القرآن الكريم يمتلك ـ كما في سائر الكتب السماويّة وغير السماويّة ذات اللغات المختلفة ـ ألفاظاً وكلمات تحكي عن معانٍ خاصّة ومعيّنة ، فما لم ترد قرينة قطعيّة على عدم إرادة تلك المعاني ، فينبغي القول بإنّ المراد بالكلام هو تلك المعاني الأوّليّة المتبادرة ، سواء كانت دلالة الألفاظ على معانيها دلالة تخصيصيّة أم بالوضع التخصّصيّ .

وبعبارة أُخرى ، فإنّ كلّ كلمة تمتلك عند نطقها دلالة على معنى خاصّ ، وهو ما يدعى **بالظهور** ؛ بحيث ينبغي حمل الكلمات على مفاهيمها الظاهريّة ما دام القائل لم ينصب قرينة لفظيّة أو بالإشارة والكناية أو قرينة خارجيّة على أنّ المراد من هذه الكلمات معانٍ أُخرى غير تلك المتبادرة .

ويدعى هذا البحث ببحث **حجّيّة الظواهر** ، ويُبحث مفصّلاً في عِلمَي أُصول الفقه والبيان . وحاصل الأمر : أنّ الكلمات والألفاظ في أيّ لغة ـ عربيّة ، عبريّة ، فارسيّة أو أجنبيّة ـ تمتلك حجّيّة في المحاورات والمعاملات والإقرارات والمحاكمات وغيرها ، وتبعاً لهذه الظهورات يقوم حاكم المحكمة بالاستدلال على المدّعى ، فيحكم لصالح المحكوم له ، وضدّ المحكوم عليه . فإذا ادّعى امرئ مرّةً أنّ قصده لم يكن هذا المعنى

اللغويّ الوضعيّ ، بل كان شيئاً آخر ، فإنّ الحاكم والمحكمة ، والتاجر والزارع والناكح ومن معهم ممّن لهم علاقة بالشؤون والعلاقات الاجتماعيّة المرتبطة بالمكالمات والمحاورات ، سيردّون كلامه ويرفضونه ، وسيعملون وفق أساس إرادة المعنى الظاهريّ في تفهيم المراد والقصد .

ولا اختلاف في هذه المسألة أكان هناك مخاطب في الألفاظ والكلمات الواردة في قالب جُمَل وعبارات أم لم يكن ، أوكانت العبارات موجّهة لشخص حاضر أم غائب ، حتّى أنّ حجّيّة الظهورات لا تتغيّر من لغة إلى أُخرى ، ومن المفاهمة إلى المشاهدة . وحتّى الكلمة الفارسيّة التي يكتبها شخص تركيّ في إحدى المجلاّت التركيّة تكون حجّة هناك ما دامت تشير الى معنى في اللغة التركيّة أيضاً .

وقد تحمّل على هذا الأساس أهل اللغة الأتعاب والمشاقّ في تدوين كتب اللغة ، وفي الفصل بين المعاني الظاهريّة والمعاني الأُخرى . ويستدلّ في المحاكم بكتب اللغة هذه المنتزعة من الفهم العُرفيّ ، وبالأقوال المتبادلة ، والمخاصمات ، والشكايات والمنازعات بأدقّ الأساليب لتعيين المقاصد والمراد في العقود وغيرها .

وللقرآن الكريم ، استناداً على هذا الأساس ، ظهورات تعدّ حجّة ، حيث يبيّن الباري تعالى مقاصده ومراده بهذه الظهورات ، فإذا أراد أحياناً بكلماته مراداً ومقصوداً آخر ، فإنّه ينصب قرينة لذلك لئلّا يختلّ أساس المفاهمة والمكالمة . وبغير ذلك فستنتفي الفائدة من إرسال الرسل وإنزال الكتب ، وسينهار صرح الكلام وترويج الدين وهداية البشريّة ، وستضمحلّ آثار الحياة على هذه البسيطة .

فحجّيّة القرآن الكريم تستند على أساس حجّيّة الظهورات ؛ أي لو أُعطي للبشر الإذن في عدم حمل الكلمات على معانيها ومرادها الظاهر

المتبادر ، فلن تتلاشى عظمة القرآن فقط ، بل إنّـه سـيصبح رديـفاً لأبسـط وأتفه الكتب المعهودة ، وسيكون مثل كتب الأساطير والقصص الخـرافـيّة كـ «ألف ليلة وليلة» وغيرها ، على الرغم من كونه أسمى الكتب التي نزلت على أساس حجّيّة الظهورات من الملأ الأعلى إلى عالم الاعتبار .

فاعتـبار الشـيطان والجـنّ في القرآن الكـريـم بـمعـنى الجـرثـومة «الميكروب» يعدّ من أوضح وأجلى التخطّيات لهذا الأسـاس العـامّ ، ومـن أوضح مصاديق التفسير بالرأي المنهيّ عنه بشدّة عـلى لسـان رسـول اللـه وأئمّة أهل البيت عليهم السلام .

فقد ورد عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : **مَنْ فَسَّرَ القُـرْآنَ بِرَأْيِهِ، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ.**[1]

وفي حديث نبويّ آخر : **مَنْ قَالَ فِي القُرْآنِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ.**[2]

وفي حديث نبويّ ثالث : **مَنْ فَسَّرَ القُرْآنَ بِرَأْيِهِ ، فَقَدِ افْتَرَى عَلَى اللَهِ الكَذِبَ.**[3]

وفي حديث نبويّ رابع عامّيّ : **مَنْ فَسَّرَ القُرْآنَ بِرَأْيِهِ فَأَصَابَ، فَـقَدْ أَخْطَأَ.**[4]

وروي عن رسول الله وأوصيائه الأئمّة الطاهرين :

١ـ «الرسائل» للشيخ مرتضى الأنصاريّ ، ص ٦٠ و٦١ ، باب حجّيّة الظنّ ، طبعة طهران المحشّاة.

٢ و٣ـ «الرسائل» ص ٦٠ ، باب حجّيّة الظنّ .

٤ـ «الرسائل» ص ٦١ ، باب حجّيّة الظنّ ؛ ومقدّمة تفسير «الصافيّ» ص ٩، الطبعة الحجريّة.

إِنَّ تَفْسِيرَ الْقُرْآنِ لَا يَجُوزُ إِلَّا بِالأَثَرِ الصَّحِيحِ وَالنَّصِّ الصَّرِيحِ.[1]

وكذلك فقد روي عن «تفسير العيّاشيّ» عن الإمام الصادق عليه السلام، قال:

مَنْ فَسَّرَ الْقُرْآنَ بِرَأْيِهِ إِنْ أَصَابَ لَمْ يُؤْجَرْ؛ وَإِنْ أَخْطَأَ فَهُوَ أَبْعَدُ مِنَ السَّمَاءِ.[2]

وروي عن الإمام الرضا عليه السلام عن أبيه، عن أبائه، عن أمير المؤمنين عليهم السلام؛ **قَالَ:**

قَالَ رَسُولُ اللَهِ صَلَّى اللَهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: إنَّ اللَهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ فِي الحَدِيثِ القُدْسِيِّ: «مَا آمَنَ بِي مَنْ فَسَّرَ كَلَامِي بِرَأْيِهِ. وَمَا عَرَفَنِي مَنْ شَبَّهَنِي بِخَلْقِي، وَمَا عَلَى دِينِي مَنِ اسْتَعْمَلَ القِيَاسَ فِي دِينِي».[3]

وورد في «تفسير الإمام العسكريّ عليه السلام» ضمن حديث عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، **قَالَ: أَتَدْرُونَ مَتَى يَتَوَفَّرُ عَلَى المُسْتَمِعِ وَالقَارِئِ هَذِهِ المَثُوبَاتِ العَظِيمَةِ؟ إذَا لَمْ يَقُلْ فِي القُرْآنِ بِرَأْيِهِ، وَلَمْ يَجْفُ عَنْهُ، وَلَمْ يَسْتَأْكُلْ بِهِ، وَلَمْ يُرَاءِ بِهِ.**

وَقَالَ: عَلَيْكُمْ بِالقُرْآنِ فَإِنَّهُ الشَّافِعُ النَّافِعُ وَالدَّوَاءُ المُبَارَكُ، عِصْمَةٌ لِمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ. وَنَجَاةٌ لِمَنِ اتَّبَعَهُ.

ثُمَّ قَالَ: أَتَدْرُونَ مَنِ المُتَمَسِّكُ بِهِ الَّذِي بِتَمَسُّكِهِ يَنَالُ هَذَا الشَّرَفَ العَظِيمَ؟ هُوَ الَّذِي يَأْخُذُ القُرْآنَ وَتَأْوِيلَهُ عَنَّا أَهْلَ البَيْتِ وَعَنْ وَسَائِطِنَا

---

١ و٢ـ «الرسائل» ص ٦١، باب حجّيّة الظنّ؛ ومقدّمة تفسير «الصافيّ» ص ٩، الطبعة الحجريّة.

٣ـ «الرسائل» للشيخ الأنصاريّ، ص ٦١؛ و«وسائل الشيعة» ج ٣، ص ٣٧٢، كتاب القضاء، طبعة أمير بهادر.

السُّفَرَاءِ عَنَّا إلَى شِيعَتِنَا ، لَا عَنْ آرَاءِ المُجَادِلِينَ .

فَأَمَّا مَنْ قَالَ فِي القُرْآنِ بِرَأْيِهِ ، فَإنِ اتَّفَقَ لَهُ مُصَادَفَةُ صَوَابٍ فَقَدْ جَهِلَ فِي أَخْذِهِ عَنْ غَيْرِ أَهْلِهِ ، وَإِنْ أَخْطَأَ القَائِلُ فِي القُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَقَدْ تَبَوَّأَ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ.[1]

يقول المرحوم أُستاذ الفقهاء والمجتهدين **الشيخ مرتضى الأنصاريّ** في كتاب أُصوله «الوسائل» : إنّ الأخبار والروايات الواردة في هذا الباب بالقدر الذي ادّعى مؤلّف «وسائل الشيعة» آية الله الشيخ الحرّ العامليّ رضوان الله عليه تجاوزها عن **حدّ التواتر**.[2]

الجهة الرابعة من الإشكال هي : هل ستنتهي المسألة بعدم الاعتراف بالجنّ وتخبّط الشيطان في مسألة آكلي الربا وتأويل ذلك بمرض الصرع والميكروب إلى هذا الحدّ ، أم أنّها ستعمّ جميع الأشياء غير المرئيّة وغير المسموعة التي لا تتمكّن العلوم التجربيّة والطبيعيّة والطبّيّة من إثباتها ، كالملائكة والروح ، ووسائط العالم العلويّ ، وصولاً إلى الجنّة والجحيم والميزان والصراط والموقف والحشر والنشر وذات الخالق المقدّسة ؟

فإن قالوا : إنّهم يتوقّفون فلا يعمّمون ذلك ولا يتعدّونه إلى غيره ، نقول : بأيّ دليل لا تعمّمون ذلك مع اتّحاد الملاك والمعيار ومناط عدم القبول في جميع هذه المسائل ، وهو عدم إثباتها من قبل العلوم التجربيّة ؟!

وإن قالوا بأنّهم لا يتوقّفون ، بل يعمّمون ذلك على جميع المسائل ، فإنّنا لن نستطيع في تلك الحال إدراك الفرق بين هذه المدرسة التي تدّعي الإيمان بالله مع المدرسة المادّيّة . أيكفي في ذلك مجرّد القول بوجود إله ،

١ـ «وسائل الشيعة» ج ٣ ، ص ٣٧١ ، كتاب القضاء .

٢ـ كتاب «الرسائل» ص ٦١ ، طبعة طهران المحشّاة .

ذلك الإله الموهوم ؟!

وحاصل الإشكال هو : أنّ روح هذه النظريّة في اعتبار الشيطان والجنّ ميكروباً يستمدّ جذوره من نفس مدرسة المادّيّين والطبيعيّين الملحدين ومنكري الروح والتجرّد ، ذلك الاتّجاه الذي نسجوا شراكه وألقوه بين أفراد البشر منذ عدّة آلاف من السنين .

فالإيمان بالغيب [1] **وبالملائكة** [2] وما شابههما ممّا ورد في القرآن الكريم له موضوعيّة قائمة في أساس الإسلام ،كما أن مسألة الموت والبرزخ والقيامة والحياة الخالدة في الجنّة أو الجحيم ، ومسائلة ومكالمة أهل جهنّم مع أهل الجنّة ، والحور والقصور ، ورضوان ، والنار ودركاتها ، وملائكة الغضب وأمثال ذلك ممّا يشكّل معظم آيات القرآن ، إنّما يمثّل صميم عقائدنا ، فإن آل الأمر إلى مساواة ذلك كلّه بالتمثيلات الذهنيّة والتوجيهات التخيّليّة ، فما الفرق إذَن بين هذه الأُصول والأُسس الواقعيّة المسلّمة مع أفكار المتمرّدين والمرتدّين من الطبيعيّين والمادّيّين الذين أعرضوا صفحاً عن جميع الأُسس ، فلم يؤمنوا إلّا بالمادّة والبطن والفرج والشبع وإطفاء الشهوات وإعمال الغضب واتّباع القوى الوهميّة والتخيّلات

١ـ كالآية ٣ ، من السورة ٢ : البقرة : **ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ** ؛ والآية ٩٤ ، من السورة ٥ : المائدة : **لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ** . وبشكل عامّ فإنّ تقسيم العوالم إلى عالَمي الغيب والشهادة أساس مهمّ في القرآن الكريم ، كما في الآية ٧٣ ، من السورة ٦ : الأنعام : **عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ** ؛ والآية ١٢٣ ، من السورة ١١ : هود : **وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ** ؛ والآية ٩٢ ، من السورة ٢٣ : المؤمنون : **عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ** .

٢ـ كالآية ١٧٧ ، من السورة ٢ : البقرة : **لَيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ** .

والتصوّرات التي جعلوها في رأس برنامج عملهم ؟

لقد أجابت الفلسفة العالية والحكمة المتعالية والذوقيّات والوجدانيّات العرفانيّة في مدرسة العقل والإحساس عن جميع هذه المسائل ، وأبانت عن كلام الصادع بالشريعة ، الناضح من قلبه المنزّه وجبلّته المنيرة بالبرهان والعيان والمشاهدة كالشمس الساطعة في رابعة النهار . فالشرع والعقل والمشاهدة قد توحّدت اليوم في اعتمادها على الأساس القويم الذي اختطّه ذلك الرجل الفريد الملكوتيّ ، والإنسان الجبروتيّ ، والبشر اللاهوتيّ ، الذي وضع رأسه في حريم الأمن والأمان الأقدس الإلهيّ ، وقدمه على فرق عالم الناسوت والطبيعة ، أي **مَحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَهِ وَخُلَفَاؤُهُ الحَقِيقِيُّونَ الاثْنَا عَشَر** الذين حُفظت أقوالهم وأفعالهم وسُطِّرت في ثنايا الكتب . فالفلسفة مقرونة بالعرفان ، وكلاهما مؤيّد ومسدّد لشرعنا القويم ، نحن الجهلة والعميان عن نشأة المادّة والمزاج هذه ، وعن عالم الوجود والفساد هذا ، وهما دليلنا ورائدنا إلى الحرم الأصليّ والموطن الخالد ، والوصول إلى مقام عزّ الحضرة الأحديّة وعلوّ السرمديّة .

إلهِي ! هَبْ لِي كَمَالَ الانْقِطَاعِ إلَيْكَ وَأَنِرْ أَبْصَارَ قُلُوبِنَا بِضِيَاءِ نَظَرِهَا إلَيْكَ حَتَّى تَخْرِقَ أَبْصَارُ القُلُوبِ حُجُبَ النُّورِ فَتَصِلَ إلَى مَعْدِنِ العَظَمَةِ وَتَصِيرَ أَرْوَاحُنَا مَعَلَّقَةً بِعِزِّ قُدْسِكَ.[1]

١ـ من جملة فقرات المناجاة الشعبانيّة التي نقلها السيّد ابن طاووس في «الإقبال» ص ٦٨ ، عن ابن خالويه ، وقال : واسم ابن خالويه الحسين بن محمّد ، وكنيته أبو عبدالله ، وذكر النجاشيّ أنّه كان عارفاً بمذهبنا وكان أُستاذاً بعلوم العربيّة واللغة والشعر ، وسكن بحلب .

وذكره محمّد ابن النجّار في «التذييل» وقال : وقد ذكرناه في الجزء الثالث من «التحصيل» كان إماماً أوحداً فرد الدهر في كلّ قسم من أقسام العلوم والأدب ، وكان إليه

كانت هذه الجهات الأربع هي الجهات المختلفة التي أوردناها لتوضيح **الإشكال السادس** على صاحب مقالة «بسط وقبض تئوريك شريعت» (=بسط وقبض نظريّة الشريعة) .

وينبغي العلم أنّ صاحب المقالة لم يُقدم في مقالته على نفي هذه الأُمور بصورة مباشرة ، وأنّ ما أورده بعنوان الأُسلوب التفسيريّ للمرحوم الطالقانيّ ومقارنته بالأُسلوب التفسيريّ للمرحوم العلّامة الطباطبائيّ كان في الحقيقة صغرى القياس القائل : إذا تفاوتت المقدّمات العلميّة للمفسّر ومعلوماته عن العلوم التجريبيّة أو العلوم العقليّة ، وتفاوت ـ لذلك ـ فهمه للكلام الإلهيّ ؛ لذا ينبغي القول أن ليس هناك من معنى للفهم الواحد والثابت والصحيح للقرآن والمتون الدينيّة . وهذا يمثّل أخطر فقرات كلامه وأشدّها تخريباً : أن يُنكر الفهم الصحيح للدين بدليل اختلاف الأفهام ؛ بيد أنّه لمّا كان في نفس الوقت ، وضمن هذا الاستنتاج الخاطئ ، يقوم بتأييد وجهة تفسير المرحوم الطالقانيّ ، فلزم إيراد هذه الانتقادات لإبطال هذا النهج من التفسير .

الرحلة من الآفاق ، سكن بحلب ، وكان آل حمدان يكرمونه ، ومات بها ، قال : إنّها مناجاة أميرالمؤمنين عليّ بن أبي طالب والأئمّة من ولده عليهم السلام كانوا يدعون بها في شهر شعبان.

الإشكال السابع

برهان العلّامة الطباطبائيّ
في استناد العلل الطبيعيّة إلى العللّ المجرّدة

الإشكال السابع : عدم إدراكه واستيعابه لمقولة الأُستاذ آية الله العلّامة الطباطبائيّ قدّس الله سرّه الشريف في سرّ اتّخاذ العلل الطوليّة من جانب ربّ العزّة تعالى لإيجاد الأُمور الخارجيّة والحوادث الكونيّة ، في إثبات عدم تنافي إسناد الجنون إلى بعض الأُمور الطبيعيّة المحسوسة وإلى بعض الأُمور الخفيّة .

فقد بيّن الأُستاذ العلّامة في هذا المجال أعلى المطالب الفلسفيّة والعرفانيّة والقرآنيّة ، أي وجود سلسلة العلل الطوليّة بين الذات القدسيّة للحضرة الأحديّة ـ أي الواحد الأحد ، ذاتاً وصفةً ـ وبين الموجودات والحادثات الكثيرة والمختلفة لهذا العالم ، وقدّم حلّاً لهذا الإشكال يتعذّر بدونه حلّ مسألة كيفيّة نشأة الكثرة من الوحدة ، والحادث من القديم ، والمادّيّ من المجرّد ، والطبيعيّ من النور المحض .

فهذه كتب العلم والفلسفة قديمها وجديدها في متناول أيدينا ، كلُّها قد عجزت وتعثّرت في كيفيّة حدوث الحادث من المجرّد ، والاستناد إلى العلّة البسيطة ، اللهمّ إلّا تلك الكتب التي نهجت نهج العلّامة واختطّت أُسلوبه .

فالمادّيّون الذين عجزوا عن الجمع بين علّتين مادّيّة ومعنويّة ، أراحوا أنفسهم تماماً وتنصّلوا من قبول إله قادر قاهر عليم حكيم مختار

مريد ، وأنكروا وجود الخالق العليم .

أمّا الإلهيّون فانقسموا مدارس واتّجاهات مختلفة ، فمنهم من أنكر العلل المعنويّة وحصر العامل بهذه العلل المادّيّة ، ومنهم من أنكروا العلل المادّيّة واعتبر أنّ العلل المعنويّة فقط هي المؤثّرة في العالم .

وبقي أُولئك القائلون بالعلل الطبيعيّة والعلل المعنويّة ـ كليهما ـ عاجزين عن بيان كيفيّة ارتباطهما وتأثيرهما على بعضهما ، فبقيت مطالبهم مشتّتة ومتفرّقة ، لم يقدّموا نهجاً قويماً ولا سبيلاً متيناً عارياً عن التناقض في القول أو التهافت في الاستدلال .

أمّا القول بالعلل المادّيّة التي توجبها الضرورة والمشاهدة ، والقول بتبعيّتها للعلل المعنويّة تبعاً لضرورة البرهان وضرورة الكشف بالعيان ، وصولاً إلى الواحد الحيّ القيّوم الذي هو نفسه المبدئ والمنشئ والمُعيد والمَعاد ، فهو أشبه بالماء الصافي الزلال البارد الهنيء الذي ينساب في حرّ تمّوز اللاهب على الأكباد الحرّى للباحثين عن وادي الرواء وكأس المعرفة ، يحلّ جميع الإشكالات ، ويبرهن بداهةً على الأشياء التي تبدو بعيدة عن التحقّق .

فهو من جهة يوافق على سلسلة العلّيّة بقوامها واستحكامها هذا ويعتقد بصحّتها ، ومن جهة أُخرى يستدلّ ويبرهن على وحدة علّة العلل بتمام معنى الكلمة ، سواء الوحدة في الذات أم في الصفات ، أم في الأفعال .

لذا ، فإنّ القول بسلسلة العلل الطوليّة له ما يدعمه من الناحية الفلسفيّة والعرفانيّة والقرآنيّة ، وهو الحلّ الأمثل لعقد المشكلات المستعصية والمسائل الغامضة العسيرة في باب الكلام والحكمة ، ولا مفرّ للشخص الباحث ولا مناص له من قبوله والتسليم به روحاً وقلباً كي يمكنه الوصول للحقائق .

فإن نحن فصلنا بين تأثير الدواء وتأثير الميكروب وبين العلل الطبيعيّة ، فسنكون قد جانبنا الصواب ، وإن نحن أنكرنا تأثير الله سبحانه فيهما ، فسنكون قد جانبنا الصواب أيضاً . أمّا لو قلنا بأنّ تأثير الدواء والميكروب من الله سبحانه ، لصار منطقنا سليماً صائباً ، سواء اعتبرنا بين الميكروب والدواء وبين الله سبحانه واسطة مثل ملائكة الرحمة أو جانّ النقمة أم لم نعتبر . فالمهمّ في الأمر هو الاعتراف بطوليّة العلل ، لأنّنا حين نعتقد بذلك فإن مسألة الملائكة والجانّ ستثبت هي الأُخرى وتصبح مسألة مقبولة .

ولكن لعدم إدراك صاحب المقالة لروح هذا المطلب ، فقد أشكل على العلّامة إسناده بعض أنواع الصرع إلى الميكروب ، وفي نفس الوقت إلى الشيطان أيضاً . ويلزمنا ـ إيضاحاً للأمر ـ أن نورد عين كلامه ثمّ نتطرّق إلى مناقشته ، فقد قال :

(ومضافاً إلى ذلك ، فقد قال المرحوم الطباطبائيّ : أوّلاً : إنّ القدر المتيقّن من دلالة الآية هو أنّ بعض أنواع الجنون ـ على الأقلّ ـ مسبّب عن مسّ الجنّ . وثانياً : إنّ إسناد الجنون ونسبته إلى علل معيّنة ـ كمسّ الشيطان ـ لا يستلزم إبطال العلل الطبيعيّة ، بل إنّ تلك العلل غير الطبيعيّة أعلى وفي طول العلل الطبيعيّة ، لا في عرضها.

ونلحظ كيف حُلّت مشكلة التعارض مع العلم الطبيعيّ بالتوسّل بعدّة قواعد فلسفيّة ، وهي أوّلاً : أنّ أساس العلّيّة جارٍ في العالم، وثانياً: أنّنا نمتلك عللاً طوليّة متدرّجة ، وثالثاً : أنّ العلل غير المادّيّة لا تحلّ محلّ العلل المادّيّة والطبيعيّة ، وأنّ الفعل يمكن أن يستند في آن واحد لكليهما . لذا يجب فهم الآية بالشكل الذي لا تعطي فيه معنى نفي العلل الطبيعيّة أو المسّ المادّيّ والمباشر للشيطان.

وهو معنى جديد وبالطبع معنى عميق متعال ، لكنّه يمثّل فهماً

تحقّق في ضوء تلك الأُسس الفلسفيّة (التي كانت من بين معتقدات العلّامة الطباطبائيّ وليست أبداً من ضرورات الدين) ؛ لكنّ نفي العلّيّة في العالم (على الأقلّ بأُسلوب الأشاعرة) أو عدم القبول بالعلّيّة الطوليّة، واعتبارها أمراً لا يمكن إدراكه وتصوّره أصلاً ، وكذلك القول بالتدخّل المباشر للموجودات المادّيّة في العالم (كما يرى الكثير من المتكلّمين)، أو عدم القول بالموجودات المادّيّة والمفارقة ، واعتبار الروح وإبليس والمَلَك ـخلافاً للحكماء ـ مادّة لطيفة (كما يرى الكثير من المتكلّمين والمحدّثين)، كلّ هذه الأُمور تؤدّي إلى عدم إعطاء الآية معنى كما أراده المرحوم الطباطبائيّ.[١]

وقوله هذا مخدوش من عدّة جهات :

الجهة الأُولى : أنّه مع تصريحه واعترافه أنّ تعليل العلّامة هذا هو معنى عميق متعال ، أي أنّه لم يستطع الردّ عليه من جهة فنّ الاستدلال ، لكنّه يقول بأنّه كان من إيحاءات ذهن العلّامة وليس من ضروريّات الدين ، لأنّ الأشاعرة والكثير من المتكلّمين والمحدّثين لا يقبلون به .

وينبغي أن نسأل أوّلاً : أيتوجّب أن يكون ما يصوغه الشخص الحكيم والمحقّق في قالب البرهان ، ويستدلّ عليه إثباتاً مقبولاً سائغاً للجميع ، ولو كانت مقدّماتهم الاستدلاليّة فاسدة ومخدوشة ؟ أكان يتوجّب أن لا يكون هناك مخالف لما برهن عليه ابن سينا أو الخواجة نصير الدين أو صدر المتألّهين في باب الإلهيّات ؟ أكان يتوجّب أن يقضي على جميع المادّيّين والطبيعيّين في العالم ؟ أم أنّ علينا حين نرى حاليّاً وجود الكثير من أصناف المادّيّين أن نقول بأنّ مقدّمات برهان أُولئك الحكماء من أهل

١ـ مقالة «بسط وقبض تئوريك شريعت» ، مجلّة «كيهان فرهنگى» العدد ٥٤ ، تيرماه ١٣٦٧ شمسيّ ، رقم ٤ ، ص ١٥ ، العمود الثالث.

التوحيد كانت خاطئة ، وإنّ ذلك يستتبع أن يكون أصل الاعتقاد بوحدة الحقّ تعالى أمر خاطئ ؟!

وحين نقول إنّ الحقّ في الولاية كان لأمير المؤمنين عليه السلام ، أفتستلزم واقعيّة هذا الأمر أن لا يكون هناك مخالف لهذه المسألة ؟ أفإن علمنا أنّ أبا بكر وعمر وأتباعهما لم يقبلوا بهذا الأمر في زمن حياة رسول الله ، فإنّ علينا أن نقول إنّ أصل الولاية والخلافة والإمامة أمر مخدوش ؟!

وإذا قلنا : إنّ النبيّ الأكرم محمّد بن عبد الله صلّى الله عليه وآله وسلّم كان آخر الأنبياء المرسلين بالوحي المنزل من قبل ربّ العزّة ؛ أفيمكننا القول إنّ هذا الكلام سيكون مقبولاً إذا قبل به جميع اليهود والنصارى ، وبما أنّهم لم يقبلوا به فعلاً ، وبما أنّ هناك ملايين من البشر المعادين للإسلام في العالم . إذنّ ، الإسلام ليس آخر الأديان ؟! وبأنّ نبيّنا الأكرم ليس خاتم الرسل ؟!

وأساساً ، فما معنى أن يقول امرئ بأنّ الكلام ـ مهما كان ـ هو صحيح حين يقبل به الجميع فعلاً ؟ فهذا الكلام غلط وخاطئ بتمام معنى الكلمة ، بل يكون الكلام متيناً صحيحاً حين يكون قابلاً للقبول ، ويكون قد صُبّ على أساس المقدّمات البرهانيّة والأوّليّات والمسلّمات والبديهيّات . إذ سيكون حينداك صحيحاً ، سواء قبله أحد بالفعل أم لم يقبل به .

ولقد كان هناك كلام صحيح كثير في هذا العالم لم يقبل به أحد ، لأنّ القبول ينبغي أن يحصل عن حسن عقيدة وصفاء نفس السامع وإدراكه وتعقّله لذلك المطلب ، وإلّا فإنّه سيرفضه .

أكانت صحيحة تلك الأقوال والآراء التي أبداها الأشاعرة والكثير من المتكلّمين والمحدثّين في هذا الباب ودوّنوها في كتبهم ؟

لقد كان سيّد الشهداء عليه السلام على الحقّ ، ولو طيف برأسه من بلد إلى بلد ، أو وضع في محفل يزيد فاحتسى عنده الخمر ، أو أُلِّف في يومنا هذا في المملكة العربيّة السعوديّة كتاب باسم «**حقائق أمير المؤمنين يزيد**» فدُرِّس في المدارس !

ومن هنا ، فإن الكلام الراسخ والصحيح هو القائم على أساس من البرهان القويم والبيّنة الإلهيّة ، فهذه المقدّمات البرهانيّة تلزم البشر بالقبول وتدينه في محكمة العدل الإلهيّ ، ولا علاقة في الأمر بالقبول أو عدم القبول الفعليّ . وحين يبيّن العلّامة مطلباً فيثبت فيه العلل الطوليّة المادّيّة والمجرّدة وصولاً إلى الحضرة الأحديّة ، وينشئ هذا المطلب على أُسس البرهان وعلى أساس الاستفادة من صريح الآيات القرآنيّة المباركة ، ويُظهر كالشمس ضرورة هذه الحقيقة ، فإنّ قوله راسخ ومتين وقول سواه فاسد مهزوز ، أشعرياً كان أم متكلّماً أم محدّثاً ، وسواء كان مثل كانْت أم مثل ديكارت .

لقد سار جميع الفلاسفة السابقين على هذا النهج : أن يرتّبوا تبعاً للنتائج الفكريّة التي يتوصّلون إليها مقدّمات معيّنة ، ويؤلّفوا في ذلك الكتب ، فيقدّم كلّ منهم مطلباً على هذا الأساس ، وللمخالف أن يشكّك فقط في مقدّماته البرهانيّة ، أو أن يردّها إن قدر على ذلك ، لا أن يتوقّف خلف متراس الجهل ، فيعلن عدم قبوله .

الجهة الثانية : لقد أثبت العلّامة في تفسيره مفصّلاً سلسلة العلل المادّيّة وارتباطها بالعلل المجرّدة المعنويّة والنوريّة ، وانتهاءها أخيراً إلى ذات الحقّ القدسيّة ؛ فالقول بطوليّة العلل هي من ضروريّات برهانه المتين ودليله القويم .

وقد أوضح هذه الحقيقة بشكل ساطع في الجزء الأوّل من تفسير

«الميزان» ، ضمن مقالة بشأن معنى المعجزة وكيفيّة تأثيرها في أبحاث سبعة ، وأورد على ذلك شواهد من آيات القرآن لم تبقِ مجالاً للشكّ ؛[1] فلِمَ ندّعِ في هذه الحالة بأنّ القول بالعلل الطوليّة ليس من ضروريّات الدين ؟ أو هناك أساس للدين غير الكتاب الإلهيّ ؟

وإذا اتّضح هذا المعنى بربط وتفسير آيات القرآن ، أفلا يكون بعدُ من ضروريّات الدين ؟!

يقول القرآن بوجود أسباب وعلل للحوادث الطبيعيّة ، ويقرّ قانون العلّيّة العامّ ، كما أنّ العقل يثبت هذا المعنى ، والتجربة تشير إلى أنّ أيّ احتراق أينما حصل فلابدّ من علّة تسبّبه ، سواء كانت تلك العلّة حركة أم احتكاكاً أم غير ذلك . لذا ، فالكلّيّة وعدم تخلّفها من أحكام العلّيّة والمعلوليّة ولوازمها .

ولقد أفصح القرآن الكريم عن روابط العلّيّة المادّيّة في أقواله وفي سياق بيانه وأُسلوبه في مسائل الحياة والموت والرزق ، ونزول المطر ونشوء العشب والزرع والشجر ، وجريان الماء ، وفي جميع الحوادث السماويّة والأرضيّة ، ولو أنّه أسند تلك الروابط في الخاتمة ـ على أساس مسألة التوحيد ـ إلى الله المتعال .

كما فعل في آية : **إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ**

١ـ «الميزان في تفسير القرآن» ج ١ ، ص ٧٢ إلى ٨٨ .

يَعْقِلُونَ.[1]

وكآية: **ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ**.[2]

حتّى أنّه يصرّح في موضعين من القرآن بأنّ هذه الفُلك التي تحملكم على الماء بُنيت على هيئة جُعل فيها مقدّمها حادّاً قاطعاً ليمكنه بذلك شقّ الماء في سيره وجريانه في البحر؛ وقد استخدم هذا النوع من الهياكل للسفن والطائرات تقليداً لأُسلوب خلقة الطيور التي يمكنها شقّ طريقها في الجوّ بسرعة لقلّة سطح تماسّها مع الهواء عند حركتها.

أي أنّ تأثير ودخل **مَاخِرَة**[3] (أي طراز وهيئة مقدّمة السفينة) يوجب حركة السفينة بيسر، فلم يكن القرآن الكريم ليدع بيان هذه العلّيّة أيضاً.

لقد جاء لفظ مواخر؛ أي جمع ماخرة؛ في موضعين من القرآن الكريم أوّلهما في سورة النحل: **وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**.[4]

وثانيهما في سورة فاطر: **وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**.[5]

حتّى أنّه بيّن العلّة في خلق الجبال في أنّها كالأوتاد تثبّت الأرض

١ـ الآية ١٦٤، من السورة ٢: البقرة.

٢ـ الآية ٣٢، من السورة ١٤: إبراهيم.

٣ـ يقول في أقرب الموارد في مادّة **مَخَرَ**: **تَمَخَّرَ وَاسْتَمْخَرَ** الريح: استقبلها بأنفه. الماخرة مؤنّث ماخر، ج: مواخر، الفُلك المواخر: التي تشقّ الماء مع صوت.

٤ـ الآية ١٤، من السورة ١٦: النحل.

٥ـ الآية ١٢، من السورة ٣٥: فاطر.

وتمسكها عن التلاشي والانهيار والمَيَدان :

أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا* وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا.[1]

وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ.[2]

كان هذا كلّه راجعاً لتصريح القرآن الكريم بشأن العلل الطبيعيّة والمادّيّة ، أمّا بشأن العلل المجرّدة وما وراء عالم المادّة والطبيعة ، كوجود الملائكة الذين يمثّلون واسطة الفيض من جانب الحقّ تعالى في تدبيرات جميع أُمور عالم الخلق ، فآيات القرآن واضحة في ذلك وبيّنة يمكن عدّها من ضروريّات هذا الكتاب السماويّ ، فسورة فاطر المباركة تبدأ بهذه الآية :

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُولِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ.[3]

الملائكة جمع **مَلَك** ، وهم عبارة عن موجودات خلقها الله سبحانه وجعلها وسائطاً بينه وبين هذا العالم المشهود ، وأوكل إليها تدبير أُمور العالم التكوينيّة والتشريعيّة .

وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا سُبْحَـٰنَهُۥ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ.[4]

١ـ الآيتان ٦ و٧ ، من السورة ٧٨ : النبأ .

٢ـ الآية ١٥ ، من السورة ١٦ : النحل .

٣ـ الآية ١ ، من السورة ٣٥ : فاطر .

٤ـ الآيتان ٢٦ و٢٧ ، من السورة ٢١ : الأنبياء .

وعبارة **جَاعِلِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا** بملاحظة أنّ الملائكة جمع محلّى بالألف واللام تبيّن أنّ جميع أفراد ومجاميع الملائكة هم رسل ووسائط بين الخالق وخلقه في إجراء الأوامر التي تعهد إليهم ، سواء في ذلك الأوامر التكوينيّة أم التشريعيّة .

وعلى هذا ، فلا موجب لتخصيص الآية بالملائكة النازلين على الأنبياء عليهم السلام والحاملين للوحي بخصوص الأحكام والشريعة ؛ إذ مضافاً إلى إطلاق لفظ **رُسُل** ، فإنّ لدينا آيات في القرآن الكريم عبّرت عن الرسل والوسائط بين الله وخلقه بغير تعبير الملائكة ، مثل آية :

حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ.[1]

وآية : **إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ**.[2]

وآية : **وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا إِنَّا مُهْلِكُوٓا أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ**.[3]

وأَجْنِحَة جمع **جَنَاح** ، وهو من الطائر بمنزلة اليد من الإنسان ، ليتوسّل به إلى التحليق في السماء والنزول إلى الأرض والطيران من مكانٍ لآخر . وبناء على هذا ، فإنّ الملائكة مجهّزة بقوى وخصوصيّات كالطائر الذي يُحرّك جناحيه ، وهي كذلك تحلّق من السماء إلى الأرض وتنتقل من مكان لآخر بواسطة هذه القوى والاجنحة .

وقد سمّاه القرآن **جناحاً** لترتّب القصد والغاية من الجناح عليه ، وهو الوصول للهدف والغاية ؛ فلا يلزم أن يكون من سنخ جناح الطير ذا ريش

١ـ الآية ٦١ ، من السورة ٦ : الأنعام .

٢ـ الآية ٢١ ، من السورة ١٠ : يونس .

٣ـ الآية ٣١ ، من السورة ٢٩ : العنكبوت .

وزغب ، إذ لا يستوجب مجرّد إطلاق لفظ جناح عليه أكثر من ذلك ، ونظيره في ذلك كلمات : **العَرْش** و**الكُرْسِيّ** و**اللَّوْح** و**القَلَم** وأمثالها الكثيرة في القرآن الكريم .

ومعنى **أُولِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ** أنّ بعض أصنافها مجهّز بقوّتَين وقدرتَين من الحقّ تعالى ، وبعض بثلاث قوى وبعض بأربع . وقوله بعد ذلك بلا فصل **يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ** مُشعر بحسب السياق أنّ بعض أصناف الملائكة مجهّز بأكثر من أربع قوى بما أراد الله لهم .

وللأُستاذ آية الله العلّامة الطباطبائيّ قدّس الله سرّه الشريف بيان في ذيل تفسير هذه الآية الكريمة المباركة بعنوان : **كَلَامٌ فِي المَلَائِكَةِ** نجد من المناسب إيراده هنا :

تكرّر ذكر الملائكة في القرآن الكريم ، ولم يذكر منهم بالتسمية إلّا **جِبرِيل** و**مِيكَال** ؛ وما عداهما مذكور بالوصف ، **كَمَلَكِ المَوْتِ** ، و**الكِرَامِ الكَاتِبِينَ** و**السَّفَرَةِ الكِرَامِ البَرَرَة** ، و**الرَّقِيب** ، و**العَتِيد** وغير ذلك .

والذي ذكره الله سبحانه في كلامه ـ وتشايعه الأحاديث السابقة ـ من صفاتهم وأعمالهم هو **أوّلاً** : أنّهم موجودات مكرمون ، هم وسائط بينه تعالى وبين العالم المشهود ، فما من حادثة أو واقعة صغيرة أو كبيرة إلّا وللملائكة فيها شأن وعليها ملك موكّل أو ملائكة موكّلون بحسب ما فيها من الجهة أو الجهات ، وليس لهم في ذلك شأن إلّا إجراء الأمر الإلهيّ في مجراه أو تقريره في مستقرّه ، كما قال تعالى : **لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ**.[1]

وثانياً : أنّهم لا يعصون الله فيما أمرهم به فليست لهم نفسيّة مستقلّة

١ـ الآية ٢٧ ، من السورة ٢١ : الأنبياء .

ذات إرادة مستقلّة تريد شيئاً غير ما أراد الله سبحانه، فلا يستقلّون بعمل ولا يغيّرون أمراً حملهم الله إيّاه بتحريف أو زيادة أو نقصان، قال تعالى:

لَا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ.[1]

وثالثاً: أنّ الملائكة على كثرتهم على مراتب مختلفة علوّاً ودنوّاً، فبعضهم فوق بعض، وبعضهم دون بعض، فمنهم آمر مطاع، ومنهم مأمور مطيع لأمره، والآمر منهم آمر بأمر الله حامل له الى المأمور، والمأمور مأمور بأمر الله مطيع له، فليس لهم من أنفسهم شئ البتة، قال تعالى:

وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ.[2]

وقال: **مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ.**[3]

وقال: **قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا ٱلْحَقَّ.**[4]

ورابعاً: أنّهم غير مغلوبين، لأنّهم إنّما يعملون بأمر الله وإرادته: **وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ.**[5]

وقد قال الله سبحانه: **وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِ.**[6]

وقال: **إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِ.**[7]

ومن هنا، يظهر أنّ الملائكة موجودات منزّهة في وجودهم عن المادّة الجسمانيّة التي هي في معرض الزوال والفساد والتغيّر، ومن شأنها

١ـ الآية ٦، من السورة ٦٦: التحريم.
٢ـ الآية ١٦٤، من السورة ٣٧: الصافّات.
٣ـ الآية ٢١، من السورة ٨١: التكوير.
٤ـ قسم من الآية ٢٣، من السورة ٣٤: سبأ.
٥ـ قسم من الآية ٤٤، من السورة ٣٥: فاطر.
٦ـ قسم من الآية ٢١، من السورة ١٢: يوسف.
٧ـ قسم من الآية ٣، من السورة ٦٥: الطلاق.

الاستكمال التدريجيّ الذي تتوجّه به إلى غايتها ، وربّما صادفت الموانع والآفات فحرمت الغاية وبطلت دون البلوغ إليها .

ومن هنا يظهر أنّ ما ورد في الروايات من صور الملائكة وأشكالهم وهيئاتهم الجسمانيّة إنّما هو بيان تمثّلاتهم وظهوراتهم للواصفين من الأنبياء والأئمّة عليهم السلام ، وليس من التصوّر والتشكّل في شيء .

ففرقٌ بين التمثّل والتشكّل ، فتمثّل الملك إنساناً هو ظهوره لمن يشاهده في صورة الإنسان ، فهو في ظرف المشاهدة والإدراك ذو صورة الإنسان وشكله ، وفي نفسه والخارج من ظرف الإدراك ملك ذو صورة ملكيّة .

وهذا بخلاف التشكّل والتصوّر ، فإنّه لو تشكّل بشكل الإنسان وتصوّر بصورته صار إنساناً في نفسه من غير فرق بين ظرف الإدراك والخارج عنه ، فهو إنسان في العين والذهن معاً . وقد تقدّم كلام في معنى التمثّل في تفسير سورة مريم .

ولقد صدّق الله سبحانه ما تقدّم من معنى التمثّل في قوله في قصّة المسيح ومريم :

فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا.[1]

وأمّا ما شاع من الألسن :

أَنَّ المَلَكَ جِسْمٌ لَطِيفٌ يَتَشَكَّلُ بِأَشْكَالٍ مُخْتَلِفَةٍ إلَّا الكَلْبَ وَالخِنزيرَ ؛ وَالجِنُّ جِسْمٌ لَطِيفٌ يَتَشَكَّلُ بِأَشْكَالٍ مُخْتَلِفَةٍ حَتَّى الكَلْبِ وَالخِنْزِيرِ.

فممّا لا دليل عليه من عقل ولا نقل من كتاب أو سُنّة معتبرة ؛ وأمّا ما

١ـ ذيل الآية ١٧ ، من السورة ١٩ : مريم .

ادّعاه بعضهم من إجماع المسلمين على ذلك، فمضافاً إلى منعه لا دليل على حجّيّته في أمثال هذه المسائل الاعتقاديّة.[1]

ولقد أقسم الله سبحانه في مواضع من القرآن الكريم بالملائكة المأمورين بإنجاز وظائف خاصّة، كما فعل في الآيات الأوائل من سورة النازعات:

وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا * وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا * وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا * فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا * فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا.[2]

ونلحظ في هذه الآيات أنّ الله تعالى قد بيّن أنّ تدبير جميع أُمور هذا العالم المشاهد المحسوس يحصل بواسطة هذه الملائكة، فجميع هذه الصفات من **النزع** و**النشط** و**السبح** و**السبق** و**التدبير** هي لنوع معيّن من الملائكة الذين ينزلون من ساحة الحقّ تعالى، فيكون شأنهم ومهمّتهم في مقامهم تدبير وإدارة أُمور هذا العالم.

ومع أنّ معنى **النَّازِعَات** و**النَّاشِطَاتِ** و**السَّابِحَاتِ** و**السَّابِقَاتِ** سيبدو لنا في الوهلة الأُولى غير واضح و لا مشخصّ، ومع أنّ المفسّرين قد ذكروا لها في تفاسيرهم معانٍ مختلفة، إلّا أنّنا نستطيع إزالة الإبهام والغموض عن الآية واكتشاف معناها بوضوح حين نلحظ أُسساً ثلاثة مهمّة:

الأوّل: وضوح معنى **ٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا**، أي الملائكة المدبّرين للحوادث والوقائع.

والثاني: بلحاظ ارتباط المعنى والمراد بين هذه الطوائف والمجاميع الخمس التي بيّنت صفاتها في الآية.

١ـ «الميزان في تفسير القرآن» ج ١٧، ص ٩ و ١٠.

٢ـ الآيات ١ إلى ٥، من السورة ٧٩: النازعات.

والثالث : بلحاظ إلفاء التفريعيّة الدالّة على التراخي في بداية **ٱلْمُدَبِّرَٰتِ** و**ٱلسَّـٰبِقَـٰتِ** ، وعدم الإتيان بها في بداية المجاميع الثلاث التي سبقتها ، أي **ٱلنَّـٰزِعَـٰتِ** و**ٱلنَّـٰشِطَـٰتِ** و**ٱلسَّـٰبِحَـٰتِ** .

وبيان ذلك أنّ فاء التفريع وردت في **فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا** فدلّت على تفرّع صفة التدبير من صفة السبق ، وهكذا الأمر في **فَٱلسَّـٰبِقَـٰتِ سَبْقًا** التي جاءت مع فاء التفريع الدالّة على تفرّع صفة السبق على صفة السَّبْح والسرعة .

ونفهم من ذلك أنّ هناك مجانسة خاصّة بين المعاني المقصودة من هذه الآيات الثلاث ، لأنّها تقول : **ٱلسَّـٰبِحَـٰتِ سَبْحًا * فَٱلسَّـٰبِقَـٰتِ سَبْقًا * فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا** ؛ ومفادها هو تدبيرها الأُمور بعد أن سبقت إليها ، وكان سبقها بعد أن سبحت وأسرعت إليها في وقت النزول .

وعليه فإنّ مفاد **ٱلسَّـٰبِحَـٰت** و**ٱلسَّـٰبِقَـٰتِ** هي نفس الملائكة **ٱلْمُدَبِّرَٰت** التي وصفت بهذه الصفات بلحاظ كيفيّة نزولها لتنفيذ ما أُوكل إليها من تدبير الأُمور .

ويمكن بنظرة أوسع اعتبار مجموع هذه الآيات الثلاث موافقاً لمفهوم الآية الشريفة القائلة :

لَهُۥ مُعَقِّبَـٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ.[1]

فالملائكة المأمورون بتدبير الأُمور للأشياء والحوادث ينزلون ، في حالٍ تكون معه أسباب وعلل تلك الأشياء والحوادث قد تجمّعت وتصارعت بينها للتأثير في **وجودها وعدمها** ، وفي **بقائها وزوالها** وفي أحوالها المختلفة ، لكنّ الملك المأمور بتدبير الأمر المبرم المحتوم الإلهيّ المتعلّق

١ـ صدر الآية ١١ ، من السورة ١٣ : الرعد .

بها ينزل بسرعة فيسبق بقيّة الأسباب ويتمّ ذلك السبب المقتضي تبعاً للإرادة والقضاء الإلهيّ، كي يتحقّق في النهاية ما في قضاء الحقّ تعالى وأمره المحتوم.

والآن وقد استبان المراد من هذه الآيات الثلاث المشيرة إلى سرعة الملائكة في نزولها لتنفيذ مهمّاتها، وسبقها في تدبيرها، فينبغي حمل آيتي: **وَٱلنَّـٰزِعَـٰتِ غَرْقًا * وَٱلنَّـٰشِطَـٰتِ نَشْطًا** على نزعها وخروجها من موقف الخطاب إلى مهمّتها وتدبير أمرها.

فنزوعها هو شروعها في الحركة والنزول إلى هدفها وغايتها، المتحقّق بشدّة وجديّة، ونشطها: خروجها من ذلك الموقف، كما أنّ سبحها هو سرعتها بعد الخروج، ويعقبه سبقها لتنفيذ الأمر، أي تدبيره بإذن الحقّ تعالى.

وعلى هذا، فإنّ هذه الآيات الخمس تمثّل قسم الحقّ تعالى بالصفات المختلفة التي تتلبّس بها الملائكة لتدبير أمر من أُمور هذا العالم المشهود، من شروع نزولها إلى انتهاء أمر التدبير.

وأمّا إطلاق التدبير في هذه الآية وعدم تقييده بشيء، فمُشعر بأنّ المراد هو جميع أقسام التدبيرات في هذا العالم؛ و«**أَمْـرًا**» إمّا تمييز أو مفعول للمدبّرات. أي أنّ الملائكة مدبّرة للأمر أو لهجة الأمر، ومطلق التدبير هو الشأن المطلق للملائكة، ولذا فإنّ المراد من **ٱلْـمُدَبِّرَٰتِ أَمْـرًا** ينبغي أن يكون مطلق الملائكة.

أمّا التعبير عن الملائكة بصيغة التأنيث (في قوله: «وَالنّٰزِعٰت») فلا إشكال فيه، لأنّ موصوفها عنوان جماعة وتأنيثها لفظيّ، ويمكن أن يكون باعتبار الروح التي تنزل الملائكة معها، كما في قوله:

يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ.[1]

وقوله : **يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ**.[2]

ولهذه الآيات مشابهة تامّة بالآيات الأوائل من سورة الصافّات :

وَٱلصَّـٰٓفَّـٰتِ صَفًّا * فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا * فَٱلتَّـٰلِيَـٰتِ ذِكْرًا.

وبالآيات الأوائل من سورة المرسلات : **وَٱلْمُرْسَلَـٰتِ عُرْفًا * فَٱلْعَـٰصِفَـٰتِ عَصْفًا * وَٱلنَّـٰشِرَٰتِ نَشْرًا * فَٱلْفَـٰرِقَـٰتِ فَرْقًا * فَٱلْمُلْقِيَـٰتِ ذِكْرًا** ، التي كانت هي الأخرى في مجال بيان أوصاف الملائكة المأمورين بأمر الله سبحانه والذين هم في مقام الامتثال والطاعة ، باختلاف أنّها تتحدّث فقط عن الملائكة الحاملين للوحي ، بينما كانت الآيات مورد البحث في مجال وصف مطلق الملائكة المدبّرة لأُمور العالم ، الذين يتّصفون في تدبيرهم بإذن الله بتلك الصفات التي جرى ذكرها .

وحاصل البحث هو أنّه يمكن انطباق الصفات التي أقسم الله سبحانه بها في آيات سورة النازعات على صفات الملائكة في سعيهم وحركتهم وامتثالهم لأوامر ساحة العزّ القدسيّة للباري ، الصادرة إليهم والمتعلّقة بهم في تدبير أُمور هذا العالم المشهود ، ليقوموا بإذن الحقّ تعالى بتدبيرها .

ولسماحة آية الله العلّامة كلام في ذيل تفسير هذه الآيات تحت عنوان : **كَلَامٌ فِي أَنَّ المَلَائِكَةَ وَسَائِطُ فِي التَّدْبِير** ، نورده هنا للمناسبة :

الملائكة وسائط بينه تعالى وبين الأشياء بدءاً وعوداً على ما يعطيه القرآن الكريم ، بمعنى أنّهم أسباب للحوادث فوق الأسباب المادّيّة في

١ـ صدر الآية ٢ ، من السورة ١٦ : النحل .

٢ـ ذيل الآية ١٥ ، من السورة ٤٠ : المؤمن .

العالم المشهود قبل حلول الموت والانتقال إلى نشأة الآخرة وبعده .

أمّا في العود ، أعني حال ظهور آيات الموت ، وقبض الروح ، وإجراء السؤال ، وثواب القبر وعذابه ، وإماتة الكلّ بنفخ الصور ، وإحيائهم بذلك ، والحشر ، وإعطاء الكتاب ، ووضع الموازين ، والحساب ، والسوق إلى الجنّة والنار ، فوساطتهم فيها غنيّة عن البيان ، والآيات الدالّة على ذلك كثيرة لا حاجة إلى إيرادها ، والأخبار المأثورة فيها عن النبيّ الأكرم وأئمّة أهل البيت عليهم السلام فوق حدّ الإحصاء . وكذا وساطتهم في مرحلة التشريع من النزول بالوحي ودفع الشياطين عن المداخلة فيه ، وتسديد النبيّ وتأييد المؤمنين وتطهيرهم بالاستغفار .

وأمّا وساطتهم في تدبير الأُمور في هذه النشأة ، فيدلّ عليها ما في مفتتح هذه السورة من إطلاق قوله : **وَٱلنَّـٰزِعَـٰتِ غَرْقًا * وَٱلنَّـٰشِطَـٰتِ نَشْطًا * وَٱلسَّـٰبِحَـٰتِ سَبْحًا * فَٱلسَّـٰبِقَـٰتِ سَبْقًا * فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا** بما تقدّم من البيان .

وكذا قوله تعالى : **جَاعِلِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُولِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ** الواردة في سورة فاطر ، الظاهر بإطلاقه ـ على ما تقدّم من تفسيره ـ في أنّهم خُلقوا وشأنهم أن يتوسّطوا بينه تعالى وبين خلقه ، ويُرسَلوا لإنفاذ أمره الذي يستفاد من قوله تعالى في صفتهم : **بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ** ،[1] وقوله : **يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** ،[2] وفي جعل الجناح لهم إشارة إلى هذه الحقيقة .

فلا شغل للملائكة إلّا التوسّط بينه تعالى وبين خلقه بإنفاذ أمره فيهم ،

١ـ الآيتان ٢٦ و٢٧ ، من السورة ٢١ : الأنبياء .

٢ـ الآية ٥٠ ، من السورة ١٦ : النحل .

وليس ذلك على سبيل الاتّفاق بأن يجري الله سبحانه أمراً بأيديهم ثمّ يجري مثله لا بتوسيطهم، فلا اختلاف ولا تخلّف في سنّته تعالى: **إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ**؛[1] وقال: **فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا**.[2]

ومن الوساطة كون بعضهم فوق بعض مقاماً، وأمر العالي السافل بشيء من التدبير، فإنّه في الحقيقة توسّط من المتبوع بينه تعالى وبين تابعه في إيصال أمر الله تعالى، كتوسّط ملك الموت في أمر بعض أعوانه بقبض روح من الأرواح، قال تعالى حاكياً عن الملائكة:

وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ.[3]

وقال: **مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ**.[4]

وقال: **حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا ٱلْحَقَّ**.[5]

ولا ينافي هذا الذي ذُكر من توسّطهم بينه تعالى وبين الحوادث، أعني كونهم أسباباً تستند إليها الحوادث استناد الحوادث إلى أسبابها القريبة المادّيّة، فإنّ السببيّة طوليّة لا عرضيّة، أي أنّ السبب القريب سبب للحادث، والسبب البعيد سبب للسبب.

كما لا ينافي توسّطهم واستناد الحوادث إليهم استناد الحوادث إليه تعالى وكونه هو السبب الوحيد لها جميعاً على ما يقتضيه توحيد الربوبيّة، فإنّ السببيّة طوليّة كما سمعت لا عرضيّة، ولا يزيد استناد الحوادث إلى

١ـ الآية ٥٦، من السورة ١١: هود.
٢ـ الآية ٤٣، من السورة ٣٥: فاطر.
٣ـ الآية ١٦٤، من السورة ٣٧: الصافّات.
٤ـ الآية ٢١، من السورة ٨١: التكوير.
٥ـ الآية ٢٣، من السورة ٣٤: سبأ.

الملائكة استنادها إلى أسبابها الطبيعيّة القريبة ، وقد صدّق القرآن الكريم استناد الحوادث إلى الحوادث الطبيعيّة كما صدّق استنادها إلى الملائكة .

وليس لشيء من الأسباب استقلال قباله تعالى حتّى ينقطع عنه ، فيمنع ذلك استناد ما استند إليه إلى الله سبحانه ما يقول به الوثنيّة من تفويضه تعالى تدبير الأمر إلى الملائكة المقرّبين ، فالتوحيد القرآنيّ بنفي الاستقلال عن كلّ شيء من كلّ جهة :

لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَلَا مَوْتًا وَلَا حَياةً وَلَا نُشُورًا.[1]

فمثل الأشياء في استنادها إلى أسبابها المترتّبة القريبة والبعيدة وانتهائها إلى الله سبحانه بوجهٍ بعيد كالكتابة التي يكتبها الإنسان بيده وبالقلم . فللكتابة استناد إلى القلم ، ثمّ إلى اليد التي توسّلت إلى الكتابة بالقلم ، وإلى الإنسان الذي توسّل إليها باليد وبالقلم ، والسبب بحقيقة معناه هو الإنسان المستقلّ بالسببيّة من غير أن ينافي سببيّته استناد الكتابة بوجه إلى اليد وإلى القلم .

ولا منافاة أيضاً بين ما تقدّم أنّ شأن الملائكة هو التوسّط في التدبير وبين ما يظهر من كلامه تعالى أنّ بعضهم أو جميعهم مداومون على عبادته تعالى وتسبيحه والسجود له ، كقوله :

وَمَن عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ.[2]

١ـ هذه الجملة ليست عين الآية القرآنيّة ، بل اقتباس من الآية ٣ ، من السورة ٢٥ : الفرقان، القائلة : **وَٱتَّخَذُوا مِن دُونِهِ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا.**

٢ـ الآيتان ١٩ و ٢٠ ، من السورة ٢١ : الأنبياء .

وقوله : **إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ**.[1]

وذلك لجواز أن تكون عبادتهم وسجودهم وتسبيحهم عين عملهم في التدبير وامتثالهم الأمر الصادر عن ساحة العزّة بالتوسّط ،كما ربّما يومي قوله تعالى :

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ.[2]

كانت هذه أُمور راجعة إلى تفسير الآيات الأوائل لسورة النازعات وبيان وظيفة وشأنيّة الملائكة الموكّلين بتمام الأُمور ، وأمّا بشأن خصوص الملائكة الموكّلين بأمر الوحي وبيان صفات وكيفيّة إلقاء الوحي ، فقد ورد قسم الله تعالى بهم في موضعَين من القرآن الكريم غير المواضع السابقة :

أوّلهما : في ابتداء سورة الصافّات حيث يقول :

وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا * فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا * فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا * إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ.[3]

وهذه الآيات التي وردت بالقسم هي أوّل الآيات الواردة بالقسم في القرآن الكريم ، ويحتمل أن يكون المراد بهذه الطوائف الثلاث المذكورة طوائف الملائكة الذين ينزلون بالوحي على النبيّ الأكرم ، والمأمورون بتأمين طريق الوحي وحفظه مصوناً ، ودفع الشياطين عن المداخلة في

١ـ الآية ٢٠٦ ، من السورة ٧ : الأعراف .

٢ـ «الميزان في تفسير القرآن» ج ٢٠ ، ص ١٨٣ إلى ١٨٥ . والآية هي الآية ٤٩ ، من السورة ١٦ : النحل.

٣ـ الآيات ١ إلى ٤ ، من السورة ٣٧ : الصافّات .

الوحي ، ثمّ إيصاله إمّا إلى مطلق الأنبياء أو إلى خصوص **محمّد بن عبد الله** صلّى الله عليه وآله وسلّم ،كما يستفاد من قوله تعالى :

عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا * لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًا.[١]

وعليه ، فسيكون معنى الآيات مورد البحث : أُقسم بالملائكة الذين يصفّون في طريق الوحي صفّاً ، فبالذين يزجرون الشياطين ويمنعونهم عن المداخلة في الوحي بعد صفّهم صفّاً ، فبالذين يقومون بعد زجر الشياطين وطردهم بتلاوة الذكر على الأنبياء أو بتلاوة القرآن على خاتم الأنبياء .

ويؤيّد هذا التفسير تعبيره عنه بالتلاوة ، ويؤيّده أيضاً ما ورد في هذه السورة بعد هذه الآيات من رمي الشياطين بالشهاب الثاقب .

ولا ينافي نزول القرآن بواسطة هؤلاء الملائكة المتعدّدين نزوله بواسطة جبرائيل وحده في قوله : **مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ.**[٢]

وقوله : **نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ.**[٣]

لأنّ هذه الصنوف من الملائكة إنّما هم أعوان جبرائيل في إنزال القرآن ، فنزولهم به في الحقيقة هو نزوله . وقد قال تعالى :

فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِى سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ.[٤]

١ـ الآيات ٢٦ إلى ٢٨ ، من السورة ٧٢ : الجنّ .

٢ـ صدر الآية ٩٧ ، من السورة ٢ : البقرة .

٣ـ الآيتان ١٩٣ و ١٩٤ ، من السورة ٢٦ : الشعراء .

٤ـ الآيات ١٣ إلى ١٦ ، من السورة ٨٠ : عبس .

وقال أيضاً : **وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ**.[1]

وقال حكاية عنهم : **وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ**.[2]

فنوع وأُسلوب نزول القرآن بوساطة الملائكة وبوساطة جبرائيل كالتوفّي وقبض الأرواح الذي يُنسب أحياناً إلى الملائكة ، كما في قوله تعالى : **حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا**.[3]

ويُنسب أحياناً إلى مَلَك الموت وهو رئيسهم ، في قوله تعالى :

قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ.[4]

وثانيهما : في بداية سورة المرسلات ، فيقول :

وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا * فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا * وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا * فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا * فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا * عُذْرًا أَوْ نُذْرًا * إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ.[5]

ويظهر من هذه الآيات أيضاً ؛ لوضوح معنى **فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا** وهو تلقين الوحي ، ولتفرّعه بفاء التفريع على **فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا** من الفصل والتمييز ، وهذه بدورها مترتّبة بفاء التفريع على **وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا** من البسط والنشر ؛ على أنّ هذه الصفات الثلاث هي صفات مجموعة واحدة من الملائكة النازلين بالوحي على النبيّ أو على الأنبياء .

ولقرينة اتّحاد السياق بين جميع الآيات فإنّ المراد من المرسلات عرفاً والعاصفات عصفاً هذه المجموعة أيضاً . فهم يرسلون في الوهلة

١ـ الآيتان ١٦٥ و١٦٦ ، من السورة ٣٧ : الصافّات .

٢ـ صدر الآية ٦٤ ، من السورة ١٩ : مريم .

٣ـ الآية ٦١ ، من السورة ٦ : الأنعام .

٤ـ الآية ١١ ، من السورة ٣٢ : السجدة .

٥ـ الآيات ١ إلى ٧ ، من السورة ٧٧ : المرسلات .

الأُولى جماعات متتابعة ، فيسرعون في سيرهم وحركتهم ، فينشرون الصحف ويبسطونها ، ويفرقون بين الحقّ والباطل ، ويقرؤون الصحف المكرمة الإلهيّة على الرسول الأكرم أو على الرسل ويلقونها عليهم .

ولهذا ، فإنّ محطّ ومتعلّق القسم خصوص ملائكة الوحي الذين يتّصفون بهذه الصفات الخمس .

أمّا الآيات التي وردت في القرآن الكريم في غير موارد القسم لبيان الأعمال المختلفة للملائكة فكثيرة ، منها ما ورد في سورة آل عمران مثلاً في ذكر الملائكة الثلاثة آلاف الذين نزلوا في غزوة بدر الكبرى لنصرة المسلمين وإمدادهم ، والتي بيّنت أنّه في حال صبر المسلمين وتقواهم فإنّ خمسة آلاف ملك سينزلون عليهم :

إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ * بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ * وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ.[1]

ولا منافاة بين نزول ونصرة الملائكة الثلاثة آلاف في هذه الآية مع نزول ألف ملك منهم كما ورد في سورة الأنفال ، لأنّ نزول الألف ملك هنا قد قيّد بلفظ **مُرْدِفِينَ** ، أي ألف ملك يردفهم ملائكة آخرون ، وهي دلالة على أنّ الملائكة نزلوا في **غزوة بدر** على هيئة مجموعة من ألف ملك في الوهلة الأُولى ، أردفهم بعدهم الألفان الآخران ؛ أمّا تعبير سورة الأنفال فقد كان :

١ـ الآيات ١٢٤ إلى ١٢٦ ، من السورة ٣ : آل عمران .

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ * وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ.[1]

وكذلك فقد ورد في قضيّة إفشاء حفصة بنت عمر السرّ الذي أوصاها رسول الله بكتمانه، فباحت به إلى عائشة، ثمّ أفشتاه كلاهما، فكانتا عاصيتَين لأمر الرسول، أن هدّدهما القرآن إن تظاهرا على الرسول فإنّ الله وجبرائيل وأمير المؤمنين سيحميانه وينصرانه عليهما، والملائكة بعد ذلك مُعين في هذا الأمر:

إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَـٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَـٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ.[2]

وقد ثبت وجود الملائكة ذوي النفوس المجرّدة بالأدلّة العقليّة، **فالمُثل الإفلاطونيّة** التي أحياها المرحوم صدر المتألّهين قدّس الله سرّه وأثبت وجودها إنّما هي ملائكة **وَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا**.

يرى أهل الكشف والشهود الملائكة، بصورتهم التمثّليّة، لأنّ الملائكة كما ذكرنا مخلوقات مجرّدة لا يمكنها التلبّس بلباس المادّة، خلافاً للجنّ والشيطان اللذان هما موجودان مادّيّان ناريّان لهما شكل وصورة، فهؤلاء الجنّ متشكّلون، أمّا أُولئك الملائكة فمتمثّلون، أي أنّهم يظهرون في القوى الذهنيّة للإنسان بصورة مناسبة.

ولقد أحاطت حقيقة جبرائيل، ذلك الموجود المجرّد النورانيّ، حين ظهر لرسول الله على تلك الصورة، بمشرق العالم وغربه، لكنّه كان يتمثّل

١ـ الآيتان ٩ و١٠، من السورة ٨: الأنفال.

٢ـ الآية ٤، من السورة ٦٦: التحريم.

أحياناً بصورة **دِحْيَة الكَلْبِيّ** ، فكان رسول الله يراه في تلك الحال على حقيقته ، والآخرون يرونه ويتخيّلونه دحية ، في حين أنّه لم يكن دحية بل متمثّلاً بمثال وصورة دحية في أنظار الناظرين .

يقول ابن **الفارض المصريّ** العارف الجليل :

وَهَا دِحْيَةٌ وَافَى الأَمِينَ نَبِيَّنَا بِصُورَتِهِ فِي بَدْءِ وَحْيِ النُّبُوَّةِ
أَجِبْرِيلُ قُلْ لِي : كَانَ دِحْيَةَ إِذْ بَدَا لِمُهْدِي الهُدَى فِي هَيْئَةٍ بَشَرِيَّةِ
وَفِي عِلْمِهِ عَنْ حَاضِرِيهِ مَزِيَّةٌ بِمَاهِيَّةِ المَرْئِيِّ مِنْ غَيْرِ مِرْيَةِ
يَرَى مَلَكاً يُوحِي إِلَيْهِ وَغَيْرُهُ يَرَى رَجُلاً يُدْعَى لَدَيْهِ بِصُحْبَةِ[1]

الجهة الثالثة : قوله بكلّ بساطة أن لا لزوم لتكلّف الإنسان في رفضه لآراء العلّامة الطباطبائيّ ، لأنّ للعلّامة أُصولاً مفروضة ومسلّمة لهذا المدّعى يكفي لردّها أن يرفض الإنسان ـ كما فعل كَانْت ـ أُسس ما وراء الطبيعة ، وحينئذٍ سينهار بناؤه ويتداعى .

وكانت عين عباراته هي :

ونضيف إلى ذلك بأنّ مسلّمات العلّامة الطباطبائيّ ليست هذه الأُصول المعدودة المشهورة بأيّ وجه من الوجوه ، فقد افترض أيضاً أُسساً في علم المعرفة ، مثل أنّ الإنسان يمكنه ـ خلافاً لرأي كانْت ـ أن يقيم فلسفة ما وراء الطبيعة ، وأن يُثبت فيها آراءً بالقطع واليقين ، وأنّ رأي ما وراء الطبيعة يمثّل معنى وليس بلا معنى ـ كما يزعم فلاسفة المذهب التحليليّ الجدد ـ وعلى هذا يكفي أن يتبنّى الشخص آراء كانْت، أو حتّى أقلّ من ذلك بأن يتبع مدرسة أهل الحديث ، لتنهار مبانيه وتسقط ، ويتّضح من هذه النماذج والأمثلة جيّداً مزج الآراء الخارجيّة ـ بما فيها الفلسفيّة والتجريبيّة ـ مع الآراء الدينيّة ، وتركيب

١ـ «ديوان ابن فارض» التائيّة الكبرى ، ص ٧٣ ، الأبيات ٢٨٠ إلى ٢٨٣ .

هذين الاثنين لإنشاء فهم جديد.[1]

والجواب على هذه المقولة هو أنّ التعامل مع المطالب والآراء الفلسفيّة قبولاً أو رفضاً يختلف عن التعامل مع المأكولات والمشروبات التي قد يسيغ المرء أحياناً نوعاً منها، وقد يختار نوعاً آخر أحياناً أُخرى.

فالحكيم يرتّب مقدّمات معيّنة على أساس المنطق القويم والبرهان المتين ليحصل على نتيجة ما، فيلزم العالم ويجبره على قبول رأيه واستنتاجه؛ فما علاقة كانْت وديكارت بهذا الأمر ؟! وما علاقة الجهل والعمى حين يتعلّق الأمر بالعلم والبصيرة ؟! وما فائدة نسج الخرافات والأباطيل أمام سطوع شمس العقل والدراية ؟!

وعلى مخالفي مقولة الحكيم أن يخرجوا ما لديهم في جعبتهم من دفاع، وما يُخبّئون في أكمام أرديتهم من ردود لإبطال مقدّمات برهانه، أي إبطال صغرى المسألة أو كُبراها، أو التشكيك في قياسه الاستثنائيّ، فالغلبة ستكون لهم إن تمكّنوا من ذلك، ولا اعتراض لأحد في الأمر، كانْت أم غيره.

أمّا عند العجز عن التشكيك في الأُصول العقليّة والمقدّمات البرهانيّة المسلّمة للحكيم، فما الذي يمكن أن ينطوي عليه الحديث عن هذا أو ذاك، وأتباع رأي هذه المدرسة أو تلك، غير الإقرار بالجهل والإغراء به ؟!

١ـ مقالة «بسط وقبض تئوريك در شريعت»، مجلّة «كيهان فرهنگى»، العدد ٥٤، تيرماه ١٣٦٧ شمسيّ. رقم ٤، ص ١٥، العمود الثالث.

الإشكال الثامن

منطق القرآن هو حجّيّة العقل واليقين
لا الفرضيّات الوهميّة

الإشكال الثامن على صاحب المقالة هو قوله : ينبغي اتّباع ما ورد في كتب عصرنا الحاضر باسم العلم ، والذي ابتُنِي على أساس الفرضيّات والنظريّات وطائفة من الأُمور اليقينيّة ، واعتباره من المسلّمات ، ولو خالف ظاهر القرآن الكريم ، فإنّ العلم الذي هو في حال تحوّل وتغيّر دائميّ يستتبع تحوّل وتغيّر المعارف والاستنباطات من الدين ؛ خلافاً لنظرية **پيردوئم** الفيلسوف والفيزيائيّ الفرنسيّ الذي يعتبر الفرضيّات العلميّة وسائل لتنظيم الحوادث ، ويسمّي علمه صراحةً بالعلم اليقينيّ الإيجابيّ ، وقد بنى نظريّته بحيث إنّ الفرضيّات العلميّة لاحظّ لها في إظهار الواقع ، بل تنحصر في كونها أساليب لتنظيم وتنسيق الحوادث وجعلها قابلة للمحاسبات .

ثمّ انتقد العلّامة الطباطبائيّ قدّس الله سرّه في إظهاره ميلاً لهذا الاتّجاه في مقاطع من آرائه التفسيريّة ، واعتباره حفظ ظواهر الكتاب مستلزماً لاعتبار بعض الفرضيّات العلميّة كوسائل .

ثمّ قال :

> إنّ الإنسان ما لم يدوّن وينقّح معارفه (وعلومه الإنسانيّة ومعرفته للعالم)، وينزّه نفسه عن المخالفة غير المبرّرة ، فإنّه لن يمتلك معرفة دينيّة عميقة ذات متانة وصلابة كافية.
>
> وفوق هذا ، فإنّ هذه المعارف البشريّة السيّالة ستجبر المعرفة

الدينيّة أن تتوائم معها في السيلان والجريان.

ولقد كتب في تفسير مطلع سورة النساء، **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً**: أنّ ظاهر الآية القريب من النصّ هو أنّ النسل الموجود من الإنسان ينتهي إلى آدم وزوجته، لم يشاركهما فيه غيرهما.

ثمّ ينقل نظريّة القائلين بالأنواع، ويضيف: أنّ هذه الفرضيّة قد افترضت لتبرير وتوجيه ما يلحق بهذه الأنواع من الخواصّ والآثار لاتطوّر ذواتها، من غير قيام دليل عليها بالخصوص ونفي ما عداها، فإنّ التجارب لم تتناول فرداً من أفراد هذه الأنواع تحوّل إلى فرد من نوع آخر، كتحوّل قرد إلى إنسان، وإنّما تتناول بعض هذه الأنواع من حيث خواصّها ولوازمها وأعراضها.

ولهذا السبب، فإنّ الهدف من تلك الفرضيّة التي لم يقم دليل قطعيّ عليها هو توجيه وتبرير المسائل الخاصّة والمنحصرة بها. لذا فإنّ قول القرآن الكريم بأنّ الإنسان نوع مستقلّ عن سائر الأنواع غير معارض بأيّ كلام علميّ.[1]

ثمّ يقول:

قارنوا كلام المرحوم الطباطبائيّ بكلام داروين حين يعتبر فرضيّته لدلائل خاصّة ـكالقدرة مثلاً على تنظيم الظواهر وظهور النماذج البديعة وغير المنتظرة ـ فرضيّة معتبرة ومدعومة، وفي اعتباره تحوّل الأنواع أمراً نظريّاً علميّاً. ولاحظوا كذلك معيار العلّامة الطباطبائيّ حين يطلب مشاهدته رأي العين تحوّل قرد إلى إنسان لتصحّ عنده تلك النظريّة وتحوز رتبتها العلميّة، أي أنّه في النهاية ينهي المطلب ويجعله معتمداً على فلسفة العلم أو علم المعرفة.

ثمّ يقول:

١ـ «الميزان» ج ٤، ص ١٣٤ فصاعداً.

وليس واضحاً لي هل عمل المرحوم الطباطبائيّ على بسط نظره وتنميته في مجال امتحان واختبار الفرضيّات العلميّة ورفضها أو قبولها، أم لا ؟ [1] أوَ حَقّاً أنّه يعد شرط صدق النظريّات في كلّ مكان أن تشاهد مصاديقها النظريّة بشكل مباشر أم لا ؟ أوَ هل أقام بنفسه معرفة صحيحة ومنقّحة أم لا ؟ أوَ هل يعتقد بهذا الرأي كذلك في باب نظريّة كوبرنيك مثلاً ، فيطالب برؤية حركة الأرض حول الشمس ، أو بمشاهدة سكون الشمس ، وإلّا فإنّه لن يقبل بها ؟ أوَ يطالب في الكيمياء بمشاهدة جزيء كلوريد الصوديوم أو البنزين مباشرة؟

أوَ يعتبر المشاهدة بالاستعانة بالآلات مشاهدة أيضاً أم لا ؟ (كالمشاهدة من خلال الميكروسكوب أو التلسكوب). أوَ يعتبر الوسائل والأدوات امتداداً للحواسّ البشريّة فقط أم يعدّها نظريّات مجسّمة ؟ وهل يعدّ المشاهدة بلا نظريّة ، وغير المسبوقة بفرضيّة ما أمراً ميسّراً أم لا ؟

مهما كان الجواب فمن المسلّم أنّه ما لم يقدّم جواباً إجماليّاً أو تفصيليّاً لهذه الأسئلة فإنّ ذلك الحكم في باب فرضيّة التكامل والتطوّر ، ذلك المعيار لاختيار النظريّات العلميّة سيبقى ناقصاً غير كافٍ. [2]

لقد أجبنا في هذا الكتاب على هذه المقولة بالنقوض والإيرادات

١ـ يقول في الهامش ، ص ١٠٥ و١٠٦: جاء في المقالة الخامسة من «أُصول فلسفه وروش رئاليسم» (= أُسس الفلسفة والمذهب الواقعيّ) تحت عنوان «نشوء الكثرة في الإدراكات» في باب الفرضيّات العلميّة : ويمكن القول بشكل عامّ إنّ فرض الفرضيّة في علمٍ ما ليس لأجل الاستنتاج العلميّ ، أي ليس لإيجاد علمنا بمسائل ونظريّات ذلك العلم المعيّن، بل إنّه لتشخيص خطّ السير لئلّا يضلّ سلوكنا العلميّ خطّ سيره... تماماً كقدم الفِرجار الثابت الذي يمنع بثباته ورسوخه ضلال وتخبّط خطّ سير القدم المتحرّك.

٢ـ مجلّة «كيهان فرهنگى» بالفارسيّة ، العدد ٥٢ ، ص ١٦ ، العمود السادس، وص ١٧ ، العمود الأوّل.

التي أوردناها على كتاب «خلقت انسان» (= خلق الإنسان) ، وبرهنّا هناك أنّ مسألة تغيّر وتطوّر الأنواع لا تعدو عن كونها فرضيّة ليس إلّا ، ولا يمكن تسميتها قانوناً . فالأفراد الذين يدلون بآرائهم في هذه القضيّة يستدلّون على وجوب التطوّر والتبدّل بوجود التكامل في الأنواع ، ولا يملكون لقولهم هذا من برهان إلّا لفظ **يجب** . إنّ الاستقراء الناقص الذي أُجري على الأنواع فأثبت وجود التكامل فيها لا علاقة له بمسألة تغيّر الأنواع وتبدّلها ، فلا يمكن إثبات هذا الحكم بثبوت ذاك ، ولا يمكن من ترتيب المقدّمات الظنّيّة الاستقرائيّة في الأنواع استخلاص نتيجة كلّيّة لجميع الأنواع ، وحتّى لتغيّرها وتطوّرها ، فكلمات **داروين** وأقواله مخدوشة .

وقد أُلِّفت الكتب في مهاجمته ومهاجمة نظريّته ، وقد انحسر اليوم اعتبار هذا الكلام وقيمته في محافل العلم ، فلم يعد أحد يلقي إليه بالاً .

وعلينا حين نلحظ ظهور القرآن الكريم القريب من النصّ على أنّ ولادة جميع أفراد البشر من آدم شخصيّ واحد وزوجته ، أن لا نرفع اليد عن هذا الظهور لمجرّد الحدس والتخمين .

لقد نهى القرآن الكريم عن العمل بالظنّ ، فلا يحقّ للإنسان إلّا أن يسلك طريق العلم والقطع واليقين . فأيّ دليل قطعيّ ويقينيّ قد قُدّم على اتّصال البشر بالقرد ؟!

لقد تصوّر داروين أنّ ذلك الاتّصال كان عن طريق القرد ، وقد ردّ مقولته القائلون بتبدّل الأنواع لدلائل كثيرة ، وصاروا يقولون بوجود حلقة مفقودة ، فهم عنها يبحثون .

أمّا **القائلون بثبات الأنواع** فيرفضون مطلقاً مسألة التبدّل والتغيّر ، ويعدّونه منحصراً في داخل الأنواع ، لا تغيّر نوع إلى آخر ، أو تغيّر ماهيّة وتطوّرها إلى ماهيّة أُخرى .

فأيّ دليل يقينيّ وعلميّ وتجربيّ أُقيم في علوم الحياة على قاطعيّة تغيّر الأنواع ؟!

إنّ الحكيم والعالم لا يتكلّم إلّا عن طريق العلم ، تاركاً المحتملات في بوتقة الاحتمال وفي بقعة الإمكان . وقد كان كلام العلّامة في باب تغيّر الأنواع من أعلى الأحكام والنتائج التي ينبغي أن تستحصل ، لأنّه يقول : لم يقم هناك دليل علميّ لتغيّر الأنواع فيُثبت الأمر باليقين والمشاهدة ، فيبقى إذَن احتمال الرأي الآخر المقابل لهذا الكلام على قوّته واعتباره ، ولا يمكن رفع اليد عن ظاهر القرآن بدون حجّة عقليّة .

ولم يكن المقصود بالمشاهدة الرؤية ، كي يحاول بزيادة الأمثلة والتشكيك رفضاً أو قبولاً افتعال أجواء معيّنة وتوسعة ساحة المغالطة ؛ بل كان المقصود بها اليقين والقطع ، فالجميع يعلم أنّ المراد من مشاهدة التركيبات الكيميائيّة هو الفعل والانفعال الحاصل بين شيئين ليحصل وينتج منهما شيء ثالث ، والمراد من مشاهدة حركة الأرض قاطعيّة ذلك على أساس قانون البندول وتجربة **فوكو** ، لا الإحساس بحركتها شأن حركة مهد الطفل .

كانت هذه إجاباتنا على افتراض مجيء لفظ الرؤية أو المشاهدة في عبارة العلّامة قدّس الله نفسه ، مع أنّ الأمر لم يكن كذلك ، بل هو تحريف ظاهر واضح من صاحب المقالة لكلام العلّامة ، فلقد كانت عباراته في تفسير «الميزان» **لَمْ يَتَنَاوَل** ، ولا ربط لها بمعنى ومفهوم العلم والمشاهدة والرؤية ، وأعمّ وأشمل في معناها .

وممّا يُثير العجب الشديد أن يقول صاحب المقالة في انتقاده لكلمات العلّامة كما ذكرنا : «إنّ الإنسان ما لم يدوّن وينقّح معارفه (وعلومه الإنسانيّة ومعرفته للعالم) وينزّه نفسه عن المخالفة غير المبرّرة ، فإنّه

لن يمتلك معرفة دينيّة عميقة ذات متانة وصلابة كافية» . فما هذه الجرأة والوقاحة في أن يمنح امرئ نفسه الحقّ ـ لمجرّد اكتسابه حظّاً من هذا الحبك المتشابك الذي يدعونه بالعلوم الإنسانيّة وعلم المعرفة ـ في أن ينسب أُسطوانة العلم والحكمة والفضيلة الفريدة ومرجع المعارف الدينيّة في القرون الأخيرة باعتراف المؤالف والمخالف معاً إلى الضحالة وعدم الصلابة في المعرفة الدينيّة ؟ إن هي إلّا الرذالة والسخافة والدناءة .

هزار مرتبة شستن دهن به مشك و گلاب

هنوز نام تو بردن كمال بى ادبى است[1]

إنّ القطع واليقين حجّة في ذاته ونفسه ، وحجّيّته غير قابلة للجعل ، لا إثباتاً ولا نفياً ، أي لا يمكن إعطاؤه الحجّيّة أو سلب الحجّيّة عنه .

وتسمية القطع واليقين بالحجّة ينطوي على مسامحة ، لأنّ الحجّة تقال للشيء الباعث على اليقين والقطع بالمطلوب ، فلا يمكن إطلاقها على نفس القطع واليقين .

أمّا حجّيّة الأدلّة الظنّيّة ، فباعتبار وقوعها في طريق الدليل القطعيّ واليقينيّ وانتهائها إليه ، وإلّا فإنّ كلّ ظنّ وحدس لا يمتلك حجّيّة بنفسه .

أمّا اتّباع العلم واليقين فهو ممّا يأمر به العقل قبل الشرع : **وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ** ،[2] وهي حقيقة فطريّة وجدانيّة ، وعقليّة فكريّة ، وإيمانيّة شرعيّة ، خرقت طبقات الظلام كالشمس الساطعة ، وتخلّصت من حجب الأوهام والخيالات والحدس والظنّ ، وكانت في سطوعها في سماء

١ـ يقول : «إنّ غسل الفم ألف مرّة بالمسك وماء الورد لن يجعل التفوّه باسمك خالياً من إساءة الأدب والجسارة».

٢ـ الآية ٣٦ ، من السورة ١٧ : الإسراء .

العقل والمعرفة البشريّة لألف وأربعمائة سنة هادياً ومرشداً ، ودليلاً قاطعاً ، وسنداً حيّاً ، وشاهداً صادقاً على حقّانيّة القرآن .

فحجّيّة العقل سابقة على حجّيّة الشرع ، لأنّ الشرع إنّما يثبت بالعقل ، والشخص المجنون الذي لا عقل له لا تكليف له ؛ فإن لم يكن هناك حكم عقليّ على وجوب اتّباع النبيّ والإمام ، فكيف ستثبت حجّيّة أقوالهم ؟

وأمّا القول بحجّيّة الشرع اعتماداً على الشرع فيستلزم الدور والتسلسل ، فكيف سيمكن ـ في غياب العقل ـ تمييز رسول الله عن مسيلمة الكذّاب ، أو تشخيص نبيٍّ إلهيّ عن مدّعٍ للنبوّة ؟

لا ريب أنّ للعقل حكم المصباح الذي يمكن للإنسان أن يبصر بنوره جميع الأشياء ، ويهتدي به إلى حلّ جميع المجهولات ، ومن بينها وجوب اتّباع الكتاب السماويّ والنبيّ والإمام الحقيقيّين ، لذا فإنّ اتّباع الإمام كان بواسطة العقل وهديه .

يروي **محمّد بن يعقوب الكُلَيْنيّ** في كتاب «الكافي» بسنده المتّصل عن أبي يعقوب البغداديّ أنّه قال : **قَالَ ابْنُ السِّكِّيتِ** [1] **لِأَبِي**

١ـ ابن السكّيت بكسر السين وتشديد الكاف ، يعقوب بن إسحاق السكّيت أبو يوسف، من أفاضل الإماميّة وثقاتهم . وقد أورد في ترجمة أحواله في «مجمع الرجال» ج ٦ ، ص ٢٧٢ : أنّه كان متقدّماً عند الإمام محمّد التقيّ والإمام عليّ النقيّ عليهما السلام، ولم يدرك غيرهما ، قتله المتوكّل العبّاسيّ لعنه الله لأجل تشيّعه . قيل إنّ سبب قتله أنّه كان معلّماً لولدَي المتوكّل المعتزّ والمؤيّد ، وكان ذات يوم حاضراً عند المتوكّل إذ أقبلا فقال له المتوكّل: يا يعقوب ! أيّهما أحبّ إليك ، ولداي هذان أم الحسن والحسين ؟ فقال ابن السكّيت: **وَاللَهِ ؛ إنَّ قَنْبَراً غُلَامَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيهِ السَّلَامُ خَيْرٌ مِنْهُمَا وَمِنْ أَبِيهِمَا** . فقال المتوكّل: سلّوا لسانه من قفاه . فسلّوه ، فمات . **رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ وَرِضْوَانُهُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ** .

الحَسَنِ [1] عَلَيهِ السَّلَامُ : لِمَاذَا بَعَثَ اللَّهُ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالعَصَا وَيَدِهِ البَيْضَاءِ وَآلَةِ السِّحْرِ ؟! وَبَعَثَ عِيسَى بِآلَةِ الطِّبِّ ؟ وَبَعَثَ مُحَمَّداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَعَلَى جَمِيعِ الأَنْبِيَاءِ بِالكَلَامِ وَالخُطَبِ ؟!

فَقَالَ أَبُو الحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إنَّ اللَهَ لَمَّا بَعَثَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ الغَالِبُ عَلَى أَهْلِ عَصْرِهِ السِّحْرَ ، فَأَتَاهُمْ مِنْ عِنْدِ اللَهِ بِمَا لَمْ يَكُنْ فِي وُسْعِهِمْ مِثْلُهُ ، وَمَا أَبْطَلَ بِهِ سِحْرَهُمْ ، وَأَثْبَتَ بِهِ الحُجَّةَ عَلَيْهِمْ .

وَإنَّ اللَهَ بَعَثَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي وَقْتٍ قَدْ ظَهَرَتْ فِيهِ الزَّمَانَاتُ وَاحْتَاجَ النَّاسُ إلَى الطِّبِّ ، فَأَتَاهُمْ مِنْ عِنْدِ اللَهِ بِمَا لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ مِثْلُهُ ، وَبِمَا أَحْيَى لَهُمُ المَوْتَى ، وَأَبْرَأَ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإذْنِ اللَهِ وَأَثْبَتَ بِهِ الحُجَّةَ عَلَيْهِمْ .

وَإنَّ اللَهَ بَعَثَ مُحَمَّداً صَلَّى اللَهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فِي وَقْتٍ كَانَ الغَالِبُ عَلَى أَهْلِ عَصْرِهِ الخُطَبَ وَالكَلَامَ ـ وَأَظُنُّهُ قَالَ : الشِّعْرَ ـ فَأَتَاهُمْ مِنْ عِنْدِ اللَهِ مِنْ مَوَاعِظِهِ وَحِكَمِهِ مَا أَبْطَلَ بِهِ قَوْلَهُمْ وَأَثْبَتَ بِهِ الحُجَّةَ عَلَيْهِمْ .

قَالَ : قَالَ ابْنُ السِّكِّيتِ : تَاللَهِ ؛ مَا رَأَيْتُ مِثْلَكَ قَطُّ ! فَمَا الحُجَّةُ عَلَى الخَلْقِ اليَوْمَ ؟!

قَالَ : فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : العَقْلُ يُعْرَفُ بِهِ الصَّادِقُ عَلَى اللَهِ فَيُصَدِّقُهُ ؛ وَالكَاذِبُ عَلَى اللَهِ فَيُكَذِّبُهُ .

قَالَ : فَقَالَ ابْنُ السِّكِّيتِ : هَذَا وَاللَهِ هُوَ الجَوَابُ . [2]

١ـ المراد بأبي الحسن هنا أبو الحسن الثالث ، أي الإمام الهادي عليه السلام ، بقرينة أنّ ابن السكّيت لم يدرك أبا الحسن الثاني أي الرضا عليه السلام . وقد صرّح بهذا المعنى المولى محسن الفيض في «الوافي» ، ويُعلم منه أنّ ما ورد في «الاحتجاج» للطبرسيّ و«عيون أخبار الرضا» للصدوق من تقييد كلمة أبي الحسن بالرضا عليه السلام ، لم يكن صائباً.

٢ـ «أُصول الكافي» ج ١ ، ص ٢٤ و٢٥ ، طبعة حيدري ؛ وكتاب «الوافي» ج ١ ،

وللمحقّق الفيض الكاشانيّ كلام في ذيل هذا الحديث المبارك بشأن معنى العقل الذي جعله الإمام عليه السلام حجّة ، قال :

«في كلام الإمام عليه السلام تنبيه على ترقّي الاستعدادات وتلطّف القرائح في هذه الأُمّة ، حتّى استغنوا بعقولهم عن مشاهدة المعجزات المحسوسة ، فإنّ الإيمان بالمعجزة دين اللئام ومنهج العوامّ ، وأهل البصيرة لا يقنعون إلّا بانشراح الصدر بنور اليقين :

أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ. [1]

فالإنسان الصادق الذي تكون دلالته وحكايته من الله وللّه صادقة يمكن تشخيصه بالعقل ، لأنّه بالعقل يمكن أن يُفهم علمه بكتاب الله ومراعاته له وتمسّكه بالسنّة وحفظه لها ، والكاذب على الله يمكن كذلك تشخيص جهله بكتاب الله وتركه له ومخالفته للسنّة وعدم مبالاته بها .

قال في «الاحتجاج» : وقد ضمّن الرضا [2] صلوات الله عليه في كلامه هذا أنّ العالم لا يخلو في زمان التكليف من صادق من قبل الله يلتجي المكلّف إليه في ما اشتبه عليه من أمر الشريعة ، صاحب دلالة تدلّ على صدقه عليه تعالى ، يتوصّل المكلّف إلى معرفته بالعقل ، ولولاه لما عُرف الصادق من الكاذب ، فهو حجّة الله على الخلق أوّلاً» . [3]

فالإمام عليه السلام لم يكن ليريد في هذا الحديث الإفهام بأن حجّة الله اليوم هي العقل لا الإمام والنبيّ ، وأنّ حجّته في الأزمنة السابقة

ص ١١٠ إلى ١١٢ ، طبعة إصفهان.

١ـ الآية ٢٢ ، من السورة ٣٩ : الزمر .

٢ـ أوردنا سابقاً أنّ صاحب كتاب «الاحتجاج» عدّ هذا الحديث للإمام أبي الحسن الرضا عليه السلام .

٣ـ «الوافي» ج ١ ، ص ١١٢ و١١٣ ، طبعة إصفهان الحروفيّة .

المصحوبة بالمعجزات كانت الأنبياء لا العقل ، لأنّ تلك المعجزات أيضاً لم تكن لتثمر شيئاً لولا وجود العقل .

أمّا في هذا الزمان فإنّ العقل لا يكفي لوحده ، إذ لولا وجود صادق من جانب الله تعالى ، فإنّ الإنسان سيعجز بعقله عن معرفة مَن سيتبع وبمن سيقتدي .

لذا فإنّ أمس واليوم كلاهما بحاجة إلى حجّة ، كما يحتاجان العقل ، ذلك العقل الذي أمكن لابن السكّيت أن يدرك أنّ الهادي عليه السلام هو الإمام الصادق ، وأنّ المتوكّل هو الإمام الكاذب الزائف .

فلقد دعاه الإمام في تلك العبارات بأحلى بيان وأقوى برهان إلى الاعتقاد بإمامته عن طريق **أَدِلَّة قِيَاساتُهَا مَعَهَا** ، وهي : أنّ لك عقلاً ! فاكتشف بعقلك الطريق ! ومَيِّز به القائد من السارق ، والدليل الهادي من قاطع الطريق ! ثمّ تَحَرَّكْ معه واتَّبِعْهُ ! وكان للإمام إشارة هنا إلى أنّ عقول الناس اليوم من القوّة ممّا لا حاجة معه لمعجزة ، فقد كانت المعجزة لأصحاب الأبصار ، أمّا أصحاب العقول والبصائر فيكتشفون قائدهم وإمامهم بانشراح الصدر ونور اليقين ، فلا يَدَعُونَ ملازمته حتّى ينالوا مقصودهم ويتوصّلوا إلى غايتهم .

وقد روى المرحوم الكلينيّ في «الكافي» كذلك ، بسنده المتّصل عن ابن أبي يعفور ، عن مولى لبني شيبان ، عن أبي جعفر محمّد الباقر عليه السلام قال : **إذَا قَامَ قَائِمُنَا وَضَعَ اللَهُ يَدَهُ عَلَى رُؤُوسِ العِبَادِ فَجَمَعَ بِهَا عُقُولَهُمْ ، وَكَمُلَتْ بِهِ أَحْلَامُهُمْ .**[1]

كما روى الكلينيّ بسنده المتّصل عن عبد الله بن سنان ، عن الإمام

١ـ «أُصول الكافي» ج ١ ، ص ٢٥ . و«الوافي» ج ١ ، ص ١١٤ ، الطبعة الحروفيّة.

الصادق عليه السلام قال: **حُجَّةُ اللَهِ عَلَى العِبَادِ النَّبِيُّ ؛ وَالحُجَّةُ فِيمَا بَيْنَ العِبَادِ وَبَيْنَ اللَهِ العَقْلُ**.[1]

يقول المحقّق الفيض في بيان وشرح هذا الحديث: يعني ما يقطع به عذرهم في تركهم لما يتوصّلون إلى سعادتهم وفيه نجاتهم هو النبيّ بعد تصديقهم بالله سبحانه، وما يقطع به عذرهم في تركهم لمعرفة الله سبحانه والتصديق به قبل ذلك هو العقل.

ولمّا كانت الحجّة في الأوّل موصلة لهم إلى شيء آخر غير الله، أعني سعادتهم، وكانوا معتقدين لإلهيّته سبحانه، أضاف الحجّة إلى الله تعالى **حجّة الله**، وأورد لفظ **عَلَى**، ولما كانت الحجّة في الثانية موصلة لهم إليه تعالى، وكانوا غير معتقدين بعد لإلهيّته، وهي قد تكون حجّة لهم وقد تكون حجّة عليهم لاختلاف مراتب عقولهم، قال: فيما بينهم وبين الله.

ثمّ أورد شرحاً لأُستاذه في المعقول: صدر المتألّهين الشيرازيّ طيّب الله مضجعه، محصّله: أنّ الناس أمّا أهل بصيرة وأمّا أهل حجاب، والحجّة للّه عليهم أمّا ظاهرة وأمّا باطنة؛ ويكفي لأهل الحجاب الحجّة الظاهرة، إذ لا باطل لهم، لأنّهم عميان القلوب لا يبصرون بباطنهم شيئاً، لهم قلوب لا يفقهون بها، فالحجّة عليهم هو النبيّ مع معجزته، وهي الحجّة الظاهرة.

وأمّا أهل البصيرة فالحجّة الظاهرة عليهم هو النبيّ، والباطنة هو العقل المكتسب ممّا استفادوا من النبيّ.

ثمّ يقول: هذا تحقيق حسن الّا انّ إرادته من الحديث بعيدة.[2]

١ـ «أُصول الكافي» ج ١، ص ٢٥؛ و«الوافي» ج ١، ص ١١٣.

٢ـ «الوافي» ج ١، ص ١١٤.

ومن بين الأحاديث في باب حجّيّة العقل وأفضليّته، رواية جليلة ونفيسة رواها في «الكافي» بسنده المتّصل عن هشام بن الحكم، عن أبي الحسن موسى بن جعفر عليهما السلام، تضمّ مطالب قيّمة ومعارف عالية ودقائق وإشارات ولطائف تليق أن يؤلّف لكشف نكاتها العميقة كتاب مستقلّ، وباعتبارها مفصّلة فإنّنا نكتفي هنا بعدّة فقرات منها:

قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا هِشَامُ! إنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَشَّرَ أَهْلَ العَقْلِ وَالفَهْمِ فِي كِتَابِهِ، فَقَالَ: «فَبَشِّرْ عِبَادِ * ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُولَـٰٓئِكَ هُمْ أُولُوا ٱلْأَلْبَـٰبِ».[1]

يَا هِشَامُ! إنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَكْمَلَ لِلنَّاسِ الحُجَجَ بِالعُقُولِ، وَنَصَرَ النَّبِيِّينَ بِالبَيَانِ، وَدَلَّهُمْ عَلَى رُبُوبِيَّتِهِ بِالأَدِلَّةِ.

يَا هِشَامُ! إنَّ العَقْلَ مَعَ العِلْمِ. فَقَالَ: «وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ».[2]

يَا هِشَامُ! إنَّ لُقْمَانَ قَالَ لِابْنِهِ: تَوَاضَعْ لِلْحَقِّ تَكُنْ أَعْقَلَ النَّاسِ، وَإنَّ الكَيِّسَ لَدَى الحَقِّ يَسِيرٌ.

يَا بُنَيَّ! إنَّ الدُّنْيَا بَحْرٌ عَمِيقٌ قَدْ غَرِقَ فِيهِ عَالَمٌ كَثِيرٌ، فَلْتَكُنْ سَفِينَتُكَ فِيهَا تَقْوَى اللهِ، وَحَشْوُهَا الإيمَانَ، وَشِرَاعُهَا التَّوَكُّلَ، وَقَيِّمُهَا العَقْلَ، وَدَلِيلُهَا العِلْمَ، وَسُكَّانُهَا الصَّبْرَ.

يَا هِشَامُ! مَا بَعَثَ اللهُ أَنْبِيَاءَهُ وَرُسُلَهُ إلَى عِبَادِهِ إلَّا لِيَعْقِلُوا عَنِ اللهِ! فَأَحْسَنُهُمُ اسْتِجَابَةً أَحْسَنُهُمْ مَعْرِفَةً؛ وَأَعْلَمُهُمْ بِأَمْرِ اللهِ أَحْسَنُهُمْ عَقْلاً. وَأَكْمَلُهُمْ عَقْلاً أَرْفَعُهُمْ دَرَجَةً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.

١ـ الآيتان ١٧ و١٨، من السورة ٣٩: الزمر.

٢ـ الآية ٤٣، من السورة ٢٩: العنكبوت.

يَا هِشَامُ ! إنَّ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجَّتَيْنِ : حُجَّةً ظَاهِرَةً وَحُجَّةً بَـاطِنَةً. فَأَمَّا الظَّاهِرَةُ فَالرُّسُلُ وَالأَنْبِيَاءُ وَالأَئِمَّةُ ؛ وَأَمَّا البَاطِنَةُ فَالعُقُولُ.

يَا هِشَامُ ! الصَّبْرُ عَلَى الوَحْدَةِ عَلَامَةُ قُوَّةِ العَقْلِ ، فَمَنْ عَقَلَ عَنِ اللهِ اعْتَزَلَ أَهْلَ الدُّنْيَا وَالرَّاغِبِينَ فِيهَا وَرَغِبَ فِيمَا عِنْدَ اللهِ ، وَكَانَ اللهُ أُنْسَهُ فِي الوَحْشَةِ ، وَصَاحِبَهُ فِي الوَحْدَةِ ، وَغِنَاهُ فِي العِيلَةِ ، وَمُعِزَّهُ مِنْ غَيْرِ عَشِيرَةٍ.

يَا هِشَامُ ! كَانَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ : مَا عُبِدَ اللهُ بِشَيءٍ أَفْضَلَ مِنَ العَقْلِ ، وَمَا تَمَّ عَقْلُ امْرِئٍ حَتَّى يَكُونَ فِيهِ خِصَالٌ شَتَّى : الكُفْرُ والشَّرُّ مِنْهُ مَأْمُونَانِ ، وَالرُّشْدُ وَالخَيْرُ مِنْهُ مَأْمُولَانِ ، وَفَضْلُ مَـالِهِ مَـبْذُولٌ ، وَفَضْلُ قَوْلِهِ مَكْفُوفٌ ، نَصِيبُهُ مِنَ الدُّنْيَا القُوتُ ، لَا يَشْبَعُ مِنَ العِلْم دَهْرَهُ ، الذُّلُّ أَحَبُّ إلَيْهِ مَعَ اللهِ مِنَ العِزِّ مَعَ غَيْرِهِ ، والتَّوَاضُعُ أَحَبُّ إلَيْهِ مِنَ الشَّرَفِ.

يَسْتَكْثِرُ قَلِيلَ المعْرُوفِ مِنْ غَيْرِهِ ، وَيَسْتَقِلُّ كَثِيرَ المَعْرُوفِ مِنْ نَفْسِهِ ، وَيَرَى النَّاسَ كُلَّهُمْ خَيْراً مِنْهُ ؛ وَأَنَّهُ شَرُّهُمْ فِي نَفْسِهِ وَهُوَ تَمَامُ الأَمْرِ.

يَا هِشَامُ ! لَا دِينَ لِمَنْ لَا مُرُوَّةَ لَهُ ، وَلَا مُرُوَّةَ لِمَنْ لَا عَقْلَ لَهُ.[1]

يقول المحقّق **الفيض الكاشاني** في شرح وبيان فقرة **تَوَاضَعْ لِلْحَقِّ تَكُنْ أَعْقَلَ النَّاسِ** :

أي تواضع مع الناس للحقّ سبحانه لا لغرض آخر ، فإنّ مَن تواضع للّه رفعه الله ، كما ورد في الحديث .

أو نقول : التواضع للحقّ هو الإقرار به والطاعة له والانقياد ، كما هو مقتضى العقل .

وقال أُستاذنا (صدر المتألّهين الشيرازيّ قدّس الله سرّه) : هو أن

١ـ «أُصول الكافي» ج ١ ، ص ١٣ إلى ١٩ ؛ و«الوافي» للكاشانيّ ، ج ١ ، ص ٨٦ إلى ٩٣ ، الطبعة الحروفيّة.

لا يرى العبد لنفسه وجوداً ولا حولاً ولا قوّة إلّا بالحقّ تعالى وحوله وقوّته، فيرى أن لا حول ولا قوّة له ولا لغيره إلّا بالله.

وورد في الحديث النبويّ: **مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ اللَهُ**؛ فإذا فني عن نفسه بالموت الإراديّ قبل الموت الطبيعيّ يكون باقياً بالله.

ثمّ قال الملّا صدرا: وهو المراد بقوله: **تَكُنْ أَعْقَلَ النَّاس**، فإنّ أعقل الناس هم الأنبياء والأولياء ثمّ الأمثل فالأمثل.[1]

وقال في شرح وبيان فقرة: **فَمَنْ عَقَلَ عَنِ اللَهِ اعْتَزَلَ أَهْلَ الدُّنْيَا وَالرَّاغِبِينَ فِيهَا**: بلغ عقله إلى حدّ يأخذ العلم عن الله من غير تعليم بشر في كلّ أمر.

ومعنى الاعتزال عن الدنيا وأبناء الدنيا: إذ لم يبقَ له رغبة في الدنيا وأهلها، وإنّما يرغب فيما عند الله من الخيرات الحقيقيّة والأنوار الإلهيّة والإشراقات العقليّة والابتهاجات الذوقيّة والسكينات الروحيّة.

وفي شرح وبيان فقرة: **مَا عُبِدَ اللَهُ بِشَيءٍ أَفْضَلَ مِنَ العَقْلِ**، قال: أي أفضل ما يتقرّب به العبد إلى الله هو تكميل العقل باكتساب العلوم الحقيقيّة الأُخرويّة والمعارف اليقينيّة الباقية المأخوذة من الله سبحانه دون غيره من الطاعات والعبادات البدنيّة والماليّة والنفسيّة، كما ورد عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم: **يَا عَلِيُّ! إذا تَقَرَّبَ النَّاسُ إلَى خَالِقِهِمْ بِأَنْوَاعِ البِرِّ، فَتَقَرَّبْ أَنْتَ إلَيْهِ بِالعَقْلِ حَتَّى تَسْبِقَهُمْ.**[2]

١ـ «الوافي» ج ١، ص ٩٧.

٢ـ «الوافي» ج ١، ص ١٠١ و١٠٢؛ وأورد الغزّاليّ في «إحياء العلوم» ج ٣، ص ١٤: **قَالَ رَسُولُ اللَهِ صَلَّى اللَهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لِعَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إذَا تَقَرَّبَ النَّاسُ إلَى اللَهِ تَعَالَى بِأَنْوَاعِ البِرِّ، فَتَقَرَّبْ أَنْتَ بِعَقْلِكَ**. وروى في «إحياء العلوم» ج ٣، ص ٣٥٣، عن أبي الدرداء: **إنَّهُ قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَهِ! أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ يَصُومُ النَّهَارَ وَيَقُومُ اللَّيْلَ وَيَحِجُّ وَيَعْتَمِرُ**

نعم ، حين نرى أنّ دين الإسلام القويم قائم على أساس العقل ، وأنّ الآيات القرآنيّة تدعونا إلى العقل والتعقّل ، وأنّ هذه الأحاديث المعتبرة من رسول الله وآله الميامين جاءت لتدعو إلى العقل ؛ وحين نعلم أنّ للعقل حجّيّة قبل الشرع ، وأنّه أحد حجّتَي الله وبرهانَيه الصادقَين ، وأنّ هذا العقل يدعونا للعلم واليقين ؛ وأنّ القرآن الكريم ينهانا عن أُسلوب الظنّ وعن أيّ منهاج للحدس لا ينتهي بالقطع واليقين ، فكيف يمكننا ـ مع هذا كلّه ـ أن نتمسّك بفرضيّة تفتقر إلى الأساس العلميّ ، ولم تصاغ على أساس من البرهان واليقين ، ولم تكتسب حجّة يقينيّة وشهوداً وجدانيّاً ، فنرفع لأجلها يدنا عن ظاهر الكلام الإلهيّ والكتاب السماويّ ؟!

إنّ الحكيم والعالم لن يُذعن لمثل هذه التصوّرات وهذه المختبرات ، ولن يخضع أمام نَضْد عدّة تماثيل وعظام مزوّرة وعدّة من الفسائل الطبيعيّة الناقصة وذات الدلالة المبهمة الغامضة ، فهو لا يبيع المحكمات بالمتشابهات .

أمّا أتباع الظواهر الذين تمركزت عقولهم في عيونهم ، فيحكمون فوراً بمجرّد التفرّج على عدّة فسائل لا تحكي إلّا التغيّر والتكامل داخل الأنواع على قضيّة أشمل ومطلب أوسع ، فيقولون : الآن وقد ثبت التطوّر

وَيَتَصَدَّقُ وَيَغْزُو فِي سَبِيلِ اللهِ وَيَعُودُ المَرِيضَ وَيُشَيِّعُ الجَنَائِزَ وَيُعِينُ الضَّعِيفَ وَلَا يُعْلَمُ مَنْزِلَتُهُ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ القِيَامَةِ ! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : إنَّمَا يُجْزَى عَلَى قَدْرِ عَقْلِهِ .

وَقَالَ أَنَسٌ : أُثْنِيَ عَلَى رَجُلٍ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ [وَآلِهِ] وَسَلَّمَ فَقَالُوا خَيْراً . فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ [وَآلِهِ] وَسَلَّمَ : كَيْفَ عَقْلُهُ ؟! قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ نَقُولُ مِنْ عِبَادَتِهِ وَفَضْلِهِ وَخُلْقِهِ ؟ فَقَالَ : كَيْفَ عَقْلُهُ ؛ فَإنَّ الأَحْمَقَ يُصِيبُ بِحُمْقِهِ أَعْظَمَ مِنْ فُجُورِ الفَاجِرِ ، وَإنَّمَا يُقَرَّبُ النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ .

والرشد والتغيّر داخل الأنواع ، فإنّ علينا أن نعتبره أساساً عامّاً كلّيّاً فنعدّيه إلى تغيّر الأنواع وتغيّراتها الخارجيّة ، ونعتبر جميع الأنواع من أصل واحد وجرثومة واحدة .

بأيّ علّة ؟ وبأيّ مناط ؟ وبأيّ برهان ؟

أيحمل قائل هذا الكلام في جعبته شيئاً غير خلط ومزج المطالب الحدسيّة والوهميّة وغير الاستقراء الناقص ؟ فليقدّمه وليُشر إليه .

الإشكال التاسع

الفطرة طريق الكمال التكوينيّ
والأحكام الفطريّة تُوصِل للكمال

الإشكال التاسع على صاحب المقالة : هو عدم فهمه لمعنى الفطرة وفطريّة الأحكام ، حيث أشكل تبعاً لذلك على العلّامة قدّس الله نفسه الشريفة بشأن عدم منافاة تزويج أولاد آدم أبي البشر وبناته للفطرة ، ثمّ أورد مطلباً منه شفعه بأمثلة غير صحيحة من عنده ، فأدغمها في كلام العلّامة ونسبها خطأً إليه ، ثمّ أنهى كلامه بعد شرح مختصر .

ونجد أنفسنا مجبرين ـ إيضاحاً لحقيقة الأمر ـ على إيراد عين عبارته ، ثمّ الإشارة إلى نقاط مغالطته ومواضع مكابرته الشاعريّة .

يقول :

مضافاً إلى ذلك فإنّه يضع نفسه ـ بقبوله كون آدم وزوجه أباً وأمّاً لجميع نوع البشر ـ أمام سؤال عسير : هل تزوّج أولاد وبنات آدم فيما بينهم؟ حيث أجاب على ذلك بالإيجاب.

ثمّ أجاب بالنفي على السؤال الآخر : أو لا يتعارض زواج الأخ والأُخت مع الفطرة ؟

وأورد كشاهد على تأييد عدم تعارض زواج الأُخت والأخ للفطرة قصصاً منقولة عن الإيرانيّين القدماء ، وعن أعمال بعض الأُوروبّيّين المعاصرين.

ونُعرض من جديد عن نفس الأسئلة والأجوبة ، ونلحظ فقط مستلزمات الكلام الأوّل ، فقد رأى في معرض دفاعه عن وجهة نظره الأُولى لزوم عرض ملاكٍ ما في باب موافقة الفطرة ومعارضتها يثير

بنفسه أسئلة جديدة ويستلزم أجوبة جديدة ، ويشيد بشكل عامّ فهماً دينيّاً جديداً.

فلا جرم أنّ شرب الخمر ، والزنا ، واللواط ، والربا التي كانت سائدة ورائجة في الأقوام السابقة كما هي رائجة عند الأُوروبّيّين المعاصرين، هي في نظره من الأُمور التي لا تخالف الفطرة ، بل إنّها بحدّ ذاتها ليست حسنةً ولا قبيحة ، ولا معنى لأن تُحلّل في شريعة ما وتُحرّم في أُخرى . ولا جرم أنّ الدين ـ وخاصّة الدين الإ سلاميّ ـ الذي يمثّل في نظره طريقاً لإيصال الفرد والمجتمع لكماله اللائق جميع أحكامه فطريّة بهذا المعنى، [1] سيكتسب وجهاً ومظهراً آخر، وسيتّضح أنّ كثيراً من أحكام الدين الإ سلاميّ يمكن أن تكون بشكل آخر مع احتفاظها بفطريّتها.

وهذه كلّها نوع من المعرفة الدينيّة تتناسب مع نوع المعرفة الإنسانيّة ومعرفة العالم ، أي أنّ المفسّر ما لم يكن له إدراك وفهم خاصّ عن الإنسان والعالم ، وعن مفهوم الحُسن والقبح ، وعن الاحتياجات الإنسانيّة ، فإنّه لن يستطيع الحكم أنّ زواج الأُخت والأخ فطريّ أحياناً وغير فطريّ أحياناً أُخرى ، أو أنّه أمر لا فطريّ ولاغير فطريّ.

ويتّضح من جديد أنّ موافقة أحكام الدين للفطرة أمر لايمكن إثباته بالتجربة ، كما لا يمكن نفيه بالتجربة ، لأنّ زواج الأُخت والأخ ـ وهو أمر اعتباريّ لا حقيقيّ ـ كان في بدء خلق الإنسان مجازاً ومشروعاً في نظره ، لأنّ غرض الشارع ومصلحة العالم كانت في تكثير نسل الإنسان ، وأمّا الآن وقد انتفت هذه المصلحة فقد حُرِّم هذا الزواج.

إنّ هذا الكلام يمنع بشكل كامل أمر إثباتنا لفطريّة الأحكام الشرعيّة أوّلاً ، وباعتبار عدم معرفتنا لغرض الشارع من جعل الحكم

١ـ تفسير «الميزان» للعلاّمة الطباطبائيّ ج ١٤ ، الآية ٣٠ ، من السورة ٣٠ : الروم.

الفلانيّ فإنّ بإمكاننا أن نعتبر أيّ حكم موافقاً للفطرة ، لذا فإنّ الفطريّة وغيرالفطريّة ستفقد عمليّاً قيمتها الاستدلاليّة وروح معرفتها وإدراكها.

وثانياً فلابدّ لإظهار ذلك النظر من أن نُنشئ نظريّة أخلاقيّة خاصّة تقول بعدم وجود اعتبار لحُسن الأفعال وقبحها ، وإنّ جوانب العلاقات الفرديّة والاجتماعيّة (العلاقات الجنسيّة وعلاقات الحكم و...) ليست بذاتها حسنة ولا قبيحة.

بل إنّ لحسنها وقبحها معنى ومنشأ آخر ، فيمكن أحياناً أن يصبح عمل ما لمصلحة معيّنة (كتكثير النسل) مشروعاً ، وأن يصبح ممنوعاً أحياناً أُخرى ؛ وحين يكون هذا الأمر جائزاً في زواج الأُخت والأخ، فَلِمَ لا يكون جائزاً في الموارد الأُخرى ؟! (وفي الحقيقة فإنّ نظر المرحوم الطباطبائيّ في باب الأخلاق هو نفس هذه العقيدة ، حيث أوردها بوضوح في **المقالة السادسة** [1] من كتابه «**أُصول فلسفه وروش رئاليسم**» (= أسس الفلسفة والمذهب الواقعيّ).

وقد توسّل جماعة من المفسّرين ـ تجنّباً لهذه الصعوبات ـ بأحاديث تحكي تزويج ابنَي آدم بجنيّة وحوريّة». [2]

وعلينا بياناً لمواضع خطأ صاحب المقالة أن نورد بحثاً عن الفطرة ومعناها ، ثمّ نعمد إلى ذكر الاشتباهات ؛ فلدينا في القرآن الكريم آية صريحة وواضحة تكشف عن أنّ الإنسان قد خُلق على أساس الفطرة ،تُعدّ الدين الإسلاميّ المبين ديناً قائماً على أساس الفطرة :

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ *

١ـ لم يذكر العلّامة الطباطبائيّ مثل هذا الكلام في المقالة السادسة.

٢ـ «كيهان فرهنگى» العدد ٥٢ ، تير ماه ١٣٦٧ شمسيّ ، رقم ٤ ، مقالة «بسط وقبض تئوريک شريعت» ، ص ١٧ ، العمودان الأوّل والثاني.

مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ.[1]

قال العلّامة الطباطبائي في تفسير هذه الآيات :

الفطرة بناء نوع من الفطر بمعنى الإيجاد والإبداع ، و**فِطْرَتَ ٱللَّهِ** منصوب على الإغراء ، أي الْزَمِ الفطرة ، ففيه إشارة إلى أنّ هذا الدين الذي يجب إقامة الوجه له هو الذي تهتف به الخلقة وتهدي إليه الفطرة الإلهيّة التي لا تبديل لها .

وذلك أنّه ليس الدين إلّا سنّة الحياة والسبيل التي يجب على الإنسان أن يسلكها حتّى يسعد في حياته ، فلا غاية للإنسان يتبعها إلّا السعادة ، وقد هدى كلّ نوع من أنواع الخليقة إلى السعادة التي هي بغية حياته بفطرته ونوع خلقته ، وجهّز في وجوده بما يناسب غايته من التجهيز .

قال تعالى : **رَبُّنَا ٱلَّذِى أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ**.[2]

وقال : **ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ**.[3]

فالإنسان كسائر الأنواع المخلوقة مفطور بفطرة تهديه إلى تتميم نواقصه ورفع حوائجه ، وتهتف له بما ينفعه وما يضرّه في حياته ، قال تعالى :

وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا.[4]

وهو مع ذلك مجهز بما يتمّ له به ما يجب له أن يقصده من العمل ،

١ـ الآيات ٣٠ إلى ٣٢ ، من السورة ٣٠ : الروم .

٢ـ الآية ٥٠ ، من السورة ٢٠ : طه ، وهي حكاية الله عن جواب موسى وهارون على سؤال فرعون : «فمن ربّكما يا موسى» ؟

٣ـ الآيتان ٢ و٣ ، من السورة ٨٧ : الأعلى .

٤ـ الآيتان ٧ و٨ ، من السورة ٩١ : الشمس .

قال تعالى :

ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُ.[1]

فللإنسان فطرة خاصّة تهديه إلى سنّة خاصّة في الحياة وسبيل معيّنة ذات غاية مشخّصة ليس له إلّا أن يسلكها خاصّة ، وهو قوله : **فِطْرَتَ ٱللَهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا**.

وليس الإنسان العائش في هذه النشأة إلّا نوعاً واحداً لا يختلف ما ينفعه وما يضرّه بالنظر إلى هذه البُنية المؤلّفة من روح وبدن ، فما للإنسان من جهة أنّه إنسان إلّا سعادة واحدة وشقاء واحد ، فمن الضروريّ حينئذٍ أن يكون تجاه عمله سنّة واحدة ثابتة يهديه إليها هادٍ واحد ثابت ، وليكن ذاك الهادي هو الفطرة ونوع الخلقة ، ولذلك عقّب قوله : **فِطْرَتَ ٱللَهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا** بقوله : **لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَهِ**.

فلو اختلفت سعادة الإنسان باختلاف أفراده ، لم ينعقد مجتمع واحد صالح يضمن سعادة الأفراد المجتمعين .

ولو اختلفت السعادة باختلاف الأقطار التي تعيش فيها الأُمم المختلفة ، بمعنى أن يكون الأساس الواحد للسنّة الاجتماعيّة أعني الدين هو ما يقتضيه حكم المنطقة ،كان الإنسان أنواعاً مختلفة باختلاف الأقطار .

ولو اختلفت السعادة باختلاف الأزمنة ، بمعنى أن تكون الأعصار والقرون هي الأساس الوحيد للسنّة الدينيّة ، اختلفت نوعيّة كلّ قرن وجيل مع من ورثوا من آبائهم أو أخلفوا من أبنائهم ، ولم يسر الاجتماع الإنسانيّ سير التكامل ، ولم تكن الإنسانيّة متوجّهة من النقص إلى الكمال ، إذ

١ـ الآية ٢٠ ، من السورة ٨٠ : عبس .

لا يتحقّق النقص والكمال إلّا مع أمر مشترك ثابت محفوظ بينهما .

وليس المراد بهذا إنكار أن يكون لاختلاف الأفراد أو الأمكنة أو الأزمنة بعض التأثير في انتظام السنّة الدينيّة في الجملة ، بل إثبات أنّ الأساس للسنّة الدينيّة هو البنية الإنسانيّة التي هي حقيقة واحدة ثابتة مشتركة بين الأفراد ، فللإنسانيّة سنّة واحدة ثابتة بثبات أساسها الذي هو الإنسان ، وهي التي تدير رحى الإنسانيّة مع ما يلحق بها من السنن الجزئيّة المختلفة باختلاف الأفراد أو الأمكنة أو الأزمنة .

وهذا هو الذي يشير إلى قوله بعد : **ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** .

وسنزيد المقام إيضاحاً في بحث مستقلّ إن شاء الله تعالى .[1]

ثمّ يقول في فصل مستقلّ تحت عنوان : **كَلَامٌ فِي مَعْنَى كَوْنِ الدِّينِ فِطْرِيّاً فِي فُصُولٍ** :

١ ـ إذا تأمّلنا هذه الأنواع الموجودة التي تتكوّن وتتكامل تدريجاً ، سواء كانت ذوات حياة وشعور كأنواع الحيوان ، أم ذات حياة فقط كأنواع النبات ، أو ميّتة غير ذي حياة كسائر الأنواع الطبيعيّة ـ على ما يظهر لنا ـ وجدنا كلّ نوع منها يسير في وجوده سيراً تكوينيّاً معيّناً ذا مراحل مختلفة بعضها قبل بعض ، وبعضها بعد بعض ، يرد النوع في كلّ منها بعد المرور بالبعض الذي قبله وقبل الوصول إلى ما بعده ، ولا يزال يستكمل بطيّ هذه المنازل حتّى ينتهي إلى آخرها وهو نهاية كماله .

نجد هذه المراتب المطويّة بحركة النوع يلازم كلّ منها مقامه الخاصّ به لا يستقدم ولا يستأخر من لدن حركة النوع في وجوده إلى أن تنتهي إلى

١ـ «الميزان في تفسير القرآن» ج ١٦ ، ص ١٨٦ إلى ١٨٨ .

كماله ، فبينها رابطة تكوينيّة يربط بها بعض المراتب ببعض بحيث لا يتجافى ولا ينتقل إلى غير مكانه ، ومن هنا يستنتج أنّ للنوع غاية تكوينيّة يتوجّه إليها من أوّل وجوده حتّى يبلغها .

فالجوزة الواحدة مثلاً إذا استقرّت في الأرض استقراراً يهيّؤها للنموّ على اجتماع ممّا يتوقّف عليه النموّ من العلل والشرائط ،كالرطوبة والحرارة وغيرهما ، أخذ لبّها في النموّ وشقّ القشر وشرع في ازدياد من أقطار جسمه ، ولم يزل يزيد وينمو حتّى يصل إلى حدّ يعود فيه شجرة قويّة خضراء مثمرة .

ولا يختلف حاله في مسيره هذا التكوينيّ وهو في أوّل وجوده قاصداً قصداً تكوينيّاً إلى غايته التكوينيّة التي هي مرتبة الشجرة الكاملة المثمرة .

وكذا الواحد من نوع الحيوان ،كالواحدة من الضأن مثلاً ، لا نشكّ في أنّها في أوّل تكوّنها جنيناً متوجّهة إلى غايتها النوعيّة التي هي مرتبة الضأنة الكاملة التي لها خواصّها ، فلا تضلّ عن سبيلها التكوينيّة الخاصّة بها إلى سبيل غيرها ، ولا تنسى غايتها يوماً فتسير إلى غاية غيرها كغاية الفيلة مثلاً أو غاية شجرة الجوز مثلاً ، فكلّ نوع من الأنواع التكوينيّة له مسير خاصّ في استكمال الوجود ذو مراتب خاصّة مترتّبة بعضها على بعض تنتهي إلى مرتبة هي غاية النوع ذاتاً ، يطلبها طلباً تكوينيّاً بحركته التكوينيّة ، والنوع في وجوده مجهّز بما هو وسيلة حركته وبلوغه إلى غايته .

وهذا التوجّه التكوينيّ لاستناده إلى الله يسمّى هداية عامّة إلهيّة ، وهي كما عرفت لا تضلّ ولا تخطئ في تسيير كلّ نوع مسيره التكوينيّ وسوقه إلى غايته الوجوديّة بالاستكمال التدريجيّ ، وبإعمال قوّته وأدواته

التي جهّز بها لتسهيل مسيره إلى غايته.

قال تعالى: **رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ**.[1]

وقال: **ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ * وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ * فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ**.[2]

٢ ـ نوع الإنسان غير مستثنى من كلّيّة الحكم المذكور، أعني شمول الهداية العامّة له، فنحن نعلم أنّ النطفة الإنسانيّة من حين تشرع في التكوّن متوجّهة إلى مرتبة إنسان تامّ كامل له آثاره وخواصّه، قد قطع في مسيره مراحل الجنينيّة والطفوليّة والمراهقة والشباب والكهولة والشيب.

غير أنّ الإنسان يفارق سائر الأنواع الحيوانيّة والنباتيّة وغيرها فيما نعلم في أمر، وهو أنّه لِسعة حاجته التكوينيّة وكثرة نواقصه الوجوديّة لا يقدر على تتميم نواقصه الوجوديّة ورفع حوائجه الحيويّة وحده، بمعنى أنّ الواحد من الإنسان لا تتمّ له حياته الإنسانيّة وهو وحده، بل يحتاج إلى اجتماع منزليّ، ثمّ اجتماع مدنيّ يجتمع فيه مع غيره بالازدواج والتعاون والتعاضد، فيسعى الكلّ بجميع قواهم التي جهّزوا بها للكلّ، ثمّ يقسّم الحاصل من عملهم بين الكلّ فيذهب كلّ بنصيبه على قدر زنته الاجتماعيّة.

وهذه المدنيّة ليست بطبيعيّة للإنسان، بمعنى أن ينبعث إليه من ناحية طبيعته الإنسانيّة ابتداءً، بل له طبيعة مستخدمة لغيره لنفع نفسه ما وجد إليه سبيلاً.

فهو يستخدم الأُمور الطبيعيّة ثمّ أقسام النبات والحيوان في سبيل مقاصده الحيويّة، فهو باستخدام فرد مثله أو أفراد أمثاله أجراً، لكنّه يجد

١ـ الآية ٥٠، من السورة ٢٠: طه.

٢ـ الآيات ٢ إلى ٥، من السورة ٨٧: الأعلى.

سائر الأفراد أمثاله في الأميال والمقاصد وفي الجهازات والقوى ، فيضطرّ إلى المسالمة وأن يسلّم لهم حقوقاً مثل ما يراه لنفسه .

وينتهي هذا التضارب بين المنافع أن يشارك البعض البعض في العمل التعاونيّ ، ثمّ يقسّم الحاصل من الأعمال بين الجميع ويعطى منه لكلّ ما يستحقّه .

وكيف كان ، فالمجتمع الإنسانيّ لا يتمّ انعقاده ولا يعمّر إلّا بأُصول علميّة وقوانين اجتماعيّة يحترمها الكلّ ، وحافظ يحفظها من الضيعة ، ويجريها في المجتمع ، وعند ذلك تطيب لهم العيشة وتشرف عليهم السعادة .

أمّا الأُصول العلميّة ، فهي معرفته إجمالاً بما عليه نشأة الوجود من الحقيقة ، وما عليه الإنسان من حيث البداية والنهاية ، فإنّ المذاهب المختلفة مؤثّرة في خصوص السنن المعمول بها في المجتمعات ، فالمعتقدون في الإنسان أنّه مادّيّ ليس له من الحياة إلّا الحياة المعجلّة المؤجّلة بالموت ، وأن ليس في دار الوجود إلّا السبب المادّيّ الكائن الفاسد ، ينظّمون سنن اجتماعهم بحيث تؤدّيهم إلى اللذائذ المحسوسة والكمالات المادّيّة ما وراءها شيء .

والمعتقدون بصانع وراء المادّة ـ كالوثنيّة ـ يبنون سننهم وقوانينهم على إرضاء الآلهة ليسعدوهم في حياتهم الدنيويّة .

والمعتقدون بالمبدأ والمعاد يبنون حياتهم على أساس يسعدهم في الحياة الدينويّة ثمّ في الحياة المؤبّدة التي بعد الموت ، فصور الحياة الاجتماعيّة تختلف باختلاف الأُصول الاعتقاديّة في حقيقة العالم والإنسان الذي هو جزء من أجزائه .

وأمّا القوانين والسنن الاجتماعيّة ، فلولا وجود قوانين وسنن مشتركة

يحترمها المجتمعون جميعهم أو أكثرهم ويتسلّمونها ، تفرّق الجمع وانحلّ المجتمع .

وهذه السنن والقوانين قضايا كلّيّة عمليّة صورها : يجب أن يفعل كذا عند كذا أو يحرم أو يجوز ، وهي أيّاماً كانت معتبرة في العمل لغايات مُصلحة للاجتماع والمجتمع تترتّب عليها تسمّى مصالح الأعمال ومفاسدها .

٣ ـ قد عرفت أنّ الإنسان إنّما ينال ما قدر له من كمال وسعادة بعقد مجتمع صالح تحكم فيه سنن وقوانين صالحة تضمن بلوغه ونيله سعادته التي تليق به ، وهذه السعادة أمر أو أُمور كماليّة تكوينيّة تلحق الإنسان الناقص الذي هو أيضاً موجود تكوينيّ ، فتجعله إنساناً كاملاً في نوعه تامّاً في وجوده .

فهذه السنن والقوانين ـ وهي قضايا عمليّة واعتباريّة ـ واقعة بين نقص الإنسان وكماله ، متوسطة كالعبرة بين المنزلتين ، وهي ـ كما عرفت ـ تابعة للمصالح التي هي كمال أو كمالات إنسانيّة ، وهذه الكمالات أُمور حقيقيّة مسانخة ملائمة للنواقص التي هي مصاديق حوائج الإنسان الحقيقيّة .

فحوائج الإنسان الحقيقيّة هي التي وضعت هذه القضايا العمليّة واعتبرت هذه النواميس الاعتباريّة ، والمراد بالحوائج هي ما تطلبه النفس الإنسانيّة بأميالها وعزائمها ، ويصدّقه العقل الذي هو القوّة الوحيدة التي تميّز بين الخير والنافع وبين الشرّ والضارّ ، دون ما تطلبه الأهواء النفسانيّة ممّا لا يصدّقه العقل ، فإنه كمال حيوانيّ غير إنسانيّ .

فأُصول هذه السنن والقوانين يجب أن تكون الحوائج الحقيقيّة التي هي بحسب الواقع حوائج لا بحسب تشخيص الأهواء النفسانيّة .

وقد عرفت أنّ الصنع والإيجاد قد جهّز كلّ نوع من الأنواع ـ ومنها الإنسان ـ من القوى والأدوات بما يرتفع بفعّاليّته حوائجه ويسلك به سبيل الكمال ، ومنه يستنتج أنّ للجهازات التكوينيّة التي جهّز بها الإنسان اقتضاءات للقضايا العمليّة المسمّاة بالسنن والقوانين ، التي بالعمل بها يستقرّ الإنسان في مقر كماله مثل السنن والقوانين الراجعة إلى التغذّي المعتبرة بما أنّ الإنسان مجهّز بجهاز التغذّي ، والراجعة إلى النكاح بما أنّ الإنسان مجهّز بجهاز التوالد والتناسل .

فتبيّن أنّ من الواجب أن يتّخذ الدين ـ أي الأُصول العلميّة والسنن والقوانين العمليّة التي تضمن باتّخاذها والعمل بها سعادة الإنسان الحقيقيّة ـ من اقتضاءات الخلقة الإنسانيّة وينطبق التشريع على الفطرة والتكوين ، وهذا هو المراد بكون الدين فطريّاً ، وهو قوله تعالى :

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ.

٤ ـ قد عرفت معنى كون الدين فطريّاً ، فالإسلام يسمّى دين الفطرة لما أن الفطرة الإنسانيّة تقتضيه وتهدي إليه .

ويسمّى **إسلاماً** ، لما أنّ فيه تسليم العبد لإرادة الله سبحانه منه ، ومصداق الإرادة وهي صفة الفعل ـ لا صفة الذات ـ تجمّع العلل المؤلّفة من خصوص خلقة الإنسان وما يحتف به من مقتضيات الكون العامّ على اقتضاء الفعل أو الترك .

قال تعالى : **إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ.**[1]

ويسمّى **دين الله** ، لأنّه الذي يريده الله من عباده من فعل أو ترك ،

١ـ الآية ١٩ ، من السورة ٣ : آل عمران .

بما مرّ من معنى الإرادة .

ويسمّى **سبيل الله** ، لما أنّه السبيل التي أرادها الله أن يسلكها الإنسان لتنتهي به إلى كماله وسعادته ، قال تعالى :

ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا .[1]

وأمّا أنّ الدين الحقّ يجب أن يؤخذ من طريق الوحي والنبوّة ولا يكفي فيه العقل ، فقد تقدّم بيانه في مباحث النبوّة وغيرها من مباحث الكتاب .[2]

ويتّضح جيّداً وبشكل مفصّل ممّا أوردناه من تفسير «الميزان» أنّ مراد العلّامة قدّس الله سرّه من فطرة الإنسان هو البنية الوجوديّة ـ بما يشمل الجسم والروح ـ وذلك الطريق والمسير الذي يوصله إلى غاية الخلقة وهدفها من الكمال المنشود والسعادة المطلقة .

والمراد بدين الفطرة تلك القواعد والأحكام المؤثّرة في سير الإنسان باتّجاه سعادته وكماله ، وهذه القواعد والقوانين والسنن بالرغم من أنّها أصبحت معتبرة باعتبار الشارع المقدّس ، لكنّها كانت قائمة على أساس منطق العقل ووصول الإنسان إلى درجة الإنسانيّة ، لا على أساس منطق الحسّ والشهوة الذي يهبط به إلى مرتبة الحيوانيّة والبهيميّة .

إنّ السعادة للإنسان أمر حقيقيّ ، وهذه السنن الفطريّة التي هي أُمور اعتباريّة ، توجب حركته وسيره إلى مقام الكمال الحقيقيّ ، فإذا ما انحرفت تلك السنن أحياناً في اعتبارها ، فإنّ تلك السعادة الحقيقيّة والكمال المنشود لن يكونا من نصيبه .

١ـ الآية ٤٥ ، من السورة ٧ : الأعراف .

٢ـ «الميزان في تفسير القرآن» ج ١٦ ، ص ١٩٨ إلى ٢٠٣ .

ومع أنّ أحكام الشرع وقوانينه التي وضعت على أساس الفطرة هي أحكام اعتباريّة وضعها منوط باعتبار الشارع ، لكنّه اعتبار لا يتخطّى قيد شعرة مكانه الواقعيّ والحقيقيّ ، وقد استمدّ اعتباره هذا على أساس الاحتياجات التكوينيّة للإنسان وإيصاله إلى أعلى درجات الكمال الحقيقيّ والوجوديّ ، فلا معنى ـ على هذا ـ لأن يكون أمرٌ ما حلالاً في شريعة معيّنة وحراماً في أُخرى .

فالزواج والنكاح ـ مثلاً ـ هو أمر فطريّ أمضاه الشرع وأقرّه ، وانسجم التشريع فيه مع التكوين .

في حين أنّ العلاقة الجنسيّة بين الجنس الواحد أمر غير فطريّ ، حرّمه الشرع وعيّن له العقوبة الصارمة ، ونجد أنّ أمر التشريع ـ وهو الحرمة ـ قد انطبق على التكوين وهو المنع :

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ.[1]

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ * أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ.[2]

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ * أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ.[3]

١ـ الآيتان ٨٠ و ٨١ ، من السورة ٧ : الأعراف .

٢ـ الآيتان ٢٨ و ٢٩ ، من السورة ٢٩ : العنكبوت .

٣ـ الآيتان ٥٤ و ٥٥ ، من السورة ٢٧ : النمل .

فاللواط ـ وهو العلاقة الجنسيّة بين جنس الرجال ـ يوجب قطع سبيل الزواج ، ويستتبع المقت ، والعدوان والإسراف ، لذا فقد عُدّ ممنوعاً وحراماً وقبيحاً في هذه الآيات ، ولا اختصاص لهذا الأمر بشريعة دون أُخرى ، لأنّه مخالف لمسيرة التكوين ولمصالح الفرد والمجتمع ، ومخالف للسنّة الإنسانيّة والقانون الفطريّ والإلهيّ ، لذا فقد اعتبر الشارع المقدّس حرمته عامّة ومطلقة في كلّ مكان وزمان وفي كلّ شريعة .

وهذا العمل ينطوي على قدر من القُبح بحيث الذي تمتنع منه الحيوانات ، إذ لا يُشاهد مثيله في أحد منها ، حتّى القرد يهرب منه ويشمئزّ وينفر ، وينبغي هنا ملاحظة درجة قبح ووقاحة لوردات مجلس الأعيان الإنجليزيّ ـ الذين يعتقد رئيسهم حسب نظريّة **داروين** أنّه من نسل القرد ـ في إعلانهم إباحة فعل قوم لوط الشنيع هذا ، بحيث لم يُعهد عن الأقوام التي سبقت قوم لوط أن دنّسوا أنفسهم به ؛ هذا المجلس الذي يفضّل الآراء المرفوضة **لبرتراند راسل** الذي سقط من المسيحيّة إلى حضيض الإلحاد ، وآراء **فرويد** اليهوديّ على تعاليم السيّد المسيح على نبيّنا وآله وعليه السلام ، فيصدر مصادقته على قانون اللواط ، ثمّ ينهمكون بارتكابه في مجالسهم ومحافلهم المنكرة . **قَبَّحَهُمُ اللهُ وَمَا عَمِلُوا وَمَا اسْتَنُّوا ، وَلَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذي بَنُوا قَاطِعاً لِنَسْلِهِمْ إنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.**

إنّ فطرة الإنسان تستدعي زواج الرجل والمرأة اللذين ينجذبان إلى بعضهما وفق السنّة الإلهيّة المودعة في وجودهما ، كما ينجذب قطبا الكهربائيّة الموجب والسالب أو مركزا الفعل والانفعال لبعضهما ، فتنعقد بالشرارة الإلهيّة النطفة في الرحم ، وينشأ منها إنسان هو خليفة الله فيطأ بقدمه ساحة الوجود الرحيبة .

فقولوا بربّكم وفق أيّة سنّة ، وعلى أساس أيّة خاصّيّة يتمّ جماع

الرجال للرجال، أو النساء للنساء؟ غير أن يشبها اجتماع قطبين موجبين أو قطبين سالبين، أو اجتماع نوعين للفاعليّة المحضة أو نوعين للقابليّة المحضة؟ وأيّ شيء سيوجب غير البُعد والابتعاد عن بعضهما، وغير تسبيب النفور والضجر والملل والمفاسد والأضرار الجانبيّة التي لا تعدّ ولا تحصى؟

وقد قال آية الله العلّامة الطباطبائيّ قدّس الله نفسه في المقالة السادسة من «أُصول الفلسفة» تحت عنوان «الفطرة الإنسانيّة حكم يتكوّن بإلهام الطبيعة»:

٤ ـ إنّ حرّيّة الإنسان باعتبارها موهبة طبيعيّة هي في حدود هداية الطبيعة، وبالطبع فإنّ هداية الطبيعة مرتبطة بالتجهيزات التي تمتلكها البُنية النوعيّة. وعلى هذا فإنّ هداية الطبيعة (الأحكام الفطريّة) ستحدّد بالأعمال التي تنسجم مع أشكال وتركيبات التجهيزات البدنيّة.

فنحن لا نُجيز مثلاً أيّة رغبات جنسيّة تتمّ بغير طريق الزواج (سواء كانت بين رجل ورجل، امرأة وامرأة، رجل وامرأة من غير طريق الزواج إنسان مع غير الإنسان، إنسان مع نفسه، تناسل من طريق غير طريق الزواج).

ولن نشجّع التربية الاشتراكيّة للأطفال، وإلغاء النسب والوراثة، وإبطال الأُصول والأعراق وغير ذلك، لأنّ البنية المرتبطة بالزواج والتربية تتعارض مع هذه المسائل.[1]

ويتّضح من هذا البيان مدى الخطأ الفاحش الذي ارتكبه مَنْ عدّ

١ـ «أُصول فلسفه وروش رئاليسم» (= أُسس الفلسفة والمذهب الواقعيّ) ج ٢، ص ١٩٩ و ٢٠٠، الطبعة الأُولى، الناشر الشيخ محمّد الآخونديّ.

الوطء مباحاً ، كما فعل أتباع **المالكيّة** تبعاً لرأي إمامهم **مالك بن أنس** ، وكيف انغمروا في ورطة مهلكة لمخالفتهم سنّة التكوين والفطرة من جهة ، وحكم الكتاب والشريعة من جهة أُخرى .

وقد نقل أحد الأحبّة والأعزّة من العلماء الأعلام ـ لا يزال فعلاً على قيد الحياة ـ أنّه تباحث في المدينة المنوّرة مع بعض مشايخ المالكيّة بشأن هذا الموضوع (أي وطء الغلام) .

فاحتجّ بأنّ للآية الشريفة : **وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ** [1] دلالة عليه .

فقلت : إنّ الغلام خارج عن مدلول هذه الآية بالإجماع .

أجاب : الإجماع لكم ، أمّا نحن فلا إجماع عندنا ! ـ انتهت مقولته .

أقول : إن قيل : إنّ أزواج جمع زوج بمعنى القرين ، فهو يشمل كلا الزوج والزوجة ؛ فإن تمسّكنا ـ على هذا ـ بإطلاق **أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ** ، فسوف لا يكون ثمّة إشكال في وطء النساء من قبل الغلمان الذين في ملك يمينهنّ ؛ ولأنّ هذا الأمر يخالفُ بشكلٍ مسلّم عقائد الجميع ـ حتّى

١ـ وردت هذه الآية المباركة في موضعين من القرآن ، الأوّل : في الآيتين ٥ و٦ ، من السورة ٢٣ : المؤمنون : **قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ * ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَمْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ** .

والثاني : في الآيتين ٢٩ و ٣٠ ، من السورة ٧٠ : المعارج : **إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمْ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ * وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ * وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ * وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ** .

المالكيّة ـ فإنّنا نقول : إنّ وطء الرجال للغلمان خارج بنفسه من الإطلاق بهذه الكيفيّة .

ونقول إنّ آية **قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ** ، وآية **إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ** تختصّ من جهة العبارة والخطاب بالرجال ، مع أنّها تشمل من جهة الملاك الرجل والمرأة .

لذا فإنّ هذه الجملة الاستئنافيّة **إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ** استثناء خاصّ بالرجال لا بالنساء . ويمكن لهذا أن تقول المالكيّة إنّ استثناء **مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ** في هذه الآية المتعلّقة بالرجال استثناء مطلق يشمل الجارية والغلام . وأمّا في الإجماع المنعقد على تساوي النساء والرجال في الأحكام وفي الخطابات فإنّ **مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ** جارية أو غلاماً ليس خارجاً من الاستثناء بشكل مطلق ، وحرام على المرأة المجامعة مع ما ملك يمينها من جوار أو غلمان ، وأمّا فقرة **إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ** فهي باقية على عموميّتها بشأن النساء فقط ، فوطء النساء من قبل أزواجهنّ حلال .

لذا فإنّ ما قلناه من التمسّك بالإجماع على حرمة وطء الغلام وتخصيص آية **مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ** لذلك لا يكفي لردّ المالكيّة الذين يرفضون الإجماع .

وهناك في ردّهم الآيات التي ذكرناها بشأن قوم لوط ، والتي تعلن بأعلى نداء وبيان بأنّ جماع الرجل للرجل فاحشة ومنكر بشكل مطلق ، سواء كان الغلام غلامه هو أم غلام غيره : **إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ ... وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ** .

وسينفي عنوان المنكر والفاحشة ـ مع النهي الشديد والمنع الأكيد من هذا العمل ـ أيّ مجال لشبهة وإشكال في حرمة وطء الغلام .

ويتّضح من هذا البيان أنّ مجامعة الرجال للنساء من غير طريق

النكاح المعهود هو الآخر عمل قبيح جدّاً .

أي أنّ جماعهنّ في **الدُّبُرِ** لا في **القُبُلِ** ، وهو المحلّ المعهود للنكاح وطريق التناسل والتكاثر ، محلّ إشكال ، وفقهاؤنا ما بين قائل بـالحرمة أو قائل بالكراهة الشديدة الأكيدة المغلّظة التي تلي الحرمة وتقاربها في ميزانها ودرجتها .

وقد ورد في رواية عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه قال : **مَحَاشُّ النِّسَاءِ عَلَى أُمَّتِي حَرَامٌ.**[1]

١ـ هذا الرواية صحيحة يرويها سُدير عن الإمام الصادق عليه السلام عن رسول الله، وقد أورد الشهيد الثاني في «شرح اللمعة» وروى المجلسيّ كذلك في «بحار الأنوار» ج ٢٣ ، ص ٩٨، طبعة الكمبانيّ ، عن «تفسير العيّاشيّ» عن يزيد بن ثابت ، قال : سأل رجل أميرالمؤمنين عليه السلام أن يؤتى النساء في أدبارهن ؟ فقال : **سَفَلْتَ سَفَلَ اللهُ بِكَ ! أَمَا سَمِعْتَ اللهَ يَقُولُ : «أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنَ أَحَدٍ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ»** ؟

وروى العيّاشيّ أيضاً عن صفوان بن يحيى ، عن بعض أصحاب الرواية ، قال : سألتُ أبا عبد الله الصادق عليه السلام عن قول الله : «**نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ** . فقال: من قدّامها وخلفها في القُبل.

وروى العيّاشيّ كذلك عن معمّر بن خلاد ، عن الإمام الرضا عليه السلام أنّه قال : أيّ شيء يقولون في إتيان النساء في أعجازهنّ ؟ قلتُ : بلغني أنّ أهل المدينة لا يرون به بأساً؛ فقال: إنّ اليهود كانت تقول : إذا أتى الرجل من خلفها خرج ولده أحول ، فأنزل الله **نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُم** ، يعني من خلف أو قدّام خلافاً لقول اليهود ، ولم يعنِ في أدبارهنّ .

وكذلك روى العيّاشيّ عن أبي بصير عن الصادق عليه السلام ، قال : سألته عن الرجل يأتي أهله في دبرها ، فكره ذلك وقال : إنّما معنى «**نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ**» **: أيَّ سَاعَةٍ شِئْتُمْ** .

وفي مقابل هذه المجموعة من الروايات فقد روى العيّاشيّ ، عن ابن أبي يعفور عن الصادق عليه السلام ، قال : سألتُ أبا عبد الله عليه السلام عن إتيان النساء في أعجازهنّ ،

وقد أرود **السيوطيّ** و **ابن كثير** في تفسيريهما أنّ أحمد بن حنبل، وعبد بن حميد، والترمذيّ، والنسائيّ، وأبا يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبّان، والطبرانيّ، والخرائطيّ في «مساوئ الأخلاق»، والبيهقيّ في «السنن»، والضياء في «المختارة»، رووا عن ابن عبّاس أنّه قال:

جَاءَ عُمَرُ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ [وَآلِهِ] وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ هَلَكْتُ!

قَالَ: وَمَا أَهْلَكَكَ؟! قَالَ: حَوَّلْتُ رَحْلِي اللَّيْلَةَ! فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ شَيْئاً،

قال: لا بأس، ثم تلا هذه الآية **نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ**؛ ورواية العيّاشيّ عن عبدالرحمن بن الحجّاج قال: سمعتُ أبا عبد الله (الصادق) عليه السلام ذُكر عنده إتيان النساء في أدبارهنّ، فقال: ما أعلم آيةً في القرآن أحلّت ذلك إلّا واحدة: **إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِن دُونِ ٱلنِّسَآءِ**.

وروى العيّاشيّ أيضاً عن الحسين بن عليّ بن يقطين قال: سألتُ أبا الحسن (الكاظم) عليه السلام عن إتيان المرأة من خلفها؟ فقال: أحلّتها آية في كتاب الله، قول لوط: **هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ**، وقد علم أنّهم ليس الفرج يريدون.

إنّ ما يُستنتج من مجموع هذه الروايات هو حرمة الوطء في الدبر، لأنّ معنى الحرث هو الزراعة والتناسل، وذلك متحقّق فقط في الفرج. وعلى هذا فإنّ **فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ** ليس بمعنى المكان، بل بمعنى الكيفيّة، أي أنّ الجماع في الفرج يمكن أن يكون بأيّة صورة ترغبون. والرواية التي تدلّ على أنّ المراد بـ**أَنَّىٰ** زمانيّة معارضة بالرواية التي تدلّ على هذا المعنى، لذا فهي ساقطة؛ وكذلك فصحيحة ابن أبي يعفور معارضة بهذه الروايات الكثيرة الدالّة على الحرمة، لذا تعدّ ساقطة، مع أنّ وجود معارضتها للكتاب يوجب في حدّ ذاته سقوطها. وأمّا رواية ابن الحجّاج ورواية الحسين بن عليّ بن يقطين فمتشابهة في المعنى، لأنّها تستند إلى آيتين لا تدلّ أيّة منهما على الجواز، لذا ينبغي رفع اليد عن هذه الروايات المعارضة لمخالفتها لظاهر الكتاب أوّلاً، ولمعارضتها ـ ثانياً ـ الروايات الكثيرة الأُخرى التي هي أقوى منها متناً وسنداً.

فَأُوحَى اللَهُ إِلَى رَسُولِهِ هذِهِ الآيَةَ : «نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ» .[١]

يقول : أَقْبِلْ وَأَدْبِرْ وَاتَّقِ الدُّبُرَ وَالحَيْضَةَ .[٢]

ورووا كذلك عن أحمد بن حنبل ، عن ابـن عـبّاس أنّ جـماعة مـن الأنصار أتوا النبيّ صلّى الله عليه وآله وسـلّم فسألوه فـنزلت هـذه الآيـة : **نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ** فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم :

إِئْتِهَا عَلَى كُلِّ حَالٍ إِذَا كَانَ فِي الفَرْجِ .[٣]

وبغضّ النظر عن الشرع والشريعة ، فإنّ مضار جماع النساء في الدبر قد ثبت في الطبّ أيضاً .[٤]

يقول **الميرزا محمّد حكيم** (ملك الأطبّاء) : ومن بين أنـواع الجـماع الذي ينبغي الاحـتراز عـنه اللـواط بـالنساء ، فـقد وجـد بـالتجربة أنّ أولاد شخص كهذا سيبتلون **بـالعلّة المـعروفة** ،[٥] وهـناك جـملة مـن الحكـايات

١ـ الآية ٢٢٣ ، من السورة ٢ : البقرة . وواضح أنّ كلمة **أَنَّىٰ** في هذه الآية ليست بمعنى الزمان والمكان ، لتنافي ذلك مع معنى **الحَرْث** وهو الزرع والتناسل . ويجب أخذها بمعنى **حَيْث** الدالّة على الكيفيّة ليناسب ذلك معنى الحرث . وفي هذه الحالة ، يمكن عدّ هذه الآية أيضاً من أدلّة حرمة الوطء في الدبر.

٢ و٣ ـ «الدرّ المنثور» ج ١ ، ص ٢٦٢ ؛ و«تفسير ابن كثير» الدمشقيّ ، ج ١ ، ص ٤٦٣ . طبعة دار الفكر.

٤ـ ويتّضح ممّا قيل مدى ضحالة ما أورده الدكتور روشنگر فـي «بـازشناسى قـرآن» بالفارسيّة، ص ٢٧٥ ، وافتقاره الأساس المتين ، وإسناده جواز وطء النساء من الدُّبر مستنداً على كلمة **أَنَّىٰ** في القرآن الكريم.

٥ـ على ما يبدو أنّ المراد من العلّة المعروفة هـو مـرض الأُبـنة ، أي المـرض الذي يصيب الدُّبر فلا يهدأ إلّا بوطء الرجال ومنيّهم.

والأخبار الطبيّة في هذا الباب، ذكرها في هذه الرسالة مستوجب للإطالة.[1]

وبغضّ النظر عن هذا كلّه، فإنّ مسائل العلاقات الجنسيّة بين الجنس الواحد، وشيوع هذا الفعل الشنيع اليوم في بلاد أُوروبّا وأمريكا المتقدّمة قد أوجد الأمراض المهلكة للحدّ الذي سبب هستيريا أولياء أمُورهم؛ ولينبغي حقّاً تسمية هؤلاء بوحوش العالم، وتسمية تلك البقاع **بِبِرْكَةِ السِّبَاعِ** أو **حديقة الحيوانات**.

فعدا أمراض السفلس والسيلان وأشباههما، فإنّ مرض **الإيدز** قد خيّم على الجميع كالغيوم السوداء المهولة وكالغول المهيب المفزع، وأنذر الجميع بالموت المحتّم.

هذا الميكروب الخطر الذي لم يستطيعوا حتّى الآن اكتشاف مصل مضادّ له لتطعيم الناس به، يبدأ فعّاليّته حال دخوله البدن، وتعجز كريّات الدم البيضاء عن مقاومته، لذا فهو يضعها على حافّة الموت والهلاك خلال مدّة وجيزة.

وطبقاً لإحصائيّة أحد التقارير، فإنّ من كلّ ٩٥٪ حالة لمرض **الإيدز** وجدت في مجاميع ستّ، فإنّ ٧٢/٢٪ منها كانت خاصّة بالرجال الذين لهم علاقات جنسيّة مع نفس جنسهم أو مع الجنسين كليهما نجمت من اللواط أو من عقد علاقات جنسيّة مع أزواج متعدّدة. وكانت المجاميع الخمس الباقية المسبّبة عن الاعتياد ونقل الدم وأمثالها ترجع أيضاً إلى خصوص مسألة اللواط.[2]

١ـ رسالة «حفظ صحّت ناصري» بالفارسيّة، ص ١٥٨، وكان قد كتبها لناصر الدين شاه.

٢ـ رسالة «الإيدز» ص ١١ و١٢، تأليف الدكتور حسين صادقي شجاع، من نشريات

فها هي مردودات البناء الشامخ للمدنيّة والثقافة الجديدة وصرحها المشيد ، فقد أعادت هؤلاء المساكين إلى مستوى أوطأ من قوم لوط ، ومرّغتهم في مستنقع الرذيلة والدناءة .

ومع أنّ الزنا ليس كاللواط في مجانبة سبيل البذر والتناسل ـ ولهذا السبب فإنّ عقوبته أخفّ من حدّ اللواط ـ لكنّه مع ذلك يمتلك قبحاً فطريّاً بلحاظ حفظ النسب والأولاد ، وتبعاً للغيرة التي وهبها الله للرجال على عرضهم وناموسهم . وقد حُرّم الزنا في جميع الشرائع ، بل إنّه كان يعدّ من الأُمور الشنيعة والقبيحة عند الأقوام الهمجيّين والصحراويّين قبل التشريع ، بل حتّى عند المادّيين والطبيعيّين من منكري الخالق ومنكري الوحي والنبوّة والشرائع .

وَلَا تَقْرَبُوا ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا.[1]

وقد بلغ قبح هذا العمل حدّاً بحيث قرنه الباري في قرآنه بقتل النفس المحترمة :

وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ.[2]

وبحيث جُعل رديفاً للشرك بالله والسرقة التي كان رسول الله يبايع النساء أواخر زمان الهجرة بشرط اجتنابها ، فيقبل منهنّ إسلامهنّ بهذه الشروط :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ

مديرية التعليم والتدريب الصحيّ لوزارة الصحّة.

١ـ الآية ٣٢ ، من السورة ١٧ : الإسراء .

٢ـ الآية ٦٨ ، من السورة ٢٥ : الفرقان .

بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ.[1]

كذلك فإنّ قبح هذا العمل ووقاحته كانت للحدّ الذي عُبّر عنه في كثير من الآيات القرآنيّة بالفاحشة والفحشاء.

فيقول بشأن يوسف النبيّ الذي آثر السجن على الزنا مع **زُلَيخا** امرأة عزيز مصر:

كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ.[2]

وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ.[3]

وَإِذَا فَعَلُوا فَٰحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ.[4]

ونلحظ هنا أنّ مشركي العرب كانوا ينسبون الأمر بالزنا إلى الله سبحانه، وربّما كان معناه إرادة السنّة التكوينيّة، حيث ردّ الباري قولهم، وبيّن أن: ليس هناك من عمل قبيح وفاحشة وزِناً يصبح عملاً فطريّاً وسنّة إلهيّة.

إنّ شعور الغيرة على الأُنثى وحفظها وصونها من عبث العابثين وعن مسّ أيادي السوء أمر ملحوظ ومشاهد في كثير من الحيوانات التي يصل بها الأمر إلى إيثار الموت والتضحية بالروح حفظاً للناموس. فالديك مثلاً له عشق وعلاقة حميمة بأُنثاه، فهو يقاتل ويُقتل من أجل منع تعدّي ديك

١ـ الآية ١٢، من السورة ٦٠: الممتحنة.

٢ـ ذيل الآية ١٢، من السورة ١٢: يوسف.

٣ـ صدر الآية ١٥، من السورة ٤: النساء.

٤ـ الآية ٢٨، من السورة ٧: الأعراف.

آخر على بيته وحرمه ، في حين يمتاز الخنزير من بين الوحوش بفقدانه الغيرة على أُنثاه ، فيُقال إنّه إن شاء مجامعة أُنثاه فإنّه يصوّت بصوته فيدعو باقي الخنازير إليها ، حتّى يجامعها قبله سبع مرّات خنازير آخرون ، ثمّ يشرع نفسه في مجامعتها . ولذا فقد حُرّم لحم الخنزير ، إذ إنّ الآثار النفسيّة والروحيّة للخنزير تنتقل بتناول لحمه إلى الشخص الآكل .

وهكذا فإنّ أحد الأسباب المهمّة لفقدان الأُوروبّيّين والأمريكان للغيرة هو تناولهم لحوم الخنازير ، حيث تنتقل هذه الروحيّة مع انتقال خلايا بدن الخنزير إلى أبدانهم ، فيبدأ مفعولها بالظهور آنيّاً ، ثمّ يصبح إثر التكرار والمداومة على الأكل ملكةً عندهم تستأصل الغيرة والحميّة من نفوسهم .

لكنّ الرجال المسلمين والمؤمنين يصونون نساءهم في ستر الحجاب تبعاً لتعاليم القرآن ،كي لا تلحظها نظرات الخيانة والتطفّل ، ولئلّا تتناثر أزهار حياتهنّ وعفّتهنّ وعصمتهنّ وتقواهنّ أو تتلاشى في مهبّ عواصف الشهوات .

وقد أجاد الشاعر **الوافي العراقيّ** في شعره العفيف عند وصف فوائد غيرة الرجال وحجاب النساء :

معنى ناموس چيست ؟ روى نهان داشتن
پردۀ عفّت زدن ، عالَم جان داشتن
عصمت و ناموس ما ، به مسلك هوشمند
گنج بود گنج را به كه نهان داشتن
اى كه تو را آرزوست به كشف ناموس خويش
پرده درى نارواست ، پردگيان داشتن

مگــر کــمی از وحــوش ، نگــر بــه ســوی طـیور
پــــند بگـــیر از خـــروس ز مـــاکـیان داشــتن
حـــافظ شـــیرین لبـان ، مـقنعۀ عـصمت است
تـــلخ بـــود بـــی‌نقاب ، روی زنـــان داشـــتن
قــصۀ نـاموس و غـیر ، چـه بـرق بـا خـرمن است
خـــرمن خـــود را مـخواه بـرقِ یَـمان داشــتن
تــــــا نگــــــماری نـــظر ، دل نکـــند آرزو
گــرسنه چشــمی دهــد ، دیــده بــه نـان داشــتن
آیـــنۀ بـــی‌حجاب ، بـــه طـــبع گـــیرد غــبار
خـــوش بـــود آئـــینه را پــرده بـر آن داشــتن
مـــــنع تـــماشاچیان ، گـــر نکـــند بـــاغبان
مـــی نـــتوانـــد بـــه بـاغ نـخل روان داشــتن
گـــر بگشـــائی دری ز خـــانه بـــر مـــفلسان
دگــر مــدار ایــن امـید ، بـه خـانه خـوان داشـتن
غــنچه بــه بـاغ ایـمن است تـا بـود انـدر حـجاب
آفت جـــان و دل است چـــهره عـــیان داشــتن
مــــرد وزن اجــــنبی ، چــــه آتش وپــــنبه است
جــــمع بـه یکـجا دو ضـدّ ، نـمی‌توان داشــتن
کشـــف حـــجاب زنـــان ، بـاری بـاشد گـران
دور ز غـــیرت بـــود ، بـــار گـــران داشـــتن
کـــمانِ ابـــرو مـتاب ، خـدنگ مـژگان بـپوش
نـــیست بـه دوران شـاه ، تـیر و کـمان داشــتن

وافــــى اگـــر گشــته پــير ، طــبعى دارد جــوان
خــوش است پــيرانــه سر ، طبع جـوان داشـتن[1]

١ـ «كشف الغرور أو مفاسد السفور» تأليف المؤرّخ والمحدّث الجليل الحاجّ الشيخ ذبيح الله محلّاتي ، ص ٤٣ و ٤٤ ، طبعة ١٣٦٨ شمسيّة هجريّة.

يقول الشاعر : «ما معنى الناموس ؟ هو ستر الوجه وإسدال ستار العفّة ، والحفاظ على عالم الروح.

فعصمتنا وناموسنا هي كنز بنظر اللبيب ، فأنعم بالكنز المُخبّأ المصون.

فيا من ترغب في كشف ناموسك ! إنّ هتك ستار المخدّرات قبيح.

فإن كنت أوطأ من الوحوش ، فانظر إلى الطيور واتّعظ بالديك في حراسته للدجاجة.

انّ قناع العصمة حارس للشفاه الجميلة ، و ما أمرّ أن تكون وجوه النساء سافرة بلا نقاب.

كما أنّ قصة الناموس مع الغِيَرِ قصّة البرق والبيدر ، فلا تتمنّ أن تصيب الصاعقة بيدرك.

وما لم ترسل النظرات فلن تخطر الأمنية في القلب ، فالجائع يسترق النظرات متطلّعاً لامتلاك الخبز.

كما أنّ المرأة المكشوفة سيعروها الغبار بلا شكّ ، فأكرم بستر المرآة و صونها عن الغبار.

وإن لم يمنع البستانيّ المتفرّجين والمتطفّلين ،فلن يمتلك يوماً بستاناً عامرة بالنخيل.

وإن فتحتَ الباب للمفلسين والجياع على مصراعيه ، فلا تأمل أن تبقى المائدة في بيتك ملآى.

إنّ البرعم في البستان في أمان ما دام مستوراً ؛ فإن بدا للعيان أُصيب في قلبه وروحه.

مثل الرجل والمرأة الأجنبيّة ، كالنار والقطن ، فلا يمكن لهذين الضدّين أن يجمعا في مكان واحد.

كما أنّ سفور النساء أمر ثقيل وصعب ، وبعيد على الغيور أن لا يبهضه تحمّل ذلك.

فلا تسدّدي قوس الحاجبين ، وغطّي رموش سهام العيون ، فليس لائقاً في زمن الملك أن يحمل أحد سهاماً وقوساً.

والوافي وإن صار شيخاً فإنّ له طبع الشباب ، وجميل للشيوخ امتلاك طبع الشباب».

أمّا السادة الذين يعتبرون أنفسهم من نسل القرود ، فقد أرخوا لجام الشهوات ، وسخروا بالنكاح المشروع ، وسعوا إلى إيجاد العلاقات الجنسيّة مع كلّ رجل وامرأة ، لكنّهم جهلوا أنّ هذه الحيوان البريء (القرد) من أهل الغيرة وله سُنّة زواج وحسّ غيرة في حفظ أُنثاه وحراستها ، لذا ينبغي اعتبارهم أكثر وضاعة ورذالة من القرد ، فالقرد البريء يأنف أن ينسب إليه أراذل كهؤلاء ، فهم الذين تصدق عليهم حقّاً الآية الكريمة :

أُولَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ .[1]

يقول **الدميريّ** في «حياة الحيوان» عن القرد : **وَيَأْخُذُ نَفْسَهُ بِالزَّوَاجِ وَالغَيْرَةِ عَلَى الإنَاثِ** .[2]

كما أنّ **استعمال الخمر والمسكر** رجس أيضاً ومن عمل الشيطان ، فكيف يمكن أن يكون حلالاً في شريعة ما وحراماً في أُخرى ؟!

أيمكن إباحة **المسكرات** التي تزيل العقل ، فتجعل الإنسان في صفّ المجانين ؟!

إنّ الناس يفضّلون الابتلاء بأشدّ الأمراض كالسلّ والسرطان والبرص والجذام والعمى والشلل على الإصابة بالجنون ، فإنسانيّة الإنسان بعقله لا بشيء آخر ، والإنسان بلا عقل أسفل وأرذل من جميع الحيوانات والوحوش .

كما أنّ تأثير المسكر على الإنسان هو سوقه إيّاه للجنون ، فما الفرق

١ـ الآية ١٧٩ ، من السورة ٧ : الأعراف : **وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ** .

٢ـ «حياة الحيوان» ، الطبعة الحجريّة ، سنة ١٢٨٥ هـ، باب القاف ، مادّة **قِرْد** .

بين الجنون الدائميّ والجنون المؤقّت ؟

أفيمكن في هذه الحالة اعتبار المسكر خارجاً عن شروط الحلّيّة والحرمة ؟ أو الحكم بحلّيّته ؟

لقد قلنا إنّ الأحكام الفطريّة هي الأحكام التي تعدّ واسطة لنيل الكمال ، وسير الإنسان إلى أعلى درجات الإنسانيّة ؛ أفشرب الخمر له ميزة كهذه ؟ أو هل يسير السكّير دوماً في طريق مدارج ومعارج الكمال ؟

أوَ يطوي الطريق المطلوب للكمال رجل مخمور لا يفرّق بين زوجته وأُخته وأُمّه ، فيشاركهنّ فراشه ؟

أَوَ يَعدّ الرجل المخمور الذي يقذف طفله حال غضبه من الشرفة إلى ساحة المنزل إنساناً ؟

أيعدّ إنساناً الرجل السكران الذي تكتنفه الخيالات المشوّهة والمموّهة ، فيتخبّط في عالم الأوهام والخيالات ، بحيث يتصوّر قلم الكتابة نخلة عالية ، وساقية الماء بحراً يباباً ؟

كلّا بالطبع ، فشرب الخمر من أسوأ المسائل المعاكسة للفطرة والسنّة الآدميّة ، فهو يهوي بالإنسان ويحرمه من جميع المزايا والحظوظ .

أيعقل أنّ السيّد المسيح على نبيّنا وآله وعليه الصلاة والسلام قد قام بتحليل هذه المادّة الخبيثة وهذا الشيطان الرجيم ؟

إنّ أغلب المسيحيّين بما فيهم الكاثوليك والبروتستانت يحتسون الخمر ويعتبرونها دم عيسى !

فيا للعجب !كم يحتوي بدن السيّد المسيح من الدم بحيث ينقضي على صعوده إلى السماء بما يقرب من ألفي سنة ولا زال نصارى العالم يحتسون من دمه فلا ينفد ولا ينضب ؟!

كلّا وحاشا ، فلا السيّد المسيح شرب الخمر ، ولا أُمّة المصطفاة ،

ولا حُلّلت الخمر في كتاب الإنجيل السماويّ ، ولا أجاز المسيح لحوارييه شربها يوماً .

لقد أبطل **المرمنيّون** ـ وهم أمريكيّو الأصل من غير المهاجرين والمقيمين هناك ؛ والساكنون في ولاية **إتازونا** ـ أساس الكاثوليك والبروتستانت ، وقالوا بحرمة الخمر وشربها ، وعدّوا من الخطأ نسبة السيّد المسيح إلى شرب الخمر ، فقد كان يشرب عصير العنب ، فأساءوا بعد ذلك الاستفادة من هذا العمل فنسبوا إليه شرب الخمر .

تشير الآيات القرآنيّة بصراحة وبألفاظ وعبارات واضحة إلى أنّ شرب الخمر من الخبائث ، وأنّها رجس من عمل إبليس وتلبيسه على الناس ، أشاعها بينهم لإيقاع العداوة والبغضاء بينهم ، ولصدّهم عن ذكر الله والصلاة والتضرّع لمقام عزّه وقطع طريق العبوديّة للخالق .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ * وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ.[1]

ويعدّ **الربا** من المصاديق والأحكام المعاكسة للفطرة بشكل واضح وبيّن ، ويتضمّن معناه الاستفادة المجّانيّة وبلا عوض من جهود الناس وأتعابهم ، فهو في الحقيقة يمثّل استخدام الشخص المظلوم وتسخيره لخدمة الشخص الظالم المتجاوز ، فالشخص المرابي يأخذ فائدة مقابل لا شيء ، إذ عند استرداده القرض الذي أقرضه ، فما معنى أخذه الزيادة

١ـ الآيات ٩٠ إلى ٩٢ ، من السورة ٥ : المائدة .

عليه ؟! خلافاً للبيع والشراء اللذين يمثّلان حصول منفعة أزاء عمل معيّن ، وفي الحقيقة فإنّهما يمثّلان حصول منفعة مقابل صرف عمر بذله البائع في تهيئة الأجناس المعيّنة وعرضها .

ونلحظ لهذا أنّ الشخص المشتري لا يحسّ بالقلق والضجر بالفطرة والوجدان حين يشتري شيئاً مع علمه بأنّ البائع ينتفع ببيعه منه ، على العكس من الشخص المستقرض الذي يحسّ بالضجر والملل والقلق تجاه الزيادة التي يتقاضاها منه المقرض ، فلكأ نّما قَرَعَتْهُ قارعة أو ألمّ به خطب ، ولو كانت الزيادة طفيفة وتافهة ، وهذا لا يحصل إلّا بإحساس الشخص المقترض عند سداده للزيادة بإجباره على ذلك وقهره عليه ، لا فرق في هذا الأمر وفق أيّ مذهب ونظام تمّ ؛ وهو معنى كون جميع أقسام الربا وتصريف النقود وفوائد البنوك أمراً غير فطريّ ، بل معاكساً للفطرة ، ولو كانت الفائدة المستحصلة في أدنى مراتبها .

لقد حوّل مرابو العالم والبنوك الدنيا إلى سوق للاستثمار والاستعمار والاستهلاك والاستعباد ، وهو أقسى وأشدّ ألف مرّة ممّا كان يحصل في زمن الرقّ والعبوديّة وشراء وبيع الغلمان والجواري ، فذاك كان يحصل لفئة وطبقة خاصّة وفي موارد معيّنة محدودة ، وهذا يمثّل ابتلاع جميع العالم ومصادرة جهود الشيخ والشابّ والرجل والمرأة والآمر والمأمور والرئيس والمرؤوس وصاحب العمل والموظّف بلقمة واحدة .

وقد وردت حرمة الربا في القرآن الكريم بشكل أكيد ومشدّد ، وبعبارات حادّة وتمثيلات وتشبيهات عجيبة :

ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنْتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّـهِ

وَمَنْ عَادَ فَأُولَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ * يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَـٰتِ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ * إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ * وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * وَٱتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ.[١]

و**للعلّامة آية الله الطباطبائيّ** قدّس الله سرّه بحوث نفيسة وقيّمة بشأن هذه الآيات نشير هنا إلى بعضها :

لقد شدّد الله سبحانه في هذه الآيات في أمر الربا بما لم يشدّد بمثله في شيء من فروع الدين إلّا في تولّي أعداء الدين ، فإنّ التشديد فيه يضاهي تشديد الربا ، وأمّا سائر الكبائر فإنّ القرآن وإن أعلن مخالفتها وشدّد القول فيها ، فإنّ لحن القول في تحريمها دون ما فى هذين الأمرين ، حتّى الزنا وشرب الخمر والقمار والظلم وما هو أعظم منها كقتل النفس التي حرّم الله والفساد ، فجميع ذلك دون الربا وتولّي أعداء الدين .

وليس ذلك إلّا لأنّ تلك المعاصي لا تتعدّى الفرد أو الأفراد في بسط آثارها المشؤومة ، ولا تسري إلّا إلى بعض جهات النفوس ، ولا تحكم إلّا في الأعمال والأفعال ، بخلاف هاتين المعصيتين فإنّ لهما من سوء التأثير ما ينهدم به بنيان الدين ويعفى أثره ، ويفسد به نظام حياة النوع ، ويضرب الستر على الفطرة الإنسانيّة ويسقط حكمها فيصير نسياً منسيّاً على ما

١ـ الآيات ٢٧٥ إلى ٢٨١ ، من السورة ٢ : البقرة .

سيتّضح إن شاء الله العزيز بعض الاتّضاح .

وقد صدّق جريان التأريخ كتاب الله فيما كان يشدّد في أمرهما ، حيث أهبطت المداهنة والتولّي والتحابّ والتمائل إلى أعداء الدين الأُمم الإسلاميّة في مهبط من الهلكة صاروا فيها نهباً منهوباً لغيرهم : لا يملكون مالاً ولا عرضاً ولا نفساً ، ولا يستحقّون موتاً ولا حياةً ، فلا يؤذن لهم فيموتوا ، ولا يغمض عنهم فيستفيدوا من موهبة الحياة ، وهجرهم الدين ، وارتحلت عنهم عامّة الفضائل .

وحيث ساق أكل الربا إلى ادّخار الكنوز وتراكم الثروة والسؤدد ، فجرّ ذلك إلى الحروب العالميّة العامّة ، وانقسام الناس إلى قسمَي المثري السعيد والمعدم الشقيّ ، وبان البين ، فكان بلوى يدكدك الجبال ، ويزلزل الأرض ، ويهدّد الإنسانيّة بالانهدام ، والدنيا بالخراب ، **ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا ٱلسُّوٓأَىٰ**.[1] وسيظهر لك إن شاء الله تعالى أنّ ما ذكره الله تعالى من أمر الربا وتولّي أعداء الدين من ملاحم القرآن الكريم .[2]

واعلم أنّ أمر الآية عجيب ، فإنّ قوله تعالى : **فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ** مع ما يشتمل عليه من التسهيل والتشديد حكم غير خاصّ بالربا ، بل عامّ يشمل جميع الكبائر الموبقة ، والقوم قد قصروا في البحث عن معناها ، حيث اقتصروا بالبحث عن مورد الربا خاصّة من حيث العفو عمّا سلف منه ، ورجوع الأمر إلى الله فيمن انتهى ، وخلود العذاب لمن عاد

١ـ الآية ١٠ ، من السورة ٣٠ ، الروم : **ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ**.

٢ـ «الميزان في تفسير القرآن» ج ٢ ، ص ٤٣٢ و ٤٣٣ .

إليه بعد مجيء الموعظة ، هذا كلّه مع ما تراه مع العموم في الآية .

إذا علمتَ ، هذا ظهر لك أنّ قوله : **فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ** لا يفيد إلّا معنى مبهماً يتعيّن بتعيّن المعصية التي جاء فيها الموعظة ويختلف باختلافها ، فالمعنى :

أنّ من انتهى عن موعظة جاءته ، فالذي تقدّم منه من المعصية ، سواء كان في حقوق الله أم في حقوق الناس فإنّه لا يؤاخذ بعينها ، لكنّه لا يوجب تخلّصه من تبعاته أيضاً كما تخلّص من أصله من حيث صدوره ، بل أمره فيه إلى الله ، إن شاء وضع فيها تبعة ، كقضاء الصلاة الفائتة والصوم المنقوض وموارد الحدود والتعزيرات وردّ المال المحفوظ المأخوذ غصباً أو ربا وغير ذلك مع العفو عن أصل الجرائم بالتوبة والانتهاء ، وإن شاء عفى عن الذنب ولم يضع عليه تبعة بعد التوبة ، كالمشرك إذا تاب عن شركه ومن عصى بنحو شرب الخمر واللهو فيما بينه وبين الله ونحو ذلك .

فإنّ قوله : **فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَٱنتَهَىٰ** مطلق يشمل الكافرين والمؤمنين في أوّل التشريع وغيرهم من التابعين وأهل الأعصار اللاحقة .[1]

ومن هنا يظهر أنّ المراد من مجيء الموعظة بلوغ الحكم الذي شرّعه الله تعالى ، ومن الانتهاء التوبة وترك الفعل المنهي عنه انتهاءً عن نهيه تعالى ، ومن كون ما سلف لهم عدم انعطاف الحكم وشموله لما قبل زمان بلوغه ، ومن قوله : **فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ** أنّه لا يتحتّم عليهم العذاب الخالد الذي يدلّ عليه قوله : **وَمَنْ عَادَ فَأُولَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ خَـٰلِدُونَ** ، فهم منتفعون فيما أسلفوا بالتخلّص من هذه المهلكة ، ويبقى عليهم أنّ أمرهم إلى الله فربّما أطلقهم في بعض الأحكام ، وربّما وضع

١ـ «الميزان» ج ٢ ، ص ٤٤٢ .

عليهم ما يتدارك به ما فوّتوه .[1]

يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَـوٰا وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَـٰتِ : **المحق** نقصان الشيء حالاً بعد حال ، ووقوعه في طريق الفناء والزوال تدريجاً ؛ **والإرباء** الإنماء ، **والأثيم** الحامل للإثم ، وقد مرّ معنى الإثم .

وقد قوبل في الآية بين **إِرْبَاءِ الصَّدَقَاتِ وَمَحْقِ الرِّبَا** ، وقد تقدّم أنّ إرباء الصدقات وإنماءها لا يختصّ بالآخرة ، بل هي خاصّة لها عامّة تشمل الدنيا كما تشمل الآخرة ، فمحق الربا أيضاً كذلك لا محالة .[2]

قوله تعالى : **وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ** تعليل لمحق الربا بوجه كلّيّ ، والمعنى أن آكل الربا كثير الكفر لكفره بنعم كثيرة من نعم الله لستره على الطرق الفطريّة في الحياة الإنسانيّة ، وهي طرق المعاملات الفطريّة ، وكفره بأحكام كثيرة في العبادات والمعاملات المشروعة ، فإنّه بصرف مال الربا في مأكله ومشربه وملبسه ومسكنه يبطل كثيراً من عباداته بفقدان شرائط مأخوذة فيها ، وباستعماله فيما بيده من المال الربويّ يبطل كثيراً من معاملاته ، ويضمن غيره ، ويغصب مال غيره في موارد كثيرة ، وباستعمال الطمع والحرص في أموال والخشونة والقسوة في استيفاء ما يعدّه لنفسه حقّاً يفسد كثيراً من أُصول الأخلاق والفضائل وفروعها ، وهو **أثيم** مستقرّ في نفسه الإثم فالله سبحانه لا يحبّه **لِأَنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ**.[3]

قوله تعالى : **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ؛ خطاب للمؤمنين وأمر لهم بتقوى الله وهو توطئة لما يتعقّبه من الأمر بقوله **وَذَرُوا مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰا** ، وهو يدلّ على أنّه كان من

١ و٢ـ «الميزان» ج ٢ ، ص ٤٤٣ .

٣ ـ «الميزان» ج ٢ ، ص ٤٤٧ .

المؤمنين في عهد نزول الآيات مَنْ يأخذ الربا وله بقايا منه في ذمّة النـاس من الربا فأُمِرَ بتركها، وهدّد في ذلك بما سيأتي من قوله:

فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ.[1]

وقوله: **وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم تَعْلَمُونَ.**

ومع أنّ الآية مطلقة غير مقيّدة، لكنّها منطبقة على مورد الربا، فإنّهم (أي أعراب الجاهليّة) كانوا إذا حلّ أجل الدَّين يطالبونه من المدين، فيقول المدين لغريمه: زد في أجلي كذا مدّة أزيدك في الثمن بنسبة كذا، والآية تنهى عن هذه الزيادة الربويّة وتأمر بالإنظار.[2]

كان هذا بحثنا عن **الفطرة وأحكام الفطرة** وانطباق الأحكام الشرعيّة والسنن الإلهيّة ومنهاج الشرائع وسيرة الأنبياء عليها؛ وعلمنا أنّ الفطرة هي المسار التكويني لكلّ فرد من أفراد الإنسان (الذي هو موجود حقيقيّ واقعيّ) إلى كماله المنشود الذي هو الآخر أمر حقيقيّ، وأنّ الأحكام التي وضعت لإيصال الإنسان إلى هذا الكمال تدعى **بالأحكام الفطريّة**، وأنّ هذه الأحكام عبارة عن المسائل التي جُعلت من قبل الخالق العليم الحكيم والخبير بالبنية الوجوديّة والمسير التكامليّ والهدف الغائيّ للإنسان؛ ومعنى الجعل الإلهيّ هو الاعتبار الإلهيّ. فهذه الأُمور الاعتباريّة هي الواسطة بين مبدأ الإنسان وبين كماله وغايته. فالعبد الخاضع للّه يمكنه بتنفيذ هذه الأحكام والأوامر وتطبيقها إيصال نفسه إلى أعلى ذروة الكمال والارتقاء بها إلى أوج الإنسانيّة.

١ـ «الميزان» ج ٢، ص ٤٤٧.

٢ـ «الميزان» ج ٢، ص ٤٤٩.

فهذه الأحكام التي تمّ اعتبارها بإرادة الله ونظره فاقت في إحكامها ومتانتها كلّ أمر آخر، وكانت أكثر توفيقاً ونجاحاً في إيصال الإنسان إلى الهدف الأصليّ للخلقة، لأنّها تنطبق مع حكم العقل وحكم الشهود والوجدان. ومعنى الاعتبار أنّ المُعْتَبِر ـ وهو الله سبحانه ـ قد قرّرها وعيّنها بلحاظ الهيكل البُنيويّ والقوى المادّيّة والطبيعيّة، وبرعاية الأُمور النفسيّة والروحيّة للإنسان، بعيداً عن ذرّة من الحقد والحسد وإعمال الغرض ولحاظ النفع الشخصيّ والفائدة الذاتيّة، فقد حُسبت جميع المصالح والمفاسد، وأسباب النجاة والفوز وعوامل الهلاك والشقاء، بأدقّ الحسابات وأعمقها وأكملها، ثمّ جُعل الحكم تبعاً لهذه النظرة؛ أشبه بطبيب حاذق يعاين مرض المريض ويطالعه ويناقش جوانبه وسوابقه ولواحقه، ويجري المقارنات، ويراعي الظروف الزمانيّة والمكانيّة والأُمور الوراثيّة، ثمّ يعتبر بعد تشخيص المرض دواءً له. فهذا الاعتبار يقابل الحقيقة، أي يقابل الخارج والخارجيّة، أي حكم ونظر.

فنظر الطبيب هو نظر الشخص المعتبر، وهو الذي يعتبر الأدوية الفلانيّة في وصفة الدواء التي يعطيها للمريض.

ثمّ إنّ المريض الذي يمثّل مرضه أمراً حقيقيّاً، يعمل بالنظريّة الاعتباريّة للطبيب، فيستعمل الدواء ويشفى في النتيجة، والشفاء بدوره أمر حقيقيّ.

ومن ثمّ فإنّ اعتبار نظريّة الطبيب، أي تقييم هذا الدواء وفق نظره، هو أمر صحيح وكامل جدّاً ليس فوقه شيء، إذ يستحيل أن يصف الطبيب في هذه الحال دواءً خلافاً لنظريّته بخصوص هذا المريض، كأن يصف مثلاً دواءً يعاكسه، وإلّا لدفع بالمريض إلى حافّة الهلاك، ولما سُمّي آنذاك بالطبيب، بل وجب تسميته بالقاتل والمفسد والجاني.

فالطبيب يقضي عمره في الدراسة والتحصيل وإجراء التجارب ليكون ماهراً في فنّه، وليؤيّد بنظره هذا الاعتبار بشكل صحيح، فلا يمكنه تخطّي هذا الاعتبار القائم به مائة في المائة أو تجاوزه. لذا، فإنّ قضاء عمر في مشقّة الدراسة والتعلّم والتعليم، والسهر في خفارة المستشفيات ـ وهي كلّها أُمور حقيقيّة ـ كان من أجل حصول وإيجاد هذا الأمر الاعتباريّ.

أمّا اعتبار الخالق الحكيم فهو من الصحّة والصواب ومطابقة المراد، بحيث ينبغي القول حقّاً إنّه يفضل آلافاً من الحقائق، لأنّه مفتاح جميع أنواع السعادة وكمال الحظّ.

ولقد بيّن العلّامة آية الله الطباطبائيّ قدّس الله سرّه الشريف هذه الحقائق مفصّلاً في المقالة السادسة من «أُصول فلسفة وروش رئاليسم» (= أُسس الفلسفة والمذهب الواقعيّ)؛ كما بيّن بكمال الدقّة هذه الحقيقة في تفسير الآية المباركة المتعلّقة بالفطرة على النحو الذي أوردناه. والعجب هنا من صاحب مقالة «بسط وقبض تئوريك شريعت» (= بسط وقبض نظريّة الشريعة) الذي يبدو أنّه عدّ الاعتبار أمراً زائداً عابراً لا ملاك له ولا قيمة، وهو أشبه ما يكون عنده بنسج الخيالات، واعتبره مدفوعاً بهواه من الأُمور التي لا أساس لها ولا مناط، ووضعه ردفاً للأُمور الواهية، ثمّ انتقد سماحة العلّامة وذكر مطالباً وأُموراً لا تليق بساحة كاتب ولا مقامه.[1]

ونجد أنفسنا مجبرين على أن نذكّر بعدّة تنبيهات من أجل بيان بعض مسائل الفطرة والأحكام المعتمدة عليها.

التنبيه الأوّل: هل نحن قادرون على اكتشاف جزئيّات أحكام الفطرة

١ـ مجلّة «كيهان فرهنگى»، العدد ٥٢، تيرماه ١٣٦٧ ش، رقم ٤، مقالة «بسط وقبض تئوريک شريعت»، ص ١٧، العمودان الأوّل والثاني.

من غير طريق الشرع والشريعة ؟

الجواب منفيّ بالطبع ، أي أنّه لا إمكان مطلقاً في الوصول إلى أحكام الفطرة لعامّة البشر بدون الاتّصال بالوحي ومرحلة النبوّة .

وعلّة ذلك ـ كما ذكرنا ـ أنّ أحكام الفطرة وضعت على أساس الاحتياجات الحقيقيّة للإنسان ، وليس هناك غير علّام الغيوب من مطّلع على البواطن والسرائر والغرائز ، وخبير بالسبل الموصلة إلى الهدف الغائيّ لخلق الإنسان ، وعليم بالبناء البدنيّ والمادّيّ والنظام الروحيّ والنفسيّ له ، ليمكنه جعل حكم يحفظ مصلحة الآدميّ المطلقة من جميع الجهات ؛ فمهما ارتفعت درجات الأفراد ـ من دون الله ـ العلميّة ، وارتقت مراتب الحكمة فيهم ، إلّا أنّهم لن يحيطوا مع ذلك بجميع جوانب الإنسان :

وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا. [1]

وفي المثال الذي أوردناه عن علم الطبّ والمريض ، فإنّ على المريض مهما كانت درجته العلميّة مراجعة الطبيب والعمل بوصفة الدواء ، واتّباع تعاليمه بلا مناقشة ، وذلك باعتبار جهل المريض لفنّ الطبّ ، ولأنّ الطبيب حسب فرضنا حاذق ماهر ، لذا فإنّ مفاد حكم الفطرة وحكم العقل وحكم الشرع يقول :

فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ. [2]

وينبغي على المريض أن يلتزم بالتعبّد المحض مقابل أقوال الطبيب ، وإلّا فإنّ تخطّيها وتجاوزها سيعدّ تمرّداً واتّباعاً للرأي الشخصيّ ومستلزماً للهلاك ، وهو أحد مصاديق الانتحار ، ومعلوم أنّ الانتحار حرام عقلاً وشرعاً ،

١ـ ذيل الآية ٥٨ ، من السورة ١٧ : الإسراء .

٢ـ ذيل الآية ٧ ، من السورة ٢١ : الأنبياء .

لذا فإنّ رأي الطبيب صحيح ورأي المريض خطأ.

والأمر في الأُمور الشرعيّة كما هو في أمر الطبيب الحاذق العارف ببواطن أُمور البدن وتركيبه وأفعاله وردود فعله، وخواصّ الدم، وتركيب السمّ والترياق، وأخيراً فهو مطّلع على مجموع حالات المريض وكيفيّة تأثير الدواء؛ فالشارع المقدّس مطّلع بأحسن وجه وأكمل طريق على جميع الأحوال المادّيّة والروحيّة للمريض وكيفيّة معيشته وحياته وعافيته المطلقة، وصحّة وسلامة نفسه، وتمتّعه بجميع المواهب الإلهيّة والاستعدادات الفطريّة، وكيفيّة جعلها فعّالة في جميع الشؤون الفرديّة والاجتماعيّة. والإيصال إلى ساحة قدس الحبيب على الإطلاق والفناء في ذاته المقدّسة. لذا، ينبغي متابعة النبيّ ووصيّه، واتّباع الإمام الحيّ، وإلّا فإنّ المخاطر ستواجه البشر بشكل حتميّ وقطعيّ، وسيُنزل بنا ـ بسبب عدم التمسّك بميثاق النبوّة وحبلها ـ ما نزل بالمجتمعات الكبيرة والأُمم المتمدّنة في عالمنا الحاضر، فقد كانوا سعداء جذلين مبهورين بأضواء الدنيا الزائفة، مشغولين كالأطفال بالتفرّج على صندوق العجائب، فخسروا بلا مقابل جميع مزاياهم الأخلاقيّة والروحيّة وسجاياهم الفطريّة وغرائزهم الموهوبة من قبل الله، بل خسروا حتّى صحّة المزاج الطبيعيّ وهدوء البال وراحة الفكر، فلم يربحوا في مقامرتهم هذه، بل كانوا هم الأخسرين، وعلى قول إقبال الباكستانيّ:

دل ودين باختهاى تا هنر آموختهاى
آه از اين دُرّ گرانمايه كه درباختهاى[1]

١ـ يقول: «لقد خسرتَ روحك ودينك حتّى تعلّمت فنّاً، فيا للحسرة من الدرّ الثمين الذي قد خسرتَه».

ويتّضح من هذا البيان أنّ ما ذكره بعض دعاة التجدّد المبهورون بالغرب في معنى خاتميّة الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم من : «أن العلوم البشريّة اليوم في حالة تزايد وتكامل ، لذا فلا حاجة للبشر إلى نبيّ ، لأنّ البشر يستطيع بقواه العقليّة وبحوثه العلميّة أن يدير أُموره بلا واسطة للرسول» ، وهو قول سخيف لا اعتبار له .

وينبغي العلم أنّ مرادنا بعدم قدرة العقل على اكتشاف الأحكام الفطريّة كما أشرنا قبلاً ، هو عدم قدرته على اكتشاف جزئيّات وتفاصيل الأحكام ، ولا يمكن قبول الادّعاء بأنّ البشر يمكنه بعقله استخراج واستنباط الأحكام الفطريّة ، إذ هو قول جزاف . أمّا في الأُسس والأحكام الكلّيّة التي يتوافق البشر عليها ، كحسن الإحسان إلى المُحسن ، وحسن الإيثار ، والإنفاق على الغير في الموارد الصحيحة ، أو قبح الكذب المضرّ وحسن الصدق النافع ، وحسن العدالة وقبح الظلم ، وكغريزة النزوع إلى المبدأ ، وسائر الأحكام من هذا القبيل ، فهي أحكام فطريّة يمكن إدراكها ، بل إنّها من أوّل الأشياء التي يصل إليها العقل ويدركها ، لأنّ الفطرة إن اعتُبرت بمعنى كيفيّة الخلق والبنية الوجوديّة الخاصّة للإنسان ، فإنّ أُسسها عموماً ستكون قابلة لإدراك البشر وجداناً في بعض مواردها ، ولو كانت هذه الأُسس والأُصول جملةً غير قابلة لإدراك البشر وفهمهم فإنّ ذلك يؤدّي إلى نفي الغرض ، وسيصبح الادّعاء بأنّ أحكام الدين فطريّة أمراً لا معنى له ، لأنّ الأحكام ستكون ما يأمر به الدين ويقوله ، وهذا يستلزم الدور .

التنبيه الثاني : وكما صرّح آية الله العلّامة قدّس الله نفسه ، فإنّ المراد بأحكام الفطرة هي الأحكام المطابقة للعقل ، أي العقل الإنسانيّ من حيث هو إنسان ، لا العقل الحيوانيّ .

فالعقل الحيوانيّ عبارة عمّا يشترك به الإنسان مع الحيوانات، والشعور المرتبط بالحواسّ الظاهريّة والقوى الخياليّة الداعي لاتّباع اللذائذ البهيميّة والشهوات، وتحقيق الرغبات المادّيّة، ونيل الرياسة، وجمع الحطام الدنيويّ، وحسّ التفوّق والتظاهر، وعبادة الذات، وحبّ الظهور والجاه وأمثالها، وواضح أنّ هذا الشعور والإدراك لا يصل بالإنسان إلى مقام الإنسانيّة، بل يجعله في مرتبة الحيوانات واجناسها التي هي أعلى من النباتات والجمادات.

أمّا العقل الإنسانيّ الذي يصوغ الفرد إنساناً، فهو عبارة عن العبوديّة المحضة والمطلقة مقابل الخالق الحكيم العليم، والانقياد والإطاعة الصرفة بلحاظ مقام العبوديّة مقابل عظمة ومقام ربوبيّة ذلك الخلّاق الخبير. كما أنّ حبّ الوصول إلى ذات ذلك المبدأ الأزليّ والأبديّ، وشوق وعشق لقاء الجمال السرمديّ والفناء في ذاته الأحديّة جلّ وعزّ، وتكميل القوة العاقلة والعاملة والإيثار والتضحية والفتوّة والمروءة والصبر والتحمّل والإنفاق والخيرات وأعمال البرّ المطلوبة هي التي تفصل الإنسان عن وجوده المعار والمجاز وتلحقه بالوجود الأبديّ والحقيقيّ.

فهذه وأشباهها من صفات الأنبياء العظام والأئمّة المعصومين والأولياء المقرّبين هي الهدف الأصليّ والغائيّ للإنسان. وبهذا اللحاظ فإنّ أحكام الفطرة هي الأحكام التي ينبغي تشريعها وتدوينها لهذا النهج من السير والسلوك، لا الأحكام التي يجعلها ويدوّنها ويتوصّل إليها عقل الإنسان المادّيّ والشهوانيّ بما هو حيوان، إذ لا يمكن اعتبار هذا النمط من الأحكام والسنن سنناً فطريّة وأحكاماً حقيقيّة.

ومن هنا، فإنّ الإنسان محتاج دوماً للاتّصال بالشرع والشريعة ومنهل الولاية ومعدن حكمة النبوّة، لا ملجأ له ولا علاج غيرها، ولا طريق

له غير نهجها وطريقها .

أمّا إذا اعتبرت أحكام الفطرة على أنّها الأحكام التي تتوصّل إليها العقول البشريّة ، فإنّ ضرورة الشريعة ستنتهي حينذاك ، وسيرجع جميع الناس إلى عقولهم فيعملون بمقتضاها ، وهذا ما يساوق نسخ الشريعة ، ونسخ القرآن ، ونسخ النبوّة ، ونسخ الولاية ، ونسخ معنى إمامة وولاية الإمام الحيّ .

وهيهات هيهات أن تكون يد البشر القاصرة قد نالت ذلك أو تناله ، وأن حريّ بنا أن نبعد هذه الأفكار الساذجة عن أذهاننا وأن لا نتطرّق إليها ، ونزجر هذه الأفكار الشيطانيّة فلا ننخدع بها ، وعلينا أن لا نتخطّى ما رُسِم لنا من مقام وحدود ، وأن ننهل دوماً من معين الإمام الحيّ . **الحجّة ابن الحسن العسكريّ أرواحنا فداه** ، فنروي أكبادنا الظمأى وقلوبنا الحرّى ، وأن نعدّ أنفسنا بالعمل بشرعه وشريعته ونهجه وسيرته للتكامل والوصول للهدف المنشود ، حينذاك يصبح أحدنا إنساناً يصدق عليه أنّ عالم الوجود والشمس والقمر وخلق الأرض مسخّر لأجله .

التنبيه الثالث : بشأن قاعدتَي الملازمة المبحوثتين في علم أُصول الفقه :

الأُولى : كُلُّ مَا حَكَمَ بِهِ الشَّرْعُ حَكَمَ بِهِ العَقْلُ .

الثانية : عكسها : **كُلُّ مَا حَكَمَ بِهِ العَقْلُ حَكَمَ بِهِ الشَّرْعُ .**

فهل هاتان القاعدتان أو إحداهما صحيحة بشكل عامّ وكلّيّ ، أم أنّ هذه الملازمة غير تامّة ؟

يمكن الحصول على إجابة هذا السؤال ممّا ذكرناه من انطباق حكم الفطرة مع حكم العقل الإنسانيّ والحكم الشرعيّ ، لأنّه إن أريد من كلمة العقل في هاتين القاعدتين هذه العقول النظريّة العامّة التي يمتلكها عامّة

البشر ، فيستخدمونها لتنسيق أُمورهم البيتيّة وتنظيم مجتمعهم ومدنيّتهم ، فلن يكون صحيحاً بشكل كلّيّ أيّاً من هاتين الملازمتين ، لأنّنا نرى في كثير من الموارد أنّ للعقلاء حكماً ما لكنّ الشرع يورد خلافه ، كما في المعاملات الربويّة وأُسس معاملات البنوك ، وكالتلقيح والحمل بحقن نطفة رجل أجنبيّ في رحم امرأة لا يربطها به عقد شرعيّ ، ومثل تبنّي طفل أجنبيّ وإصدار شهادة الجنسيّة له ومعاملته معاملة الابن الحقيقيّ في جميع المراتب ، وكثير من أمثال هذه المسائل ، في حين يمتلك الشرع وجهة نظر مخالفة كلّيّاً .

أمّا إن كان المراد من كلمة العقل نفس العقل الإنسانيّ الحقيقيّ الموجود للأنبياء والأئمّة بلحاظ الجانب الملكوتيّ والعلويّ للإنسان ، لا بلحاظ حيوانيّته وبهيميّته ، وحيث إنّ **العَقْلُ مَا عُبِدَ بِهِ الرَّحْمنُ وَاكْتُسِبَ بِهِ الجِنَانُ** ؛ [1] فإنّ كلا القاعدتَين والملازمتَين ستكون صحيحة ، إذ ليس هناك من حكم عقليّ فطريّ إلّا وهناك حكم شرعيّ يطابقه ويوافقه ، والعكس صحيح ، وهذا هو معنى أنّ دين الإسلام هو دين الفطرة ، **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لَلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا**. [2]

التنبيه الرابع : يشاهد في بعض الموارد أنّ هناك لموضوع أو متعلّق واحد حكمينِ مختلفينِ ، كالوجوب والحرمة ، كما في موارد الاضطرار

١ـ يروي هذه الرواية في «أُصول الكافي» ج ١ ، ص ١١ عن أحمد بن إدريس ، عن محمّدبن عبد الجبّار ، عن بعض الأصحاب مرفوعاً عن الإمام الصادق عليه السلام : **قَالَ : قُلْتُ لَهُ : مَا العَقْلُ ؟ قَالَ : مَا عُبِدَ بِهِ الرَّحْمَنُ وَاكْتُسِبَ بِهِ الجِنَانُ . قَالَ : قُلْتُ : فَالَّذِي كَانَ فِي مُعَاوِيَةَ ؟ فَقَالَ : تِلْكَ النَّكْرَاءُ ! تِلْكَ الشَّيْطَنَةُ ، وَهِيَ شَبِيهَةٌ بِالعَقْلِ وَلَيْسَتْ بِالعَقْلِ**. وهي مرويّة في «الوافي» للفيض ، ج ١ ، ص ٧٩ ، عن «الكافي» للكلينيّ .

٢ـ صدر الآية ٣٠ ، من السورة ٣٠ : الروم .

مثلاً ، حيث يصبح الحرام حلالاً : **مَا مِن شَيْءٍ حَرَّمَهُ اللهُ إلَّا وَقَدْ أَحَلَّهُ عِنْدَ الاضْطِرَارِ إلَيْهِ .**[1]

١ـ روى الشيخ الطوسيّ هذه الرواية في كتاب «تهذيب الأحكام» عن الحسين بن سعيد، عن الحسين بن زرعة ، قال : **سَأَلْتُهُ عَنِ الرَّجُلِ يَكُونُ فِي عَيْنِهِ المَاءُ ... إلَى قَوْلِهِ : فَقَالَ : وَلَيْسَ شَيءٌ مِمَّا حَرَّمُ اللهُ إلَّا وَقَدْ أَحَلَّهُ لِمَنِ اضْطَرَّ إلَيْهِ** . («تفسير نور الثقلين» لعبد علي بن جمعة العروسيّ الحويزيّ ، ج ١ ، ص ١٣٠).

ويروي عبد علي بن جمعة أيضاً عن «من لا يحضره الفقيه» أنّ : **مَنِ اضْطَرَّ إلَى المَيْتَةِ وَالدَّمِ وَلَحْمِ الخِنْزِيرِ فَلَمْ يَأْكُلْ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ حَتَّى يَمُوتَ فَهُوَ كَافِرٌ** . وأورد هذه الرواية عن «من لا يحضره الفقيه» الملّا محسن الفيض الكاشانيّ في «تفسير الصافي» ج ١ ، ص ١٥٩ .

وينبغي العلم أنّ هذه الروايات قد أوردت في هذه التفاسير في ذيل الآية ١٧٣ ، من السورة ٢ : البقرة: **إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** . وهناك نظير مفاد هذه الآية آيات ثلاث أُخرى في القرآن الكريم.

ولدينا مضافاً إلى هذه الآيات روايات من جملتها ما رواه في «أُصول الكافي» ج ٢ ، ص ٢٤٢ ، بإسناده عن عمرو بن مروان قال : سمعتُ أبا عبد الله الصادق عليه السلام يقول: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : **رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي أَرْبَعُ خِصَالٍ : خَطَأُهَا وَنِسْيَانُهَا وَمَا أُكْرِهُوا عَلَيْهِ وَمَا لَمْ يُطِيقُوا ، وَذَلِكَ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ : «رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ، رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ، رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ» ؛ وَقَوْلُهُ : «إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّ بِٱلْإِيمَـٰنِ»** .

وأورد كذلك مرفوعاً عن الصادق عليه السلام قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: **وُضِعَ عَن أُمَّتِي تِسْعُ خِصَالٍ : الخَطَأُ ، وَالنِّسْيَانُ ، وَمَا لَا يَعْلَمُونَ ، وَمَا لَا يُطِيقُونَ ، وَمَا اضْطَرُّوا إلَيْهِ ، وَالطِيَرَةُ ، وَالوَسْوَسَةُ في التَّفَكُّرِ فِي الخَلْقِ ، وَالحَسَدَ ، وَمَا لَمْ يَظْهَرْ بِلِسَانٍ أَوْ يَدٍ** .

وروى في «تحف العقول» ص ٥٠ ، عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قال : **رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي [تِسْعٌ] : الخَطَأُ ، وَالنِّسْيَانُ ، وَمَا أُكْرِهُوا عَلَيْهِ ، وَمَا لَا يَعْلَمُونَ ، وَمَا لَا يُطِيقُونَ ، وَمَا اضْطَرُّوا إلَيْهِ ، وَالحَسَدُ ، وَالطِّيَرَةُ ، وَالتَّفَكُّرُ فِي الوَسْوَسَةِ فِي الخَلْقِ مَا لَمْ يَنْطِقْ بِشَفَةٍ وَلَا لِسَانٍ** .

كأكل لحم الميتة والدم ولحم الخنزير وذبيحة غير المسلمين المحرّم في الحالات العاديّة، لكنّه يصبح حلالاً عند الاضطرار:

إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ.[1]

ونلحظ في هذه الآيات ونظائرها أنّ الله سبحانه جعل حكمَين مختلفَين لموضوع ومتعلّق واحد، الحكم الأوّل في حال عدم الاضطرار وهو الحرمة، والحكم الثانويّ حال الاضطرار وهو الإباحة والجواز، فأيّ حكم من هذين الحكمينِ ـ يا تُرى ـ يطابق الفطرة؟

لقد عرفنا أنّ المراد بالحكم الفطريّ ليس ذلك الحكم التابع لأهوائنا ومشتهياتنا النفسيّة ورغباتنا الأوّليّة، بل هو الحكم الذي يمثّل الواسطة للوصول إلى الغاية والهدف المنشود من الخلقة. وعلى هذا، فإنّ حكم المحاربة والدفاع والجهاد سيكون فطريّاً، لأنّه يقود الإنسان إلى الكمال المطلوب وسعادة الدنيا والآخرة والوصول إلى عزّ الإنسانيّة، وكذلك فإنّ صيام أيّام الصيف الحارّ وقيام ليالي الشتاء البارد، والحجّ والعمرة في تلك البلاد الحارّة القاحلة ستكون كلّها فطريّة، لأنّها توصل الإنسان إلى الكمال الحقيقيّ، ولو لم يرغب بها الطبع الأوّليّ للإنسان ولم يرتضيها في قرارة نفسه، أو أجراها على نحو الإكراه. وسنعرف في هذه الحال أنّ قسمَي الحكم الاضطراريّ وغير الاضطراريّ مطابقان لحكم الفطرة، لأنّ كلّاً منهما ـ حسب دوره وظرفه الخاصّ ـ يتكفّل بإيصال الإنسان إلى كماله وسعادته.

أمّا عند الاختيار وانتفاء القحط والمجاعة ووفور أنواع الأغذية

١ـ الآية ١٧٣، من السورة ٢: البقرة.

المحلّلة ، فمن الواضح أنّ أكل لحم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أُهلّ لغير الله به أمر مخالف للفطرة ، لأضراره المادّيّة والجسميّة من جهة ، ولأضراره الروحيّة والمعنويّة من جهة أُخرى . ولذلك فإنّ حكم الفطرة ينطبق مع الشرع .

وأمّا في حال الاضطرار ، فباعتبار أنّ حياة الإنسان ستكون منوطة بالتناول من الأغذية المحرّمة بمقدار رفع الضرورة ، فإنّ من البديهيّ الحتميّ أن يكون ذلك جائزاً في الشريعة الكاملة ، لأنّ الأكل بمقدار سدّ الرمق موجب لبقاء الحياة وحفظها ، وبقاء الحياة مع تناول هذه الموادّ المحرّمة أفضل وأولى من استقبال الموت بتركها ، لذا فحكم الفطرة المجعول والمعتبر على أساس المصالح والمفاسد الواقعيّة يتطابق هنا أيضاً مع حكم الشرع .

ونجد في بعض الموارد أنّ الأحكام الخمسة : **الوجوب ، الاستحباب ، الإباحة ، الكراهة والحرمة** تُجعل جميعاً لمتعلّق واحد ، كما في النكاح والزواج مثلاً الذى هو في حدّ ذاته أمر وسنّة مستحبّة .

أمّا حين تغلب الشهوة وينتفي السبيل المشروع لإشباع الغريزة ، ومع خوف الوقوع في التهلكة والضرر والإصابة بالأمراض الجسميّة أو النفسيّة ، فإنّ هذه الأُمور تجعل النكاح يصبح أمراً واجباً .

وفي الموارد التي يتزاحم فيها النكاح مع أمر واجب أهمّ ، كتحصيل المعارف الإسلاميّة وأُصول العقائد ، أو تمريض أُمّ عجوز ضعيفة لا تقوى بنفسها على إنجاز أعمالها الضروريّة وأمثال ذلك ، فإنّ الزواج سيكون حراماً في هذه الصورة .

فإن تساوت الجهات الراجحة والمرجوحة صار النكاح مباحاً .

فإن زادت الجهات المرجوحة على الراجحة صار مكروهاً ، كما في

حال شابّ لم تغلب عليه شهوته ، مشغول بتحصيل المعارف الدينيّة وتعلّم القرآن والأخبار والفقه والتفسير والحكمة والعرفان ، فهذا الشابّ إذا أقدم على الزواج سيمكنه الاستمرار في دروسه وتحصيله ، لكنّه شاء أم أبى سيتعرّض إلى وقفة ونكسة وفتور في اكتساب كمالاته المعنويّة ، ففي هذه الحال ستكون الأولويّة في ترك النكاح .

وكان القصد من إيراد هذا الكلام أنّ جميع الأحكام الخمسة في موضوع النكاح هذا هي أحكام فطريّة ليس هناك بينها من تنافٍ ولا تعارض ، وينبغي الدقّة التامّة في كلّ متعلّق خاصّ تمهيداً لاستخراج الحكم الفطريّ والشرعيّ .

ويمكن تلخيص ما ذكرناه بما يلي :

١ ـ أنّ الفطرة بمعنى الخلقة الأوّليّة والبنية الوجوديّة للإنسان ؛ وأنّ الإسلام قائم على أساس هذه الفطرة التي يصدر العقل الإنسانيّ المستقلّ ـ وغير المشوب بشوائب الهوى والهوس ـ أحكامه المطابقة لها .

٢ ـ أنّ العقول العاديّة للناس ، القائمة على أساس المصالح المتدنيّة للحياة والعيش هي في مرتبة الشعور الحيوانيّ ، وباعتبار اشتراكها مع الحيوانات في التفكير بالمصلحة والانتفاع ودفع الضرر وقضاء الحاجات الشهويّة والغضبيّة والوهميّة ، فهي عاجزة عن كشف الأحكام الأصيلة للبشر بما هو بشر وإنسان ، لذا فهي غير قادرة على استخراج الأحكام من الفطرة ، ومحتاجة إلى نبيّ ووليّ أمر معصوم قد تعدّى حدود ذاته وارتبط بالكلّيّة وصدر عن منهل العرفان والتشريع ، ولولا ذلك لما كانت الحاجة إلى التكليف والقانون الإلهيّ ، ولأمكن للناس إدارة أُمورهم وتسييرها بالرجوع إلى هذه الأفكار والاكتشافات والاعتماد على علومهم المادّيّة والطبيعيّة والتجريبيّة .

٣ ـ أنّ الكثير من الأحكام التي تبدو بحسب النظر الابتدائيّ غير منافية للفطرة ، كنكاح أُخت الزوجة ، وأُمّها ، ومحرّمات الرضاع ، وبنت أُخت الزوجة وبنت أخيها بدون إذنها ، وترك الجهاد (لا الدفاع) وغيرها ؛ قد نهى الشرع المقدّس عنها لكونها بلحاظ النظرة الأصيلة منافية للفطرة لعدم وقوعها في طريق المصالح العالية ، بل لإيجابها سدّ طريق تكامل الإنسان ومنعها طيّه للمدارج المعنويّة .

٤ ـ أنّ الأحكام الاضطراريّة والإكراهيّة والضروريّة والاستثنائيّة هي كالأحكام الأوّليّة من أحكام الإسلام ومطابقة للفطرة . وعلى هذا ، فإنّنا لا نجد في الإسلام أيّ قانون عامّ أو خاصّ ، كلّيّ أو جزئيّ ، جنسيّ أو شخصيّ ، إلّا وكان موافقاً للفطرة ومؤدّياً بالنتيجة إلى رشد ورقيّ وفاعليّة القوى والقابليّات المودعة في البنية الوجوديّة والحيويّة للإنسان .

التنبيه الخامس : ذكر صاحب مقالة «بسط وقبض» ـ في كتاب مستقلّ آخر له باسم «**دانش و أرزش پژوهشى در ارتباط علم و أخلاق**» ـ في كلامه عن الفرق بين العلم والأخلاق ، بأنّ العلم عبارة عن القضايا الخارجيّة التي يصحّ إطلاق الصدق والكذب عليها ، والأخلاق عبارة عن الأُمور الاعتباريّة التي لا ارتباط لها بالخارج أبداً ، وقال :

الأخلاق العلميّة أيضاً من أبناء هذه الرؤية الحديثة لمشركي عبدة العلم.

حتّى يصل إلى القول :

فحين نعلم أنّ إشعاعات الموادّ المشعّة تسبّب السرطان (**علم**)، ثمّ نعلم أنّ علينا الحذر منها (**أخلاق**).

وحين نعلم أنّ سحق الغرائز وكبتها يحطّم الشخصيّة ويسبّب نشوء العُقد (**علم**) ، ثمّ ندرك أنّ علينا أن لا نُميت الغرائز ونوجد العُقد (**أخلاق**).

وحين نتعرّف على البناء الكيميائيّ والآثار **الصيدلانيّة والحيويّة** لدواء معيّن (**علم**) ، ثمّ يمكننا أن نقرّر استخدام ذلك الدواء أم عدم استخدامه.

وحين نناقش ونحلّل بما لا يقبل الخطأ الهيكل الفاسد والظالم الغاصب لنظام اجتماعيّ معيّن (**معرفة**) ، ثمّ نشعر بالمسؤوليّة تجاه إسقاط ذلك النظام (**أخلاق**).

فهذه الأمثلة ومئات أُخرى من قبيلها تظهر بوضوح أنّ العلم هو الذي يلد الأخلاق ، وأنّ الفكر هو الذي يخلق القيم ، وأنّ المعرفة هي التي توجد الالتزام.[1]

... علينا في البداية التعرّف باختصار على العلم والأخلاق، فالعلم يعني **التوصيف** والأخلاق تعني **التكليف** . العلم يعني معرفة **الواقعيّات** والأخلاق تعني معرفة **القيم** . في العلم يدور الكلام عن **الطبيعة** ، وفي الأخلاق عن **الفضيلة** .

في عهدة العلم أن يبحث **كيف وجد** و**كيف لم يوجد** ، وفي عهدة الأخلاق أن تناقش **ماذا يجب عمله** ، و**ماذا يجب اجتنابه** ؛ فمجموعة المعارف التي تصف بنحو جزئيّ أو كلّيّ كيفيّة الوجودات تُدعى **علماً** .

... أمّا القوانين الأخلاقيّة فهي جميع القوانين التي تقوم بتقييم الأشياء والأُمور الخارجيّة ، أو تتحدّث بنحو جزئيّ أو كلّيّ عن **يجب** و**لا يجب** أو الداعية لإقدام وتصرّف معيّن...[2].

إنّ تقييم الأشياء وتعيين جيّدها من رديئها ليس في الحقيقة معزولاً عن **يجب** و**لا يجب** ، وبمعنى آخر هما شيء واحد . فالعمل

١ـ كتاب «دانش و أرزش» (= العلم والقيم) ، للدكتور عبد الكريم سروش ، ص ١٢ و١٣، الطبعة الثانية.

٢ـ «دانش و أرزش» ص ١٣ .

الذي نقول إنّه يجب ألّا يُعمل، فإنّنا قد قلنا بتعبير آخر إنّ عمله سيّىء، وكذا الأمر بالنسبة إلى المورد الجيّد الذي يجب عمله وعليه، فلا يخلو أبداً أيّ قانون أخلاقيّ من نوع من التقييم والتقدير، على العكس من القوانين العلميّة التي تتجنّب دوماً بوعي مسألة التقييم، وتكتفي ببيان كيفيّة وجود أو عدم وجود الظاهرة المعيّنة.[١]

إنّ كشف وإبطال المغالطة الكامنة في الاستدلال والفكر **الأخلاقيّ** العلميّ يمثّل أحد الإنجازات البشريّة العظيمة والقيّمة، وتكتسب هذه المسألة أهمّيّتها بلحاظ إمكان استخدامها كمعيار لتقييم وقياس متانة وأصالة الإيديولوجيّات؛ فكلّما كانت إحدى المدارس والاتّجاهات العلميّة مصونة من وسوسة هذه المغالطة، كلّما كانت أكثر أصالة وإتقاناً وتكاملاً، وكلّما سقطت المدرسة أكثر في شباك هذه الشبهة فإنّها ستصبح بنفس النسبة عديمة الثبات، ضئيلة الأهمّيّة.[٢]

إنّ **الاعتباريّات** هي المفاهيم التي يفترضها ويتّخذها الشخص لأجل ضرورات العيش بمساعدة العواطف والرغبات الباطنيّة.

والحقائق هي المفاهيم التي يكتشفها العقل بالنظر في الواقع الخارجيّ للأشياء وفي روابطها وعلائقها، فهذان النوعان من المفاهيم لا يتولّد أحدهما من الآخر، وبعبارة أُخرى: لا يمكن الوصول من **الكشف** إلى **الفرض**.

فدوران القمر حول الأرض هو من كشوف العقل، ومقولة إنّ قلب الإنسان السليم ينبض ٧٠ مرّة في الدقيقة ليست فرضاً وتعاقداً، وعلى هذا فهي لا تتغيّر بالاستحسان وعدم الاستحسان، وبالقبول أو عدم القبول، وبوجود شخص ما أو عدم وجوده.

فنحن إن شئنا أم أبينا، وقبلنا أم رفضنا، ووُجدنا أم لم نوجد،

١ـ «دانش و أرزش» ص ١٤.

٢ـ «دانش و أرزش» ص ١٥.

فإنّ القمر كوكب يدور حول الأرض.

أمّا بشأن الفرضيّات والعقود فالأمر مختلف، فحين ندعو الميكروب سيّئاً، فليس ذلك مستقلّاً بأيّ وجه عن رغباتنا واستحساننا ووجودنا. فأوّلاً: لو لم يكن هناك وجود لأيّ إنسان لما اتّصفت الميكروبات بصفة السوء، فالبشر الذين يرغبون في البقاء هم الذين ينعتون الميكروبات التي تمنع بقاءهم بالسيّئة، وإلّا فإنّ الميكروبات في حدّ ذاتها وبقطع النظر عن البشر هي ميكروبات فقط، لا جيّدة ولا سيّئة.

وثانياً: أنّ هذه الميكروبات تصبح جيّدة بالنسبة لنا أحياناً، إذ في حال فتك الميكروبات الوبائيّة بأعدائنا فرضاً، فإنّها لن تكون سيّئة أبداً.[1]

وبتعبير آخر: لا يمكن بأيّ وجه إثبات حسن شيء أو قبحه باستخدام سلسلة براهين منطقيّة، كما لا يمكن بهذا الدليل إثبات **وجوب** عمل شيء أو **عدم وجوبه** بأي برهان منطقيّ.

وفي نهاية هذا القسم، فإنّ **هيوم** يذكر نكتة مهمّة نقلها عنه واقتبسها بعده فلاسفة آخرون وصارت ملهمة لكثير من التحقيقات المنطقيّة:

... ونرى فجأة بكمال العجب بدل الأُسلوب المعهود من إضافة قضايا تشتمل على «وجود» و«عدم»، فإنّ جميع القضايا تصبح فجأة ذات «يجب» و«لا يجب»، على الرغم من عدم التفات أحد الى هذا التغيير.

... وسيمنحنا الفرصة لنرى جيّداً أنّ الخير والشرّ والفضيلة والرذيلة لم تُبنَ على أساس العلائق والروابط بين الأشياء، وليست

١ـ «دانش و أرزش» ص ٢٤٣.

مشمولة للإدراكات العقليّة.[1]

ولم تتكرّر فكرة **هيوم** المكثّفة هذه إلّا في أوائل القرن العشرين على لسان فيلسوف آخر.

فقد نشر **جي اي مور** الحكيم الإنجليزي سنة ۱۹۰۳م كتابه ذائع الصيت باسم «مباني الأخلاق»، وقام في كتابه بتحليل دقيق ومفصّل لمفهوم «الحَسن» وعدّه مفهوماً بسيطاً لا يتجزّأ ولا يُعرّف.

وقد استخدم في هذا الكتاب اصطلاح «**مغالطة دعاة الطبيعة**» لأوّل مرّة، وكان الغرض منه ـ كما سيأتي فيما بعد ـ نفس تلك المغالطة الكامنة في جميع أنواع الأخلاق العلميّة.[2]

وكان **كانْت**، الفيلسوف الألمانيّ والمعارض الشهير لجميع أنواع الميتافيزيقيّة، قد دعى كتابه المشهور في نقد ما وراء الطبيعة «**مقدّمة على كلّ فلسفة ميتافيزيقيّة مستقبليّة تدّعي العلميّة**». وذكر مور أيضاً في مقدّمة كتابه أنّ هدفه الأصليّ من كتابه أن يكون مقدّمة «**لأيّ نوع من الأخلاق المستقبليّة تدّعي العلميّة**».[3]

ويتكرّر هذا الخطأ اليوم من قِبل الكثيرين، ولقد سمع الكاتب كثيراً وشاهد بنفسه أنّ جمعاً من المفكّرين المشتغلين بالبحث في أمر فلسفة الأخلاق يظنّون أنّ المسألة الأساسيّة في فلسفة الأخلاق أن يجدوا بنحو من الأنحاء شيئاً مطلوباً ومحبوباً بذاته ـ لا باعتباره وسيلة ـ وكأنّ جميع الصعوبات والمشاكل ستنهار بالعثور على هذا المحبوب النهائيّ، وكأنّ جميع الألغاز ستنحلّ بإشراق جمال ذلك المحبوب، وسيتّضح مرّة واحدة ما هي الوظيفة والتكليف؟ وما العمل الذي ينبغي؟ وعن أيّ شيء ينبغي البحث؟ وما هو معيار الجيّد والسيّئ؟ وما هو منشأ القيم والموازين؟

١ـ «دانش و أرزش» ص ٢٤٤.

٢ و٣ـ «دانش و أرزش» ص ٢٤٥.

لكنّ هذا ليس إلّا خطأً وخيالاً ، فالعثور على المطلوب النهائيّ شيء، وإرادة أنّ ذلك المطلوب ينبغي طلبه وابتغاءه شيء آخر، فأحدهما **توصيف** والآخر **تكليف** ، الأوّل هو وظيفة **العلم** (بالمعنى الواسع)، والثاني وظيفة **الأخلاق** ، وجعل هذين الاثنين واحداً يمثّل خطأ الأخلاق العلميّة الذي لا يُغتفر.

وخلاصة الكلام أنّ مقولتَي «**الناس يبحثون عن مطلوبهم**» و«**المطلوب ينبغي لزوماً أن يُطلب**» متفاوتان بشكل كامل ، فالأُولى توصيفيّة والثانية تكليفيّة.[1]

وكان **السيّد محمّد حسين الطباطبائيّ** الحكيم والمفسّر المعاصر في بلاد الشرق هو أوّل الحكماء الذين عملوا ـ بإيحاء من أنفسهم ـ على طرح حلّ مسألة الإدراكات الاعتباريّة وعلاقتها بالإدراكات الحقيقيّة ، ولقد خطا خطواته في هذا الوادي مفكّراً مستنتجاً دون أيّة إشارة إلى آراء حكماء الغرب أو الاستعانة بها في هذا المجال.

ويمكن العثور على بحثه التفصيليّ بهذا الشأن في المقالة السادسة من سلسلة مقالات فلسفيّة نُشرت بأجمعها تحت عنوان «أُصول فلسفة و روش رئاليسم».[2]

وهذا النوع من الإدراكات له اختلاف جوهريّ مع الإدراكات الحقيقيّة، فهي أفكار تنطبق على الواقع وحاكية عن صفات موجود واقعيّ وخارجيّ ، فلا هي تُستحدث وفق رغباتنا ولا تتغيّر بتغيّرها».[3]

... وحين يكون الأمر كذلك وتوجد هذه الهوّة الواسعة التي لا يمكن ملؤها بين الأفكار التصوّريّة والأفكار الحقيقيّة ، فإنّ علينا

١ـ «دانش و أرزش» ص ٢٤٥ و ٢٤٦.

٢ـ «أُصول فلسفة وروش رئاليسم» للسيّد محمّد حسين الطباطبائيّ ، تقديم وتعليق مرتضى المطهريّ ، طهران ، ١٣٣٢.

٣ـ «دانش و أرزش» ، ص ٢٥٩.

عندئذٍ أن لا ننتظر وجود ارتباط منطقيّ بين هذين النوعين من الإدراك، أو الوصول من أحدهما إلى الآخر. أو حسب التوضيح الوارد في المقالة:

ولأنّ هذه الإدراكات والمعاني هي وليدة عوامل الإحساس، فليس لها علاقة توليديّة مع الإدراكات والعلوم الحقيقيّة، وباصطلاح المنطق، فلايمكن بالبرهان إثبات تصديق شعريّ. وفي هذه الحالة، فلن تصدق بعض أقسام المعاني الحقيقيّة في مورد هذه المعاني الوهميّة، مثل: بديهيّ ونظريّ وضروريّ ومحال وممكن.[1]

وبعبارةٍ أُخرى: لا يمكن إثبات إدراك اعتباريّ من الإدراكات الحقيقيّة، ولا العكس، ولا يمكن أيضاً الاعتماد على التشبيه لإثبات حكم حقيقيّ.

وفي تصوّرنا فإنّ هذه النكتة عظيمة الأهمّيّة، فهي تزيح الستار عن مغالطات ضخمة وواسعة كثيراً ما تستلفت النظر في أغلب الاستدلالات المتسامحة، وخاصّة في البحوث الاجتماعيّة والسياسيّة.[2]

وبعد بحث التمثيلات والاستعارات، وبيان الانفكاك المنطقيّ بينها وبين الإدراكات الحقيقيّة، يصل البحث إلى «**الوجوب**».

فمؤلّف «روش رئاليسم» (= المذهب الواقعيّ) يعتقد أن لا بدّ لكلّ اعتبار من الانتهاء والختم بحقيقة معيّنة، وعلينا أن نبحث في الحقائق عن أصل جميع التصوّرات. وعلى هذا، فإنّ الوجوبات الأخلاقية (الاعتباريّة) تستمدّ نشأتها في نظره من الوجوبات الحقيقيّة والفلسفيّة؛ فإذا ما رأينا في مكان ما وجوباً اعتباريّاً وأخلاقيّاً، فإنّ علينا أن نوقن بأنّه يستند إلى وجوب وضرورة واقعيّة موجودة في مكان

ـــــــــــــــ

١ـ «أُصول وروش رئاليسم» ص ١٥٣ و ١٥٤.

٢ـ «دانش و أرزش»، ص ٢٥٩ و ٢٦٠.

آخر، فهذان **الوجوبان** مرتبطان يلد ثانيهما أوّلهما.

والضرورة الفلسفيّة هي الضرورة القائمة بين العلّة والمعلول، فمع حضور العلّة التامّة فإنّ وجود المعلول سيصبح ضروريّاً لاتخلّف فيه. أمّا الضرورات الأخلاقيّة فتتجلّى في **الوجوبات** الأخلاقيّة، فهي توصي بشيء ما أو تحرّمه بصورة الأمر والنهي.[1]

وحسب نظر المقالة مورد البحث ـ أي المقالة السادسة من «أُصول فلسفه» ـ فإنّ الإنسان أيضاً (كسائر أنواع الموجودات الطبيعيّة التي تقوم بسلسلة من الأعمال في داخلها مع الاتّصال بخارجها من شمس وهواء وأرض حفظاً على دوام معيشتها وبقاء حياتها)، يتناول الطعام للوصول إلى الشبع، لكنّه يعتبر الحصول على المال ضروريّاً للحصول على الطعام، ويعتبر العمل ضروريّاً للحصول على المال، ويعتبر مراجعة أصحاب الأعمال ضروريّاً للعمل، و... فهو لهذا يقرّر في نفسه بوعي: يجب أن أذهب إلى صاحب العمل؛ و«**يجب**» هذه ـالتي هي إدراك ذهنيّ ـ واسطة لوصول الموجود الحيّ إلى هدفه (كالشبع مثلاً)، وهكذا الأمر بشأن أيّ هدف آخر وأيّ وجوب آخر.

وعليه فإنّ الاحتياجات الطبيعيّة لأعضائنا وقوانا ستوجد فينا **وجوبات** ـ بتوظيفها وعينا وشعورنا ـ ليمكن بمساعدتها تأمين احتياجاتها تلك. إنّ العلاقة بين الغذاء والشبع علاقة جبريّة وضروريّة، أي أنّ تناول الغذاء سيوجد تلقائيّاً وبحكم قانون العلّة والمعلول إحساس الشبع، أمّا العلاقة بين الشبع ومراجعة صاحب العمل فليست علاقة جبريّة، ولكن لأنّ جهاز إدراكنا التابع لبنيتنا الطبيعيّة يميّز وجوباً جبريّاً بين الغذاء والشبع، فهو يقوم بصياغة وجوب اعتباريّ من هذه الملازمة الحقيقيّة (وهو لزوم مراجعة صاحب العمل)، ليردّ إيجاباً

١ـ «دانش و أرزش» ص ٢٦٣ و ٢٦٤.

على إحساسه الباطنيّ وهو طلب الشبع.[1]

... وسنورد هنا جزءاً فقط من إيضاحات هذه المقالة حول اعتبار أساس الاستخدام:

نحن نقول إنّ الإنسان يريد الحصول على نفعه من الجميع تبعاً لهداية الطبيعة والتكوين (اعتبار الاستخدام)، ويريد ـ من أجل نفعه ـ نفعَ الجميع (اعتبار المجتمع)، ويريد العدل الاجتماعيّ لنفع الجميع (اعتبار حسن العدالة وقبح الظلم)، ونتيجة للفطرة الإنسانيّة فإنّ الحكم الذي يكوّنه بإلهام الطبيعة والتكوين يمثّل حكماً عامّاً لا ينطوي على حقد خاصّ على الطبقة الراقية، ولا عداء خاصّ مع الطبقة السفلى.

بل إنّه تبع في ذلك طائعاً حكم الطبيعة والتكوين في الاختلاف الطبقيّ للقرائح والاستعدادات، وراغباً ـ تبعاً للأُسس الثلاثة المذكورة ـ أن يحلّ كلّ واحد في محلّه ومكانه المناسب.

فالهداية الطبيعيّة (الأحكام الفطريّة) ستتحدّد بالأعمال التي تتوافق مع أشكال وتركيبات الأجهزة البدنيّة، فنحن مثلاً لا نُجيز لهذه الجهة إشباع الرغبات الجنسيّة عن غير طريق الزواج (كعلاقة رجل ورجل، امرأة وامرأة، رجل وامرأة عن غير طريق الزواج، إنسان مع غير الإنسان، إنسان مع نفسه، التناسل عن غير طريق الزواج).

ولن نمتدح التربية الاشتراكيّة للأطفال، وإلغاء النسب والوراثة، وإبطال العرق والعنصر؛ ذلك لأنّ النظام المرتبط بالزواج والتربية لن يتلائم مع هذه الأُمور.[2]

هذا ما أورده صاحب كتاب «دانش و أرزش» في بيان وشرح عبارات العلّامة قدّس الله سرّه، ثمّ شرع بعدها في انتقادها والإيراد عليها:

ومع احترامنا العميق لحضرة المؤلّف المحترم لهذه المقالة،

١ـ «دانش و أرزش» ص ٢٦٥.

٢ـ (أُصول فلسفه)، ص ١٩٩ و ٢٠٠.

فإنّنا لا نوافقه على جميع آرائه في مجال الاعتبارات الأخلاقيّة ، فنحن نعتقد ـ كما سنوضّح ـ أنّه لم يفرّق ـ كما يبدو ـ بين نوعين من «**الوجوب**»، فوصل في النهاية بسبب عدم التفكيك هذا إلى نوع من الأخلاق العلميّة المحضة.

ثمّ يقول بعد شرح مختصر :

وأمّا الاستفادة الفلسفيّة والأخلاقيّة ، فقد كان جميع سعي المقالة المذكورة هو إظهار أنّ كلّ «**وجوب**» معلول لاقتضاء القوى الفعّالة الطبيعيّة والتكوينيّة للإنسان ، وحين يثبت هذا فكأنّما سيثبت تلقائيّاً أنّه يجب العمل بذلك «**الوجوب**» ؛ وبعبارة أُخرى أنّ «**الوجوبات**» التي تستمدّ نشأتها من مقتضى البنية الطبيعيّة هي «**وجوبات**» وأحكام طبيعيّة وفطريّة تحمل سند جوازها ووجوبها معها بلا حاجة إلى أيّ دليل وبرهان.

أي أنّه حالما يتّضح أنّ حكماً ما حكم فطريّ ، فلن يمكن عندئذٍ السؤال عن حسنه وقبحه ، لأنّ أيّ حكم فطريّ هو في ذاته جيّد وحسن، وهنا يكمن ـ حسب تصوّرنا ـ «**الخَلْط**» المدمّر.

ذلك لأنّه لو افترضنا أنّنا حصلنا على مقتضى بنيتنا الطبيعيّة ـ أي على حكم فطريّ ـ فيبقى مع ذلك السؤال مطروحاً : لماذا ينبغي العمل بمقتضى البنية الطبيعيّة ؟ ولِمَ تكون الأحكام الفطريّة واجبة وينبغي اتّباعها ؟ من أين يأتي ـ يا ترى ـ هذا الوجوب الثاني ؟

ويتّضح هنا أنّنا نملك نوعين من «**الوجوب**» ، فإن لم يكن لدينا إيمان بـ«**وجوب**» ابتدائيّ وأساسيّ ، فإنّنا لن نتمكن من صنع أيّ وجوب أخلاقيّ آخر.[1]

... وأصعب من هذا وأعقد ، مسألة العثور على الأحكام الفطريّة، فحسب أيّ معيار وضابط يمكن القول إنّ حكماً ما فطريّ أم

١ـ «دانش و أرزش» ص ٢٦٧ .

لا ؟ وخاصّةً إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار مسألة تصاعد حياة الكائنات الحيّة واعتبارنا أنّها في حالة تغيّر جسميّ ونفسيّ دائم ، حيث سيصعب علينا ـ بل سيستحيل ـ التمييز بينها ومعرفة أيّ عضو فيها أساسيّ وأيّها غير أساسيّ ، ومقتضى أيّة قوّة ينبغي أن نأخذ بنظر الاعتبار ؟ وأيّها ينبغي اعتبارها في طريقها إلى الزوال ؟ [1]

... وتُظهر الاختلافات والنزاعات الحاصلة حول الأحكام الفطريّة، والمشاقّ العظيمة في تعيين الحدّ والضابط للأحكام وإمكان الاستفادات غير الصحيحة باسم الفطرة درجة الضعف والركاكة التي سيكون عليها إصدار الحكم اعتماداً على مباني الأحكام الفطريّة. [2]

...ونكرّر قولنا السابق في أنّ هناك مقابل كلّ واقع خارجيّ معيّن موقفَين ونوعَين من الخيار يمكن اتّخاذهما ، رفضه أو قبوله ؛ وأنّ نفس الواقع الخارجيّ لا يعيّن مطلقاً نوع ذلك الخيار ، خلافاً لوجهة نظر المؤلّف المحترم للمذهب الواقعيّ «روش رئاليسم».

فوجود الأعضاء التناسليّة لدى الرجل والمرأة (بمثابة واقع معيّن) لا يعيّن بنفسه وجوب زواجهما فقط ، أو ينفي إمكان مقاربة رجل لآخر ، أو أنّ الحمل عن غير طريق الزواج أمر غير مقبول.

فنفس ذلك الواقع الخارجيّ ليس هو المعيِّن لهذه الخيارات الأخلاقيّة، ولهذا السبب لا يمكن تقبيح القرارات الأخلاقيّة المخالفة لها اعتماداً على مبنى مخالفتها للبنية الطبيعيّة للرجل والمرأة.

وعلى الرغم من أنّ خياراتنا الأخلاقيّة تعتمد على بنيتنا الطبيعيّة ومتعلّقة بشأنها ، لكنّها لا تستمدّ نشأتها منها مباشرة ، بل إنّ أساسها شيء آخر ، وهي نابعة من مصدر نشأة «**الوجوبات**».

فليس هناك علاقة بين الطبيعة والفضيلة ، ولا يمكن صنع

١ـ «دانش و أرزش» ص ٢٦٨ و ٢٦٩ .

٢ـ «دانش و أرزش» ، ص ٢٧٠ .

ارتباط بين وجود شيء و **انتخابه** ، فإن اعتبرنا الطبيعة في حالة تصاعد وجريان مستمرّ، وتصوّرنا أنّ العمل بحكم الطبيعة أمر مقبول وواجب ، فيمكننا اعتبار أيّ عمل ما مُباحاً.[1]

... وينتج من الكلام السابق أنّه لا يمكن غضّ النظر عن فرض «وجوب» أصيل وابتدائيّ ، وأنّ الأخلاق لها مبدأ منفصل في النتيجة عن «العلم» ، وأنّ «الوجوبات» لا يمكن إرجاعها في أُصولها إلى «الوجودات»، وحتّى العمل بالأحكام الفطريّة يمكن عدّه واجباً حين يكون لدينا مسبقاً أساس آخر يقول بوجوب العمل بمقتضى الفطرة والخلقة، أي أنّ انتخاب الأحكام الفطريّة ورفض الأحكام غير الفطريّة (**الوجوبات الاعتباريّة في اصطلاح المقالة السادسة للمذهب الواقعيّ**) «= روش رئاليسم» هو نفسه محكوم لـ«**وجوب**» اعتباريّ أوّليّ لا يمكن توجيهه وتعليله على أساس الفطرة ومبناها ، وما لم يكن لدينا ذلك الوجوب ، فإنّها هي الأُخرى لن تكتسب القاطعيّة والإلزام من كونها فطريّة.[2]

كان هذا خلاصة كلام صاحب مقالة «بسط وقبض تئوريك شريعت» في كتاب «دانش و أرزش» ردّاً على كلام الأُستاذ العلّامة آية الله الطباطبائيّ قدّس الله سرّه ، في عدم انتزاع الاعتباريّات من الحقائق الخارجيّة وضرورة الفصل والتفكيك بين لفظ «**وجوب**» و لفظ «**وجود**» ؛ ومع أنّنا أوردناه بإيجاز واختصار ، إلّا أنّه مع ذلك قد حوى قدراً من الشرح والتفصيل لإيضاح جوانب الإشكال ، ولئلّا يكون هناك قصور في تقريره وبيانه .

وأمّا كلامنا في هذا الشأن فهو أنّ صاحب المقالة المحترم لم يدرك أبداً مقولة العلّامة في «أُصول فلسفه وروش رئاليسم» ولم يصل إلى كُنه

١ـ «دانش و أرزش» ص ٢٧٠ و ٢٧١ .

٢ـ «دانش و أرزش» ص ٢٧١ .

كلامه وقصده ، فلم يشخّص أساساً حقيقة المعنى الاعتباريّ من الحقيقيّ ، ثمّ تصدّى ـ في كتابه الذي لم يضمّ على ضخامته إلّا القليل من المطالب ـ للانتقاد والردّ على كلام العلّامة في المقالة السادسة بشأن الإدراكات الاعتباريّة ، فخبط خبط عشواء .

ونرى أنفسنا مجبرين ؛ في بياننا لمواقع الخطأ ومواضع الانحراف ؛ على إيراد بحث عن الاعتباريّات وانتهائها بالحقائق ، لتتّضح متانة ورسوخ كلام الأُستاذ العلّامة وتفاهة وضحالة رأي المنتقد .

فالحقائق عبارة عن الواقعيّات الموجودة في الخارج ، بما فيها المادّيّات والطبيعيّات والموجودات الملكوتيّة المجرّدة ، بما فيها من العلوم والمعارف الذهنيّة التي لم تتحقّق على أساس فرض فارض واعتبار معتبر .

أمّا الاعتباريّات فعبارة عن الأشياء التي محلّها وموقعها الذهن فقط ، والمتحقّقة على أساس فرض فارض ، بحيث تدور وجوداً وعدماً مدار الفرض والاعتبار ، فهي تكتسب تحقّقها الاعتباريّ بمجرّد الاعتبار ، وينتفي عنها أي تحقّق بمجرّد رفع اليد عن الاعتبار أو نقضه .

وبطبيعة الحال فإنّ لدينا قسماً ثالثاً غير هذين القسمين وهو الانتزاعيّات ، وهذه ليست من الحقائق ولا من الاعتباريّات ، بل تنشأ بواسطة انتزاع الذهن من الحقائق الخارجيّة ، فلا تحقّق لها في الخارج أبداً ، وكلّ ما هناك أنّ محلّها ومورد انتزاعها في الخارج ،كما في **الفوقيّة والتحتيّة** .

فعنوان الفوقيّة ،كفوقيّة سطح البيت ـ مثلاًـ نسبة إلى ساحته ليست شيئاً غير ذات السطح ، فنحن لا نجد شيئاً غير نفس السطح ، وغير سقف الغرفة الذي يعلوها باسم فوق ، فما هناك هو نفس السطح ، لكنّ ذهننا

ينتزع من النسبة الخارجيّة بين سقف الغرفة وأرضيّتها عنواناً ندعوه بـ **فوق** .

وهذا العنوان محلّه الذهن لا الخارج ، ومبدأ انتزاعه في الخارج ، وهو ليس أمراً اعتباريّاً ، لأنّ فوقيّة السقف نسبة إلى الأرض غير قائمة باعتبار الشخص المعتبر ، فالسقف يعلو سطح الغرفة شئنا أم أبينا . ونغضّ الطرف عن شرح وتفصيل الأُمور الانتزاعيّة باعتبارها لا ترتبط فعلاً بموضوع بحثنا الحاليّ ، ونقصر الكلام على الحقائق والاعتباريّات .

إنّ الاعتباريّات باعتبارها من صنع الذهن وصياغته ، فلابدّ لحصولها من وساطة قوى الإدراك ، سواء القوى الوهميّة والخياليّة والفكريّة ، وبعبارة أوجز : العقل النظريّ ، أم النفس الناطقة والنور المجرّد للروح الإنسانيّة التي نعبّر عنها بالعقل البسيط والملكوت الأعلى والناطقة القدسيّة والكلمة الإلهيّة .

ومع أنّ قيام الاعتباريّات وقوامها في الذهن ، وأنّ قيامها باعتبار المعتبر ، إلّا أنّها في نهاية المتانة والإتقان ، وكثيراً ما تكون بنفسها منشأ ومبدأ لحقائق كثيرة في الخارج .

فطباعة أوراق العملة النقديّة ـ مثلاً ـ وجعل القيم المختلفة لها أمر اعتباريّ يرتبط بقرار خزانة الدولة ورئيس الأُمور الماليّة ، حيث يصدران الأمر بطباعة الأوراق النقديّة وعرضها بقيم مختلفة .

فتكون هذه الأوراق النقديّة معتبرة ما دام إمضاء المسؤول والشخص المعتبر وإقراره لها باقياً ، لكنّها تسقط عن الاعتبار بمجرّد سحب الرئيس المسؤول ومسؤول الخزانة إمضائهما أو إصدارهما قراراً بإلغائها ، فتصبح أكداس الأوراق النقديّة الثمينة حينذاك بلا قيمة ، ويؤول مصيرها إلى الإحراق في المدفأة أو ما إلى ذلك من الاستعمالات .

ولا يخضع اعتبار الرئيس المسؤول لها ، وطبعها ، ومقدار المطبوع منها ، وتعيين قيمتها ، ومدّة اعتبارها ، وطرحها للتداول داخل الدولة أو في الداخل والخارج ، للفوضى أو المزاجيّة ؛ إذ لا بّد من حساب دقيق لتقدير ثروة المملكة من الذهب والفضّة الموجودة في الخزينة أو ضمن أموال الدولة ، وقيم المعادن المستخرجة ، أو محصول اللؤلؤ المستخرج من البحر ، والأراضي الزراعيّة والبساتين ، أو العمل والجهود اليدويّة للعمال والفلاحين ، وكلّ ما يصدق عليه عنوان المال ويمكن حسابه في هيئة العملة الصعبة ، وبعد الحساب الدقيق لقيمة العملة الصعبة وأسعار البضائع والذهب والفضّة الخارجيّة وملاحظة العوامل المهمّة الأُخرى ، كميزان الثروة والنقد عند الشعب ، يقومون بتبديل ذلك المال في المعاملة إلى أوراق رسميّة معتبرة ويدعونها بأوراق العملة الماليّة ، تسهيلاً للحمل والنقل ، وحفظاً للذهب والفضّة ، ولجهات أُخرى غيرها .

وهذا الحساب من الدقّة والصحّة بالقدر الذي يحدّد الشخص المعتبِر والمعيِّن لقيم وأسعار الأوراق النقديّة بضرورات المحاسبة الاقتصاديّة ، بحيث إنّه لا يجرؤ على طباعة وعرض ورقة نقديّة بقيمة خمسة تومانات أكثر أو أقلّ من المطلوب ، وفي حالة ثبوت هذا الأمر فإنّه سيحاكم على مخالفته هذه عند الحاكم والقاضي المسؤول . وللصكوك والكمبيالات أيضاً نفس هذا الأمر الاعتباريّ .

والطوابع البريديّة لها أيضاً نفس الشأن ، فدائرة البريد تعمد ـ لتسهيل استلام النقود من الناس مقابل التزامها بإيصال رسائلهم وأماناتهم إلى مقاصدها ـ إلى طباعة طوابع تُلصق على الشيء المرسَل بما يتناسب مع وزنه وبُعد مقصده وكونه من المطبوعات أو غيرها ، فتقبل هذه الطوابع بمثابة إيصالات نقديّة .

ثمّ تقوم هذه الدائرة ـ لتغطية ميزانيّتها الكلّيّة ورواتب موظّفيها وعمّالها وأُجور وسائل الحمل والنقل على اختلافها من الطائرة والسفينة والسيّارة والدرّاجة الناريّة والدرّاجة الهوائيّة ، وفي بعض القرى من البغال والحيوانات المستعملة للنقل ـ بحساب هذه الأُمور وتقسم مجموعها على جملة المحمولات ، فتصدر طوابع بريديّة للنقل داخل المدينة بقيمة ريال واحد مثلاً ، وللنقل إلى المدن الأُخرى بقيمة خمسة ريالات وإلى خارج الدولة بأكثر من ذلك ، وتقوم بتعيين واعتبار وتثبيت هذه الأسعار وتطبع الطوابع تبعاً لذلك وتبيعها .

وحين تستلم دائرة البريد الطرود وتقوم بنقلها حسب تعهّدها والتزامها ، فإنّها تختم عليها بختم البطلان ، أي أنّها تُسقط تلك الطوابع من درجة الاعتبار وتُلغي اعتبارها منها ، لأنّ التزام دائرة البريد وتعهّدها كان فقط إيصال تلك الطرود إلى مقاصدها ، فتفقد تلك الطوابع البريديّة حينذاك قيمتها ، فتستخدم لمعرفة تأريخ واسم وصفات السلاطين المتوفّين ؛ وتُجمع في دفاتر ومجاميع تثير الاعتبار والاتّعاظ ، أو تُلقى مع المهملات في صندوق النفايات .

لقد كان الاعتبار ومدّة الاعتبار وزمانه وكيفيّته وقيمته محدودة ومشروطة ، وحين يُختم على الأُمور المعتبرة بختم البطلان ، فإنّها ستبطل جميعاً وتنهار دفعة واحدة ، وليس في هذا الأمر استبداد ولا إعمال للرأي الشخصيّ لرئيس دائرة البريد في هذه الاعتبارات ، لا بلحاظ القيمة ولا بلحاظ مدّة الاعتبار ، فهم يمتلكون حقّ طبع وبيع وتعيين قيم هذه الطوابع ضمن دائرة محدّدة مرتبطة بمصالح الدولة ونفقات دائرة البريد ، ومع أنّ جميع أعمالهم هذه اعتبار محض ، إلّا أنّه ليس اعتباراً جزافيّاً ، لأنّهم بحكم عقلهم ودرايتهم وحسن إدارتهم وصدقهم وأمانتهم ،

لا يملكون أن يطبعوا يوماً ما ولمرّة واحدة طابعاً واحداً بقيمة ريال واحد ويقوموا باعتباره من غير داعٍ وسبب ، وهم كذلك غير قادرين حتّى في مورد واحد أن يقوموا بإبطال طابع واحد بقيمة ريال واحد وإسقاطه من الاعتبار والختم عليه بالبطلان من غير داعٍ وسبب .

ولقد عمل **آية الله العلّامة الطباطبائيّ** قدّس الله سرّه في المقالة السادسة من «أُصول فلسفه» التي بحث فيها في ثلاثين مسألة بشأن الاعتباريّات ، على تشخيص محلّ وموضع الحقائق التي هي أُمور واقعيّة وحقيقيّة ، وعيّن كذلك محلّ وموطن الاعتباريّات تبعاً لجعل الشخص المعتبر في الذهن ، وأوضح كالشمس أمر عدم ولادة العلوم الاعتباريّة من العلوم الحقيقيّة ، وفصل جميع موارد «**الوجوبات**» عن «**الوجودات**» ؛ لكنّه بيّن أنّ هناك رابطة وعلاقة بين الاعتباريّات والحقائق في موردَين :

المورد الأوّل : قيام المعاني الوهميّة بالمعاني الحقيقيّة ؛ وكانت عبارته :

أنّ كلّاً من هذه المعاني الوهميّة قائمة على حقيقة معيّنة ، أي أنّنا حين نضع أيّ حدّاً وهميّاً إلى مصداق ما ، فإنّ له مصداقاً حقيقيّاً آخر ينشأ منه ، فلو اعتبرنا مثلاً إنساناً ما كالأسد ، فإنّ هناك أسداً حقيقيّاً أيضاً يرجع إليه حدّ ذلك الأسد .[1]

وهذه المقولة متينة جدّاً ، لأنّ هذا الأمر الاعتباريّ القائم بالقوى الوهميّة والخياليّة إن استند إلى أمر حقيقيّ فإن ذلك سيثبت مطلوبنا ومرادنا ، أمّا إن استند إلى أمر وهميّ وخياليّ آخر فإنّه يستلزم الدور والتسلسل ، وسيفتقد معناه بغير ذلك القيام ، لأنّ الصور المنطبعة في النفس

١ـ «أُصول فلسفه» ج ٢ ، ص ١٥١ .

هي إمّا من الخارج أو من الذهن ، والأخيرة أيضاً تحقّقت سابقاً بانعكاس صورة خارجيّة .

ومن هنا تصحّ قاعدة : **كُلُّ مَا بِالعَرَضِ لَابُدَّ وَأَنْ يَنْتَهِي إِلَى مَا بِالذَّاتِ** . وقاعدة : **لِكُلِّ مَجَازٍ حَقِيقَةٌ** .

ذلك لأنّ فرض موجود عرضيّ قائم بذاته بدون فرض الذات محال ، وفرض استعمال المجاز ـ وهو الخروج من دائرة الاستعمال الحقيقيّ ـ بدون فرض وجود الحقيقة محال أيضاً .

وقد بيّن الأساتذة العظام في أُصول الفقه هذا البحث بالتفصيل ، وأوضحوا أنّ الإنشاء ـ في مقابل الإخبار ـ عبارة عن الإيجاد والإبداع والخلق في عالم الذهن ، فكما أنّنا نستطيع في بعض الموارد إيجاد شيء في الخارج ومنحه لباس الوجود والتحقّق ، فكذلك يمكننا إنشاء وإيجاد عين ذلك الأمر الخارجيّ في الذهن ، والحكم القطعيّ بوجوده في الخارج .

فمعنى قول البائع في المعاملات : بعتك هذا بالمبلغ الفلانيّ : أنّني نقلتُ إليك هذا الشيء في عالم الاعتبار وملّكتك إيّاه مقابل انتقال المبلغ الفلانيّ في هذا الاعتبار والإنشاء إلى ملكي وحيازتي . لكأنّ هذا النقل والتحويل قد حصل في الخارج وكأنّني قد أوجدتُ هذا الأمر الخارجيّ في عالم ذهني واعتباري ، وقد ارتضى العقل والشرع هذا الاعتبار ، أي التحقّق الخارجيّ في عالم الوهم والخيال .

وفي صيغة النكاح حين تقول المرأة للرجل : **أَنْكَحْتُكَ نَفْسِي** ، فإنّ ذلك يعني في عالم الاعتبار أنّها جعلت نفسها في الخارج فراشاً له ودعته إلى نكاحها ووطئها ! والرجل حين يقبل بهذا القول فهو إنّما يقبل هذا المعنى .

وبهذه الصيغة يتحقّق النكاح الخارجيّ ، لا النكاح الذهنيّ والتخيّليّ ،

وعليه فإنّ إنشاء صيغة النكاح هي أمر اعتباريّ ، وهو اعتبار يصنعه الذهن لما في الخارج ، فالمرأة تجعل نفسها في عالم الاعتبار حقيقة وفعلاً موطوءة للرجل في الخارج ، وينبغي عند إجراء صيغة النكاح الالتفات إلى هذا المعنى ، لأنّ **النكاح** هو بمعنى الوطء لا بمعنى العقد .

والأمر كذلك بالنسبة إلى الحاكم الشرعيّ الذي يحكم أحياناً بدخول الشهر بالرغم من عدم رؤيته لهلال أوّل الشهر ومع وجود الشكّ لديه ، لكنّه يحكم بذلك استناداً إلى القرائن الخارجيّة أو لشهادة رجلَين عادلَين . ومعنى ذلك قوله : إنّني أجعل وأخلق في عالم اعتباريّ وإنشائيّ هلالاً في أُفق السماء .

وبالطبع فهو غير الخلق الخارجيّ الحقيقيّ الذي من الواضح أنّه أمر يفوق قدرته ، وغير خلقه إيّاه في عالم نفسه وذهنه ، لأنّ رؤية الهلال الذهنيّ لا توجب دخول أوّل الشهر ، بل هو هلال خارجيّ حقيقيّ ،كلّ ما في الأمر أنّه في عالم الذهن والاعتبار ، وهو معنى حكم الحاكم برؤية الهلال وبدخول الشهر . وباعتبار إمضاء الشرع المقدّس لهذا الحكم فإنّ حكم الحاكم برؤية الهلال بمثابة ومنزلة الرؤية الخارجيّة للهلال ، وقائم مقامها وحائز منزلتها ورتبتها .

وهذه المسألة دقيقة جدّاً ، حيث إنّ الإنشاءات والاعتبارات في خصوص الذهن لا أثر خارجيّ لها ، وهذه الأُمور لا تتحقّق في الخارج ، فمحلّها إذَنْ في الذهن مع الحكم بتحقّقها في الخارج .

وجميع الأُمور الاعتباريّة التكليفيّة من وجوب واستحباب وتحريم ، والأُمور الوضعيّة مثل الضمان والصحّة والفساد هي من هذا القبيل ، حيث إنّ اعتبار هذه المعاني بدون وجود حقيقتها في الخارج سيكون بلا معنى .

المورد الثاني : تأثير الحقائق الخارجيّة في إيجاد المعاني الاعتباريّة

الذهنيّة ، وهذه المسألة أيضاً قد أثبت العلّامة تحقّقها بوضوح .

ومع أنّ الحقائق الخارجيّة التي يعبّر عنها بالمسائل العلميّة والتي تتّخذ لنفسها عنوان **الوجود** ، هي غير المسائل الاعتباريّة التي يعبّر عنها بعنوان **الوجوب** ، وأنّ المسائل العلميّة والحقائق الخارجيّة لا تقع بأيّ وجه من الوجوه في طريق ولادة المسائل الاعتباريّة ، فلا يمكن بألف مسألة علميّة استخراج أمر اعتباريّ واحد بصورة البرهان ، لكنّ مسائل العلم تقع في طريق الاستنتاج وفي طريق الحصول على الحكم الاعتباريّ .

فبعد اطّلاع الإنسان على المسائل العلميّة فإنّه يجعلها دوماً صغرى البرهان ، ثمّ يضع حكماً عقليّاً يرتّبه بنفسه بعنوان كبرى المسألة ، فيشكّل منهما برهاناً صحيحاً ويصل إلى النتيجة المطلوبة .

فالصغرى مثل : تناول السمّ موجب لزوال الحياة ؛ والكبرى مثل : كلّما أوجب زوال الحياة يجب اجتنابه . ونتيجتهما : أنّ تناول السمّ لازم الاجتناب .

مقدّم چون پدر ، تالى چو مادر
نتيجه هست فرزند اى برادر[1]

وما ذكره العلّامة هو أنّ الاعتباريّات لا تولد من الحقائق ، لا أنّ الحقائق لا يمكن الاستفادة منها في استنتاج برهان معيّن بأن توضع كمقدمة له . وبالطبع فإنّ البرهان الذي يشكّل أحد مقدّماته أمر اعتباريّ ، سيكون اعتباريّاً أيضاً بلحاظ أنّ النتيجة تابعة لأخسّ المقدّمتَين .

فلا يمكن الاستعانة بالمقدّمات الاعتباريّة ـ سواء في الصغرى أم في الكبرى ـ لاستنتاج مسألة فلسفيّة وعلميّة ، وممّا لا شكّ فيه انّه يمكن

١ـ يقول: «المقدّم (في القياس) كالأب، والتالي كالأُمّ ،والنتيجة أيّها الأخ هي الولد».

استنتاج أمر اعتباريّ بطريقة البرهان من مقدّمات فلسفيّة وعلميّة يكون مقدّمتها أمر اعتباريّ ، وهناك مسألة من المسائل العلميّة كمقدّمة للبرهان فعلاً في الكثير من نتائج الأُمور الاعتباريّة والأحكام والقوانين . فمقولة العلّامة الطباطبائيّ في أنّ الأحكام الفطريّة عبارة عن الأحكام التي أودعها نظام الخلقة والطبيعة في طينة الإنسان ، فهي التي تيسّر أُسلوب حركة الإنسان في سيره في مدارجه الكماليّة ، هي من أعلى المقولات و أكثرها منطقيّة . لأنّ الفطرة والطينة ـ كما سيأتي تفصيله ـ عبارة عن البنية الوجوديّة المادّيّة والمعنويّة وتجهيز القوى والاستعدادات لمنح الفعّاليّة للنفس المبهمة والهيولى المستعدّة والمحضة للوصول إلى غاية الخلقة والقصد من الإيجاد .

فالاطّلاع على هذه التجهيزات والأُمور الطبيعيّة هو من المسائل العلميّة التي يتوصّل إليها الفرد بواسطة العلم ، وحكم العقل بوجوب استخدامها هو حكم اعتباريّ نتيجته وجوب إعمال القوى المادّيّة والطبيعيّة والروحيّة في مجرى الخلقة ومسار الحياة .

إنّنا لا نقرّ باعتباريّة مسائل العلم ، كما لا نضع الأُمور الاعتباريّة محلّ مسائل العلم أبداً ، فلكلٍّ منهما مقامه ومكانه الخاصّ ، لكنّنا نقول ونؤكّد كثيراً على أنّنا لا نمتلك ـ غير حكم العقل ـ طريقاً لاستخدام المعلومات والغرائز والمسائل الفطريّة . فهو الحكم الذي تجعله النفس وتعتبره للمسائل المستحصلة عن طريق العلم ، لا أن تكون المعلومات الفطريّة والغرائز بنفسها علّة تامّة للعمل ، أو أن يكون مجرّد عنوان الفطرة ونظام الطبيعة كافياً لوحده للعمل ، بل حين تتعرّف النفس الإنسانيّة على مسائل العلم بشأن الفطرة ، فإنّها تقوم بإصدار حكم عقليّ بوجوب اتّباعها والسير على نهجها .

وقد أشار **العلّامة** بوضوح الى أنّ عمل الطبيعة والفطرة لا يكفي لوحده في استخدامها ، بل ينبغي ضمّ الاختيار والإرادة لذلك ، فإن نحن أوكلنا الزمام عند ذلك بِيَدِ العقل النظريّ والشعور الإنسانيّ الذي تشاركنا فيه الحيوانات في كثير من الجهات ، فإنّ هناك احتمالاً كبيراً في انحراف سعي الإنسان عن طريق الفطرة ونهجها ، أمّا إن أعطينا الزمام بِيَدِ العقل الإنسانيّ **مِنْ حَيْثُ هُوَ إنسَانٌ** ، فإنّنا نضمن تحقّق الحكم الفطريّ وقيام العقل باستخدام هذه الأجهزة للوصول إلى كمال الإنسانيّة ، وحينذاك سيوافق حكم العقل لمسائل الفطرة وتجهيزات الخلقة ، وهو معنى : **فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا**.[1]

إذا كانت الغرائز والفطرة ومسائل الطبيعة كافية لوحدها للعمل ، فعلامَ سنحمل هذه الانحرافات والأخطاء ؟

أمّا قولكم إنّ هذه الوجوبات تحتاج إلى وجوب ابتدائيّ ترجع إليه ، فقول صائب نؤيّده ونوافق عليه ، لكنّ هذا الوجوب الابتدائيّ ليس إلّا حكم العقل المستقلّ الإنسانيّ المنزّه عن شوائب الأوهام والوساوس ، ولا يمكن أن يكون شيئاً آخر غيره .

ولو لم يكن هذا العقل في الإنسان ، لأصبح الأمر في : **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا** لغواً لا فائدة فيه .

فهذا العقل هو الذي يصوغ من الإنسان إنساناً ، وبه عرّف الله نفسه بواسطة لسان الباطن و لسان الأنبياء ، وهو الذي يقول : ينبغي لهذا **الوجوب** الابتدائيّ أن يكون حكم العقل وليس حكم الباري الموجّه إلى النفس التي تفتقد العقل والتي لا ينفع معها ألف وجوب ووجوب .

١و٢ ـ قسم من الآية ٣٠ ، من السورة ٣٠ : الروم .

لطالما قلنا ، ونقول : إنّ مسائل الفطرة تحتاج في سنّة التكوين إلى وجوب لنقلها إلى حيّز العمل ، وينبغي أن يكون ذلك الوجوب أبداً من نتاج العقل وملازماً لإنسانيّة الإنسان . فهل تعرفون مبدأ ومنشأ غير هذا الوجوب العقليّ ؟ هاتوه وأرونا إيّاه فنحن في الانتظار !

ويتّضح من هذا الكلام أنّ حكم المعترض بهذه العبارة :

> ونقول هنا : إنّه لا يمكن بألف برهان عقليّ تشكّل مقدّماته الإدراكات الحقيقيّة «وجود» و«عدم» من إثبات حُسن شيء أو قبحه، ولا إثبات ملكيّتنا لشيء ما ، ولا الدلالة بحكم العقل على رئاستنا لجماعة ما ؛ فالذين يسعون عبثاً ليثبتوا بالبرهان العقليّ للآخرين أنّ فعل العمل الفلانيّ حسن أو قبيح ، إنّما يسيرون في متاهة ويحاولون عبثاً». [1]

هو حكم واهٍ وليس أكثر من مغالطة وسفسطة .

وذلك من خلال اعترافكم بالقول : بالبرهان العقليّ ! ولو وصلت النوبة إلى البرهان العقليّ لصارت جميع المطالب ثابتة راسخة . وإنّ جميع نبوّة الأنبياء وحجّيّة القرآن وتوحيد الربّ جلّ وعلا إنّما تعتمد على العقل . ولو فُرض زوال حجّيّة البرهان العقليّ ، فسينهار الصرح الشامخ للعلم والمعرفة تبعاً ، له وسيصبح العالم **داراً للمجانين** ومجمعاً لشملهم .

فلو كنتم تدرسون في كلّيّة جميع معلّميها ومدرّسيها مجانين لا عقل لهم ، فهل تعلمون أيّ بلاءٍ كان سيحلّ بكم ، مهما كانت جميع الكتب النفيسة والخطّيّة والقديمة الموجودة فيها في أعلى درجات الإتقان ؟

وعليه ، فلا مفرّ لتركيب القياس البرهانيّ والاستثنائيّ لأحكام الصواب والخطأ والمحاسن والقبائح غير استخدام جميع العلوم بعنوان

١ـ كتاب «دانش و أرزش» ص ٢٧٥ .

صغرى القياس ، وجعل حكم العقل عموماً بعنوان كبرى القياس ، ثمّ استحصال النتيجة المطلوبة ؛ والأمر كذلك في القياسات الاستثنائيّة .

أمّا ما نُقل عن هيوم فهو أمر ضعيف جدّاً ولا يمكن مقارنته بالتحقيقات الرائعة للعلّامة قدّس سرّه .

لقد كان أقصى وسع **جي اي مور** ونهاية إدراكه أن يفهم أنّ معنى الحسن بسيط لا يتجزّأ ، وكان هذا من العجب العجاب ؛ وكان من الحريّ بهم أن يسألوا أحد طلبتنا المبتدئين في مستوى «الحاشية» عن ذلك ليبيّن لهم بسهولة أنّ الجيّد والسيّئ ، والحسن والقبح ، وكثير من الكلمات عامّة البلوى ،كالعامّ والخاصّ ، والمطلق والمقيّد ، باعتبارها بسيطة وخالية في جوهرها من التركيب ، فتعريفها بتعريف شامل للحدّ والرسم ، تامّاً كان أو ناقصاً أمرٌ محال ، ولهذا فإنّ جميع التعريفات التي أُعطيت لها كانت من باب **شرح الاسم** .

التنبيه السادس : لقد أراد صاحب مقالة «بسط وقبض تئوريك شريعت» في الفصل الرابع من كتابه «دانش و أرزش» ؛ بعد قيامه في الفصول السابقة ـ حسب نظره ـ بإثبات عدم إمكان تشكيل برهان عقليّ في مسائل الحسن والقبح ، والقيم ، والجودة والرداءة ، وبشكل عامّ في جميع الاعتباريّات ، متصوّراً أنّه قد صنع **هوّة أبديّة تفصل بين الواقعيّة والأخلاق** ،[1] أن يُشير إلى الوجوب الأوّليّ الذي يمثّل أساس باقي الوجوبات ؛ وباعتبار أنّه قد فسّر أوّلاً **آية الفطرة المباركة** بأُسلوبٍ خاصّ لا ينطبق على حقيقة الأمر ، ولادّعائه ثانياً أنّ الوجوبات في القرآن الكريم غير مستفادة من مسائل الطبيعة والفطرة ، وأنّه ليس هناك أيّ حكم

١ـ كتاب «دانش و أرزش» ص ٢٨٩ .

من أحكام هذا الكتاب السماويّ المقدّس يقوم على أساس المسائل العلميّة والواقعيّة ، أو يستخدم الحقائق كجزء للبرهان العقليّ المنطقيّ من أجل استنتاج أحكامه التي يصدرها ؛ فإنّنا نجد أنفسنا مجبرين على تقديم بحث مختصر بشأن هذين الموضوعَين :

أمّا بشأن آية الفطرة :

بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا أَهْوَآءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْم فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ * فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُم وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ.[1]

فقد أكدّت هذه الآية صراحة على لزوم متابعة الفطرة الإنسانيّة ، لكنّ كاتب المقالة قال **أوّلاً** على أساس عدم استخدام حكم العقل في طريق انتاج قياس الأحكام الفطريّة :

إنّ هناك فاصلاً بين قضية : **أنّ الفطرة تدعو إلى شيء معيّن** : (خبر) وقضيّة : **يجب اتّباع ما تدعو الفطرة إليه** : (أمر) ، هو بقدر الفاصل بين العلم والقيم ، وإنّ صنع جسر للعبور من أحدهما إلى الآخر هو ذلك الخطأ الخالد لجميع أنواع الأخلاق العلميّة . وبهذا اللحاظ فحتّى لو كانت الفطرة البشريّة داعية إلى الدين ومجبولة على التوحيد، فلا يكفي ذلك لوحده في الدلالة على وجوب الاتّجاه للدين أو اتّباع التوحيد.

ولو صحّ احتواء الآية المذكورة على أمر كهذا مبتنٍ على هذا

١ـ الآيات ٢٩ إلى ٣٢ ، من السورة ٣٠ : الروم .

الاستنتاج، لصحّ كلام الذين ينظرون من منظار الأخلاق العلميّة، والحاملين في قلوبهم وسوسة الاعتبار الحقيقيّ ؛ ولكن يجب القول إنصافاً بأنّ ذلك ليس صحيحاً.[1]

و**ثانياً** أخذه كلمة الفطرة في الآية المباركة حسب احتمال الفخر الرازيّ والشيخ الطوسيّ ـ خلافاً لأكثر المفسّرين ـ بمعنى الدين والمنهج ، لئلّا تدلّ على لزوم متابعة الفطرة الأوّليّة والخلقة والبنية الطبيعيّة للإنسان .

... ولا شأن لنا بالجدال حول الاحتياجات والدوافع الفطريّة الإنسانيّة، ولا ننكر أنّ الفطرة الإنسانيّة حسب التعليمات الإسلاميّة داعية إلى الخالق ، لكنّ ما نقوله إنّه لا يمكن القول : لأنّ الله متبوع ومطلوب، إذَنْ **يجب طلب الله** ؛ فهذا الاستنتاج الأخير هو الخاطئ بنظرنا منطقيّاً.[2]

وجوابنا على المطلب الأوّل هو نفس كلامنا السابق من أنّ العقل يحكم بضرورة متابعة الفطرة ، لا أن تكون الفطرة بنفسها محرّكة للإنسان ، وإلّا لما تعلّق به الأمر والتكليف .

فالطبيعة والفطرة هنا (أي العلم) ليست واسطة لنشوء القيم والاعتبار ، ولم تُتّخذ جسراً لذلك ؛ بل إنّ حكم العقل المستقلّ الناجم عن القياس المنطقيّ هو المشير بضرورة متابعة هذا العلم ، والموجب بالبرهان القطعيّ إلى لزوم متابعة الفطرة ، فهذه ليست ولادة الأخلاق والاعتبار من العلم ، بل إنشاء حكم النفس بلزوم متابعة مسائل العلم .

وأمّا جوابنا على المطلب الثاني ، أي تفسير آية الفطرة المباركة ، فمُبتنٍ على علمنا بأنّ معنى الفطرة من مادّة **فَطَرَ** التي استخدمت كراراً في

١ـ «دانش و أرزش» (= العلم والقيم) ص ٣٢٠ .

٢ـ «دانش و أرزش» ص ٣٢١ .

القرآن الكريم ، مثل : **فَطَرَهُنَّ** [1] ـ **فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ** [2] ـ **ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌ بِهِ** [3] ـ **إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ** . [4]

فهي تعني في جميع هذه الموارد الإبداع والخلق بلا مثيل سابق .

وأمّا صيغة الفِطْرَة على وزن **فِعْلَة** فتدلّ على النوع ، مثل جِلْسَة ، أي الكيفيّة الخاصّة للجلوس ، لأنّ هذا الوزن يستخدم في العربيّة في بيان النوع والهيئة ؛كأن تقول : **جَلَسْتُ جِلْسَةَ زَيْدٍ** .

وعليه ، فيصبح معنى الفطرة في الآية : **فِطْرَتَ ٱللَهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا** : ذلك النمط الخاصّ من الخلقة الذي خلق اللهُ الإنسان عليه .

وهي تلك الخصائص والآثار التي لا تنفكّ عن الإنسان ، فقد خلق اللهُ الإنسان مع تلك الخواصّ والخصائص والسجايا الأخلاقيّة والهداية للتكامل الخاصّ ، ولم يكن خلقه ذاك خلقاً مجرّداً ، بل ابتداعاً وإيجاداً وتصويراً على غير مثال سابق وشبيه .

يقول **ابن الأثير** : جاء في رواية عن **ابن عبّاس** : **قَالَ : مَا كُنْتُ أَدْرِي مَا فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ، حَتَّى احْتَكَمَ إلَيَّ أَعْرَابِيَّان** [5] **فِي بِئْرٍ ؛ فَقَالَ أَحَدُهُمَا : أَنَا فَطَرْتُهَا . أَيْ ابْتَدَأْتُ حَفْرَهَا.** [6]

لقد كان ابن عبّاس رجلاً عربيّاً عالماً وفصيحاً ، ولم يكن أعجميّاً

١ـ في الآية ٥٦ ، من السورة ٢١ : الأنبياء .

٢ـ قسم من الآية ٧٩ ، من السورة ٦ : الأنعام .

٣ـ صدر الآية ١٨ ، من السورة ٧٣ : المزّمّل .

٤ـ الآية ١ ، من السورة ٨٢ : الانفطار .

٥ـ **الأعرابيّ** هو من سكن البادية ، وجمعه **أعراب** ؛ أمّا **العَرَب** فيُجمعون على **عُرْب** لا أعراب.

٦ـ «النهاية» لابن الأثير ، مادة **فَطَرَ** ، ج ٣ ، ص ٤٥٧ .

ليُحمل عدم معرفته معنى الفَطْر على عدم اطّلاعه على لغة العرب ، بل يتّضح من جهله به ومجيء الأعرابيّ به في كلامه أنّ استعمال هذا اللفظ باشتقاقاته لم يكن معهوداً في اللغة العربيّة وأدبها وأشعارها ، وأنّ استعماله كان من مختصّات القرآن الكريم . وقد اهتمّ القرآن الكريم بشكل خاصّ بهذه الكلمة التي أوضح بها في كلّ موضع وردتْ فيه أنّ صنع الربّ الخالق الحكيم كان إبداعاً وصنعاً على غير شبيه ،وكذلك إبداع عوالم الوجود من خلق السماوات والأرض وسائر الموجودات .

يقول **الراغب الإصفهانيّ** في «المفردات» :

أَصْلُ الفَطْرِ : الشَّقُّ طُولاً ... وَفَطَرَ اللهُ الخَلْقَ ؛ وَهُوَ إيجَادُهُ الشَّيْءَ وَإبْدَاعُهُ عَلَى هَيْئَةٍ مُتَرَشِّحَةٍ لِفِعْلٍ مِنَ الأَفْعَالِ.

وعليه ، فإنّ قوله تعالى : **فِطْرَتَ ٱللَهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا** إشارة إلى أنّ الله تعالى ركز معرفته في الإنسان وأوجدها إبداعاً . فـ**فِطْرَتَ ٱللَهِ** عبارة عن قوّةٍ منه أودعها في الناس لمعرفة الإيمان وجبلها في طينتهم ، ولذا فإنّهم حين يُسألون مَنْ خَلَقهم ؟ يقولون : الله :

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَهُ.[1]

وقال تعالى : «**ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ**» ، «**وَٱلَّذِى فَطَرَنَا**» ؛ **أَي أَبْدَعَنَا وَأَوْجَدَنَا .**

يصحّ أن يكون **الانفطار** في قوله : **ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌ بِهِ** إشارة إلى قبول ما أبدعها وأفاضه علينا منه .[2]

يقول ابن الأثير في «النهاية» في مادّة **فَطَرَ** :

١ـ قسم من الآية ٨٧ ، من السورة ٤٣ : الزخرف .

٢ـ «المفردات» للراغب ، ص ٣٨٢ ، طبعة حلبي ـ مصر ، تعليق محمّد سيّد الگيلانيّ .

ورد في الحديث النبويّ: **كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ**؛[1] **الفَطْرُ الابْتِدَاءُ والاخْتِرَاعُ. والفِطْرَةُ: الحَالَةُ مِنْهُ، كالجِلْسَةِ والرِّكْبَةِ.**

والمَعْنَى أَنَّهُ يُولَدُ عَلَى نَوْعٍ مِنَ الجِبِلَّةِ وَالطَّبْعِ المُتَهَيِّئِ لِقَبُولِ الدِّينِ؛ فَلَوْ تُرِكَ عَلَيْهَا لَاسْتَمَرَّ عَلَى لُزُومِهَا وَلَمْ يُفَارِقْهَا إلَى غَيْرِهَا. وَإنَّمَا يَعْدِلُ عَنْهُ مَنْ يَعْدِلُ لِآفَةٍ مِنْ آفَاتِ البَشَرِ وَالتَّقْلِيدِ. ثُمَّ تَمَثَّلَ بِأَوْلَادِ اليَهُودِ وَالنَّصَارَى فِي اتِّبَاعِهِمْ لِآبَائِهِمْ وَالمَيْلِ إلَى أَدْيَانِهِمْ عَنْ مُقْتَضَى الفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ.

وَقِيلَ: مَعْنَاهُ كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى مَعْرِفَةِ اللهِ وَالإقْرَارِ بِهِ. فَلَا تَجِدُ أَحَدَاً إلَّا وَهُوَ يُقِرُّ بِأَنَّ لَهُ صَانِعاً، وَإنْ سَمَّاهُ بِغَيْرِ اسْمِهِ، أَوْ عَبَدَ مَعَهُ غَيْرَهُ.

ثمّ يقول:

وَفِي حَدِيثِ عَلِيٍّ: «وَجَبَّارُ القُلُوبِ عَلَى فِطْرَاتِهَا». أَي عَلَى خِلَقِهَا؛ جَمْعُ فِطَرٍ، وَفِطَرٌ جَمْعُ فِطْرَةٍ؛ أَوْ هِيَ جَمْعُ فِطْرَة كَكَسْرَةٍ وَكِسَرَاتٍ بِفَتْحِ طَاءِ الجَمْعِ، يُقَالُ: فِطْرَاتٌ وفِطَرَاتٌ وفِطِرَاتٌ.[2]

وقد سار **الزمخشريّ** في «أساس البلاغة» على هذا النهج، فبعد بيانه معنى **فَطَرَ اللهُ الخَلْقَ، وَكُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ**؛ أي على الجبلّة،

١ـ روى في «إحياء العلوم» ج ٣، ص ١٣، عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه قال: **كُلُّ مَولُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ؛ وَإنَّمَا أَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ**. وورد في تفسير «روح البيان» ج ٧، ص ٣١، الطبعة الجديدة، جزء ٢١، سورة الروم، بهذه العبارة: **قَوْلُهُ عَلَيهِ السَّلَامُ: مَا مِنْ مَوْلُودٍ إلَّا وَقَدْ يُولَدُ عَلَى فِطْرَةِ الإسْلَامِ؛ ثُمَّ أَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ كَمَا تُنْتِجُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ؟ حَتَّى تَكُونُوا أَنْتُمْ تَجْدَعُونَهَا**. ويقول في «أقرب الموارد» في مادّة **جَدَع: جَدَعَ يَجْدَعُ** بمعنى قطع الأنف، ويستعمل مجازاً في قطع الأُذن والأنف واليد.

٢ـ «النهاية» لابن الأثير؛ ج ٣، ص ٤٥٧.

يقول :

وَقَدْ فَطَرَ هَذَا البِئْرَ . وَفَطَرَ اللَهُ الشَّجَرَ بِالوَرَقِ فَانْفَطَرَ بِهِ وَتَفَطَّرَ . وَتَفَطَّرَتِ الأَرْضُ بِالنَّبَاتِ . وَتَفَطَّرَتِ اليَدُ وَالثَّوْبُ : تَشَقَّقَتْ ... [1] إلى آخره .

كان هذا تحقيقاً بشأن المعنى اللغويّ للفطرة وتفسير الآية المباركة ، وقد اتّضح أنّ معنى الفطرة بمعنى الخلق من العدم ، والإيجاد من العدم المحض ، والإبداع والاختراع على غير مثال سابق . ولا حيلة ولا مهرب من هذا المعنى والمفهوم من آية الفطرة حسب أقوال أساطين العلم والمتبحّرين بالعربيّة وآدابها ؛ وإذا ما أخذ البعض كلمة الفطرة في هذه الآية بمعنى الملّة والسنّة والدين فإنّ ذلك كان أيضاً بلحاظ نفس معنى الخلقة والسجايا الطبعيّة والروحيّة التي أنشأ الله سبحانه الملّة والشريعة عليها .

ويتّضح أيضاً بهذا البيان أنّ ما أورده المعترض في هذا البحث فراراً من الأمر الاعتباريّ واستناداً إلى آية الفطرة من :

إنّ العلوم لا تمنحنا إلّا النواهي لا الأوامر ، وحين نعلم النواهي فإنّنا سنعلم الواجبات أيضاً بالملازمة.[2]

ليس إلّا دوراناً في حلقة مفرغة ولن يؤدّي إلّا إلى نفس النتيجة ، كمن يدير اللقمة في يده ما شاء من المرّات ثمّ يضعها في النهاية في فمه ؛ فكلا **الوجوب** و**النهي** أمر اعتباريّ ، فإن لم يجز الأمر في **الوجوبات** ، فهو كذلك في **النواهي** فلا تغفل .

كان هذا بحثنا عن الموضوع الأوّل والإشكال الوارد على صاحب كتاب «دانش و أرزش» (=العلم والقيم) في تفسير آية الفطرة .

١ـ «أساس البلاغة» ص ٣٤٤ .

٢ـ «دانش و أرزش» ص ٢٨٩ إلى ٢٩٣ ، القسم الرابع ، النظرة الواقعيّة الأخلاقيّة.

وأمّا بشأن الموضوع الثاني بشأن ادّعائه أن ليس لدينا آية قرآنيّة تأمرنا بشيء أو تنهانا عن شيء حسب مبنى المسائل العلميّة وعن طريق الاستنتاج العلميّ ، وبكلمة أوجز أنّه لا يمكن لمقدّمات المسائل الفلسفيّة والطبيعيّة أن تكون طريقاً للوصول إلى الأحكام الشرعيّة والمواعظ الإلهيّة القرآنيّة ؛ فإنّنا نجد ـ رغم ادّعائه هذا ـ الكثير من الآياتِ القرآنيّة من هذا القبيل ، ونكتفي بذكر بعضها كأمثلة :

١ ـ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَـٰتِهِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ.**[1]

فانسياب الفلك على سطح الماء من مسائل العلم ، ونتيجتها ـ أي لزوم الصبر والشكر ـ من الأخلاق .

٢ ـ **وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ * إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ.**[2]

فحركة السفن العملاقة على سطح الماء بحركة الرياح وتوقّفها إثر سكون الرياح من مسائل العلم ، وهي تدعو في النتيجة إلى الاستقامة والصبر الوافر والشكر الكثير ، أي الأخلاق .

٣ ـ **إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا.**[3]

فالنصر والظفر الإلهيّ ودخول الناس أفواجاً في الإسلام من مسائل العلم ، يستلزم على إثره تسبيح رسول الله وحمد الله وطلب الغفران وهي

---

١ ـ الآية ٣١ ، من السورة ٣١ : لقمان .

٢ ـ الآيتان ٣٢ و٣٣ ، من السورة ٤٢ : الشورى .

٣ ـ الآيات ١ إلى ٣ ، من السورة ١١٠ : النصر .

من مسائل الأخلاق .

٤ ـ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ * وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ * وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ * وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ. [1]

تذكرة القرآن للمتّقين ، وعلم الباري بالمكذّبين ، كون القرآن حسرة للكافرين ، وكونه في الثبوت والتحقّق حقّ اليقين ، كلّ ذلك من مسائل العلم . وتسبيح رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم باسم ربّه العظيم المترتّب عليه بفاء الترتيب ، والناتج من ذلك العلم ؛ هو عبارة عن الأخلاق .

٥ ـ ... أَفَرَأَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ * ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ * لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَـٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ * أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ * ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ * نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ * فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ. [2]

فظهور الماء على سطح الأرض من هطول المطر ، وتحليته وعذوبته ، وظهور النار من الشجر لرفع حوائج المحتاجين لها ، كلّها من مسائل العلم ؛ وتسبيح رسول الله تبعاً لها من مسائل الأخلاق .

٦ ـ ... وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ * إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ. [3]

فمكانٍ ومنزلة المقرّبين من الباري سبحانه وهو الروح والريحان وجنّة النعيم ، والسلام الذي يقترن به أصحاب اليمين ، والحميم ومعادن جهنّم المصهورة ، واستقرار المكذّبين الضالّين في الجحيم ، وثبوتها

١ـ الآيات ٤٨ إلى ٥٢ ، من السورة ٦٩ : الحاقّة .

٢ـ الآيات ٦٨ إلى ٧٤ ، من السورة ٥٦ : الواقعة .

٣ـ الآيات ٩٢ إلى ٩٦ ، من السورة ٥٦ : الواقعة .

وحقّانيّتها هي جميعها من مسائل العلم ، وفي النتيجة أمر الخالق سبحانه رسوله بتسبيح اسم ربّه العظيم مسألة أخلاقيّة .

٧ـ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ * فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ * وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ.**[1]

فخلق السماوات والأرض وما بينهما في يسر وسهولة في ستّة أيّام من مسائل العلم ، وعلى إثرها وجوب الصبر من قبل رسول الله وأمره به مقابل كلام المشركين غير المستساغ ، وتسبيحه قبل طلوع الشمس وقبل غروبها وقدراً من الليل وأدبار السجود جميعها من مسائل الأخلاق ، ومن الاعتباريّات الأخلاقيّة المترتّبة على الحقائق .

٨ ـ **وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى * فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَآىِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ.**[2]

فعدم سبق الكلمة الإلهيّة التكوينيّة والإرادة الحتميّة السبحانيّة والأجل المسمّى الذي قدّره الله سبحانه ، وعدم لزوم العذاب وتحقّقه في الدنيا قبل الموت من المسائل العلميّة ؛ وصبر رسول الله واحتماله لأقوال المعاندين ، وتسبيحه وحمده خالقه قبل طلوع الشمس وقبل غروبها وراء الأُفق ، وآناء من الليل وفي أطراف النهار هي كلّها من الأخلاقيّات والأوامر الإلهيّة الاعتباريّة والمترتّبة على مسائل العلم تلك .

٩ ـ **وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ**

١ـ الآيات ٣٨ إلى ٤٠ ، من السورة ٥٠ : ق .

٢ـ الآيتان ١٢٩ و ١٣٠ ، من السورة ٢٠ : طه .

نُشُورًا.[1]

إنّ جَعْل الليل مظلماً في حكم اللباس والستر، والنوم باعثاً على الهدوء والراحة، وجَعْل النهار مضيئاً للعمل والنشاط من مسائل العلم، واستراحة الإنسان ليلاً وسعيه ونشاطه نهاراً من الأخلاق.

١٠ـ وقد وردت آيات كثيرة في القرآن الكريم بشأن الرجل والمرأة وتكاليفهما المختلفة حسب اختلاف البنية الطبيعيّة والمزاج والنظام الوجوديّ، تتعلّق بمسائل النكاح والطلاق والميراث والنفقة والرضاع والعدّة وكيفيّة العبادة، كاجتناب الصلاة والصيام أيّام الطمث، ووجوب الحجاب من الرجال من غير المحارم وغيرها، وهي تدلّ بأجمعها على اختلاف هذه الأحكام على أساس الاختلاف في البنية الوجوديّة والطبيعيّة لهما.

وعليه، فإنّ اختلاف البنية والنظام المادّيّ والروحيّ للرجل والمرأة هو من مسائل العلم، وترتّب الأحكام المختلفة على ذلك من مسائل الأخلاق، وقد استخدمت تلك المسائل العلميّة في هذه الآيات بشكل واضح في قياس إجراء الأحكام الأخلاقيّة والأمر والنهي والضمان والملكيّة وغيرها، حيث إنّها جميعاً من الاعتباريّات.

ولا كلام لدينا في التقييم، فعاقبة الأمر أنّ الناس يُساقون إلى الجنّة على أساس مقدار التقوى والأمر الصالح، الرجل والمرأة على حدٍّ سواء:

مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ.[2]

١ـ الآية ٤٧، من السورة ٢٥: الفرقان.

٢ـ الآية ٩٧، من السورة ١٦: النحل.

ولكنّ الكلام حول اختلاف الأحكام تبعاً لمبنى اختلاف البُنية الوجوديّة ، أي اختلاف مسائل الأخلاق وتفاوت الاعتبار على أساس تفاوت واختلاف مسائل الطبيعة والعلم .

ولا شكّ ولا تردّد في هذا الأمر ، ومع ذلك فقد كان لمؤلّف كتاب «دانش و أرزش» خبط واشتباه فيه ، فقد تنكّب عن الجادّة في هذه المسألة البيّنة فقال : لا شأن لنا بأيّ لحاظٍ كان اختلاف مسائل المرأة والرجل ، فما هو موجود فعلاً تساويهما في القيمة التقوائيّة . ونورد عين عبارته ليتّضح خلطه ومغالطته للعيان :

ومن هنا ينبغي العلم بأنّ اختلافات الحقوق والواجبات بين الرجل والمرأة مثلاً لم تكن بسبب الاختلافات في الجسم والطبع بنظر القرآن في تقييمه لتلك الاختلافات.

فما ميّز بين حقوق الرجل والمرأة أساساً هو النظرة الواقعيّة الأخلاقيّة والعزم على اجتناب التكليف بما يفوق الطاقة والتحمّل، فلم تُفرض على كلّ من الرجل والمرأة واجبات تفوق حدود طاقتهما، وهذا هو أساس نشوء اختلاف حقوقهما.

ولا زال هناك الكثير ممّن يتصوّر أنّ مرجع اختلاف حقوق المرأة والرجل في القرآن إلى اختلافهما في التقييم في نظر المقنّن والمشرّع، وأنّ في ذلك إشارة إلى تفوّق أحدهما وضِعَة الآخر.

لذا ، ينبغي أن تفضح صراحةُ الآية السابقة [1] والآيات الأُخرى

١ـ المقصود بالآية السابقة هي : **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَـارَفُوٓا إِنَّ أَكْرَمَـكُمْ عِندَ ٱللَهِ أَتْقَـٰكُـمْ إِنَّ ٱللَهَ عَلِيمٌ خَبِـيرٌ** . (الآية ١٣ ، من السورة ٤٩ : الحجرات).

وكما نلاحظ فهذه الآية لا تفرّق بين الرجل والمرأة ، كما لا تفرّق بين السيّد والسيّدة والغلام والجارية من جهة المقام والقيمة المعنويّة وسلوك طريق التقوى والقرب من ربّ

المشيرة إلى تساوي الرجل والمرأة عند الخالق بطلان هذا التصوّر المهين.

إنّ الاختلافات الحقوقيّة للمرأة والرجل في الإسلام مهما كان سببها، فهي حتماً غير ناشئة من تفاوت قيمتهما المعتبرة ، فالكرامة والقيمة والقدر في نظر القرآن أمر مختصّ بالتقوى وحدها ، ولقد كان منظار الأخلاق العلميّة هو المسبّب لعجز البعض عن تفسير تفاوت الحقوق إلّا بمعنى تفاوت القيمة ، وتفاوت القيمة إلّا باختلاف البُنية الطبيعيّة.[1]

ويلاحظ في العبارات السابقة كيف خلط المؤلّف البحث ، فحاول إظهار اختلاف المرأة والرجل في أفكار المفكّرين القرآنيّين على أنّه حسب مبنى اختلافهما في القيمة والقدر ، ثمّ قام برفضه ، مع أنّ كلامنا لم يكن أساساً في موضوع اختلاف القيمة والقدر ، بل في اختلاف الحقوق والأحكام والإرث والنفقة وعدم الجهاد والقضاء والحكومة ونظائرها ، وهي مسائل أخلاقيّة اعتباريّة محضة رُتّبت من وجهة النظر القرآنيّة على أساس المسائل العلميّة والطبيعيّة للمرأة والرجل .

العزّة سبحانه ، لا أنّها تساوي بينهم من جهة الأحكام والواجبات والقوانين . وكلامنا فعلاً في الجهة الثانية لا الأُولى.

١ـ «دانش و أرزش» ص ٣٢٣ و ٣٢٤ .

الإشكال العاشر

نظريّة تبدّل الأنواع مجرّد نظريّة ولا تملك دليلاً قطعيّاً

الإشكال العاشر على مقالته «بسط وقبض تئوريك شريعت» هي مسألة قبوله بتبدّل الأنواع ، وإقراره بعدم انتهاء نسل الإنسان إلى آدم وزوجته المخلوقَين من التراب . فبتبجيله وتكريمه **لداروين** وتسميته له بنابغة الفهم والإدراك ومسخّر النظريّات الطبيعيّة ، وبمن أثبت حقيقة الفرضيّة والنظريّة ؛ ممّا يستلزم في النهاية عودة البشر إلى القرد ، قد أضاف إلى مقالته إشكالاً جديداً ؛ إذ يقول :

لقد نقل المؤرّخون أن داروين لم يستطع ـلتمسّكه بفرضيّتهـ فهم وقبول الصحف الدينيّة المقدّسة كما يفهمها الآخرون ويقبلونها؛ عكس جورج كوفيه الذي لم يستطع ـلتمسّكه والتزامه بمعارف التوراةـ معرفة الطبيعة كما عرفها الآخرون.

وقصّة داروين الإنجليزيّ مشهورة ، لكن قصّة كوفيه الفرنسيّ تستحقّ هي الأُخرى أن تُعرف ، فلقد اكتشف كوفيه وأبدع أساسَين مهمَّين في علم الحيوان وعلم الجيولوجيا (طبقات الأرض) كان لهما أحسن الأثر عند المتكلّمين فأكثروا من الحديث عنهما ، ذلك لأنّه حافظ على ظواهر الكتاب المقدّس ومنحه دعماً علميّاً.

فقد اكتشف وأعلن في النصف الأوّل من القرن التاسع قبل ظهور نظريّة داروين قانون «تناسب أعضاء الحيوانات» Correlation Principle، وهذا القانون الذي يحظى اليوم بقبول علماء الحيوان كان له مفاد ومدلول آخر لديه . وكان يقول إجمالاً بأنّ أعضاء

جميع الحيوانات هي من التناسب والتوازن فيما بينها ، بحيث ينتفي معه وقوع أيّ تحوّل وتغيّر فيها مع بقاء نفس الحيوان.

لذا ، فقد تحقّق من بين المؤلّفات المختلفة والمتصوّرة للأعضاء ما كان تحقّقه ممكناً ، أمّا ما لم يتحقّق فهو الذي كان تحقّقه محالاً. وحسب قول **كولمان** Coleman : إنّ مفاد قانون كوفيه كان يعني على وجه التقريب كلّ ما هو ممكن فهو موجود ، وكلّ ما هو غير موجود فغير ممكن.

وعليه ، فقد كانت الفاصلة بين الأنواع ضروريّة ، فمن المحال أن يملأ الفراغ بين القطّة والعصفور مثلاً ، ونتيجة لذلك كان ينبغي للحيوان إمّا أن يبقى مصوناً من التغيّر الكلّيّ ، أو أن يتغيّر كلّيّاً من الأساس ليصبح منشأ لنوع آخر.

ولم يكن كوفيه ليؤمن بالتحوّلات التدريجيّة الطفيفة الهادئة، ولهذا فقد اعتقد بثبات الأنواع الذي وافق بشكل واضح ظاهر الكتاب المقدّس.... .

وكان هذا الأمر مثار عجب مؤرّخي العلم ، فعلى الرغم من مخالفة كوفيه الشديدة لتغيّر الأنواع (ترانسفورميزم)، فإنّ تحقيقاته في علم الآثار والتشريح العمليّ لم تمهّد الطريق لظهور نظريّة التكامل فحسب، بل كانت مقدّمة ضروريّة لا غنى عنها لتلك النظريّة.

فاهتمامه المبذول في مسألة تناسب وتوافق أعضاء الحيوان الواحد مع بعضها ، وتناسب بدن الحيوان مع محيطه ، كان عنصراً حيويّاً في تدوين نظريّة التكامل . لكنّ الذي لم يلحظه كوفيه ورآه داروين أنّه يمكن لذلك التوافق والتناسب أن يكون له توضيح (علميّ) وتكامليّ وميكانيكيّ مادّيّ وطبيعيّ ، وأنّه ينبغي عدم إرجاعه مباشرة إلى قدرة الخالق وفعله.

فالاعتقاد بالتدخّل المباشر ليد الخالق في الطبيعة (وهو رأيٌ كلاميٌّ ، معناه : وضع الطبيعة وما وراء الطبيعة في عرض بعضها)، كان

من أهمّ العوامل المثيرة للجدل وأكثرها تخريباً في ميدان المعرفة في بلاد الغرب والشرق ، فلقد كان يقطع الطريق في كلّ مكان ابتداءً من نيوتن إلى كوفيه وباستور ، ومن الفخر الرازيّ إلى الحشويّة الجدد.

فلم يكن في إمكان كوفيه أن يشاهد أبعد ممّا فعل ، لأنّ أساس توافق المعارف لم يكن ليسمح له أن يفعل ذلك ، فلقد كان علمه الكلاميّ (أي: النسبة التي كان يعتقدها بين الله والطبيعة) وكلام الله (أي: التفسير الذي كان يستنبطه من الكتاب المقدّس) يوقفانه عند ذلك الحدّ.

وكان يلزمه معرفةً أُخرى بالله وتفسير أفضل للكتاب ليمنحاه مجالاً أفضل للإبداع العلميّ.[1]

لقد تكلّمنا مفصّلاً في هذا الجزء من كتاب «نور ملكوت القرآن» عن الضعف والوهن اللذين يكتنفان نظريّة التكامل في الأنواع في ردّنا على مؤلّف كتاب «خلقتْ إنسان» (= خلق الإنسان) وإثباتنا لنظريّة الأُستاذ العلّامة آية الله الطباطبائيّ قدّس الله نفسه ، وأثبتنا أنّ ذلك الرأي لم يكن أبعد من فرضيّة لم تثبت بشكل قانون علميّ ، وأنّ الحكم بها في هذه الحال أمر مرفوض من الناحية الفلسفيّة ، وأنّها من جهة أُخرى غير مقبولة أيضاً لظهور القرآن الكريم ، بل لصراحته بشأن خلقة الإنسان وبيانه لخلق آدم وزوجه من الطين .

على أنّ هذا البحث الكلاميّ في اعتبار البعض للّه سبحانه مقابل الطبيعة أمر خاطئ ، فالله سبحانه وملائكة السماء المدبّرون للأُمور هم في طول عالم الطبيعة ، بل إنّ عالم الطبيعة هو عين ظهور الله وأثره ، لا انفكاك

١ـ مجّلة «كيهان فرهنگى» العدد ٥٢ ، تير ماه ١٣٦٧ش . ق ، رقم ٤ ، مقالة «بسط وقبض تئوريك شريعت» للدكتور عبد الكريم سروش ، ص ١٧ ، العمودان الثاني والثالث.

بينها . ولقد قدّم الأُستاذ العلّامة قدّس الله نفسه بحوثاً قيّمة وثمينة في هذه المسائل التوحيديّة في التفسير والحكمة ، حريّ بجميع الحكماء والفلاسفة والمتكلّمين أن ينحو نحوها وينهلوا من معينها ؛ وعندها ، فمن سيكون نيوتن والفخر الرازيّ ؟! فضلاً عن ذِكر كوفيه وباستور .

إنّ مسألة مشابهة الإنسان لبعض أصناف الحيوانات في الخلقة الطبيعيّة هي موضوع معيّن ، ومسألة أصالة الحيوانات وكونها أساساً في بدء خلقة الإنسان موضوع آخر ، ولا يمكن استخدام الأوّل للعبور إلى الثاني واستنتاجه .

فالإنسان لا يشبه فقط بعض الحيوانات في جهاز الدورة الدمويّة وتركيب الهيكل العظميّ وغيرها ، بل إنّ له شبهاً من ناحية أوسع وأعمّ مع جميع الحيوانات ، وحتّى مع جميع النباتات ، وانتهاءً بجميع الجمادات . فله شبه في أحكام الذرّات والإلكترونات مع جميع الموجودات المادّيّة .

وقد ورد في القرآن الكريم :

وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ.[1]

وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ.[2]

بل يشترك الإنسان مع جميع الحيوانات النباتات في نوع واحد من النفس الكلّيّة ، أي أنّ له مشابهة ومشاركة في الطبيعة والحياة والنفس مع

١ـ الآية ٤٥ ، من السورة ٢٤ : النور .

٢ـ الآية ٣٨ ، من السورة ٦ : الأنعام .

الجميع ؛ لكنّ هذا لا يصحّ أن يكون دليلاً لكونه قد ولد ونشأ منها .

وما أورده داروين في كتابه «النشوء والارتقاء» ليس أكثر من المشاهدة المجرّدة بشأن البنية الطبيعيّة .

يقول داروين :

إنّ أحد أدلّتي هو تشابه البنيّة الطبيعيّة ، لأنّ بدن الإنسان قد رُكِّب من وجهة النظر الكلّيّة على مثال أجساد الحيوانات الثديّة الأُخرى ، فللهيكل العظميّ الإنسانيّ شبيه ونظير هو هيكل القرد والخفّاش وعجل البحر مثلاً . وينسحب هذا التماثل والتشابه على العضلات والأعصاب والأوعية الدمويّة والأمعاء والأحشاء الداخليّة ومخّ الإنسان ودماغه ، ويشترك الإنسان مع الحيوانات ـ مضافاً إلى ما ذكرنا ـ في قابليّة العدوى والإصابة بالميكروبات المعدية لبعض الأمراض ، كداء الكلب والجدري والسفلس والكوليرا[١] وغيرها . وهي دليل قطعيّ على شدّة التشابه بينه وبين الحيوانات في الدم والأنسجة بلحاظ دقّة التركيب والبناء .

وفوق ذلك فإنّ القرود تشبه الإنسان في تعرّضها للإصابة بالزكام ، والصداع ، والصرع ، والتهاب الأمعاء ، ومرضي سائل قزحيّة العين ، والحمّى .

كما أنّ للأدوية والعقاقير الطبّيّة نفس التأثير على كِلا الإنسان والقرد ، وبملاحظة أنّ لبعض أنواع القرود رغبة شديدة لشرب الشاي والقهوة والمشروبات الروحيّة المسكرة ، وبملاحظة الآلام والعوارض العصبيّة التي تصيبها إثر السكر ، فإنّه يتّضح جيّداً شدّة مشابهتها للإنسان

١ـ **الكوليرا** وباء يصيب بعض المناطق الحارّة ، ولا يسبّب موت المصاب ، بل يسبّب القيء والإسهال ، ويكثر في مناطق إفريقيا.

حتّى في الذوق والحسّ العامّ بالنسبة للأشياء .

كذلك فإنّ بعض البثور والانتفاخات الجلديّة الخارجيّة والداخليّة التي تظهر في الإنسان هي من نفس جنس تلك التي تظهر في سائر الحيوانات الثدييّة ، وتدلّ على شدّة التشابه بين الإنسان والحيوانات الراقية ، وخاصّة مع القرود ، وذلك في عموم البنية ، ودقّة الأنسجة ، والتركيب الكيميائيّ .[1]

وما نُقل في بيانات أئمّة المسلمين وعلمائهم من التشابه بين الإنسان والقرد يفوق بكثير ما نُقل عن داروين ، لكنّهم مع ذلك لم يحكموا بالاتّصال وعلاقة الولادة بينهما .

وقد ورد في كتاب «التوحيد» الذي أملاه **الإمَامُ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ الصَّادِقِ** عليه السلام على **المُفَضَّلِ بْنِ عُمَرَ الجُعْفِيِّ** :

تَأَمَّلْ خَلْقَ القِرْدِ[2] وَشَبَهَهُ بِالإنْسَانِ فِي كَثِيرٍ مِنْ أَعْضَائِهِ ، أَعْنِي الرَّأْسَ وَالوَجْهَ وَالمَنْكِبَيْنِ وَالصَّدْرَ ؛ وَكَذَلِكَ أَحْشَاؤُهُ شَبِيهَةٌ أَيْضاً بِأَحْشَاءِ الإنْسَانِ ؛ وَخُصَّ مَعَ ذَلِكَ بِالذِّهْنِ وَالفِطْنَةِ الَّتِي بِهَا يَفْهَمُ عَنْ سَائِسِهِ مَا يُومِي إلَيْهِ .

وَيَحْكِي كَثِيراً مِمَّا يَرَى الإنْسَانَ وَيَفْعَلُهُ ، حَتَّى أَنَّهُ يَقْرُبُ مِنْ خَلْقِ الإنْسَانِ وَشَمَائِلِهِ فِي التَّدْبِيرِ فِي خِلْقَتِهِ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ عِبْرَةً لِلْإنْسَانِ فِي نَفْسِهِ . فَيَعْلَمُ أَنَّهُ مِنْ طِينَةِ البَهَائِمِ وَسَنْخِهَا إذْ كَانَ يَقْرُبُ مِنْ خَلْقِهَا هَذَا القُرْب ، وَلَوْلَا أَنَّهُ فَضِيلَةٌ فَضَّلَهُ بِهَا فِي الذِّهْنِ وَالعَقْلِ وَالنُّطْقِ ،

١ـ «نقد فلسفة داروين» (= نقد فلسفة داروين) لابن المجد الشيخ محمّد رضا الإصفهانيّ ، ج ١ ، ص ٥١ و ٥٢ ، طبعة ١٣٣١ هـ ق .

٢ـ **قِرْد** بكسر القاف وسكون الراء ، وجمعه **قِرَدَة** بكسر القاف وفتح الراء المهملة ، يجمع أيضاً **قُرُود** ، و**قِرْدَة** بكسر القاف وسكون الراء ، وجمعها **قِرْد** . انظر («حياة الحيوان» للدميريّ) .

كَانَ كَبَعْضِ البَهَائِمِ.

عَلَى أَنَّ فِي جِسْمِ القِرْدِ فُضُولاً أُخْرَى يُفَرِّقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الإنْسَانِ، كَالخَطْمِ وَالذَّنْبِ المُسْدَلِ وَالشَّعْرِ المُجَلِّلِ لِلْجِسْمِ كُلِّهِ.

وَهَذَا لَمْ يَكُنْ مَانِعاً لَلْقِرْدِ أَنْ يَلْحَقَ بِالإنْسَانِ لَوْ أُعْطِي مِثْلَ ذِهْنِ الإنْسَانِ وَعَقْلِهِ وَنُطْقِهِ، وَالفَصْلُ الفَاصِلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الإنْسَانِ بِالصِّحَّةِ هُوَ النَّقْصُ فِي العَقْلِ وَالذِّهْنِ وَالنُّطْقِ.[1]

وقد أورد الدميريّ في «حياة الحيوان»:

والقرد حيوان قبيح مليح ذكيّ سريع الفهم يتعلّم الصنعة. حكي أنّ ملك **النَّوْبَة** أهدى إلى المتوكّل (الخليفة العبّاسيّ) قرداً خيّاطاً وآخر صائغاً، وأهل اليمن يعلّمون القردة القيام بحوائجهم، حتّى أنّ القصّاب والبقّال يعلّم القرد حفظ الدكّان حتّى يعود صاحبه، ويُعلّمه السرقة فيسرق.

وهذا الحيوان شبيه بالإنسان في غالب حالاته، فإنّه يضحك ويطرب ويغنّي ويحكي ويتناول الشيء بيده، وله أصابع مفصّلة إلى أنامل وأظافر، ويقبل التلقين والتعليم ويأنس بالناس، ويمشي على أربع مشية المعتاد ويمشي على رجليه حيناً يسيراً، ولشفر عينيه الأسفل أهداب وليس ذلك لشيء من الحيوان سواه وهو كالإنسان، وإذا سقط في الماء غرق كالآدميّ الذي لا يحسن السباحة.

ويأخذ نفسه بالزواج والغيرة على الإناث وهما خصلتان من مفاخر الإنسان. وإذا زاد به الشبق استمنى بفيه، وتحمل الأُنثى أولادها كما تحمل المرأة.

١ـ «بحار الأنوار» للعلّامة المجلسيّ، كتاب السماء والعالم، ج ١٤، ص ٦٦٦ و٦٦٧، طبعة الكمبانيّ؛ وفي الطبعة الحروفيّة (الحديثة): ج ٦٤، ص ٥٩.

ومن قبول التأديب والتعليم ما لا يخفى . ولقد دُرِّبَ قرد ليزيد على ركوب الحمار وسابق به مع الخيل ، وفيه يقول يزيد لمّا سبق بأتان ركبها فرساً :

مَن مُبْلِغُ القِرْدِ الَّذِي سَبَقَتْ بِهِ جَــوَادَ أَمِــيرِ المُـؤْمِنِينَ أَتَـانُ
تَعَلَّقْ أَبَـا قُشٍّ بِـهَا إنْ رَكِـبْتَهَا فَلَيْسَ عَلَيْهَا إنْ هَلَكْتَ ضَمَانُ[1]

وروى **ابن عَدِيّ** في كامله عن أحمد بن طاهر بن حرملة ، ابن أخي حرملة بن يحيى ، أنّه قال : رأيتُ **بالرَّمْلَة** قرداً يصوغ ، فإذا أراد أن ينفخ أشار إلى رجل حتّى ينفخ له . وفي ترجمة محمّد بن يوسف المنكدر عن جابر رضي الله تعالى عنه ، قال :

إنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كَانَ إذَا رَأَى القِرْدَ خَرَّ سَاجِداً .[2]

١ـ ذكر المسعوديّ في «مروج الذهب» ج ٣ ، ص ٦٧ و ٦٨ ، طبعة دار الأندلس ، أنّ كنية قرد يزيد **أبا قيس** ، ونسب هذين البيتين إلى بعض شعراء الشام ، يقول:

وغلب على أصحاب يزيد وعمّاله ما كان يفعله من الفسوق ، وفي أيّامه ظهر الغناء بمكّة والمدينة ، واستعملت الملاهي ، وأظهر الناس شرب الشراب ، وكان له قرد يكنّى بأبي قيس يحضره مجلس منادمته ويطرح له متّكأ ، وكان قرداً خبيثاً ، وكان يحمله على أتان وحشيّة قد ريضت وذلّلت بسرج ولجام ويسابق بها الخيل يوم الحلبة ، فجاء في بعض الأيّام سابقاً فتناول القصبة ودخل الحجرة (حجرة يزيد) قبل الخيل ، وعلى أبي قيس قباء من الحرير الأحمر والأصفر مشمّر ، وعلى رأسه قلنسوة من الحرير ذات ألوان بشقائق ، وعلى الأتان سرج من الحرير الأحمر منقوش ملمّع بأنواع من الألوان ، فقال في ذلك بعض شعراء الشام في ذلك اليوم:

تَمَسَّكْ أَبَـا قَـيْسٍ بِـفَضْلِ عِـنَانِهَا فَلَيْسَ عَلَيْهَا إنْ سَـقَطَتْ ضَـمَانُ
أَلَا مَنْ رَأَى القِرْدَ الَّذِي سَبَقَتْ بِهِ جِـيَادَ أَمِـيرِ المُـؤْمِنِينَ أَتَـانُ ؟

٢ـ هذه الرواية سندها ضعيف ؛ ويمكن على تقدير صحّتها أن يكون سجود النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم لعظمة مقام الإنسان عند الله سبحانه مع إمكانه أن يخلقه كالقرد قبيح المنظر وخبيث الأخلاق ، لكنّه تعالى خلقه إنساناً وشرّفه بشرف تكليف **وَعَـلَّمَ ءَادَمَ**

واستشهد صاحب «المستدرك» بهذه الرواية قبيل صلاة الجمعة، كما روى **البيهقيّ** عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أيضاً بمعناها، وفي لفظه أنّ النبيّ صلّى الله عليه [وآله] وسلّم، قال: لا تشوبوا اللبن بالماء، فإنّ رجلاً فيمن كان قبلكم كان يبيع اللبن ويشوبه بالماء، فاشترى قرداً وركب البحر، حتّى إذا لجج فيه ألهم الله القرد صرّة الدنانير فأخذها، وصعد الدقل[1] ففتح الصرّة وصاحبها ينظر إليها، فأخذ ديناراً فرمى به في البحر وديناراً في السفينة حتّى قسمها نصفَين، فألقى ثَمَن الماء في البحر وثمن اللبن في السفينة.[2]

ومهما بالغ داروين في المشابهة الجسميّة والمعنويّة للإنسان مع القرد، فلن تصل أقواله إلى مستوى أقوال رسائل **إخوان الصفا** في قولهم:

أَمَّا القِرْدُ فَلِقُرْبِ شَكْلِ جِسْمِهِ مِنْ جَسَدِ الإنْسَانِ صَارَتْ نَفْسُهُ تُحَاكِي النَّفْسَ الإنْسَانِيَّةِ.[3]

نعم فليس من البعيد على الغربيّين ـ الذين لا يمتلكون فلسفة صائبة ولا كتاباً صحيحاً ـ أن يلتزموا بنظريّة تبدّل الأنواع وانتهاء نسل الإنسان إلى القرد، ولكنّ العجب أن يتقبّل ذلك المسلم الذي قد كان له في البرهان والحكمة أمثال ابن سينا والفارابيّ والملّا صدرا، والذي ينهى كتابُه المتقن الأصيل بندائه السماويّ على الدوام عن متابعة التخمين والحدس والظنّ، وعن القول بغير علم ولا دليل قطعيّ. فمن العجب أن يخسر شخصيّته

ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا. ووهبه العقل وجعله خليفته.

١ـ جاء في «أقرب الموارد» أنّ **الدَّقَل** هو خشبة طويلة تنصب في وسط السفينة يُشدّ بها الشراع.

٢ـ «حياة الحيوان» للدميريّ، مادّة قرد، انظر: ج ٢ ص ٢٠٠ إلى ٢٠٢، طبعة مصر.

٣ـ «نقد فلسفهٔ داروين» بالفارسيّة، ج ١، ص ٥٤.

وينهار دفعة واحدة إثر أفكار تجربيّة ونظريّات غير ثابتة لم يقم الدليل على صحّتها ، فيعتقد بمدرسة التصوّر ويبيع الحقائق بثمن بخس ، ويحاول بتشكيل مقدّمات وهميّة الحصول على نتيجة قطعيّة ، لأنّ ذلك طريق لا يسلكه الحكماء ولا يرتضيه المتشرّعون والملتزمون بنهج القرآن الكريم .

مطايبة : كان لي بحث يوماً ما مع أحد القائلين بانتهاء نسل الإنسان إلى القرد ، فجاوز الحدّ في إصراره وإبرامه عقيدته ، ولم يكن دليله في دعواه غير هذه التصوّرات والأوهام الخياليّة التي تحدّثنا عنها في هذا الكتاب ، وقد رفضتُ بكلّ قوّة وثبات مقولته ، وأشرتُ إلى مواضع الخطأ فيها .

وحصل أن صادفتهُ أيضاً في مجلس آخر ، ففاجأته بالقول : أيّها السيّد !لقد ثبت عندي أنّ الناس على صنفَين :

الصنف الأوّل : أُولئك الذين هم من بين البشر ظاهراً وباطناً .

والثاني : أُولئك الذين هم من بني البشر ظاهراً ، ومن نسل القرود باطناً .

فردّ قائلاً : لقد كنتم تقولون بخلاف هذا ، وتذكرون أنّ الآية الأُولى من سورة النساء صريحة في أنّ جميع أفراد البشر من نسل واحد ، وينتهون جميعاً إلى نفس واحد. وزوجها (آدم وحوّاء) !

أجبتُ : والآن أيضاً عقيدتي كذلك ، لكنّ إصراركم الزائد على رجوع نسلكم إلى القرد أوجد شبهة عندي ، أن تكونوا حقيقة قرداً تلبّس بلباس إنسان !

ضحك ، وقال : يبدو أنّ السيّد يريد الإنعام عَلَيَّ بلقب جديد ؟

أجبتُ : كلّا ، فهذه هي الحقيقة التي اعترفتم وأقررتم بها ؛ ولَدَيَّ

شواهد لإثبات كلامكم وادّعائكم .

تساءل : أيّ شواهد ؟!

قلتُ : **الأوّل** قاعدة : **كُلُّ شَيْءٍ يَرْجِعُ إِلَى أَصْلِهِ** ، فلو لم يكن أصلكم من القرود ، فمن أين لكم هذا التعلّق بالأجداد المحترمين ؟!

الثاني : وجوب حفظ النسب ، فحرام في الإسلام أن ينتمي الرجل إلى غير أبيه ويدّعي نسباً غير نسبه . لذا ، فقد التزمتم بهذا الأمر لحفظ شجرة نسبكم .

الثالث : وجوب صلّة الرحم . فصلة الرحم واجبة في الإسلام ، وقطع الرحم حرام ، ولقد شاء سيادتكم للصلة مع قرود العالم وعدم قطع الرحم معها أن تحفظوا مراتب الوداد والاتّصال هذه .

هَنِيئاً لَكُمْ وَشَكَّرَ اللهُ مَسَاعِيَكُمْ . ولا ضير على هذا إن راجعتم يوماً دائرة الجنسيّة والأحوال المدنيّة وانتخبتم لنفسكم أحد الألقاب المناسبة ، مثلاً : **حفيد القرود ، وَلَد النسناس ،**[1] **شامبانزي النسب** ... .

ونُنهي الكلام في الردّ على مقالة «بسط وقبض تئوريك شريعت» ؛ ومع سعينا الشديد لعدم الإطالة ، فإنّ الكلام ـ في عشرة إشكالات أساسيّة على المقالة المذكورة ـ قد طال ، ولم يكن من ذلك بدّ ، لأنّ آثار المقالة شديدة الخطورة والضرر ، وكان من الضروريّ بيان مواضع الشبهة والمغالطة والخلط ، وتجلية الاشتباهات فيها .

وكانت الإشكالات العشرة هي المواضع التي ظهر فيها الخلط في هذه المقالة جليّاً واضحاً ، وقد غضضنا الطرف ـ لضيق المجال ـ عن الأخطاء والعثرات الأُخرى لقلّة أهمّيّتها عمّا ذكرناه من إشكالات ، ويمكن

١ـ في «أقرب الموارد» مادّة **نَسْنَسَ : النَّسْنَاس** ، من معانيه : نوع من القرود.

للمطالعين الأجلّاء مطالعة أصل المقالة التي طُبعت في عددَين[1] ليكتشفوا مواضع الخطأ والمغالطات الأُخرى .

لقد اعتبرت فريضة على نفسي ـ على الرغم من ضعف حالتي الصحيّة ومقتضيات الشيخوخة ، وكثرة الشواغل العلميّة ـ إدراج هذه المطالب مع الأبحاث القرآنيّة الحاضرة ، ليراها الإخوة الذين يطالعون تلك المقالات ، فينقذوا القرآن من مظلوميّته .

فلقد طعنت هذه المقالة في القرآن الكريم ، وفي حجّيّته ، وفي خلوده ، وطعنت في جميع مقدّسات العالم وحقائقه ، وتبنّت روح كتابات الشكّاكين والسوفسطائيّين وأتباع هيغل ، هادفة من وراء ذلك جرّ الشريعة والقرآن إلى الانزواء والعزلة . وقد طرحت هذه المقالة مسألة فصل فهم الشريعة عن الشريعة نفسها ، بدعوى أنّ الشريعة أمر صامت لا يُنال ، أمّا القابل لنيل البشر ووصولهم فهو فهمنا عن الشريعة ، ولأنّه يمثّل فهمنا نحن فهو أمر نسبيّ ومتغيّر وعابر . وبهذا الترتيب فإنّ التغيّر الحاصل في العلوم الحديثة سيغيّر من فهمنا للشريعة ، هذا التغيّر الذي لا يتنافى مع ثبات الشريعة ، تلك الشريعة التي تختفي كالعنقاء خلف جبل قاف فلا يصل إليها أحد ، وكلّما قيل وكُتب عنها فهو بيان لهذا الفهم وليس الشريعة نفسها . فهذا الفصل إنّما هو التزام بهدم الشريعة وإنكار لأصلها ، وإنكار للخالق ، وإنكار للقرآن ، وإنكار للسنّة المحمّديّة .

ومن الأُمور التي تبعث على الأسى والأسف الشديد أن يكتب ذلك

١ـ مجّلة «كيهان فرهنگى» العددان ٥٠ و٥٢ ، أُرديبهشت ١٣٦٧ش . ق ، رقم ٢ ، ص ١٢ إلى ١٨ ؛ وتير ماه ١٣٦٧ش . ق ، رقم ٤ ، ص ١٢ إلى ١٨ ، مقالة «بسط وقبض تئوريك شريعت»، نظريّة «تكامل معرفت ديني».

الرجل الأجنبيّ الزنديق ـ سلمان رشدي ـ في إنجلترا التى تعتبر مركزاً ضدّ الاسلام كتاباً باسم «**الآيات الشيطانيّة**» ، ثمّ تكتب في بلد الإسلام ومهد التشيّع بعد عشر سنين من الثورة الإسلاميّة العظيمة مقالة مماثلة لذلك الكتاب ، من كاتب يعدّ نفسه معلّماً وفيلسوفاً ومن أهل التحقيق والمطالعة .[1]

وقد ذكرتُ هذا لتعلموا أنّ هؤلاء جميعاً يرتوون من نبع واحد ؛ أي من جامعات الفلسفة وعلم الاجتماع وأمثالها التي تقام هناك ، في حين يُصرف شبابنا بتأثير الدعايات الصارخة المزوّرة عن دراسة العلوم الحقّة ، فيولّون وجوههم شطر الصوب الآخر ، فينشأون ويتربّون وينهون دراساتهم في تلك المجتمعات ، ثمّ تكون النتيجة ظهور ثمرات فجّة كهذه . فحين تزاح الفلسفة الإسلاميّة الأصيلة جانباً فيدرّس بدلها في الجامعات الفلسفة الغربيّة ، فلن يتوقّع ويُنتظر في النتيجة شيء غير هذا .

فما معنى تعلّم الإلهيّات من فم الشيطان ! وما معنى تلقّي الفلسفة من أفواه الزنادقة ؟ لقد كان صدر المتألّهين الشيرازيّ يوصي بتعلّم فلسفته وتلقّيها من الأفراد النزيهين العابدين المتهجّدين . فقارنوا ذلك بالفلسفة التي تدرّس في الجامعات المقتصرة على الكلام عن **كانت** و**ديكارت** و**راسل** و**فرويد** وأمثالهم . أيصنع هذا الأُسلوب من الطالب موحّداً عارفاً بالله ؟!

إنّ احترام القرآن وإكرامه يتمثّل بالبحث والتحقيق والتدقيق فيه ، وبقراءته وحفظه وتفسيره والتدبّر فيه ، فالقرآن سيكون إذ ذاك حيّاً ،أمّا إذا

١ـ سقط هذا المقطع من الجزء الثاني من كتاب «نور ملكوت القرآن» ـ النسخة الفارسيّة، أثناء إخراج الكتاب قبل تهيئته للطبع.

انصرف طلّاب العلوم عن حفظ القرآن ومزاولته ولم يعدّوا تفسيره والتدبّر فيه من أهمّ الأُمور ، فإنّ كتاب الله سيُهجر شيئاً فشيئاً ، وسيأخذ الآخذُ كلّ آية منه فيعنونها ويفسّرها بما يشاء فيجعلها وفق مراده وتبع هواه ، وهو أمر أعظم وأخطر على القرآن من حرب اليمامة التي فقد فيها المسلمون في دفعهم غائلة **مُسَيْلَمَة الكَذَّاب** أربعمائة أو سبعمائة من قرّاء القرآن ، وأوشك كتاب الله ـ بذهاب حامليه ـ على الزوال من وجه العالم كلّيّاً .

لم يملك المتجّددون من ذوي الثقافة الغربيّة الذين باعوا دينهم وضمائرهم القدرة على إنكار القرآن ، فذلك ما يخالف مصالحهم ، لذا فقد عمدوا ـ مع تعظيمهم وإجلالهم الظاهريّ له ـ إلى إيجاد شبهة وتأويل خاطئ له ، وإلى صرف ظواهر الآيات بلا شاهد ولا دليل عن معانيها ، وإلى عرض الاتّجاهات والمدارس الفكريّة الكثيرة مقابل القرآن ، وعرض الآراء ووجهات النظر الكثيرة مقابل المقولة الأحمديّة والسنّة المحمّديّة ، سعياً منهم إلى استئصال جذوره ، أو على الأقلّ أن يظهروا هذه التحفة السماويّة والكتاب الربّانيّ الذي **لَا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ** [1] لدى الدارسين والتلامذة الجدد من ذوي الخبرة القليلة ، ككتاب واهٍ ضئيل القدر ، أوكالتوراة والإنجيل محرّف غير مصون .

ولو فعلوا لقطعوا الشريان الحيويّ الأصليّ للإنسان المسلم ، ولمزّقوا وتين قلبه ، ولأوقعوا بالعقل الإسلاميّ المفكّر ضربة قاسية ، ولبقيت تلك البراعم الفتيّة من الدارسين والتلامذة إلى آخر درسهم وتحصيلهم ، بل إلى آخر عمرهم ، ينظرون بهذا المنظار إلى الكتاب الإلهيّ ويقرنونه بأنياب الأغوال وأساطير الأوّلين .

١ـ الآية ٤٢ ، من السورة ٤١ : فصّلت .

ويتّضح من سرّ هذا المطلب لماذا كان معاندو القرآن يتعمّدون منع الناس في كلّ زمان من البحث والتدقيق في الحقائق والتفسير والتأويل ، والتبحّر في شأن نزول الآيات وفي سيرة وسنّة ونهج رسول الله الذي نزل على صدره القرآن ، ولماذا كانوا يردعون الناس عن ذلك فلا يدعونهم يستفيدون من هذه الموهبة العظيمة ، أو يفكّرون بالأصالة والتعمّق وبُعد النظر التي يدعو إليها القرآن إلّا قليلاً .

فالقرآن يعبر بالإنسان من العلوم الجزئيّة إلى العلوم الكلّيّة حيث لا اعتبار هناك للمجاز .

يروي **أبان** عن **سُلَيم بن قيس الهلاليّ** ، وعن عمر بن أبي سَلِمَة ، وحديثهما واحد ، أنّهما قالا :

قدم معاوية حاجّاً في خلافته المدينة بعدما قُتِل أمير المؤمنين صلوات الله عليه وصالحَ الحسن عليه السلام (وفي رواية أُخرى وبعدما مات الحسن عليه السلام) فاستقبله أهل المدينة ، فنظر فإذا الذي استقبله من قريش أكثر من الأنصار ، فسأل عن ذلك فقيل : إنّهم محتاجون ليست لهم دوابّ .

فالتفت معاوية إلى **قَيْس بْنِ سَعْدِ بْنِ عُبَادَة** فقال : يا معشر الأنصار ! ما لكم لا تستقبلوني مع إخوانكم من قريش ؟!

فقال **قَيْس** ـ وكان سيّد الأنصار وابن سيّدهم ـ أقعدنا يا أمير المؤمنين أن لم تكن لنا دوابّ .

قال **مُعاوية** : **فَأَيْنَ النَّوَاضِحُ ؟!** (الناضح : البعير الذي يُستقى عليه ؛ يعيب معاوية في كلامه على الأنصار بأنّهم سوقة ضِعاف)

ولم يكن هذا الكلام محتملاً عند الصحابيّ الجليل المجاهد في سبيل الله **قَيْسِ بْنِ سَعْدٍ** ، أحد أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام وشيعته

وخاصّته ، فانبرى له وردّ عليه قائلاً :

أَفْنَيْنَاهَا يَوْمَ بَدْرٍ وَيَوْمَ أُحُدٍ وَمَا بَعْدَهُمَا مِنْ مَشَاهِدِ رَسُولِ اللَهِ صَلَّى اللَهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، حِينَ ضَرَبْنَاكَ وَأَبَاكَ عَلَى الإسْلَامِ حَتَّى ظَهَرَ أَمْرُ اللَهِ وَأَنْتُمْ كَارِهُونَ.

قال معاوية : **اللَهُمَّ غَفْراً !**

قال قيس : **أَمَا إنَّ رَسُولَ اللَهِ صَلَّى اللَهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ : سَتَرَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً.**

ثمّ قال : يا معاوية ! تعيّرنا بنواضحنا ! والله لقد لقيناكم عليها يوم بدر وأنتم جاهدون على إطفاء نور الله وأن تكون كلمة الشيطان هي العليا ، ثمّ دخلتَ أنت وأبوك كرهاً في الإسلام الذي ضربناكم عليه .[1]

فقال معاوية : كأنّك تمنّ علينا بنصرتك إيّانا ؟ فللّه ولقريش بذلك المنّ والطول . ألستم تمنّون علينا يا معشر الأنصار بنصرتكم رسول الله وهو من قريش وهو ابن عمّنا ومنّا ؟ فلنا المنّ والطول أن جعلكم الله أنصارنا وأتباعنا فهداكم بنا !

فقال **قيس** : إنّ الله بعث **محمّداً** صلّى الله عليه وآله وسلّم رحمة

١ـ ينقل الشيخ محمود أبو ريّة في كتاب «شيخ المضيرة ، أبو هريرة الدوسيّ» ص ١٧٢ ، الطبعة الثانية ، نظير هذا السؤال والإجابة عن معاوية وأبي قتادة الأنصاريّ ، عن «الاستيعاب» ج ١ ، ص ١٦١ ، طبعة الهند ، بأنّه لمّا قدم معاوية المدينة لقيهُ أبو قتادة الأنصاريّ ، فقال له معاوية : تلقّاني الناس كلّهم غيركم معشر الأنصار ، ما منعكم؟ قال: لم يكن معنا دوابّ . فقال معاوية : **أَيْنَ النَّوَاضِحُ ؟!** قال أبو قتادة : **عَقَرْنَاهَا فِي طَلَبِكَ وَطَلَبِ أَبِيكَ يَومَ بَدْرٍ !** قال : **نَعَمْ يَا أَبَا قَتَادَة.**

وممّا قاله أبو قتادة لمعاوية يومئذٍ : إنّ رسول الله قال لنا : **إنَّا سَنَرَى بَعْدَهُ أَثَرَةً.** قال معاوية: **فَمَا أَمَرَكُمْ عِنْدَ ذَلِكَ ؟** قال : **أَمَرَنَا بِالصَّبْرِ.** قال : **اصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْهُ!**

للعالمين فبعثه إلى الناس كافّة ، وإلى الجنّ والإنس ، والأحمر والأسود والأبيض . اختاره لنبوّته واختصّه برسالته ، فكان أوّل من صدّقه وآمن به ابن عمّه **عليّ بن أبي طالب** عليه السلام .

و**أبوطالب** يذبّ عنه ويمنعه ويحول بينه وبين كفّار قريش وبين أن يردعوه أو يؤذوه .

ثمّ ينقل قيس فضائل ومناقب أمير المؤمنين عليه السلام ومشاهده ، وقصّة آية الإنذار وقصّة العشيرة ، ثمّ يصل إلى قول النبيّ الأكرم : فقال : **أَيُّكُمْ يَنْتَدِبُ أَنْ يَكُونَ أَخِي وَوَزِيرِي وَوَصِيِّي وَخَلِفَتِي فِي أُمَّتِي وَوَلِيَّ كُلِّ مُؤْمِنٍ بَعْدِي ؟!**

فسكت القوم حتّى أعادها ثلاثاً ، فقال عليّ عليه السلام : **أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ ! صَلَّى اللهُ عَلَيْكَ .**

فَوَضَعَ رَأْسَهُ فِي حِجْرِهِ وَتَفَلَ فِي فَمِهِ وَقَالَ : اللَهُمَّ امْلَأْ جَوْفَهُ عِلْماً وَفَهْماً وَحُكْماً .

ثُمَّ قَالَ لِأَبِي طَالِبٍ : يَا أَبَا طَالِبٍ ! اسْمَعِ الآنَ لِابْنِكَ وَأَطِعْ فَقَدْ جَعَلَهُ اللهُ مِنْ نَبِيِّهِ بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى !

وآخى صلّى الله عليه وآله وسلّم بين عليّ وبين نفسه .

فلم يدع قيس شيئاً من مناقبه إلّا ذكرها واحتجّ بها على معاوية مفحماً له ، ثمّ أشار إلى جعفر بن أبي طالب الطيّار ، وإلى تزويج فاطمة سلام الله عليها ، ثمّ ذكر ارتحال رسول الله واجتماع الأنصار في سقيفة بني ساعدة للبيعة **لسعد بن عبادة** وهو أبي **قيس** ، فقال :

فَجَاءَتْ قُرَيْشٌ فَخَاصَمُونَا بِحُجَّةِ عَلِيٍّ وَأَهْلِ بَيْتِهِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَخَاصَمُونَا بِحَقِّهِ وَقَرَابَتِهِ . فَمَا يَعْدُوا قُرَيشٌ أَنْ يَكُونُوا ظَلَمُوا الأَنْصَارَ وَظَلَمُوا آلَ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ . وَلَعَمْرِي مَا لِأَحَدٍ مِنَ الأَنْصَارِ وَلَا لِقُرَيْشٍ

وَلَا لِأَحَدٍ مِنَ العَرَبِ وَالعَجَمِ فِي الخِلَافَةِ حَقٌّ مَعَ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَوُلْدِهِ مِنْ بَعْدِهِ.

فغضب معاوية وقال : يا بن سعد ! عمّن أخذتَ هذا ؟ وعمّن رويتَه ؟ وعمّن سمعتَه ؟ أبوك أخبرك بذلك وعنه أخذته ؟

فقال قيس : سمعتُه وأخذتُه ممّن هو خيرٌ من أبي وأعظم عَلَيَّ حقّاً من أبي .

قال : مَن ؟!

قال قيس : **عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ** ، عالم هذه الأُمَّة وصدِّيقها الذي أنزل الله فيه : **قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَـٰبِ.**[1]

فلم يدع (قيس) آية نزلت في عليّ إلّا ذكرها .

قال معاوية : فإنّ صدِّيقها أبو بكر ، وفاروقها عمر ، والذي عنده علم الكتاب عبد الله بن سلام .

قال قيس : أحقّ هذه الأسماء وأولى بها الذي أنزل الله فيه :

أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ.[2]

والذي نصبه رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بغدير خمّ ، فقال : **مَنْ كُنْتُ أَوْلَى بِهِ مِنْ نَفْسِهِ فَعَلِيٌّ أَوْلَى بِهِ مِنْ نَفْسِهِ** . وفي غزوة تبوك : **أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي.**

وكان معاوية يومئذٍ بالمدينة ، فعند ذلك نادى مناديه وكتب بذلك نسخة إلى عمّاله : ألا بَرِأت الذمّة ممّن روى حديثاً في مناقب عليّ وأهل

١ـ ذيل آلآية ٤٣ ، من السورة ١٣ : الرعد .

٢ـ صدر الآية ١٧ ، من السورة ١١ : هود .

بيته . وقامت الخطباء في كلّ كورة ومكان على المنابر بلعن عليّ بن أبي طالب عليه السلام والبراءة منه والوقيعة في أهل بيته عليهم السلام واللعنة لهم بما ليس فيهم عليهم السلام .

ثمّ إنّ معاوية مرّ بحلقة من قريش فلمّا رأوه قاموا إليه غير عبد الله **ابن عبّاس** ، فقال له : يا بن عبّاس ! ما منعك من القيام كما قام أصحابك إلّا لموجدة عَلَيَّ بقتالي إيّاكم يوم صفّين ؟ يابن عبّاس ! إنّ ابن عمّي عثمان قتل مظلوماً .

قال ابن عبّاس : فعمر بن الخطّاب قد قُتل مظلوماً ،[1] فسلّم الأمر إلى ولده ؛ وهذا ابنه !

قال معاوية : إنّ عمر قتله مشرك . قال ابن عبّاس : فمن قتل عثمان ؟

قال : قتله المسلمون . قال : فذلك أدحض لحجّتك وأحلّ لدمه ، إن كان المسلمون قتلوه وخذلوه فليس إلّا بحقّ .

قال معاوية : فإنّا كتبنا في الآفاق ننهى عن ذكر مناقب عليّ وأهل بيته ، فكفّ لسانك يابن عبّاس واربع على نفسك .

فقال ابن عبّاس : فتنهانا عن قراءة القرآن ؟! قال : لا .

فقال ابن عبّاس : فتنهانا عن تأويله وتفسيره ؟! قال : نعم .

فقال ابن عبّاس : فنقرأه ولا نسأل عمّا عنى الله به ؟! قال : نعم .

فقال ابن عبّاس : فأيّما أوجب علينا قراءته أو العمل به ؟ قال : العمل به .

قال ابن عبّاس : فكيف نعمل به حتّى نعلم ما عنى الله بما أنزل

١ـ جاء في هامش «كتاب سُليم» : إنّما قال ابن عبّاس هذا الكلام ليحجّ به معاوية الذي يعتقد أن عمر قُتل مظلوماً ، وإلّا فليس من رأى ابن عبّاس ذلك.

علينا ؟! قال : سَلْ عن ذلك من يتأوّله على غير ما تتأوّله أنت وأهل بيتك .

قال ابن عبّاس : إنّما أُنزل القرآن على أهل بيتي ، فأسأل عنه آل أبي سفيان وآل أبي معيط واليهود والنصارى والمجوس ؟! قال معاوية : فقد عدلتنا بهم ؟

قال ابن عبّاس : ما أعدلك بهم إلّا إذا نهيتَ الأُمّة أن يعبدوا الله بالقرآن وبما فيه من أمر ونهي ، أو حلال أو حرام ، أو ناسخ أو منسوخ ، أو عامّ أو خاصّ ، أو محكم ، أو متشابه ، وإن لم تسأل الأُمّة عن ذلك هلكوا واختلفوا وتاهوا .

قال معاوية : فاقرأوا القرآن ولا ترووا شيئاً ممّا أنزل الله فيكم وما قال رسول الله وارووا ما سوى ذلك .

قال ابن عبّاس : قال الله تعالى في القرآن :

يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ .[1]

قال معاوية : يا بن عبّاس ! اكفني نفسك وكفّ عنّي لسانك ، وإن كنتَ فاعلاً فليكن سرّاً ولا تُسمعه أحداً علانية .

ثمّ رجع إلى منزله فبعث إليه بخمسين ألف درهم . (وفي رواية أُخرى مائة ألف درهم) .

ثمّ اشتدّ البلاء بالأمصار كلّها على شيعة عليّ وأهل بيته عليهم السلام ، وكان أشدّ الناس بليّة أهل الكوفة لكثرة من بها من الشيعة .

واستعمل عليها زياداً ، ضمّها إليه مع البصرة وجمع له العراقَين . وكان يتبع الشيعة وهو بهم عالم ، لأنّه كان منهم قد عرفهم وسمع كلامهم

١ـ الآية ٣٢ ، من السورة ٩ : التوبة .

أوّل شيء ، فقتلهم تحت كلّ كوكب وتحت حجر ومدر ، وأجلاهم وأخافهم ، وقطع الأيدي والأرجل منهم ، وصلبهم على جذوع النخل ، وسمل أعينهم وطردهم وشرّدهم .

حتّى انتزعوا عن العراق فلم يبقَ بها أحد منهم إلّا مقتول أو مصلوب أو طريد أو هارب .[1]

ولقد استمرّ لعن أمير المؤمنين عليه السلام من على المنابر وفي الخطب ما يقرب من خمسين سنة ، حتّى صدر أمر بتركه سنة ٩٩ هجريّة في خلافة عمر بن عبد العزيز .

ولقد سوّدت فجائع بني أُميّة صفحات التأريخ ، وكانوا في الحقيقة شياطين وقفوا في وجه نور الحقيقة النبويّة وسرّ الولاية العلويّة ، ولو طالعنا أساليبهم وتأمّلنا في حالاتهم لتجلّى أمامنا مفاد الآية الكريمة :

وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا.[2]

١ـ هذه الرواية مرويّة في «كتاب سُليم بن قيس الهلاليّ» أحد أعيان الشيعة الثقات، والمؤرّخ الأمين الذي يروي عن سلمان وأبي ذرّ وبعض الأصحاب الآخرين . أدرك الإمام زين‌العابدين عليه السلام ، وتوفّي سنة ٩٠ هجريّة خائفاً هارباً . وهي مرويّة في كتابه، ص ١٩٩ إلى ٢٠٤. وقد نقلها عنه علماء كثيرون ، كالعلّامة المجلسيّ في «بحار الأنوار»؛ والشيخ سليمان القندوزيّ في «ينابيع المودّة» باب ٣٠ ، ص ١٠٤ ، الطبعة الأُولى، إسلامبول؛ والمحدّث القمّيّ في «منتهى الآمال» ج ١ ، ص ١٧٢.

يقول الإمام الصادق عليه السلام بشأن «كتاب سُليم» : **مَنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ مِنْ شِيعَتِنَا وَمُحِبِّينَا كِتَابُ سُلَيْم بْنِ قَيْسٍ الهِلَالِيِّ ، فَلَيْسَ عِنْدَهُ مِنْ أَمْرِنَا شَيءٌ وَلَا يَعْلَمُ مِنْ أَسْبَابِنَا شَيْئَاً وَهُوَ أَبْجَدُ الشِّيْعَةِ ؛ وَهوَ سِرٌّ مِنْ أَسْرَارِ آلِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ .** (مقدّمة «كتاب سُليم» ص ١١ ، عن «البحار» ، و« سفينة البحار » ج ١ ، ص ٦٥١ ، الطبعة الحجريّة).

٢ـ الآية ٣١ ، من السورة ٢٥ : الفرقان .

وهكذا فقد استمرّت محاربة القرآن من بدء نزوله حتّى يومنا هـذا ، واتّخذت كلّ يوم شكلاً خاصّاً ونهجاً جديداً ؛ ولم يكـن لحـروب الكـفّار والمشركين من قريش وغيرها مع رسول الله من هدف غير القـضاء عـلى القرآن ومنعه من التربّع على منصّة الهداية .

ولو قسّمنا الغزوات السبعين التي حصلت خلال إقامة رسول الله فـي المدينة على زمن إقامته فيها لشاهدنا أنّ الرسول الأكرم كان مُـجبراً عـلى الخـروج للحـرب بمعدّل مرّة واحدة كلّ شـهرين دفاعاً عن القرآن وصوناً له . ثمّ اتّخذ الدفاع عن القرآن في زمن أمير المؤمنين عـليه السـلام شكـلاً ونهجاً آخر ، فقد جسّد معاوية في سـلوكه الخـبث والفسـاد والانـحطاط ، وأظهر نوايا أبيه أبي سفيان الذي أورد المصائب والويلات على المسلمين في حروب بدر وأُحد والأحزاب وغيرها بلباس آخر فنفّذها بحذافيرها .

كانت أهداف معاوية هدم أركان الإسلام وهدم القـرآن تـحت لواء الإسلام وباسم القرآن، وهذه السيرة كانت أكثر عمقاً وأكبر أثراً من حروب أبيه (أبي سفيان) .

هذا المجرم والشيطان المحتال الماكر ذو الدسائس الذي رأيناه يردّ على قول قيس بن سعد «ضربناك وأباك على الإسلام حـتّى ظـهر أمـر اللـه وأنتم كارهون» بقوله : **اللَهُمَّ غَفْراً !** فيصبح عارفاً بالله طالباً غفرانـه . وفـي الوقت الذي يتخاذل أمام احتجاج ابن عبّاس واستدلاله المتين فـي حـقّانيّة مظلوميّة أمير المؤمنين عليه السلام و غصْبه للخلافة ، فـيصدر أمـراً بـلعنه وسبّه ويكتب بذلك إلى البلدان ، نراه يرجع إلى بيته بعد هذا الكلام فيبعث إلى ابن عبّاس خمسين ألف درهم ثمناً لسكوته ؛ ثـمّ يكـتب إلى البـلدان ـ تبعاً لسـيرة عمر وسنّته ـ أن يقرأوا القرآن ولا يفسّـروه ، وأن لا يرووا من النبيّ حديثاً . فهو الآخر قد حارب القرآن وتصدّى له .

إنّ الروايات والأحاديث الواردة عن الرسول الأكرم في تفسير القرآن هي حقيقة القرآن ، ولقدكان أُولئك واقفين على أنّ أحاديث رسول الله ستفضح جنايتهم وخيانتهم على رؤوس الأشهاد ، فكان أن منعوا من الحديث والرواية . لقد كانوا يقرؤون القرآن ولكن بلا معنى ولا محتوى ، وبلا فهم ولا دراية ، فعرش حكومتهم لم يكن ليستقرّ مع الفهم والدراية . ولأنّ القرآن هو كتاب العلم والتعقّل ، فإنّ الأمر بعدم تفسيره وشرح معانيه في جميع المواردكان أمراً بهدمه وإلغائه .

لكنّ الله سبحانه وعد بحفظ قرآنه وصونه عن التحريف الظاهريّ والباطنيّ : **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ**.[1]

مصطفى را وعده داد ألطاف حقّ گر بميرى تو نميرد اين سَبَق[2]
من كتاب و معجزت را خافضم[3] بيش و كم كن را ز قرآن رافضم
من تو را اندر دو عالم رافعم طاغيان را از حديثت دافعم
كس نتاند بيش و كم كردن در او تو به از من حافظى ديگر مجو[4]

١ـ الآية ٩ ، من السورة ١٥ : الحجر .

٢ـ كتاب تعليم الأطفال .

٣ـ **الخفض** : عمود الخباء ، أي أنّني أصون كتابي ومعجزاتي بأن أجعل لها ما يُقيمها كما يقيم الخيمةَ عمودُها.

٤ـ «مثنوي» للروميّ ، ج ٣ ص ٢٢٣ ، طبعة الميرزا المحموديّ ؛ وفي طبعة الميرخانيّ : ص ٢٣١ و ٢٣٢.

يقول : «لقد وعد الحقّ بلطفه مصطفاه ، إنّ كتاب الهداية هذا لن يموت بموتك.
فأنا الحامي للكتاب والمعجزات من أن تنالها يد الزيادة والنقصان.
وأنا رافعك في العالمَين ، وصارفٌ عن حديثك الطغاة.
فسيقصرون عن الزيادة فيه أو النقصان ، فلا تبغِ منّي بعد هذا حافظاً.

رونــقت را روز روز افـزون کـنم نــام تــو بـر زرّ و بـر نـقره زنـم
مــنبر و مــحراب سـازم بـهر تـو در محبّت قهر مـن شـد قـهر تـو
نـام تـو از تـرس پـنهان مـی‌برند چون نـماز آرنـد پـنهان بگـذرند
خُــفیه مـی‌گویند نـامت را کـنون خُفیه هم بانگ نماز ای ذو فـنون
از هــراس و تــرس کـفّار لعـین دینت پنهان مـی‌شود زیـر زمـین
مــن مــناره بــر کـنم آفـاق را کـور گـردانـم دو چشـم عـاق را
چـاکـرانت شـهرها گـیرند وجـاه دین تو گیرد ز مـاهی تـا بـه مـاه
تــا قــیامت بــاقیش داریــم مــا تو مترس از نسخ دین ای مصطفی
ای رسـول مـا تـو جـادو نـیستی صـادقی ، هـم خـرقهٔ مـوسیستی
هست‌قرآن مر تو را همچون عصا کــفرها را در کشـد چـون اژدهـا
تو اگر در زیـر خـاکـی خـفته‌ای چون عصایش دان تو آنچه گفته‌ای
گر چه باشی خفته تو در زیر خاک چون عصا آگه بود آن گفت پاک [1]

---

١ - يقول: «وسأزيد شهرتك يوماً بعد آخر ، وأكتب اسمك على الذهب والفضّة.
ولقد جعلت المنبر والمحراب لأجلك ، ففي المحبّة صار قهري قهرك.
فهم يهمسون باسمك خوفاً ، وإن صلّوا صلّوا متسترّين متكتّمين.
وهم الآن يهمسون باسمك همساً ، ويؤذّنون للصلاة خفية.
فدينك من خوف الكفّار اللعناء ، تستّر تحت الأرض واختفى.
لكنّي سأطبق الآفاق منائراً برغم أنف عدوّك العاصي.
وسيفتح أتباعك المدن وينالون الجاه والسلطة ، وسينتشر دينك من بلد إلى بلد.
فسنحفظه قائماً إلى يوم القيامة ، فلا تخف من نسخه أيّها المصطفى.
يا رسولنا ! لست بساحر كما يزعمون ، بل صادق أنت كموسى.
والقرآن لديك كعصاه ، يلقف الكفر كما يفعل الثعبان المبين.
وإن أنت رقدت تحت التراب ، فاعلم أنّ كلماتك معجزة باقية كعصاه.
ومهما غفوت أنت تحت التراب ، فكلامك المطهّر يقظ كعصا موسى».

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ * وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ.[1]

فهذه الآيات صريحة في خلود القرآن الكريم ، وأبديّة الولاية ، أي حرّاسه والقائمون على صيانته ، ولقد استمرّت أعمال المواجهة والدسائس على مقصود رسول الله وهدفه ، وعلى قوانين القرآن وأحكامه ، لكنّ نور الله غالب قاهر ،و هو سبحانه لا يُخلف وعده ؛ فينهض مثل الحسين عليه السلام ليهدم بنهضته العظيمة الباهرة للعقول عرش يزيد المستكبر ، ويُخمد إلى الأبد نعراته الأنانيّة . ولقد جسّد الحسين عليه السلام الأُنموذج الحيّ والمثال الجليّ لهدف جدّه رسول الله وأبيه عليّ المرتضى وأُمّه فاطمة الزهراء وأخيه الحسن المجتبى في بُيوتٍ : **أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ * رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ.**[2]

يقابله في الجانب الآخر يزيد اللعين مثال الغرور والأنانيّة والتكبّر

١ـ الآيات ٥٢ إلى ٥٥ ، من السورة ٢٢ : الحجّ .

٢ـ الآيتان ٣٦ و ٣٧ ، من السورة ٢٤ : النور .

والتمرّد ، بقدرته الجهنّميّة والشيطانيّة التـي أخـضعت الشـرق والغـرب ،[1] يزيد المعلن لشرب الخمور ، الساهر ليله في مجالس الخـمر والسكـر مـع المغنيّات ، الناكح للمحارم ، اللاعب بالقرود ؛ ولم يكن ليفعل هذا لوحده ، بل إنّ شرب الخمر والسكر والتغنّي صار رائجاً في عهده ، حتّى كان عمّاله في الحرمَين الشريفَين **مكّة والمدينة** يتجاهرون بشرب الخـمر ويـعقدون مجالـس اللهو واللعب على مرأى من المسـلمين ومسـمع . وكـان خـراج المسلمين والضرائب المستحصلة منهم يُصرف في هذه المطامع ، في حين ساد الفقر والفاقة بين الضعفاء والمساكين فغلب عليهم ، حتّى لم يبقَ لهم ما يستروا به عوراتهم ، ولا ما يبلغوا به كفافهم ويسدّوا به رمقهم .

للّه الحمد وله الشكر أن يصل هذا الكتاب ، وهو «نظرة على مقالة

١ـ يقول المستشار عبد الحليم الجنديّ ـوهو من أركان المـجلس الأعـلى للشـؤون الإسلاميّة في مصرـ في كتابه النفيس « الإمام جعفر الصادق » ص ٥٢ : أنهى يزيد سنوات حكمه بتجريد جيش على المدينة يسفك دمها ، وينتهك حرمها ، في وقعة الحرّة سنة ٦٣ ليقتل فيها ثمانين من صحابة الرسول ، فلم يبق بعدهم على ظهر الأرض بدريٌّ واحد ! وقتل من قريش والأنصار ثمانمائة ! ومن الموالي والتابعين وسائر الناس عشرة آلاف ، ثمَّ لفظ آخر أنفاسه وجيشه يحاصر الكعبة بعد أن أحرقها ! وأيّ نهاية لبشر أفظع من هذه النهاية ! بل أيّ نهاية لدولة أبلغ في الدلالة على غضب السماء عليها !

فما كان حرق الكعبة ولا قتل الصحابة وتذبيح آلآلاف إلاّ تتابعاً للأحداث التي بدأ بها السنوات الثلاث . وختماً طبيعيّاً للبداية المفظعة لحكمه ، وجزاء له ولدولته ، يـنزله بـها وبنفسه. لقد استفتح حكمه بجريمة كربلاء في يوم عاشوراء ! في العاشر من المحرّم سنة ٦١ ، فوقع فيها ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت مثله أو قريباً منه ، من استشهاد أبي الشهداء: الحسين بن عليّ الذي دعا له النبيّ : **اللَهُمَّ إِنِّي أُحِبُهُ ، فَأُحِبُّ مِنْ يُحِبُّهُ** ، والذي عظّمه الخلفاء الراشدون والناس جميعاً على مدار العصور ، وهو القدوة في عـطائه وعـبادته وتـواضـعه وشجاعته في كلّ موقف : في الجمل وصفّين والنهروان إلى جوار أمير المؤمنين عليّ .

بسط وقبض نظريّة الشـريعة للـدكتور عـبد الكـريم سـروش» مـن القسـم السادس لدورة العلوم والمعارف الإسلاميّة دون أيّ تغيير أساسيّ عمّا جاء في الجزء الثاني من كتاب «**نور ملكوت القرآن**» ، وتمّ ختامه بحمد الله ومنّه على يد الفقير السيّد محمّد الحسين الحسينيّ الطهرانيّ غَفَرَ اللَّهُ ذُنُوبَهُ وَوَفَّقَهُ لِمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ في يوم الجمعة ، الرابع عشر من شهر محرّم الحرام ، فـي سنة ألف وأربعمائة وخمسة عشر من الهجرة النبويّة على مهاجرها آلافُ التحيّةِ والإكرام ، في المدينة المقدّسة للمشهد الرضويّ على ثـاويه آلافُ التحيّة والإكرام .

اللَهُمَّ صَلِّ عَلَى المُصْطَفَى مُـحَمَّدٍ ، والمُـرْتَضَى عَـلِيٍّ ، وَالبَـتُولِ فَاطِمَةَ ، وَالسِّبْطَينِ الحَسَنِ وَالحُسَيْنِ ؛ وَعَلَى زَيْنِ العَابِدِينَ عَلِيٍّ ، والبَاقِرِ مُحَمَّدٍ ، وَالصَّادِقِ جَعْفَرٍ ، وَالكَاظِمِ مُوسَى ، وَالرِّضَا عَلِيٍّ ، وَالتَّقِيِّ مُحَمَّدٍ ، وَالنَّقِيِّ عَلِيٍّ ، وَالزَّكِيِّ العَسْكَرِيِّ الحَسَنِ ، وَصَلِّ عَلَى الهَادِي المَـهْدِيِّ ، صَاحِبِ الزَّمَانِ ، وَخَلِيفَةِ الرَّحْمَنِ ، وَقَاطِعِ البُرْهَانِ ، وَإمَامِ الإنْسِ وَالجَانِّ ، صَلَوَاتُكَ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ .